ووقع الحق مجملا والحوالة في بيانه على ما هو متعارف بين الناس وعلى ما يبينه النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن. وقد أطلق عليها اسم الزكاة في آيات مكية كثيرة، وقرنت بالصلاة؛ فالمراد بها في تلك الآيات الصدقة الواجبة وكانت غير مضبوطة بنصب ثم ضبطت بأصناف ونصب ومقادير مخرجة عنها. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإن الزكاة حق المال . وإنما ضبطت بعد الهجرة فصار ما عداها من الصدقة غير واجب. وقصر اسم الزكاة على الواجبة وأطلق على ما عداها اسم الصدقة أو البر أو نحو ذلك، فجماع حق هؤلاء الثلاثة المواساة بالمال، فدل على أن ذلك واجب لهم. وكان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بفرض الزكاة، ثم إن لكل صنف من هؤلاء الثلاثة حقا؛ فحق ذي القربى يختلف بحسب حاجته؛ فللغني حقه في الإهداء تودادا، وللمحتاج حق أقوى. والظاهر أن المراد ذو القرابة الضعيف المال الذي لم يبلغ به ضعفه مبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحق، وبقرينة مقابلته بقوله) لتربوا في أموال الناس(على أحد الاحتمالات في تفسيره. وأما إعطاء القريب الغني فلعله غير مراد هنا وليس مما يشمله لفظ) حقه(وإنما يدخل في حسن المعاملة المرغب فيها.

وحق المسكين: سد خلته. وحق ابن السبيل: الضيافة كما في الحديث جائزته يوم وليلة والمقصود إبطال عادة أهل الجاهلية إذ كانوا يؤثرون البعيد على القريب في الإهداء والإيصاء حبا للمدحة، ويؤثرون بعطاياهم السادة وأهل السمعة تقربا إليهم، فأمر المسلمون أن يتجنبوا ذلك قال تعالى)كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف(، كما تقدم في سورة البقرة.

ولذلك عقب بقوله هنا)ذلك خير للذين يريدون وجه الله(، أي الذين يتوخون بعطاياهم إرضاء الله وتحصيل ثوابه وهم المؤمنون.

والإشارة بقوله)ذلك خير(إلى الإيتاء المأخوذ من قوله)فئات ذات القربى حقه(الآية.

وذكر الوجه هنا تمثيل كأن المعطي أعطى المال بمرأى من الله لأن الوجه هو محل النظر. وفيه أيضا مشاكلة تقديرية لأن هذا الأمر أريد به مقابلة ما كان يفعله أهل الجاهلية من الإعطاء لوجه

المعطى من أهل الوجاهة في القوم فجعل هنا الإعطاء لوجه الله. والمراد: أنه لامتثال أمره وتحصيل رضاه.
واسم الإشارة في قوله)ذلك خير(للتنويه بالمأمور به. و)خير(يجوز أن يكون تفضيلا والمفضل عليه مفهوم من السياق أن ذلك خير من صنيع أهل الجاهلية الذين يعطون الأغنياء البعداء للرياء والسمعة، أو المراد ذلك خير من بذل المال في المراباة التي تذكر بعد في قوله)وما آتيتم من ربا(الآية.
ويجوز أن يكون الخير ما قابل الشر، أي ذلك فيه خير للمؤمنين، وهو ثواب الله.
وفي قوله)وأولئك هم المفلحون(صيغة قصر من أجل ضمير الفصل، وهو قصر إضافي، أي أولئك المتفردون بالفلاح، وهو نجاح عملهم في إيتاء من ذكر لوجه الله تعالى لا للرياء والفخر. فمن آتى للرياء والفخر فلا فلاح له من إيتائه.
)وما آتيتم من ربا لتربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون[39](لما جرى الترغيب والأمر ببذل المال لذوي الحاجة وصلة الرحم وما في ذلك من الفلاح أعقب بالتزهيد في ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضى الله تعالى به وكان الربا فاشيا في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وخاصة في ثقيف وقريش. فلما أرشد الله المسلمين إلى مواساة أغنيائهم فقراءهم أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم، فإن المعاملة بالربا تنافي المواساة لأن شأن المقترض أنه ذو خلة، وشأن المقرض أنه ذو جدة فمعاملته المقترض منه بالربا افتراص لحاجته واستغلال لاضطراره، وذلك لا يليق بالمؤمنين.
و)ما(شرطية تفيد العموم، فالجملة معترضة بعد جملة)فئات ذا القربى حقه(الخ. والواو اعتراضية. ومضمون هذه الجملة بمنزلة الاستدراك للتنبيه على إيتاء مال هو ذميم. وجيء بالجملة شرطية لأنها أنسب بمعنى الاستدراك على الكلام السابق. فالخطاب للمسلمين الذين يريدون وجه الله الذين كانوا يقرضون بالربا قبل تحريمه.

ومعنى)آتيتم(: آتى بعضكم بعضا لأن الإيتاء يقتضي معطيا وآخذا. وقوله)لتربوا في أموال الناس(خطاب للفريق الآخذ.

و)لتربوا(لتزيدوا، أي لأنفسكم أموالا على أموالكم. وقوله)في أموال الناس( )في(للظرفية المجازية بمعنى)من(الابتدائية، أي لتنالوا زيادة وأرباحا تحصل لكم من أموال الناس، فحرف)في(هنا كالذي في قول سبرة الفقعسي:

ونشرب في أثمانها ونقامر أي نشرب ونقامر من أثمان إبلنا.

وتقدم بيانه عند قوله تعالى)وارزقوهم فيها واكسوهم(في سورة النساء.

و)من(في قوله)من ربا(وقوله)من زكاة(بيانية مبينة لإبهام) ما(الشرطية في الموضعين. وتقدم الربا في سورة البقرة.

وقوله)فلا يربوا عند الله(جواب الشرط. ومعنى)فلا يربو عند الله(أنه عمل ناقص عند الله غير ذاك عنده، والنقص يكنى به عن المذمة والتحقير.

وهذا التفسير هو المناسب لمحمل لفظ الربا على حقيقته المشهورة، ولموافقة معنى قوله تعالى)يمحق الله الربا ويربي الصدقات(، ولمناسبة ذكر الإضعاف في قوله هنا)فأولئك هم المضعفون(وقوله)لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة(في سورة آل عمران. وهذا المعنى مروي عن السدي والحسن. وقد استقام بتوجيهه المعنى من جهة العربية في معنى)في(من قوله)في أموال الناس(.

ويجوز أن يكون لفظ)ربا(في الآية أطلق على الزيادة في مال لغيره، أي إعطاء المال لذوي الأموال قصد الزيادة في أموالهم تقربا إليهم، فيشمل هبة الثواب والهبة للزلفى والملق. ويكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك لا يغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئا وإنما نفعه لأنفسهم. ودرج على هذا المعنى جم غفير من المفسرين فيصير المعنى: وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس، وتصير كلمة) لتربوا(توكيدا لفظيا ليعلق به قوله)في أموال الناس(.

وقوله)وما آتيتم من زكاة(الخ رجوع إلى قوله)فئات ذا القربى حقه(الآية لأن ذلك الحق هو المسمى بالزكاة.

وجملة)فأولئك هم المضعفون(جواب)وما آتيتم من زكاة(، أي فمؤتوه المضعفون، أي أولئك الذين حصل لهم الإضعاف وهو إضعاف الثواب. وضمير الفصل جنس المضعفين على هؤلاء، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بإضعاف من عداهم لأن إضعاف من عداهم إضعاف دنيوي زائل.

واسم الإشارة في قوله)فأولئك هم المضعفون(للتنويه بهؤلاء والدلالة على أنهم أحرياء بالفلاح. واسم الإشارة إظهار في مقام الإضمار اقتضاه مقام اجتلاب اسم الإشارة.

وقرأ الجمهور)أتيتم(بهمزتين، أي أعطيتم. وقرأه ابن كثير)
أتيتم(بهمزة واحدة، أي قصدتم، أي فعلتم.
وقرأ الجمهور)ليربو(بتحتية مفتوحة وفتحة إعراب على واو)ليربو(.
وكتب في المصاحف بألف بعد الواو وليس واو الجماعة بالاتفاق،
ورسم المصحف سنة، وقرأ نافع)لتربوا(بتاء الخطاب مضمومة وواو
ساكنة هي واو الجماعة.
)الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من
شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما
يشركون[40](هذا الاستئناف الثاني من الأربعة التي أقيمت عليها
دلائل انفراد الله تعالى بالتصرف في الناس وإبطال ما زعموه من
الإشراك في الإلهية كما أنبأ عنه قوله)هل من شركائكم من يفعل
من ذلكم من شيء(، وإدماجا للاستدلال على وقوع البعث.
وقد جاء هذا الاستئناف على طريقة قوله)الله يبدأ الخلق ثم
يعيده(واطرد الافتتاح بمثله في الآيات التي أريد بها إثبات البعث
كما تقدم عند قوله تعالى)الله يبدأ الخلق ثم يعيده(، وسيأتي في
الآيتين بعد هذه.
و)ثم(مستعمل في معنيي التراخي الزمني والرتبي.
و)هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء(استفهام إنكاري
في معنى النفي ولذلك زيدت)من(الدالة على تحقيق نفي الجنس
كله في قوله)من شيء(. والمعنى: ما من شركائكم من يفعل شيئا
من ذلكم.
ف)من(الأولى بيانية هي بيان للإبهام الذي في)من يفعل(، فيكون
)من يفعل(مبتدأ وخبره محذوف دل عليه الاستفهام، تقديره: حصل،
أو وجد، أو هي تبعيضية صفة لمقدر، أي هل أحد من شركائكم.

و)من(الثانية في قوله)من ذلكم(تبعيضية في موضع الحال)من
شيء(. و)من(الثالثة زائدة لاستغراق النفي.
وإضافة)شركاء(إلى ضمير المخاطبين من المشركين لأن
المخاطبين هم الذين خلعوا على الأصنام وصف الشركاء لله فكانوا
شركاء بزعم المخاطبين وليسوا شركاء في نفس الأمر، وهذا جار
مجرى التهكم، كقول خالد بن الصعق لعمرو بن معد يكرب في
مجمع من مجامع العرب بظاهر الكوفة فجعل عمرو يحدثهم عن
غاراته فزعم أنه أغار على نهد فخرجوا إليه يقدمهم خالد بن
الصعق وأنه قتله، فقال له خالد بن الصعق مهلا أبا ثور قتيلك

يسمع ، أي القتيل بزعمك. والقرينة قوله)يسمع(، كما أن القرينة في هذه الآية هي جملة التنزيه عن الشريك.
والإشارة ب)ذلكم(إلى الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، وهي مصادر الأفعال المذكورة. وأفرد اسم الإشارة بتأويل المذكور.
وجملة)سبحانه وتعالى عما يشركون(مستأنفة لإنشاء تنزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية. وموقعها بعد الجملتين السابقتين موقع النتيجة بعد القياس، فإن حاصل معنى الجملة الأولى أن الإله الحق وهو مسمى اسم الجلالة هو الذي خلق ورزق ويميت ويحيي، فهذا في قوة مقدمة هي صغرى قياس، وحاصل الجملة الثانية أن لا أحد من الأصنام بفاعل ذلك، وهذه في قوة مقدمة هي كبرى قياس وهو من الشكل الثاني، وحاصل معنى تنزيه الله عن الشريك أن لا شيء من الأصنام بإله. وهذه نتيجة قياس من الشكل الثاني.
ودليل المقدمة الصغرى إقرار الخصم، ودليل المقدمة الكبرى العقل.
وقرأ الجمهور)تشركون(بفوقية على الخطاب تبعا للخطاب في) آتيتم(. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
)ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون[41](موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فأما موقعها فيجوز أن تكون متصلة بقوله قبلها)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم(الآيات، فلما طولبوا بالإقرار على ما رأوه من آثار الأمم الخالية، أو أنكر عليهم عدم النظر في تلك الآثار، أتبع ذلك بما أدى إليه طريق الموعظة من قوله)الله يبدأ الخلق ثم يعيده(، ومن ذكر الإنذار بعذاب الآخرة، والتذكير بدلائل الوحدانية ونعم الله تعالى، وتفريع استحقاقه تعالى الشكر لذاته ولأجل إنعامه استحقاقا مستقرا إدراكه في الفطرة البشرية، وما تخلل ذلك من الإرشاد والموعظة، عاد الكلام إلى التذكير بأن ما حل بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلا بما كسبت أيديهم، أي بأعمالهم، فيوشك أن يحل مثل ما حل بهم بالمخاطبين الذين كسبت أيديهم مثل ما كسبت أيدي أولئك.
فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع النتيجة من مجموع الاستدلال أو موقع الاستئناف البياني بتقدير سؤال عن سبب ما حل بأولئك الأمم.

ويجوز أن تقع هذه الآية موقع التكملة لقوله)وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم(الآية، فهي خبر مستعمل في التنديم على ما حل بالمكذبين المخاطبين من ضر ليعلموا أن ذلك عقاب من الله تعالى فيقلعوا عنه خشية أن يحيط بهم ما هو أشد منه، كما يؤذن به قوله عقب ذلك)لعلهم يرجعون(. فالإتيان بلفظ الناس في قوله)بما كسبت أيدي الناس(إظهار في مقام الإضمار لزيادة إيضاح المقصود، ومقتضى الظاهر أن يقال)بما كسبت أيديهم(. فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك، فكان من جراء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطلت التجارة وقلت الأقوات بمكة والحجاز كما يقتضيه سوق هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة ب)غلبت الروم(.

فموقع هذه الجملة على هذا الوجه موقع الاستئناف البياني لسبب مس الضر إياهم حتى لجأوا إلى الضراعة إلى الله، وما بينها وبين جملة)وإذا مس الناس ضر(إلى آخره اعتراض واستطراد تخلل في الاعتراض.

صفحة : 3252

ويجوز أن يكون موقعها موقع الاعتراض بين ذكر ابتهال الناس إلى الله إذا أحاط بهم ضر ثم إعراضهم عن عبادته إذا أذاقهم منه رحمة وبين ذكر ما حل بالأمم الماضية اعتراضا ينبئ أن الفساد الذي يظهر في العالم ما هو إلا من جراء اكتساب الناس وأن لو استقاموا لكان حالهم على صلاح.

والفساد: سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودل قوله)في البر والبحر(على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها.

ثم التعريف في)الفساد(: إما أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين، وإما أن يكون تعريف الجنس الشامل لكل فساد ظهر في الأرض برها وبحرها أنه فساد في أحوال البر والبحر، لا في أعمال الناس بدليل قوله)ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون(.

وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به،

وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب ، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس. وقيل: أريد بالبر البوادي وأهل الغمور وبالبحر المدن والقرى، وهو عن مجاهد وعكرمة وقال: إن العرب تسمي الأمصار بحرا. قيل: ومنه قول سعد بن عبادة في شأن عبد الله بن أبي بن سلول: ولقد أجمع أهل هذه البحرة على أن يتوجوه .

يعني بالبحرة مدينة يثرب وفيه بعد.

وكأن الذي دعا إلى سلوك هذا الوجه في إطلاق البحر أنه لم يعرف أنه حدث اختلال في سير الناس في البحر وقلة فيما يخرج منه. وقد ذكر أهل السير أن قريشا أصيبوا بقحط وأكلوا الميتة والعظام، ولم يذكروا أنهم تعطلت أسفارهم في البحر ولا انقطعت عنهم حيتان البحر، على أنهم ما كانوا يعرفون بالاقتيات من الحيتان.

وعلى هذه الوجوه الثلاثة يكون الباء في قوله)بما كسبت أيدي الناس(للعوض، أي جزاء لهم بأعمالهم، كالباء في قوله تعالى)وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم(، ويكون اللام في قوله) ليذيقهم(على حقيقة معنى التعليل.

ويجوز أن يكون المراد بالفساد الشرك قاله قتادة والسدي فتكون هذه الآية متصلة بقوله)الله الذي خلقكم ثم رزقكم(إلى قوله)هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء(، فتكون الجملة إتماما للاستدلال على وحدانية الله تعالى تنبيها على أن الله خلق العالم سالما من الإشراك، وأن الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم، وهذا معنى قوله في الحديث القدسي في صحيح مسلم إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فأجالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي الحديث.

فذكر البر والبحر لتعميم الجهات بمعنى: ظهر الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البر والواقعة في الجزائر والشطوط، ويكون الباء في قوله)بما كسبت أيدي الناس(للسببية، ويكون اللام في قوله)ليذيقهم بعض الذي عملوا(لام العاقبة، والمعنى: فأذقناهم بعض الذي عملوا، فجعلت لام العاقبة في موضع الفاء كما في قوله تعالى)فالتقطه أل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(، أي فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم.

ويجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فكانت وشائج لأمثالها:

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم قال تعالى)لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات(، وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء ومحمل اللام مثل محملهما على الوجه الرابع.

وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشبه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفيا.

ومحمل صيغة فعل)ظهر(على حقيقتها من المضي يقتضي أن الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل، فيكون إشارة إلى فساد مشاهد أو محقق الوقوع بالأخبار المتواترة. وقد تحمل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد والإنذار به فكأنه قد وقع على طريقة) أتى أمر الله(.

صفحة : 3253

وأياما كان الفساد من معهود أو شامل، فالمقصود أن حلوله بالناس بقدرة الله كما دل عليه قوله)ليذيقهم بعض الذي عملوا(، وأن الله يقدر أسبابه تقديرا خاصا ليجازي من يغضب عليهم على سوء أفعالهم.

وهو المراد بما كسبت أيديهم لأن إسناد الكسب إلى الأيدي جرى مجرى المثل في فعل الشر والسوء من الأعمال كلها، دون خصوص ما يعمل منها بالأيدي لأن ما يكسبه الناس يكون بالجوارح الظاهرة كلها، وبالحواس الباطنة من العقائد الضالة والأدواء النفسية.

و)ما(موصولة، وحذف العائد من الصلة، وتقديره: بما كسبته أيدي الناس، أي بسبب أعمالهم. وأعظم ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة الإشراك وهو المقصود هنا وإن كان الحكم عاما. ويعلم أن مراتب ظهور الفساد حاصلة على مقادير ما كسبت أيدي الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسئل: أي الذنب أعظم؟ أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، وقال تعالى)وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم(وقال)وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا(.

ويجري حكم تعريف)الناس(على نحو ما يجري في تعريف) الفساد(من عهد أو عموم، فالمعهود هم المشركون وقد شاع في القرآن تغليب اسم)الناس(عليهم.

والإذاقة: استعارة مكنية؛ شبه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم.

ولما كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه تعين أن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء، فالمراد بعض الجزاء على جميع العمل لا الجزاء على بعض العمل، أي أن ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقونه.

وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله تعالى) ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة(، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال تعالى)ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(.

والعدول عن أن يقال: بعض أعمالهم إلى)بعض الذي عملوا(للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدروها منهم.

والرجاء المستفاد من)لعل(يشير إلى أن ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأن حالهم حال من يرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى)او لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون(.

والرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأن الذي عصى ربه عبد أبق عن سيده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع. وفي الحديث لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا دابته عنده .

وقرأ الجمهور)ليذيقهم(بالياء التحتية، أي ليذيقهم الله. ومعاد الضمير قوله)الله الذي خلقكم(. وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة.

)قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين[42](لما وعظهم بما أصابهم من فساد الأحوال ونبههم إلى أنها بعض الجزاء على ما كسبت أيديهم عرض لهم بالإنذار بفساد أعظم قد يحل بهم مثله وهو ما أصاب الذين من قبلهم بسبب ما كانوا عليه من نظير حال هؤلاء في الإشراك فأمرهم بالسير في الأرض والنظر في مصير الأمم التي أشركت وكذبت مثل عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم لأن كثيرا من المشركين قد اجتازوا في أسفارهم بديار تلك الأمم كما قال تعالى)وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون(.

فهذا تكرير وتأكيد لقوله السابق)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم(، وإنما أعيد اهتماما بهذه العبرة مع مناسبة قوله)ليذيقهم بعض الذي عملوا(.
والعاقبة: نهاية الأمر. والمراد بالعاقبة الجنس، وهو متعدد الأفراد بتعدد الذين من قبل، ولكل قوم عاقبة.

صفحة : 3254

وجملة)كان أكثرهم مشركين(واقعة موقع التعليل لجملة)كيف كان عاقبة الذين من قبل(، أي سبب تلك العاقبة المنظورة هو إشراك الأكثرين منهم، أي أن أكثر تلك الأمم التي شوهدت عاقبتها الفظيعة كان من أهل الشرك فتعلمون أن سبب حلول تلك لعاقبة بهم هو شركهم، وبعض تلك الأمم لم يكونوا مشركين وإنما أصابهم ما أصابهم لتكذيبهم رسلهم مثل أهل مدين قال تعالى)أكفاركم خير من أولئكم(.
)فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون[43](تفرع على الإنذار والتحذير من عواقب الشرك تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على شريعته ووعد بأن يأتيه النصر كقوله)واعبد ربك حتى يأتيك اليقين(، مع التعريض بالإرشاد إلى الخلاص من الشرك باتباع الدين القيم، أي الحق. وهذا تأكيد للأمر بإقامة الوجه للدين في قوله)فأقم وجهك للدين حنيفا(، فإن ذلك لما فرع في قوله)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم(، وما اتصل من تسلسل الحجج والمواعظ فرع أيضا نظيره هذا على قوله)قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل(، وقد تقدم الكلام على نظير قوله)فأقم وجهك للدين(وعلى معنى إقامة الوجه عند قوله) فأقم وجهك للدين حنيفا(.
و)القيم(بوزن فيعل، وهي زنة تدل على قوة ما تصاغ منه، أي الشديد القيام، والقيام هنا مجاز في الإصابة لأن الصواب يشبه بالقيام، وضده يشبه بالعوج، وقد جمعهما قوله تعالى)ولم يجعل له عوجا قيما(فوصف الإسلام في الآية السابقة بالحنيف والفطرة ووصف هنا بالقيم. وبين)أقم(و)القيم(محسن الجناس.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر إعراض عن صريح خطاب المشركين. والمقصود التعريض بأنهم حرموا أنفسهم من اتباع هذا الدين العظيم الذي فيه النجاة. يؤخذ هذا التعريض من

أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالدوام على الإسلام ومن قوله عقب ذلك)يومئذ يصدعون(الآية.
والمرد: مصدر ميمي من الرد وهو الدفع، و)له(يتعلق به، و)من الله(متعلق ب)يأتي(و)من(ابتدائية. والمراد باليوم يوم عذاب في الدنيا وأنه إذا جاء لا يرده عن المجازين به راد لأنه آت من الله. والظاهر أن المراد به يوم بدر.
و)يصدعون(أصله يتصدعون فقلبت التاء صادا لتقارب مخرجيهما لتأتي التخفيف بالإدغام. والتصدع: مطاوع الصدع، وحقيقة الصدع: الكسر والشق، ومنه تصدع القدح.
والمراد باليوم يوم الحشر. والتصدع: التفرق والتمايز. ويكون ضمير الجمع عائدا إلى جميع الناس، أي يومئذ يفترق المؤمنون من الكافرين على نحو قوله تعالى)وبوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك في العذاب محضرون(.
)من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون[44] ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين[45](هذه الجملة تتنزل منزلة البيان لإجمال الجملة التي قبلها وهي)فأقم وجهك للدين القيم(، إذ التثبيت على الدين بعد ذكر ما أصاب المشركين من الفساد بسبب شركهم يتضمن تحقير شأنهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فبين ذلك بأنهم لا يضرون بكفرهم إلا أنفسهم، والذي يكشف هذا المعنى تقديم المسند في قوله)فعليه كفره(فإنه يفيد تخصيصه بالمسند إليه، أي فكفره عليه لا عليك ولا على المؤمنين، ولهذا ابتدئ بذكر حال من كفر ثم ذكر بعده)من عمل صالحا(. واقتضى حرف الاستعلاء أن في الكفر تبعة وشدة وضرا على الكافر، لأن) على(تقتضي ذلك في مثل هذا المقام، كما اقتضى اللام في قوله)فلأنفسهم يمهدون(أن لمجرورها نفعا وغنما، ومنه قوله تعالى)لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت(. وقال توبة بن الحمير:

وقد زعمت ليلى بأني فاجـر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وأفرد ضمير)كفره(رعيا للفظ)من(. وهذا التركيب من جوامع الكلم لدلالته على ما لا يحصى من المضار في الكفر على الكافر وأنه لا يضر غيره، مع تمام الإيجاز، وهو وعيد لأنه في معنى: من كفر فجزاؤه عقاب الله، فاكتفي عن التصريح بذلك اكتفاء بدلالة)

على(من قوله)فعليه كفره(وبمقابلة حالهم بحال من عمل صالحا بقوله)ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله(.
وأما قوله)ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون(فهو بيان أيضا لما في جملة)فأقم وجهك للدين القيم(من الأمر بملازمة التحلي بالإسلام وما في ذلك من الخير العاجل والآجل مع ما تقتضيه عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب فهو كالتكملة للبيان.
وإنما قوبل)من كفر(ب)من عمل صالحا(ولم يقابل ب)من آمن(للتنويه بشأن المؤمنين بأنهم أهل الأعمال الصالحة دون الكافرين. فاستغني بذكر العمل الصالح عن ذكر الإيمان لأنه يتضمنه، ولتحريض المؤمنين على الأعمال الصالحة لئلا يتكلوا على الإيمان وحده فتفوتهم النجاة التامة. وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح كما في قوله قبل هذه الآية)ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون(حتى توهمت المعتزلة والخوارج أن العمل الصالح شرط في قبول الإيمان.
وتقديم)فلأنفسهم(على)يمهدون(للاهتمام بهذا الاستحقاق وللرعاية على الفاصلة وليس للاختصاص.
)ويمهدون(يجعلون مهادا، والمهاد: الفراش. مثلت حالة المؤمنين في عملهم الصالح بحال من يتطلب راحة رقاده فيوطئ فراشه ويسويه لئلا يتعرض له في مضجعه من النتوء أو اليبس ما يستفز منامه.
وتقديم)لأنفسهم(على)يمهدون(للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بذكر أنفس المؤمنين لأن قرينة عدم الاختصاص واضحة.
وروعي في جمع ضمير)يمهدون(معنى من دون لفظها مع ما تقتضيه الفاصلة من ترجيح تلك المراعاة.
ويتعلق)ليجزي الذين آمنوا(ب)يمهدون(أي يمهدون لعلة أن يجزي الله إياهم من فضله. وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله) الذين آمنوا وعملوا الصالحات(للاهتمام بالتصريح بأنهم أصحاب صلة الإيمان والعمل الصالح وأن جزاء الله إياهم مناسب لذلك لتقرير ذلك في الأذهان، مع التنويه بوصفهم ذلك بتكريره وتقريره كما أنبأ عن ذلك قوله عقبه)إنه لا يحب الكافرين(.
وقد فهم من قوله)من فضله(أن الله يجازيهم أضعافا لرضاه عنهم ومحبته إياهم كما اقتضاه تعليل ذلك بجملة)إنه لا يحب الكافرين(المقتضي أنه يحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فحصل بقوله)إنه لا يحب الكافرين(تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس

فإن قوله)ليجزي الذين آمنوا(دل بصريحه على أنهم أهل الجزاء بالفضل، ودل بمفهومه على أنهم أهل الولاية.
وقوله)إنه لا يحب الكافرين(يدل يتعليله لما قبله على أن الكافرين محرومون من الفضل، وبمفهومه على أن الجزاء موفور للمؤمنين فضلا وأن العقاب معين للكافرين عدلا.
)ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[46](عود إلى تعداد الآيات الدالة على تفرده بالإلهية فهو عطف على جملة)من آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره(وما تخلل بينهما من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث ومن طرائق الموعظة لتطرية نشاط السامعين لهذه الدلائل الموضحة المبينة.
والإرسال مستعار لتقدير الوصول، أي يقدر تكوين الرياح ونظامها الذي يوجهها إلى بلد محتاج المطر.
والمبشرات: المؤذنة بالخير وهو المطر. وأصل البشارة: الخبر السار. شبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسرة. وتقدم ذكر البشارة عند قوله تعالى)وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات(في سورة البقرة، وقوله)وإذا بشر أحدهم بالأنثى(في سورة النحل، وذلك أن الرياح تسوق سحاب المطر إلى حيث بمطر.
وتقدم الكلام على الرياح في آيات كثيرة منها قوله تعالى) وتصريف الرياح(في سورة البقرة وعلى كونها لواقح في سورة الحجر.

صفحة : 3256

وقوله)وليذيقكم(عطف على)مبشرات(لأن)مبشرات(في معنى التعليل للإرسال. وتقدم الكلام على الإذاقة آنفا.
و)من رحمته(صفة لموصوف محذوف دل عليه فعل)ليذيقكم(أي مذوقا. و)من(ابتدائية، ورحمة الله: هي المطر.
وجريان الفلك بالرياح من حكمة خلق الرياح ومن نعمه، وتقدم في آية سورة البقرة.
والتقييد بقوله)بأمره(تعليم للمؤمنين وتحقيق للمنة، أي لولا تقدير الله ذلك وجعله أسباب حصوله لما جرت الفلك، وتحت هذا معان كثيرة يجمعها إلهام الله البشر لصنع الفلك وتهذيب أسباب سيرها. وخلق نظام الريح والبحر لتسخير سيرها كما دل على ذلك قوله) ولعلكم تشكرون(، وقد تقدم ذلك في سورة الحج، وتقدم هنالك معنى)لتبتغوا من فضله(.

)ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين[47](هذه جملة معترضة مستطردة أثارها ذكر سير الفلك في عداد النعم فعقب ذلك بما كان سير الفلك فيه تذكير بنقمة الطوفان لقوم نوح، وبجعل الله الفلك لنجاة نوح وصالحي قومه من نقمة الطوفان، فأريد تحذير المكذبين من قريش أن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم، وكان تلك النقمة نصر المؤمنين، أي نصر الرسل وأتباعهم؛ ألا ترى إلى حكاية قول نوح)رب انصرني بما كذبون(في سورة المؤمنين، وقوله تعالى هنا)وكان حقا علينا نصر المؤمنين(.

والواو اعتراضية وليست للعطف.

والانتقام من النقم وهو الكراهية والغضب، وفعله كضرب وعلم قال تعالى)وما تنقم منا(. وفي المثل مثله كمثل الأرقم إن يقتل ينقم بفتح القاف وإن يترك يلقم . والانتقام: العقوبة لمن يفعل ما لا يرضي كأنه صيغ منه الافتعال للدلالة على حصول أثر النقم، وقد تقدم عند قوله تعالى)وما تنقم منا(وقوله)فانتقمنا منهم(في سورة الأعراف.

وكلمة)حقا علينا(من صيغ الالتزام، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام)حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق(، وهو محقوق بكذا، أي لازم له، قال الأعشى:

لمحقوقه أن تستجيبي لصوته فإن وعد الصادق حق. قال تعالى) وعدا علينا إنا كنا فاعلين(.

وقد اختصر طريق الإفصاح عن هذا الغرض أعني غرض الوعد بالنصر والوعيد له فأدرج تحت ذكر النصر معنى الانتصار، وأدرج ذكر الفريقين: فريق المصدقين الموعود، وفريق المكذبين المتوعد، وقد أخلى الكلام أولا عن ذكرهما.

وعن أبي بكر شعبة راوي عاصم أنه كان يقف على قوله) حقا(فيكون في)كان(ضمير يعود على الانتقام، أي وكان الانتقام من المجرمين حقا، أي عدلا، ثم يستأنف بقوله)علينا نصر المؤمنين(وكأنه أراد التخلص من إيهام أن يكون للعباد حق على الله إيجابا فرارا من مذهب الاعتزال وهو غير لازم كما علمت. قال ابن عطية: وهو وقف ضعيف، وكذلك قال الكواشي عن أبي حاتم.

)الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون[48] وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين[49](جاءت هذه الجملة على أسلوب أمثالها كما تقدم في قوله)الله يبدأ الخلق ثم يعيده(وجاءت المناسبة وهنا لذكر الاستدلال بإرسال الرياح في قوله)ومن آياته

أن يرسل الرياح مبشرات(استدلالا على التفرد بالتصرف وتصوير الصنع الحكيم الدال على سعة العلم، ثم أعقب بالاستدلال بإرسال الرياح تسلا إلى ذكر إحياء الأرض بعد موتها المستدل به على البعث، فقد أفادت صيغة الحصر بقوله)الله الذي يرسل الرياح(أنه المتصرف في هذا الشأن العجيب دون غيره، وكفى بهذا إبطالا لإلهية الأصنام، لأنها لا تستطيع مثل هذا الصنع الذي هو أقرب التصرفات في شؤون نفع البشر.

والتعبير بصيغة المضارع في:)يرسل، وتثير،ويبسطه، ويجعله(لاستحضار الصور العجيبة في تلك التصرفات حتى كأن السامع يشاهد تكوينها مع الدلالة على تجدد ذلك.

صفحة : 3257

وجمع)الرياح(لما شاع في استعمالهم من إطلاقها بصيغة الجمع على ريح البشارة بالمطر لأن الرياح التي تثير السحاب هي الرياح المختلفة جهات هبوبها بين: جنوب وشمال وصبا ودبور، اسم الريح المفردة فإنه غلب في الاستعمال إطلاق على ريح القوة والشدة لأنها تتصل واردة من صوب واحد فلا تزال تشتد. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح قال: اللهم اجعلها رياحا لا ريحا. وقد تقدم قوله تعالى)وتصريف الرياح(في سورة البقرة.

والإثارة: تحريك القار تحريكا يضطرب به عن موضعه. وإثارة السحاب إنشاؤه بما تحدثه الرياح في الأجواء من رطوبة تحصل من تفاعل الحرارة والبرودة.

والبسط: النشر. والسماء: الجو الأعلى وهو جو الأسحبة.

و)كيف(هنا مجردة نن معنى الاستفهام، وموقعها المفعولية المطلقة من)يبسطه(لأنها نائبة عن المصدر، أي يبسطه بسطا كيفيته يشاؤها الله، وقد تقدم في قوله تعالى)وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء(في سورة آل عمران. وتقدم أن من زعم أنها شرط لم يصادف الصواب.

و)كسفا(بكسر ففتح في قراءة الجمهور جمع كسف بكسر فسكون، ويقال: كسفة بهاء تأنيث وهو القطعة. وقد تقدم في قوله تعالى)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(في سورة الإسراء. وتقدم الكسف في قوله)فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين(في سورة الشعراء.

والمعنى: لأنه يبسط السحاب في السماء تارة، أي يجعله ممتدا عاما في جو السماء وهو المدجن الذي يظلم به الجو ويقال

المغلق، ويجعله كسفا)أي تارة أخرى(كما دلت عليه المقابلة، أي يجعله غمامات لأن حالة جعله كسفا غير حالة بسطه في السماء، فتعين أن يكون الجمع بينهما في الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب.

والمقصود من هذا: أن اختلاف الحال آية على سعة القدرة.

والخطاب في)فترى الودق(خطاب لغير معين وهو كل من يتأتى منه سماع هذا وتتأتى منه رؤية الودق. والودق: المطر.

وضمير)خلاله(للسحاب بحالتيه المذكورتين وهما حالة بسطه في السماء وحالة جعله كسفا فإن المطر ينزل من خلال السحاب المغلق والغمامات.

والخلال: جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين شيئين. وتقدم نظير هذه الجملة في سورة النور.

وذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر وفي وقت انحباسه بين استبشار وإبلاس إدماج للتذكير برحمة الله إياهم وللاعتبار باختلاف تأثرات نفوسهم في السراء والضراء، وفي ذلك إيماء إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال مع اتحاد العقل والقلب كما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل وهو خروج الودق من خلاله.

و)إن(في قوله)وإن كانوا(مخففة مهملة عن العمل، واللام في قوله)لمبلسين(اللام الفارقة بين)إن(المخففة و)إن(الشرطية.

والإبلاس: يأس مع انكسار. وقوله)من قبله(تكرير لقوله)من قبل أن ينزل عليهم(لتوكيد معنى قبلية نزول المطر وتقريره في نفوس السامعين. قال ابن عطية: أفاد التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار اه. يعني أن إعادة قوله)من قبله(زيادة تنبيه على الحالة التي كانت من قبل نزول المطر. وقال في الكشاف)فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم(اه. يعني أن فائدة إعادة)من قبله(أن مدة ما قبل نزول المطر مدة طويلة فأثير إلى قوتها بالتوكيد.

وضمير)قبله(عائد إلى المصدر المأخوذ من)أن ينزل عليهم(أي تنزيله.

)فانظر إلى أثر رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شئ قدير[50](رتب على ما تقرر من استحضار صورة تكوين المطر واستبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس، أن اعترض بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين

يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف. والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال. والنظر: رؤية العين.
وعبر عن الجفاف بالموت لأن قوام الحياة الرطوبة، وعبر عن ضده بالإحياء. والخطاب ب)انظر(لغير معين ليعم كل من يتأتى منه النظر مثل قوله)فترى الودق(.

صفحة : 3258

ورحمة الله: هي صفته التي تتعلق بإمداد مخلوقاته ذوات الإدراك بما يلائمها ويدفع عنها ما يؤلمها وذلك هو الإنعام.
وأثر الشيء: ما ينشأ عنه مما يدل عليه. فبرحمة الله دلت عليها الآثار الدالة على وجوده وتصرفه بما فيه رحمة للخلق. و)كيف(بدل من)أثر(أو مفعول ل)انظر(أي انظر هيئة إحياء الله الأرض بعد موتها، تلك الحالة التي هي أثر من آثار رحمته الناس على حد قوله)أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت(إذ جعلوا)كيف(بدلا من الإبل بدل اشتمال وإن أباه ابن هشام في مغني اللبيب. وقد مضى عند قوله)ألم تر إلى ربك كيف مد الظل(في سورة الفرقان، وتقدم آنفا في قوله)فيبسطه في السماء كيف يشاء(. وأطلق على إنبات الأرض إحياء وعلى قحولتها الموت على سبيل الاستعارة.
وجملة)إن ذلك لمحيي الموتى(استئناف وهو إدماج دليل البعث عقب الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها. وحرف التوكيد يفيد مع تقرير الخبر زيادة معنى فاء التسبب كقول بشار:
بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك
النجاح في التبكير إذ التقدير: فالنجاح في التكبير، كما تقرر غير مرة.
واسم الإشارة عائد إلى اسم الله تعالى بما أجرى عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد موتها ليفيد اسم الإشارة معنى أنه جدير بما يرد بعده من الخبر عن المشار إليه، فالمعنى: أن الله الذي يحيي الأرض بعد موتها لمحيي الموتى، تقريبا لتصور البعث.
وعدل عن الموصول إلى الإشارة للإيجاز، ولما في الإشارة من التعظيم. وذيل ذلك بقوله)وهو على كل شئ قدير(فإنه يعم جميع الأشياء والبعث من جملتها إذ ليس هو إلا إيجاد خلق وهو مقدور لله تعالى كما أنشأ الخلق أول مرة.
والشبه تام لأن إحياء الأرض إيجاد أمثال ما كان عليها من النبات فكذلك إحياء الموتى إيجاد أمثالهم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم)إلى أثر(بالإفراد. وقرأه الباقون)على آثار(بصيغة الجمع.

)ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون[51]

(عطف على جملة)وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين(وما بينها اعتراض واستطراد لغرض قد علمته آنفا. وهذه الجملة سيقت للتنبيه على أن الكفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى سبب فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران فصور لكفرهم أعجب صورة وهي إظهارهم إياه بحدثان ما كانوا مستبشرين منه إذ يكون الزرع أخضر والأمل في الارتزاق منه قريبا فيصيبه إعصار فيحترق فيضجون من ذلك وتكون حالهم حالة من يكفر بالله وتجري على أقوالهم عبارات السخط والقنوط، كما قال بعض رجاز الأعراب إذ أصاب قومه قحط:

رب العباد مـا لـنـا لـك قد كنت تسقينا فما بدا لـك

أنزل علينا الغيث لا أبا لك فالضمير المنصوب في)رأوه(عائد إلى)أثر رحمة الله(وهو الزرع والكلأ والشجر. والاصفرار في الزرع ونحوه مؤذن بيبسه، وسموا صفارا بضم وتخفيف الفاء: داء يصيب الزرع.

والمصفر: اسم فاعل مقتض الوصف بمعناه في الحال، أي فرأوه يصير أصفر، فالتعبير ب)مصفرا(لتصوير حدثان الاصفرار عليه دون أن يقال: فرأوه أصفر.

وظل: بمعنى صار، والإتيان بفعل التصبير مع الإخبار عنه بالمضارع لتصوير مبادرتهم إلى الكفر ثم استمرارهم عليه. والحاصل أن المعنى أنه يغلب الكفر على أحوالهم.

واعلم أن الإتيان بالأفعال الثلاثة ماضية لأن وقوعها في سياق الشرط يمحضها للاستقبال، فأوثرت صيغة المضي لأنها أخف والمتكلم مخبر في اجتلاب أي الصيغتين مع الشرط، مثل قوله)قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله(بصيغة المضارع لأن المقام للنفي ب)لا(وهي لا تدخل على الماضي المسند إلى مفرد إلا في الدعاء.

) فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين[52] وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون[53](

الفاء للترتيب على قوله)لظلوا من بعده يكفرون(المفيد أن الكفر غالب أحوالهم لأنهم بين كفر بالله وبين إعراض عن شكره، أو الفاء فصيحة تدل على كلام مقدر، أي إن كبر عليك إعراضهم وساءك استرسالهم على الكفر فإنهم كالموتى وإنك لا تسمع الموتى. وهذا معذرة للنبي صلى الله عليه وسلم ونداء على أنه بذل الجهد في التبليغ.

وفيما عدا الفاء فالآية نظير التي في آخر سورة النمل ونزيد هنا فنقول: إن تعداد التشابيه منظور فيه إلى اختلاف أحوال طوائف المشركين فكان لكل فريق تشبيه: فمنهم من غلب عليهم التوغل في الشرك فلا يصدقون بما يخالفه ولا يتأثرون بالقرآن والدعوة إلى الحق فهؤلاء بمنزلة الأموات أشباح بلا إدراك، وهؤلاء هم دهماؤهم وأغلبهم ولذلك ابتدئ بهم.

ومنهم من يعرض عن استماع القرآن وهم الذين يقولون)في آذاننا وقر(ويقولون)لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه(، وهؤلاء هم ساداتهم ومدبروا أمرهم يخافون إن أصغوا إلى القرآن أن يملك مشاعرهم فلذلك يتباعدون عن سماعه، ولهذا قيد الذي شهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضا عن الدعوة، فهو تشبيه تمثيل.

ومنهم من سلكوا مسلك ساداتهم واقتفوا خطاهم فانحرفت أفهامهم عن الصواب فهم يسمعون القرآن ولا يستطيعون العمل به، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم وهم الذين قالوا)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(. ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتا وصما وعميا فليس هذا من تعدد التشبه لمشبه واحد كالذي في قوله تعالى)أو كصيب من السماء(.

وقرأ الجمهور)ولا تسمع الصم(بتاء فوقية مضمومة وكسر ميم) تسمع(ونصب)الصم(، على أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وقرأه ابن كثير)ولا يسمع الصم(بتحتية مفتوحة وبفتح ميم) يسمع(ورفع)الصم(على الفاعلية ل)يسمع(.

وقرأ الجمهور)بهادي(بموحدة وبألف بعد الهاء وبإضافة)هادي(إلى)العمي(، وقرأه حمزة وحده)تهدي(بمثناة فوقية وبدون ألف بعد الهاء على الخطاب وبنصب)العمي(على المفعولية.

)الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير[54](هذا رابع استئناف من الأربعة المتقدمة رجوع إلى الاستدلال على عظيم القدرة في مختلف المصنوعات من العوالم لتقرير إمكانية البعث وتقريب حصوله إلى عقول منكرية لأن تعدد صور إيجاد المخلوقات وكيفياته من ابتدائها عن عدم أو من إعادتها بعد انعدامها ويتطور

وبدونه مما يزيد إمكان البعث وضوحا عند منكريه، فموقع هذه الآية كموقع قوله)الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا(ونظائرها كما تقدم؛ ولذلك جاءت فاتحتها على أسلوب فواتح نظائرها وهذا ما يؤذن به تعقيبها بقوله)ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون(الآية.
ثم قوله)الله الذي خلقكم(مبتدأ وصفة، وقوله)يخلق ما يشاء(هو الخبر، أي يخلق ما يشاء مما أخبر به وأنتم تنكرون.
والضعف بضم الضاد في الآية وهو أفصح وهو لغة قريش. ويجوز في ضاده الفتح وهو لغة تميم. وروي أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قرأتها على رسول الله)الذي خلقكم من ضعف(يعني لفتح الضاد فأقرأني)من ضعف(يعني بضم الضاد . وقرأ الجمهور ألفاظ ضعف الثلاثة بضم الضاد في الثلاثة. وقرأها عاصم وحمزة بفتح الضاد، فلهما سند لا محالة يعارض حديث ابن عمر. والجمع بين هذه القراءة وبين حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نطق بلغة الضم لأنها لغة قومه، وأن الفتح رخصة لمن يقرأ بلغة قبيلة أخرى، ومن لم يكن له لغة تخصه فهو مخير بين القراءتين. والضعف: الوهن واللين.
و)من(ابتدائية، أي مبتدأ خلقه من ضعف، أي من حالة ضعف، وهي حالة كونه جنينا ثم صبيا إلى أن يبلغ أشده، وهذا كقوله)خلق الإنسان من عجل(يدل على تمكن الوصف من الموصوف حتى كأنه منتزع منه، قال تعالى)وخلق الإنسان ضعيفا(.
والمعنى: أنه كما أنشأكم أطوارا تبتدئ من الوهن وتنتهي إليه فكذلك ينشئكم بعد الموت إذ ليس ذلك بأعجب من الإنشاء الأول وما لحقه من الأطوار، ولهذا أخبر عنه بقوله)يخلق ما يشاء(.

صفحة : 3260

وذكر وصف العلم والقدرة لأن التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم، وإبرازه على أحكم وجه هو من أثر القدرة.
وتنكير)ضعف وقوة(للنوعية؛ ف)ضعف(المذكور ثانيا هو عين) ضعف(المذكور أولا، و)قوة(المذكورة ثانيا عين)قوة(المذكورة أولا. وقولهم: النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، يريدون به التنكير المقصود منه الفرد الشائع لا التنكير المراد به النوعية.
وعطف)وشيبة(للإنماء إلى أن هذا الضعف لا قوة بعده وأن بعده العدم بما شاع من أن الشيب نذير الموت.
والشيبة: اسم مصدر الشيب. وقد تقدم في قوله تعالى)واشتعل الرأس شيبا(في سورة مريم.

)ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون[55](لما ذكر عدم انتفاع المشركين بآيات القرآن وشبهوا بالأموات والصم والعمي فظهرت فظاعة حالهم في العاجلة أتبع ذلك بوصف حالهم حين تقوم الساعة في استصحاب مكابرتهم التي عاشوا عليها في الدنيا، بأن الله حين يعيد خلقهم وينشئ لهم أجساما كأجسامهم ويعيد إليهم عقولهم يكون تفكيرهم يومئذ على وفاق ما كانوا عليه في الدنيا من السفسطة والمغالطة والغرور، فإذا نشروا من القبور وشعروا بصحة أجسامهم وعقولهم وكانوا قد علموا في آخر أوقات حياتهم أنهم ميتون خامرتهم حينئذ عقيدة إنكار البعث وحجتهم السفسطائية من قولهم)هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(، هنالك يريدون أن يقنعوا أنفسهم بصحة دليلهم القديم ويلتمسون اعتلالا لتخلف المدلول بعلة أن بعثهم إليهم أنهم محقون في إنكاره في الدنيا إذ كانوا قد أخبروا أن البعث يكون بعد فناء الأجسام، فهم أرادوا الاعتذار عن إنكارهم البعث حين تحققوه بما حاصلة: أنهم لو عملوا أن البعث يكون بعد ساعة من الحلول في القبر لأقروا به.

وقد أنبأ عن هذا تسمية كلامهم هذا معذرة بقوله عقبه)فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم(. وهذه فتنة أصيبوا بها حين البعث جعلها الله لهم ليكونوا هزأة لأهل النشور. ويتضح غلطهم وسوء فهمهم كما دل عليه قوله تعالى بعد ذلك)وقال الذين أوتوا العلم والإيمان(الآية، وقد أومأ إلى أن هذا هو المراد من الآية أنه قال عقب ذلك)كذلك كانوا يؤفكون(، أي كهذا الخطأ كانوا في الدنيا يصرفون عن الحق بمثل هذه الترهات. وتقدم شيء من هذا في المعنى عند قوله تعالى)يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما(في سورة طه. وبلغ من ضلالهم في ذلك أنهم يقسمون عليه، وهذا بعد ما يجزي بينهم من الجدال من قول بعضهم)إن لبثتم إلا عشرا(. وقول بعضهم)إن لبثتم إلا يوما(، وقول آخرين)لبثنا يوما أو بعض يوم(، وبعض اليوم يصدق بالساعة، كما حكي عنهم في هذه الآية. والظاهر أن هذا القسم يتخاطبون به فيما بينهم كما اقتضته آية سورة طه، أو هو حديث آخر أعلنوا به حين اشتد الخلاف بينهم لأن المصير إلى الحلف يؤذن بمشادة ولجاج في الخلاف.

وفي قوله)الساعة(و)ساعة(الجناس التام.

وجملة)كذلك كانوا يؤفكون(استئناف بياني لأن غرابة حالهم من فساد تقدير المدة والقسم عليه مع كونه توهما يثير سؤال سائل عن مثار هذا الوهم في نفوسهم فكان قوله)كذلك كانوا يؤفكون(بيانا لذلك. ومعناه: أنهم لا عجب في صدور ذلك منهم فإنهم

كانوا يجيئون بمثل تلك الأوهام مدة كونهم في الدنيا، فتصرفهم أوهامهم عن اليقين، وكانوا يقسمون على عقائدهم كما في قوله) وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت(استخفافا بالأيمان، وكذلك إشارة إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث. والمشار إليه هو المشبه به والمشبه محذوف دل عليه كاف التشبيه، والتقدير: إفكا مثل إفكهم هذا كانوا يؤفكون به في حياتهم الدنيا. والمقصود من التشبيه المماثلة والمساواة.

والإفك بفتح الهمزة: الصرف وهو من باب ضرب، ويعدى إلى الشيء المصروف عنه بحرف)عن(، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى)ليقولن الله فأنى يؤفكون(في سورة العنكبوت.

ولم يسند إفكهم إلى آفك معين لأن بعض صرفهم يكون من أوليائهم وأئمة دينهم، وبعضه من طبع الله على قلوبهم.

وإقحام فعل)كانوا(للدلالة على أن المراد في زمان قبل ذلك الزمن، أي في زمن الحياة الدنيا.

صفحة : 3261

والمعنى: أن ذلك خلق تخلقوا به وصار لهم كالسجية في حياتهم الدنيا حتى إذا أعاد الله إليهم أرواحهم صدر عنهم ما كانوا تخلقوا به وقال تعالى)قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف(الآية.

وفي هذا الخبر أدب عظيم للمسلمين أن يتحاموا الرذائل والكبائر في الحياة الدنيا خشية أن تصير لهم خلقا فيحشروا عليها.

)وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون[56](جعل الله منكري البعث هدفا لسهام التغليط والافتضاح في وقت النشور، فلما سمع المؤمنون الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم في الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة لم يتمالكوا أن لا يردوا عليهم غلطهم ردا يكون عليهم حسرات أن لا يكونوا قبلوا دعوة الحق كما قبلها المؤمنون. وهذه الجملة معترضة.

وعطف الإيمان على العلم والاهتمام به لأن العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة. والمعنى: وقال لهم المؤمنون إنكار عليهم وتحسيرا لهم.

والظاهر أن المؤمنين يسمعون تحاج المشركين بعضهم مع بعض فيبادرون بالإنكار عليهم لأن تغيير المنكر سجيتهم التي كانوا عليها.

وفي هذا أدب إسلامي وهو أن الذي يسمع الخطأ في الدين والإيمان لا يقره ولو لم يكن هو المخاطب به.

وقولهم)لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث(صرف لهم عن تلك المعذرة كأنهم يقولون: دعوا عنكم هذا فلا جدوى فيه واشتغلوا بالمقصود وما وعدتم به من العذاب يوم البعث.

وفعل)لبثتم(مستعمل في حقيقته، أي مكثتم، أي استقررتم في القبور، والخبر مستعمل في التحزين والترويع باعتبار ما يرد بعده من الإفصاح عن حضور وقت عذابهم.

و)في(من قوله)في كتاب الله(للتعليل، أي لبثتم إلى هذا اليوم ولم يعذبوا من قبل لأجل ما جاء في كتاب الله من تهديدهم بهذا اليوم مثل قوله تعالى)ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون(، أي لقد بلغكم وذلك وسمعتموه فكان الشأن أن تؤمنوا به ولا تعتذروا بقولكم)ما لبثنا غير ساعة(.

والفاء في)فهذا يوم البعث(فاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدر، وتفيد معنى المفاجأة كما تقدم عند قوله تعالى)فقد كذبوكم بما تقولون(في سورة الفرقان، أي إذ كان كذلك فهذا يوم البعث كالفاء في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسـانـا

وهذا توبيخ لهم وتهديد وتعجيل لإساءتهم بما يترقبهم من العذاب. والاقتصار على)فهذا يوم البعث(ليتوقعوا كل سوء وعذاب.

والاستدراك في)ولكنكم كنتم لا تعلمون(استدراك على ما تضمنته جملة)لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث(، أي لقد بلغكم ذلك وكان الشأن أن تستعدوا له ولكنكم كنتم لا تعلمون، أي لا تتصدون للعلم بما فيه النفع بل كان دأبكم الإعراض عن تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي التعبير بنفي العلم وقصد نفي الاهتمام به والعناية بتلقيه إشارة إلى أن التصدي للتعلم وسيلة لحصوله.

)فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون[57] (تفريع على جملة)كذلك كانوا يؤفكون(. والذين ظلموا هم المشركون الذين أقسموا ما لبثوا غير ساعة، فالتعبير عنهم بالذين ظلموا إظهار في مقام الإضمار لغرض التسجيل عليهم بوصف الظلم وهو الإشراك بالله لأنه جامع لفنون الظلم، ففيه الاعتداء على حق الله، وظلم المشرك نفسه بتعريضها للعذاب، وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، وظلمهم المؤمنين بالاعتداء على أموالهم وأبشارهم.

والمعذرة: اسم مصدر اعتذر، إذا أبدى علة أو حجة ليدفع عن نفسه مؤاخذة على ذنب أو تقصير. وهو مشتق من فعل عذره، إذا لم يؤاخذه على ذنب أو تقصير لأجل ظهور سبب يدفع عنه المؤاخذة بما فعله.

صفحة : 3262

وإضافة)معذرة(إلى ضمير)الذين ظلموا(تقتضي أن المعذرة واقعة منهم. ثم يجوز أن تكون الإضافة للتعريف بمعذرة معهودة فتكون هي قولهم)ما لبثوا غير ساعة(كما تقدم، ويجوز أن يكون التعريف للعموم كما هو شأن المصدر المضاف، أي لا تنفعهم معذرة يعتذرون بها مثل قولهم)غلبت علينا شقوتنا(وقولهم)هؤلاء أضلونا(.
واعلم أن هذا لا ينافي قوله تعالى)ولا يؤذن لهم فيعتذرون(المقتضي نفي وقوع الاعتذار منهم لأن الاعتذار المنفي هو الاعتذار المأذون فيه، أي المقبول، لأن الله لو أذن لهم في الاعتذار لكان ذلك توطئة لقبوله اعتذارهم نظير قوله)من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه(.
والمثبت هنا معذرة من تلقاء أنفسهم لم يؤذن لهم بها فهي غير نافعة لهم كما قال تعالى)قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون(وقوله)لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون(.
وقرأ الجمهور)تنفع(بالمثناة الفوقية. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وخلف بالتحتية وهو وجه جائز لأن معذرة مجازي التأنيث، ولوقوع الفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول.
و)يستعتبون(مبني للمجهول والمبني منه للفاعل استعتب، إذا سأل العتبى بضم العين وبالقصر وهي اسم للإعتاب، أي إزالة العتب، فهمزة الإعتاب للإزالة قال تعالى)وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين(، فصار استعتب المبني للمجهول جاريا على استعتب المبني للمعلوم فلما قيل: استعتب بمعنى طلب العتبي صار استعتب المبني للمجهول بمعنى أعتب، فمعنى)ولا هم يستعتبون(: ولا هم بمزال عنهم المؤاخذة نظير قوله)فما هم من المعتبين(. وهذا استعمال عجيب جار على تصاريف متعددة في الفصيح من الكلام، وبعض استقاقها غير قياسي ومن حاولوا إجراءه على القياس اضطروا إلى تلكفات في المعنى لا يرضي بها الذوق السليم، والعجب وقوعها في الكشاف. وقال في القاموس: واستعتبه: أعطاه العتبي كأعتبه، وطلب إليه العتبي ضد.

والمعنى: لا ينفعهم اعتذار بعذر ولا إقرار بالذنب وطلب العفو.
وتقدم قوله)ولا هم يستعتبون(في سورة النمل.
)ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون[58] كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون[59](لما انتهى ما أقيمت عليه السورة من دلائل الوحدانية وإثبات البعث عقب ذلك بالتنويه بالقرآن وبلوغه الغاية القصوى في البيان والهدى.
والضرب حقيقته: الوضع والإلصاق. واستعير في مثل هذه الآية للذكر والتبيين لأنه كوضع الدال بلصق المدلول، وتقدم في قوله تعالى)إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما(، وتقدم أيضا آنفا عند قوله) ضرب لكم مثلا من أنفسكم(، وهذا كقوله تعالى)ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل(المتقدم في سورة الإسراء، و الناس أريد به المشركون لأنهم المقصود من تكرير هذه الأمثال، وعطف عليه قوله)ولئن جئتهم بآية(الخ فهو وصف لتلقي المشركين أمثال القرآن فإذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن فيها إرشادهم تلقوها بالاعتباط والإنكار البحث فقالوا)إن أنتم إلا مبطلون(.
وضمير جمع المخاطب للنبي صلى الله عليه وسلم لقصد تعظيمه من جانب الله تعالى وإنما يقول الذين كفروا: إن أنت إلا مبطل، فحكي كلامهم بالمعنى للتنويه بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.
وقيل: الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهو حكاية باللفظ.
وهذا تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم من إيمانه معانديه، أي أئمة المفر منهم، ولذلك اعترض بعده بجملة)كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون(بين الجملتين المتعاطفتين تمهيدا للأمر بالصبر على غلوائهم، أي تلك سنة أمثالهم، أي مثل ذلك الطبع الذي علمته يطبع الله على قلوبهم، وقد تقدم في قوله تعالى) وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة وفي مواضع كثيرة من القرآن.
والطبع على القلب: تصيره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم، وقد تقدم في قوله تعالى)ختم على قلوبهم(في سورة البقرة.

و)الذين لا يعلمون(مراد بهم الذين كفروا أنفسهم، فعدل الإضمار لزيادة وصفهم بانتفاء العلم عنهم بعد أن وصفوا: بالمجرمين، والذين ظلموا، والذين كفروا.

)فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون[60](الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر تفرغ على جملة)ولئن جئتهم بآية(لتضمنها تأييسه من إيمانهم.

وحذف متعلق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه، أي اصبر على تعنتهم.

وجملة)إن وعد الله حق(تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام.

والحق: مصدر حق يحق بمعنى ثبت، فالحق: الثابت الذي لا ريب فيه ولا مبالغة.

والاستخفاف: مبالغة في جعله خفيفا فالسين والتاء للتقوية مثلها في نحو: استجاب واستمسك، وهو ضد الصبر. والمعنى: لا يحملنك على ترك الصبر.

والخفة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب. وهي مثل القلق المستعار من اضطراب الشيء لأن آثار الجزع والغضب تشبه تقلقل الشيء الخفيف، فالشيء الخفيف يتقلقل بأدنى تحريك، وفي ضده يستعار الرسوخ والتثاقل. وشاعت هذه الاستعارات حتى ساوت الحقيقة في الاستعمال.

ونهي الرسول عن أن يستخفه الذين لا يوقنون نهي عن الخفة التي من شأنها أن تحدث للعاقل إذا رأى عناد من هو يرشده إلى الصلاح، وذلك مما يستفز غضب الحلم، فالاستخفاف هنا هو أن يؤثروا في نفسه ضد الصبر، ويأتي قوله تعالى)فاستخف قومه فأطاعوه(في سورة الزخرف، فانظره إكمالا لما هنا.

وأسند الاستخفاف إليهم على طريقة المجاز العقلي لأنهم سببه بما يصدر من عنادهم.

والذين لا يوقنون: هم المشركون الذين أجريت عليهم الصفات المتقدمة من الإجرام، والظلم، والكفر، وعدم العلم، فهو إظهار في مقام الإضمار للتصريح بمساويهم. قيل: كان منهم النضر بن الحارث.

ومعنى)لا يوقنون(أنهم لا يوقنون بالأمور اليقينية، أي التي دلت عليها الدلائل القطعية فهم مكابرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان

سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان لأن فيها ذكر لقمان وحكمته وجملا من حكمته التي أدب بها ابنه. وليس لها اسم غير

هذا الاسم، وبهذا الاسم عرفت بين القراء والمفسرين. ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند مقبول.

وروى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس: أنزلت سورة لقمان بمكة.

وهي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه وعليه إطلاق جمهور المفسرين وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله تعالى)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(إلى قوله)بما تعملون خبير(. وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله)إن الله سميع بصير(. وفي تفسير الكواشي حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي)الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون(قائلا لأن الصلاة والزكاة فرضت بالمدينة. ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب. والمحقوق يمنعون أن تكون الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة، فأما الصلاة فلا ريب في أنها فرضت على الجملة بمكة، وأما الزكاة ففرضت بمكة دون تعيين أنصباء ومقادير، ثم عينت الأنصباء والمقادير بالمدينة.

ويتحصل من هذا أن القائل بأن آية)الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة(إلى آخرها نزلت بالمدينة قاله من قبل رأيه وليس له سند يعتمد كما يؤذن به قوله لأن الصلاة والزكاة الخ. ثم هو يقتضي أن يكون صدر سورة النازل بمكة)هدى ورحمة للمحسنين( )وأولئك على هدى من ربهم(الخ ثم ألحق به)الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون(.

صفحة : 3264

وأما القول باستثناء آيتين وثلاث فمستند إلى ما رواه ابن جرير عن قتادة وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن قوله تعالى)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(إلى آخر الآيتين أو الثلاث نزلت بسبب مجادلة كانت من اليهود أن أحبارهم قالوا: يا محمد أرأيت قوله)وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا أردت. قالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شئ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها في علم الله قليل، فأنزل الله عليه)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(الآيات. وذلك مروي بأسانيد ضعيفة وعلى تسليمها فقد أجيب بأن اليهود جادلوا في ذلك ورسول

الله صلى الله عليه وسلم بمكة بأن لقنوا ذلك وفدا من قريش إليهم إلى المدينة، وهذا أقرب للتوفيق بين الأقوال. وهذه الروايات وإن كانت غير ثابتة بسند صحيح إلا أن مثل هذا يكتفي فيه بالمقبول في الجملة. قال أبو حيان: سبب نزول هذه السورة أن قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه، أي سألوه سؤال تعنت واختبار. وهذا الذي ذكره أبو حيان يؤيد تصدير السورة بقوله تعالى)ومن الناس من يشتري لهو الحديث(.

وهذه السورة هي السابعة والخمسون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

وعدت آياتها ثلاثا وثلاثين في عد أهل المدينة ومكة، وأربعا وثلاثين في عد أهل الشام والبصرة والكوفة.

أغراض هذه السورة

الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه، وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله تعالى)ومن الناس من يشتري لهو الحديث(من أن المراد به النضر بن الحارث إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس فيقتني كتب اسفنديار ورستم وبهرام، وكان يقرؤها على قريش ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود وأحثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام، فصدرت هذه السورة بالتنويه بهدى القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومثل الكمال النفساني، فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدر هذه السورة تمهيدا لقصة لقمان، وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف)نحن نقص عليك أحسن القصص(، ونبهت عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير.

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة.

وابتدئ ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة. وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، ومن الأمر ببر الوالدين، ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتحذير من الكبر والعجب، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقان لابنه، وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما ألفوا عليه آباءهم.

وذكرت مزية دين الإسلام.

وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى، وأنه لا يحزنه كفر من كفروا.
وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله) ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(وما بعدها. وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء علم الغيب.
)ألم[1](تقدم الكلام على نظائرها في أول سورة البقرة.
)تلك آيات الكتاب الحكيم[2] هدى ورحمة للمحسنين[3] الذين يقيمون الصلواة ويؤتون الزكواة وهم بالآخرة هم يوقنون[4] أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون[5](إذا كانت هذه السورة نزلت بسبب سؤال قريش عن لقمان وابنه فهذه الآيات إلى قوله) ولقد آتينا لقمان الحكمة(بمنزلة مقدمة لبيان أن مرمى القرآن من قص القصة ما فيها من علم وحكمة وهدى وأنها مسوقة للمؤمنين لا للذين سألوا عنها فكان سؤالهم نفعا للمؤمنين.

صفحة : 3265

والإشارة ب)تلك(إلى ما سيذكر في هذه السورة، فالمشار إليه مقدر في الذهن مترقب الذكر على ما تقدم في قوله)ذلك الكتاب(في أول البقرة وفي أول سورة الشعراء والنمل والقصص.
و)آيات الكتاب(خبر عن اسم الإشارة. وفي الإشارة تنبيه على تعظيم قدر تلك الآيات بما دل عليه اسم الإشارة من البعد المستعمل في رفعة القدر، وبما دلت عليه إضافة الآيات إلى الكتاب الموصوف بأنه الحكيم وأنه هدى ورحمة وسبب وفلاح.
والحكيم: وصف للكتاب بمعنى ذي الحكمة، أي لاشتماله على الحكمة. فوصف)الكتاب(ب)الحكيم(كوصف الرجل بالحكيم، ولذلك قيل: إن الحكيم استعارة مكنية، أو بعبارة أرشق تشبيه بليغ بالرجل الحكيم.
ويجوز أن يكون الحكيم بمعنى المحكم بصيغة اسم المفعول وصفا على غير قياس كقولهم: عسل عقيد، لأنه أحكم وأتقن فبيس فيه فضول ولا ما لا يفيد كمالا نفسانيا.
وفي وصف)الكتاب(بهذا الوصف براعة استهلال للغرض من ذكر حكمة لقمان. وتقدم وصف الكتاب ب)الحكيم(في أول سورة يونس.
وانتصب)هدى ورحمة(على الحال من)الكتاب(وهي قراءة الجمهور. وإذا كان)الكتاب(مضافا إليه فمسوغ مجيء الحال من المضاف إليه أن)الكتاب(أضيف إليه ما هو اسم جزئه، أو على أنه

حال من آيات. والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى الفعل.
وقرأه حمزة وحده برفع)رحمة(على جعل)هدى(خبرا ثانيا عن اسم الإشارة.
ومعنى المحسنين: الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك خصت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنها أفضل الحسنات، وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها.
وزيادة وصف الكتاب ب)رحمة(بعد)هدى(لأنه لما كان المقصد من هذه السورة قصة لقمان نبه على أن ذكر القصة رحمة لما تتضمنه من الآداب والحكمة لأن في ذلك زيادة على الهدى أنه تخلق بالحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، والخبر الكثير: رحمة من الله تعالى.
والزكاة هنا الصدقة وكانت موكولة إلى همم المسلمين غير مضبوطة بوقت ولا بمقدار. وتقدم الكلام على)وهم بالآخرة هم يوقنون(إلى)هم المفلحون(في أول سورة البقرة.
)ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزؤا أولئك لهم عذاب مهين[6] وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم[7](عطف على جملة)تلك آيات الكتاب الحكيم(. والمعنى: أن حال الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين، وأن من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله الذي يهدي إليه الكتاب. وهذا من مقابلة الثناء على آيات الكتاب الحكيم بضد ذلك في ذم ما يأتي به بعض الناس، وهذا تخلص من المقدمة إلى مدخل للمقصود وهو تفظيع ما يدعوا إليه النضر بن الحارث ومشايعوه من اللهو بأخبار الملوك التي لا تكسب صاحبها كمالا ولا حكمة.
وتقديم المسند في قوله)ومن الناس(للتشويق إلى تلقي خبرة العجيب.
والاشتراء كناية عن العناية بالشيء والاغتباط به وليس هنا استعارة بخلاف قوله)أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى(في سورة البقرة؛ فالاشتراء هنا مستعمل في صريحه وكناية: فالصريح تشويه لاقتناء النضر بن الحارث قصص رستم واسفنديار وبهرام، والكناية تقبيح للذين التفوا حوله وتلقوا أخباره، أي من الناس من يشغله لهو الحديث والولع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم.
واللهو: ما يقصد منه تشغيل البال وتقصير طول وقت البطالة دون نفع، لأنه إذا كانت في ذلك منفعة لم يكن المقصود منه اللهو بل تلك المنفعة. و)لهو الحديث(ما كان من الحديث مرادا للهو فإضافة

)لهو(إلى)الحديث(على معنى من التبعيضية على رأي بعض النحاة، وبعضهم لا يثبت الإضافة على معنى من التبعيضية فيردها إلى معنى اللام.
وتقدم اللهو في قوله)وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو(في سورة الأنعام.

صفحة : 3266

والأصح في المراد بقوله)ومن الناس من يشتري لهو الحديث(أنه النضر بن الحارث فإنه كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطالهم في الحروب المملوءة أكذوبات فيقصها على قريش في أسمارهم ويقول: إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار وبهرام. ومن المفرسين من قال: إن النضر كان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم فيحدث بها قريشا، أي بواسطة من يترجمها لهم. ويشمل لفظ)الناس(أهل سامره الذين ينصتون لما يقصه عليهم كما يقتضيه قوله تعالى إثره)أولئك لهم عذاب مهين(.
وقيل المراد ب)من يشتري لهو الحديث(من يقتني القينات المغنيات. روى الترمذي عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمان عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا خير في تجارة فيهن وتمنهن حرام ، في مثل ذلك أنزلت هذه الآية)ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله(إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب إنما يروي من حديث القاسم عن أبي أمامة وعلي بن يزيد يضعف في الحديث سمعت محمدا يعني البخاري يقول علي بن يزيد يضعف اه.
وقال ابن العربي في العارضة: في سبب نزولها قولان: أحدهما أنها نزلت في النضر بن الحارث. الثاني أنها نزلت في رجل من قريش قيل هو ابن خطل اشترى جارية مغنية فشغل الناس بها عن استماع النبي صلى الله عليه وسلم اه. وألفاظ الآية أنسب انطباقا على قصة النضر بن الحارث.
ومعنى)ليضل عن سبيل الله(أنه يفعل ذلك ليلهي قريشا عن سماع القرآن فإن القرآن سبيل موصل إلى الله تعالى، أي إلى الدين الذي أراده، فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله، وهذا زيادة في تفظيع عمله.

وقرأ الجمهور)يضل(بصم الياء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، أي ليزداد ضلالا على ضلالة إذ لم يكشف لنفسه بالكفر حتى أخذ يبث ضلاله للناس، وبذلك يكون مآل القراءتين متحد المعنى.
ويتعلق)ليضل عن سبيل الله(بفعل)يشتري(ويتعلق به أيضا قوله)بغير علم(لأن أصل تعلق المجرورات أن يرجع إلى المتعلق المبني عليه الكلام، فالمعنى: يشتري لهو الحديث بغير علم، أي عن غير بصيرة في صالح نفسه حيث يستبدل الباطل بالحق.
والضمير المنصوب في)يتخذها(عائد إلى)سبيل الله(فإن السبيل تؤنث.
وقرأ الجمهور)ويتخذها(بالرفع عطفا على)يشتري(، أي يشغل الناس بلهو الحديث ليصرفهم عن القرآن ويتخذ سبيل الله هزؤا.
وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بالنصب عطفا على)ليضل(، أي يلهيهم بلهو الحديث ليضلهم وليتخذ دين الإسلام هزءا.
ومآل المعنى متحد في القراءتين لأن كلا الأمرين من فعله ومن غرضه. وأما الإضلال فقد رجح فيه جانب التعليل لأنه العلة الباعثة له على ما يفعل.
والهزؤ: مصدر هزأ به إذا سخر به كقوله)اتخذوا آيات الله هزؤا(.
ولما كان)من يشتري لهو الحديث(صادقا على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجمع)أولئك لهم عذاب مهين(.
واختير اسم الإشارة للتنبيه على أن ما يرد بعد اسم الإشارة من الخبر إنما استحقه لأجل ما سبق اسم الإشارة من الوصف.
وجملة)أولئك لهم عذاب مهين(معترضة بين الجملتين جملة)من يشتري(وجملة)وإذا تتلى عليه آياتنا(فهذا عطف على جملة) يشتري(الخ. والتقدير: ومن الناس من يشتري الخ)وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا(؛ فالموصول واحد وله صلتان: اشتراء لهو الحديث للضلال، والاستكبار عندما تتلى عليه آيات القرآن.
ودل قوله)تتلى عليه(أنه يواجه بتبليغ القرآن وإسماعه.
وقوله)ولي(تمثيل للإعراض عن آيات الله كقوله تعالى)ثم أدبر يسعى(.
و)مستكبرا(حال، أي هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب.
وشبه في ذلك بالذي لا يسمع الآيات التي تتلى عليه، ووجه الشبه هو عدم التأثر ولو تأثرا يعقبه إعراض كتأثر الوليد بن المغيرة.
و)كأن(مخففة من كأن وهي في موضع الحال من ضمير) مستكبرا(.

وكرر التشبيه لتقويته مع اختلاف الكيفية في أن عدم السمع مرة مع تمكن آلة السمع ومرة مع انعدام قوة آلته فشبه ثانيا بمن في أذنيه وقر وهو أخص من معنى)كأن لم يسمعها(. ومثل هذا التشبيه الثاني قول لبيد:

فتنازعا سبطا يطير ظلالـه كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشموله غلشت بنابت عرفج كدخان نار ساطع أسنامهـا والوقر: أصله الثقل، وشاع في الصمم مجازا مشهورا ساوى الحقيقة، وقد تقدم في قوله)وفي آذانهم وقرا(في سورة الأنعام.

وقرأ نافع)في أذنيه(بسكون الذال للتخفيف لأجل ثقل المثنى، وقرأه الباقون بضم الذال على الأصل.

وقد ترتب على هذه الأعمال التي وصف بها أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوعده بعذاب أليم. وإطلاق البشارة هنا استعارة تهكمية، كقول عمرو بن كلثوم:

فعجلنا القرى أن تشتمونا وقد عذب النضر بالسيف إذ قتل صبرا يوم بدر، فذلك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة أشد.

)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم[8] خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم[9](لما ذكر عذاب من يضل عن سبيل الله اتبع ببشارة المحسنين الذين وصفوا بأنهم يقيمون الصلاة إلى قوله)وأولئك هم المفلحون(.

وانتصب)وعد الله(على المفعول المطلق النائب عن فعله، وانتصب)حقا(على الحال المؤكدة لمعنى عاملها كما تقدم في صدر سورة يونس. وإجراء الاسمين الجليلين على ضمير الجلالة لتحقيق وعده لأنه لعزته لا يعجزه الوفاء بما وعد، ولحكمته لا يخطئ ولا يذهل عما وعد،فموقع جملة)وهو العزيز الحكيم(موقع التذييل بالأعم.

) خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم[10] هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين[11](استئناف للاستدلال على الذين دأبهم الإعراض عن آيات الله بأن الله هو خالق المخلوقات فلا يستحق غيره أن تثبت له الإلهية فكان ادعاء الإلهية لغير الله

هو العلة للإعراض عن آيات الكتاب الحكيم، فهم لما أثبتوا الإلهية لما لا يخلق شيئا كانوا كمن يزعم أن الأصنام مماثلة لله تعالى في أوصافه فلذلك يقتضي انتفاء وصف الحكمة عنه كما هو منتف عنها.
ولذا فإن موقع هذه الآيات موقع دليل الدليل، وهو المقام المعبر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق، وهو ذكر الشيء بدليله ودليل دليله، فالخطاب في قوله)ترونها(و)بكم(للمشركين، وقد تقدم في وسورة الرعد قوله)الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها(، وتقدم في أول سورة النحل قوله)وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم(، والمعنى خوف أن تميد بكم أو لئلا تميدكم كما بين هنالك.
وتقدم في سورة البقرة قوله)وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح(.
وقوله)أنزلنا من السماء ماء(هو نظير قوله في سورة البقرة) وما أنزل الله من السماء من ماء(وقوله في سورة الرعد)أنزل من السماء ماء فسالت أودية(.
والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله)وأنزلنا(للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانا عند الناس.
وضمير)فيها(عائد إلى الأرض.
والزوج: الصنف، وتقدم في قوله تعالى)فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى(في طه وقوله)وأنبتت من كل زوج بهيج(في سورة الحج.
والكرم: النفيس في نوعه، وتقدم عند قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.
وقد أدمج في أثناء دلائل صفة الحكمة الامتنان بما في ذلك من منافع للخلق بقوله)أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة(فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها ووحوشها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوها ورواحها، ثم من نعمة منافع النبات من الحب والثمر والكلأ والكمأة. وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شمل الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة.

صفحة : 3268

وجملة)هذا خلق الله(إلى آخرها نتيجة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال والدواب وإنزال المطر. واسم الإشارة إلى ما تضمنه

قوله)خلق السماوات(إلى قوله)من كل زوج كريم(. والإتيان به مفردا بتأويل المذكور والانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله)خلق الله(التفاتا لزيادة التصريح بأن الخطاب وارد من جانب الله بقرينة قوله)هذا خلق الله(. وكذلك يكون الانتقال من التكلم إلى الغيبة في قوله)ماذا خلق الذين من دونه(التفاتا لمراعاة العود إلى الغيبة في قوله)خلق الله(.

ويجوز أن تكون الرؤية من قوله)فأروني(علمية، أي فأنبئوني، والفعل معلقا عن العمل بالاستفهام ب)ماذا(.

فيتعين أن يكون)فأروني(تهكما لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله زيادة على كون الأمر مستعملا في التعجيز، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله قطعا نظريا.

وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته. وهذا كقول حطائط بن يعقر النهشلي وقيل حاتم الطائي:

أريني جوادا مات هزلا لعلني أرى ما تزين أو بخيلا مخلدا أي أحضرني جوادا مات من الهزال وأرينيه لعلي أرى مثل ما رأيتيه.

والعرب يقصدون في مثل هذا الغرض الرؤية البصرية، ولذلك يكثر أن يقول: ما رأت عيني، وانظر هل ترى. وقال امرؤ القيس:

فلله عينا من رأى من تـفـوق أشت وأنأى من فراق المحصب وإجراء اسم موصول العقلاء على الأصنام مجازاة للمشركين إذ يعدنهم عقلاء. و)من دونه(صلة الموصول. و)دون(كناية عن الغير، و)من(جارة لاسم المكان على وجه الزيادة لتأكيد الاتصال بالظرف.

و)بل(للإضراب الانتقالي من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم، أي في اعتقادهم إلهية الأصنام، كما يقال في المناظرة: دع عنك هذا وانتقل إلى كذا.

والظالمون: المشركون. والضلال المبين: الكفر الفظيع، لأنهم أعرضوا عن دعوة الإسلام للحق، وذلك ضلال، وأشركوا مع الله غيره في الإلهية، فذلك كفر فظيع.

وجيء بحرف الظرفية اكتناف الضلال بهم في سائر أحوالهم، أي شدة ملابسته إياهم.

)ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد[12](الواو عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث المتقدمة في قوله تعالى)ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله(باعتبار كونها تضمنت

عجيب حاله في الضلالة من عنايته بلهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هزؤا، وباعتبار كون قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان؛ فقطع النظر عن كون قصة النضر سيقت مساق المقدمة والمدخل إلى المقصود لأن الكلام لما طال في المقدمة خرجت عن سنن المقدمات إلى المقصودات بالذات فلذلك عطفت عطف القصص ولم تفصل فصل النتائج عقب مقدماتها. وقد تتعدد الاعتبارات للأسلوب الواحد فيتخير البليغ في رعيها كقوله تعالى)يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم(في سورة البقرة،)ويذبحون أبناءكم(في سورة إبراهيم، وافتتاح القصة بحر في التوكيد: لام القسم و)قد(للإنباء بأنها خبر عن أمر مهم واقع.

و)لقمان(اسم رجل حكيم صالح. وأكبر الروايات في شانه التي يعضد بعضها وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضي أنه كان من السود، فقيل هو من بلاد النوبة، وقيل من الحبشة.

وليس هو لقمان بن عاد الذي قال المثل المشهور إحدى حطيات لقمان والذي ذكره أبو المهوش الأسدي أو يزيد بن عمر يصعق في قوله:

تراه يطوف الآفاق حرصا ليأكل رأس لقمان بن عاد

ويعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه لقيم وبعضهم ذكر أن اسم أبيه باعوراء، فسبق إلى أوهام بعض المؤلفين أنه المسمى في كتب اليهود بلعام بن باعوراء المذكور خبره في الإصحاحين 22 و23 من سفر العدد، ولعل ذلك وهم لأن بلعام ذلك رجل من أهل مدين كان نبيا في زمن موسى عليه السلام، فلعل التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظن أن بلعام يرادغ معنى لقمان لأن بلعام من البلع ولقمان من اللقم فيكون العرب سموه بما يرادف اسمه في العبرانية.

وقد اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيما أو نبيا. فالجمهور قالوا: كان حكيما صالحا. واعتمد مالك في الموطأ على الثاني، فذكره في جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة. وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة ويظهر من الآيات المذكورة في

قصته هذه أنه لم يكن نبيا لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة. والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئ إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى)وهو يعظه(وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع.

وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود)وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب(. وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى)ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا(بما يشمل النبوءة. وإن الحكمة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه وأعلاها النبوءة لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفا لما هي عليه في نفس الأمر إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء. وسيأتي أن إيراد قوله تعالى)ووصينا الإنسان بوالديه(في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول.

وذكر أهل التفسير والتاريخ أنه كان في زمن داود. وبعضهم يقول إنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، فتعين أنه عاش في بلاد إسرائيل. وذكر بعضهم أنه كان عبدا فأعتقه سيده وذكر ابن كثير عن مجاهد: أن لقمان كان قاضيا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام، ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين. قيل كان راعيا لغنم وقيل كان نجارا وقيل خياطا. وفي تفسير ابن كثير عن ابن وهب أن لقمان كان عبدا لبني الحسحاس وبنو الحسحاس من العرب وكان من عبيدهم سحيم العبد الشاعر المخضرم الذي قتل في مدة عثمان.

وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال. وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في الموطأ بلاغين في كتاب الجامع وذكر حكمة له في كتاب جامع العتبية وذكر منها أحمد بن حنبل في مسنده ولا نعرف كتابا جمع حكمة لقمان.

وفي تفسير القرطبي قال وهب بن منبه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب. ولعل هذا إن صح عن وهب بن منبه كان مبالغة في الكثرة.

وكان لقمان معروفا عند خاصة العرب. قال ابن إسحاق في السيرة: قدم سويد ابن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمرا فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما معك؟ قال: مجلة لقمان. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعرضها علي، فعرضها عليه،

فقال: إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله. قال ابن إسحاق: فقدم المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج وكان قتله قيل يوم بعاث. وكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قومه يدعونه الكامل اه. وفي الاستيعاب لبن عبد البر: أنا شاك في إسلامه كما شك غيري.

وقد تقدم في صدر الكلام على هذه السورة أن قريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لقمان وابنه وذلك يقتضي أنه كان معروفا للعرب.

وقد انتهى الي حين كتابة هذا التفسير من حكم لقمان المأثورة ثمان وثلاثون حكمة غير ما ذكر في هذه الآية وسنذكرها عند الفراغ من تفسير هذه الآيات.

والإيتاء: الإعطاء، وهو مستعار هنا للإلهام أو الوحي.

صفحة : 3270

ولقمان: اسم علم مادته مادة عربية مشتق من اللقم. والأظهر أن العرب عربوه بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم كما عربوا شاول باسم طالوت وهو ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون لا للعجمة.

وتقدم تعريف الحكمة عند قوله تعالى)يؤتي الحكمة من يشاء(في سورة البقرة وقوله)ادع إلى سبيل ربك بالحكمة(في سورة النحل.

و)أن(في قوله)أن اشكر لله(تفسيرية وليست تفسيرا لفعل) آتينا(لأنه نصب مفعوله وهو الحكمة، فتكون)أن(مفسرة للحكمة باعتبار أن الحكمة هنا أقوال أوحيت إليه أو ألهمها فيكون في الحكمة معنى القول دون حروفه فيصلح أن تفسر ب)أن(التفسيرية، كما فسرت حاجة في قول الشاعر الذي لم يعرف وهو من شواهد العربية :

إن تحملا حاجة لي خف محملها
تستوجبا منة عندي بـهـا ويدا
أن تقرءان علي أسماء ويحكمـا مني

السلام وأن لا تخبرا أحدا والصوفية وحكماء الإشراق يرون خواطر الأصفياء حجة ويسمونها إلهاما.

ومال إليه جم من علمائنا. وقد قال قطب الدين الشبرازي في ديباجة شرحه على المفتاح أما بعد إني قد ألقي إلي على سبيل الإنذار، من حضرة الملك الجبار، بلسان الإلهام، إلا كوهم من

الأوهام، ما أورثني التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار السرور الخ.

وكان أول ما لقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله يشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها. وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء وقبل التصدي لإرشاد غيره، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة والشعور بموجده ومفيض الكمال عليه، وذلك كله مقتض لشكر موجده على ذلك.

وأيضا فإن شكر الله من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق على حسب قابلياتهم بطريقة التشريع تارة والموعظة أخرى، والتعليم لقابليه مع حملهم على العمل بما علموه من ذلك، وذلك العمل من الشكر إذ الشكر قد عرف بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من مواهب ونعم فيما خلق لأجله، فكان شكر الله هو الأهم في الأعمال المستقيمة فلذلك كان رأس الحكمة لأن من الحكمة تقديم العلم بالأنفع على العلم بما هو دونه، فالشكر هو مبدأ الكمالات علما، وغايتها عملا.

وللتنبيه على هذا المعنى أعقب الله الشكر المأمور به ببيان أن فائدته لنفس الشاكر لا للمشكور بقوله)ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه(لأن آثار شكر الله كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئا لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين، ولذلك جيء به في صورة الشرط لتحقيق التعلق بين مضمون الشرط ومضمون الجزاء فإن الشرط أدل على ذلك من الإخبار.

وجيء بصيغة حصر نفع الشكر في الثبوت للشاكر بقوله)فإنما يشكر لنفسه(أي ما يشكر إلا لفائدة نفسه، ولام التعليل مؤذنة بالفائدة. وزيد ذلك تبينا بعطف ضده بقوله)ومن كفر فإن الله غني حميد(لإفادة أن الإعراض عن الشكر بعد استشعاره كفر للنعمة وأن الله غني عن شكره بخلاف شأن المخلوقات إذ يكسبهم الشكر فوائد بين بني جنسهم تجر إليهم منافع الطاعة أو الإعانة أو الإغناء أو غير ذلك من فوائد الشكر للمشكورين على تفاوت مقاماتهم، والله غني عن جميع ذلك، وهو حميد، أي كثير المحمودية بلسان حال الكائنات كلها حتى حال الكافر به كما قال تعالى)ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها(.

ومن بلاغة القرآن وبديع إيجازه أن كان قوله)أن اشكر لله(جامعا لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان، ولأمره بالشكر على ذلك، فقد جمع

قوله)أن أشكر لله(الإرشاد إلى الشكر، مع الشروع في الأمر المشكور عليه تنبيها على المبادرة بالشكر عند حصول النعمة.
وإنما قوبل الإعراض عن الشكر بوصف الله بأنه حميد لأن الحمد والشكر متقاربان، وفي الحديث الحمد رأس الشكر ، فلما لم يكن في أسماء الله تعالى اسم من مادة الشكر إلا اسمه الشكور وهو بمعنى شاكر، أي شاكر لعباده عبادتهم إياه عبر هنا باسمه) حميد(.
وجيء في فعل)يشكر(بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد.

صفحة : 3271

واللام في قوله)أن أشكر لي(داخلة على مفعول الشكر وهي لام ملتزم زيادتها مع مادة الشكر للتأكيد والتقوية، وتقدم في قوله)واشكروا لي(في سورة البقرة.
)وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم[13](عطف على جملة)آتينا لقمان الحكمة(لان الواو نائبة مناب الفعل فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من الحكمة لا محالة، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.
و)إذ(ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف، أي والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه. وهذا انتقال من وصفه بحكمة الاهتداء إلى وصفه بحكمة الهدي والإرشاد. ويجوز أن يكون)إذ قال(ظرفا متعلقا بفعل اذكر محذوفا.
وفائدة ذكر الحال يقوله)وهو يعظه(الإشارة إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركا فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده، فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف قال تعالى)فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا(ويعرف المزجور عنه بمتعلق فعل الموعظة فتعين أن الزجر هنا عن الإشراك بالله. ولعل ابن لقمان كان يدين بدين قومه من السودان فلما فتح الله على لقمان بالحكمة والتوحيد أبى ابنه متابعته فأخذ يعظه حتى دان بالتوحيد، وليس استيطان لقمان بمدينة داود مقتضيا أن تكون عائلته تدين بدين اليهودية.

وأصل النهي عن الشيء أن يكون حين التلبس بالشيء المنهي عنه أو عند مقاربة التلبس به، والأصل ان لا ينهي عن شيء منتف عن المنهي. وقد ذكر المفسرون اختلافا في اسم ابن لقمان فلا داعي إليه.

وقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس.

وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام كما تقدم عند قوله تعالى)يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا(وقوله)يا بني لا تقصص رؤياك(في سورة يوسف وقوله)إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء(في سورة العقود وقوله تعالى)إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر(في سورة مريم.

و)بني(تصغير ابن مضافا إلى ياء المتكلم فلذلك كسرت الياء. وقرأه الجمهور بكسر ياء)بني(مشددة. وأصله: يا بنييي بثلات ياءات إذ أصله الأصيل يا بنيوي لأن كلمة ابن واوية اللام الملتزمة حذفها فلما صغر رد إلى أصله، ثم لما التقت ياء التصغير ساكنة قبل واو الكلمة المتحركة بحركة الإعراب قلبت الواو ياء لتقاربهما وأدغمتا، ولما نودي وهو مضاف إلى ياء المتكلم حذفت ياء المتكلم لجواز حذفها في النداء وكراهية تكرر الأمثال، وأشير إلى الياء المحذوفة بإلزامه الكسر في أحوال الإعراب الثلاثة لأن الكسرة دليل على ياء المتكلم. وتقدم في سورة يوسف.

والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة.

ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل الإصلاح العمل. وكان أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين هما الدهرية والإشراك، فكان قوله)لا تشرك بالله(يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته.

وقرأ حفص عن عاصم في المواضع الثلاثة في هذه السورة)يا بني(بفتح الياء مشددة على تقدير: يا بنيا بالألف وهي اللغة الخامسة في المنادي المضاف إلى ياء المتكلم ثم حذفت الألف واكتفي بالفتحة عنها، وهذا سماع.

وجملة)إن الشرك لظلم عظيم(تعليل للنهب عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها.

وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودل عليه الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم(شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه)يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم(.

وجوز ابن عطية أن يكون جملة)إن الشرك لظلم عظيم(من كلام الله تعالى أي معترضة بين كلم لقمان. فقد روي عن ابن مسعود أنهم لما قالوا ذلك أنزل الله تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(وانظر من روى هذا ومقدار صحته.

)ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير[14] وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون[15](إذا درجنا على أن لقمان لم يكن نبيا مبلغا عن الله وإنما كان حكيما مرشدا كان هذا الكلام اعتراضا بين كلامي لقمان لأن صيغة هذا الكلام مصوغة على أسلوب الإبلاغ والحكاية لقول من أقوال الله. والضمائر ضمائر العظمة جرته مناسبة حكاية نهي لقمان لابنه عن الإشراك وتفظيعه بأنه عظيم. فذكر الله هذا لتأكيد ما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلا يتوهم متوهم أن النهي خاص بابن لقمان أو ببعض الأحوال فحكى الله أن الله أوصى بذلك كل إنسان وأن لا هوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الإشراك. وأحسن من هذه المناسبة أن تجعل مناسبة هذا الكلام أنه لما حكي وصاية لقمان لابنه بما هو شكر الله بتنزيهه عن الشرك في الإلهية بين الله أنه تعالى أسبق منة على عباده إذ أوصى الأبناء ببر الآباء فدخل في العموم المنة على لقمان جزاء على رعيه لحق الله في ابتداء موعظة ابنه فالله أسبق بالإحسان إلى الذين أحسنوا

برعي حقه. ويقوي هذا التفسير اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر.

وإذا درجنا على أن لقمان كان نبيا فهذا الكلام مما أبلغه لقمان لابنه وهو مما أوتيه من الوحي ويكون قد حكي بالأسلوب الذي أوحي به إليه على نحو أسلوب قوله)أن اشكر لله(. وهذا الاحتمال أنسب بسياق الكرم، ويرجحه اختلاف الأسلوب بينها وبين آيتي سورة العنكبوت وسورة الأحقاف لأن ما هنا حكاية ما سبق في أمة أخرى والأخريين خطاب أنف لهذه الأمة. وقد روي أن لقمان لما أبلغ ابنه هذا قال له: إن الله رضيني لك فلم يوصيني بك ولم يرضك لي فأوصاك بي.

والمقصود من هذا الكلام هو قوله)وإن جاهداك على أن تشرك بي(إلى آخره وما قبله تمهيد له وتقرير لواجب بر الوالدين ليكون النهي عن طاعتهما إذا أمرا بالإشراك بالله نهيا عنه في أولى الحالات بالطاعة حتى يكون النهي عن الشرك فيما دون ذلك من الأحوال مفهوما بفحوى الخطاب مع ما في ذلك من حسن الإدماج المناسب لحكمة لقمان سواء كان هذا من كلام لقمان أو كان من جانب الله تعالى.

وعلى كلا الاعتبارين لا يحسن ما ذهب إليه جمع من المفسرين أن هذه الآية نزلت في قضية إسلام سعد بن أبي وقاص وامتعاض أمه، لعدم مناسبته السياق، ولأنه قد تقدم أن نظير هذه الآية في سورة العنكبوت نزل في ذلك، وأنها المناسبة لسبب النزول فإنها أخليت عن الأوصاف التي فيها ترقيق على الأم بخلاف هذه، ولا وجه لنزول آيتين في غرض واحد ووقت مختلف وسيجيء بيان الموصى به.

والوهن بسكون الهاء مصدر وهن يهن من باب ضرب. ويقال: وهن، بفتح الهاء على أنه مصدر وهن يوهن كوجل يوجل. وهو الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء.

صفحة : 3273

وانتصب)وهنا(على الحال من)أمه(مبالغة في ضعفها حتى كأنها نفس الوهن، أي واهنة في حمله، و)على وهن(صفة ل)وهنا(أي وهنا واقعا على وهن، كما يقال: رجع عودا على بدء، إذا استأنف عملا فرغ منه فرجع إليه، أي بعد بدء، أو)على(بمعنى مع كما في قول الأحوص:

إني على ما قد علمت محسد أنمي

على البغضاء والشنآن فإن حما المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين

في البطن، والضعف من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين، ولا يزال ذلك الضعف يتزايد بامتداد زمن الحمل فلا جرم أنه وهن على وهن.
وجملة)حملته أمه وهنا على وهن(في موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصدا لتأكيد تلك الوصاية لأن تعليل الحكم يفيده تأكيدا، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبر بأمه ويستتبع البر بأبيه.
وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما وهي الأم اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضي الوصاية بالأب أيضا للقياس فإن الأب يلاقي مشاق وتعبا في القيام على الأم لتتمكن من الشغل بالطفل في مدة حضانته ثم هو يتولى تربيته والذب عنه حتى يبلغ أشده ويستغني عن الإسعاف كما قال تعالى)وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا(، فجمعهما في التربية في حال الصغر مما يرجع إلى حفظه وإكمال نشأته. فلما ذكرت هنا الحالة التي تقتضي البر بالأم من الحمل والإرضاع كانت منبهة إلى ما للأب من حالة تقتضي البر به على حساب ما تقتضيه تلك العلة في كليهما قوة وضعفا. ولا يقدح في القياس التفاوت بين المقيس والمقيس عليه في قوة الوصف الموجب للإلحاق. وقد نبه على هذا القياس تشريكهما في التحكم عقب ذلك بقوله)أن اشكر لي ولوالديك(وقوله)وصاحبهما في الدنيا معروفا(.
وحصل من هذا النظم قضاء حق الإيجاز.
وأما رجحان الأم في هذا الباب عند التعارض في مقتضيات البرور تعارضا لا يمكن معه الجمع فقال ابن عطية في تفسيره: شرك الله في هذه الآية الأم والأب في رتبة الوصية بهما ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ودرجة الرضاع فتحصل للأم ثلاث مراتب وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل: من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال:ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك. فجعل له الربع من المبرة. وهذا كلام منسوب مثله لابن بطال في شرح صحيح البخاري. ولا يخفى أن مساق الحديث لتأكيد البر بالأم إذ قد يقع التفريط في الوفاء بالواجب للأم من الابن اعتمادا على ما يلاقيه من اللين منها بخلاف جانب الأب فإنه قوي ولأبنائه توق من شدته عليهم، فهذا هو مساق الحديث. ولا معنى لأخذه على ظاهره حتى نذهب إلى تجزئة البر بين الأم والأب أثلاثا أو أرباعا. وهو ما استشكله القرافي في فائدة من الفرق الثالث والعشرين، وحسبنا نظم هذه الآية البديع في هذا الشأن. وأما لفظ الحديث فهو مسوق لتأكيد البر بالأم خشية التفريط فيه. وليس معنى ثم فيه إلا محاكاة قول السائل ثم من بقرينة أنه عطف بها لفظ الأم في المرتين ولا معنى

لتفضيل الأم على نفسها في البر. وإذ كان السياق مسوقا للاهتمام تعين أن عطف الأب على الأم في المرة الثالثة عطف في الاهتمام فلا ينتزع منه ترجيح عند التعارض. ولعل الرسول عليه الصلاة والسلام علم من السائل إرادة الترخيص له في عدم البر. وقد قال مالك سأله: أن أباه في بلد السودان كتب إليه أن يقدم عليه وأن أمه منعته فقال له مالك: أطع أباك ولا تعص أمك. وهذا يقتضي إعراضه عن ترجيح جانب أحد الأبوين وأنه متوقف في هذا التعارض ليحمل الابن على ترضية كليهما. وقال الليث: يرجح جانب الأم. وقال الشافعي: يرجح جانب الأب.

وجملة)وفصاله في عامين(عطف على جملة)حملته أمه(الخ، فهي في موقع الحال أيضا. وفي الجملة تقدير ضمير رابط إياها بصاحبها، إذ التقدير: وفصالها إياه، فلما أضيف الفصال إلى مفعوله علم أن فاعله هو الأم.

والفصال: اسم للفطام، فهو فصل عن الرضاعة. وتقدم في قوله) فإن أرادا فصالا(في سورة البقرة. وذكر الفصال في معرض تعليل حقية الأم بالبر، لأنه يستلزم الإرضاع من قبل الفصال، وللإشارة إلى ما تتحمله الأم من كدر الشفقة على الرضيع حين فصاله، وما تشاهده من حزنه وألمه في مبدأ فطامه.

صفحة : 3274

وذكر لمدة فطامه أقصاها وهو عامان لأن ذلك أنسب بالترقيق على الأم، وأشير إلى أنه قد يكون الفطام قبل العامين بحرف الظرفية لأن الظرفية تصدق مع استيعاب المظروف جميع الظرف، ولذلك فموقع في أبلغ من موقع من التبعيضية في قول سبرة بن عمرو الفقعسي:

ونشرب في أثمانها ونقامر لأنه يصدق بأن يستغرق الشراب والمقامرة كامل أثمان إبله. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى) وارزقوهم فيها واكسوهم(في سورة النساء. وقد حمله علي بن أبي طالب أو ابن عباس على هذا المعنى فأخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر جمعا بين هذه الآية وآية سورة الأحقاف كما سيأتي هنالك.

وجملة)أن أشكر لي ولوالديك(تفسير لفعل)وصينا(. و أن تفسيرية، وإنما فسرت الوصية بالوالدين بما فيه الأمر بشكر الله مع شكرهما على وجه الإدماج تمهيدا لقوله)وإن جاهداك على أن تشرك بي(الخ.

وجملة)إلى المصير(استئناف للوعظ والتحذير من مخالفة ما أوصى الله به من الشكر له. وتعريف)المصير(تعريف الجنس، أي مصير الناس كلهم. ولك أن تجعل أل عوضا عن المضاف إليه. وتقديم المجرور للحصر، أي ليس للأصنام مصير في شفاعة ولا غيرها.

وتقدم الكلام على نظير قوله)وإن جاهداك لتشرك بي(إلى)فلا تطعهما(في سورة العنكبوت؛ سوى أنه قال هنا)على أن تشرك بي(وقال في سورة العنكبوت)لتشرك بي(فأما حرف على فهو أدل على تمكن المجاهدة، أي مجاهدة قوية للإشراك، والمجاهدة: شدة السعي والإلحاح. والمعنى: إن ألحا وبالغا في دعوتك إلى الإشراك بي فلا تطعهما. وهذا تأكيد للنبي عن الإصغاء إليهما إذا دعوا إلى الإشراك.

وأما آية العنكبوت فجيء فيها بلام العلة لظهور أن سعدا كان غنيا عن تأكيد النهي عن طاعة أمه لقوة إيمانه.

وقال القرطبي: إن امرأة لقمان وابنه كانا مشركين فلم يزل لقمان يعظهما حتى آمنا، وبه يزيد ذكر مجاهدة الوالدين على الشرك اتضاحا.

والمصاحبة: المعاشرة. ومنه حديث معاوية بن حيدة)أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، الخ.

والمعروف: الشيء المتعارف المألوف الذي لا ينكر فهو الشيء الحسن، أي صاحب والديك صحبة حسنة. وانتصب)معروفا(على أنه وصف لمصدر محذوف مفعول مطلق ل)صاحبهما(، أي صحابا معروفا لأمثالهما. وفهم منه اجتناب ما ينكر في مصاحبتهما، فشمل ذلك معاملة الابن أبويه بالمنكر، وشمل ذلك أن يدعو الوالد إلى ما ينكره الله ولا يرضى به ولذلك لا يطاعان إذا أمرا بمعصية. وفهم من ذكر)وصاحبهما في الدنيا معروفا(أثر قوله)وإن جاهداك على أن تشرك بي(الخ، أن الأمر بمعاشرتهما بالمعروف شامل لحالة كون الأبوين مشركين فإن على الابن معاشرتهما بالمعروف ما الإحسان إليهما وصلتهما. وفي الحديث: أن أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أمي جاءت راغبة أفأصلها؟ فقال: نعم صلي أمك، وكانت مشركة وهي قتيلة بنت عبد العزى . وشمل المعروف ما هو معروف لهما أن يفعلاه في أنفسهما، وإن كان منكرا للمسلم فلذلك قال فقهاؤنا: إذا أنفق الولد على أبويه الكافرين الفقيرين وكان عادتهما شرب الخمر اشترى لهما الخمر لأن شرب الخمر ليس بمنكر للكافر، فإن كان الفعل منكرا في الدينين فلا يحل للمسلم أن يشايع أحد أبويه عليه.

واتباع سبيل من أناب هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي الراجعين إليه، وقد تقدم ذكر الإنابة في سورة الروم عند قوله)منيبين إليه(وفي سورة هود. فالمراد بمن أناب: المقلعون عن الشرك وعن المنهيات التي منها عقوق الوالدين وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتبعوهم في ذلك.

وجملة)ثم إلى مرجعكم(معطوفة على الجمل السابقة و) ثم(للتراخي الرتبي المفيد للاهتمام بما بعدها، أي وعلاوة على ذلك كله إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. وضمير الجمع للإنسان والوالدين، أي مرجع الجميع. وتقديم المجرور للاهتمام بهذا الرجوع أو هو للتخصيص، أي لا ينفعكم شيء مما تأملونه من الأصنام. وفرع على هذا)فأنبئكم(الخ. والإنباء كناية عن إظهار الجزاء على الأعمال لأن الملازمة بين إظهار الشيء وبين العلم به ظاهرة.

وجملة)ثم إلي مرجعكم(وعد ووعيد.

وفي هذه الضمائر تغليب الخطاب على الغيبة لأن الخطاب أهم لأنه أعرف.

صفحة : 3275

)يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير[16](تكرير النداء لتجديد نشاط السامع لوعي الكلام.

وقرأ نافع وأبو جعفر)إن تك مثقال(برفع)مثقال(على أنه فاعل) تك(من كان التامة. وإنما جيء بفعله بتاء المضارعة للمؤنثة، وأعيد عليه الضمير في قوله)بها(مؤنثا مع أن)مثقال(لفظ غير مؤنث لأنه أضيف إلى)حبة(فاكتسب التأنيث من المضاف إليه، وهو استعمال كثير إذا كان المضاف لو حذف لما اختل الكلام بحيث يستغني بالمضاف إليه عن المضاف، وعليه فضمير المفردة المؤنثة بتأويل القصة، ويختار تأنيث هذا الضمير إذا كان في القصة لفظ مؤنث كما في قوله تعالى)فإنها لا تعمي الأبصار(، ويكثر وقوع ضمير الشأن بعد)أن(كقوله تعالى)إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى(، ومن ذلك تقدير ضمير الشأن اسما لحرف)أن(المفتوحة المخففة، وهو يفيد الاهتمام بإقبال المخاطب على ما يأتي بعده، فاجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات: النداء، وإن، وضمير القصة، لعظم خطر ما بعده المقيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات، ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الممكنات بقرينة قوله)يأت بها الله(.

وقد أفيد ذلك بطريق دلالة الفحوى؛ فذكر أدق الكائنات حالا من حيث تعلق العلم والقدرة به، وذلك أدق الأجسام المختفي في أصلب مكان أو أقصاه وأعزه منالا، أو أوسعه وأشده انتشارا، ليعلم أن ما هو أقوى منه في الظهور والدنو من التناول أولى بأن يحيط به علم الله وقدرته.

وقرأه الباقون بنصب)مثقال(على الخبرية ل)تك(من) كان(الناقصة، وتقدير اسم لها يدل عليه المقام مع كون الفعل مسندا لمؤنث، أي إن تك الكائنة، فضمير)إنها(مراد منه الخصلة من حسنة أو سيئة أخذا من المقام.

والمثقال بكسر الميم: ما يقدر به النقل ولذلك صيغ على زنة اسم الآلة.

والحبة: واحدة الحب وهو بذر النبات من سنابل أو قطنية بحيث تكون تلك الواحدة زريعة لنوعها من النبات، وقد تقدم في سورة البقرة قوله)كمثل حبة أنبتت سبع سنابل(وقوله)إن الله فالق الحب والنوى(في سورة الأنعام.

والخردل: نبت له جذر وساق قائمة متفرعة أسطوانية أوراقها كبيرة يخرج أزهارا صغيرة صفرا سنبلية تتحول إلى قرون دقيقة مربعة الزوايا تخرج بزورا دقيقة تسمى الخردل أيضا، ولب تلك البزور شديد الحرارة يلدغ اللسان والجلد، وهي سريعة التفتق ينفتق عنها قشرها بدق أو إذا بلت بمائع، فتستعمل في الأدوية ضمادات على المواضع التي فيها التهاب داخلي من نزلة أو ذات جنب وهو كثير الاستعمال في الطب قديما وحديثا. وقد أخذ الأطباء يستغنون عنه بعقاقير أخرى. وتقدم نظير هذا في سورة الأنبياء)فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها(.

وقوله)أو في السماوات(عطف على)في صخرة(لأن الصخرة من أجزاء الأرض فذكر بعدها)أو في السماوات(على معنى أو كانت في أعز منالا من الصخرة، وعطف عليه)أو في الأرض(وإنما الصخرة جزء من الأرض لقصد تعميم الأمكنة الأرضية فإن الظرفية تصدق بهما، أي ذلك كله سواء في جانب علم الله وقدرته، كأنه قال: فتك في صخرة أو حيث كانت من العالم العلوي والعالم السفلي وهو معنى قوله)وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكثر إلا في كتاب مبين(.

والإتيان كناية عن التمكن منها، وهو أيضا كناية رمزية عن العلم بها لأن الإتيان بأدق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لا يكون إلا عن علم بكونها في ذلك المكان وعلم بوسائل استخراجها منه.

وجملة)إن الله لطيف خبير(يجوز أن تكون من كلام لقمان فهي كالمقصد من المقدمة أو كالنتيجة من الدليل، ولذلك فصلت ولم تعطف لأن النتيجة كبدل الاشتمال يشتمل عليها القياس ولذلك جيء بالنتيجة كلية بعد الاستدلال بجزئيه. وإنما لم نجعلها تعليلا لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق، وشرط التعليل أن يكون مسلما معلوما قبل العلم بالمعلل ليصح الاستدلال به.

ويجوز أن تكون معترضة بين كلام لقمان تعليما من الله للمسلمين.

صفحة : 3276

واللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة الكاملين، أي يعلم ويقدر وينفذ قدرته، وتقدم في قوله)وهو اللطيف الخبير(في الأنعام.

ففي تعقيب)يأت بها الله(بوصفه ب)اللطيف(إيماء إلى أن التمكن منها وامتلاكها بكيفية حقيقة تناسب قلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتها وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صنعه. وهنا قد استوفى أصول الاعتقاد الصحيح.

)يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور[17](انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وتقدم في أول سورة البقرة.

وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ليتطلب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك.

والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفسه لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم.

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثه في الناس وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه، ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه.

ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من بعض فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما.

ولما كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عد الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر مع قوله)ولا تصاعر خدك للناس(لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر.

والصبر: هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن. وقد تقدم في قوله تعالى)واستعينوا بالصبر والصلاة(في سورة البقرة.

وجملة)إن ذلك من عزم الأمور(موقعها كموقع جملة)إن الشرك لظلم عظيم(.

وجملة)إن الله لطيف خبير(يجوز أن تكون من كلام لقمان وأن تكون معترضة من كلام الله تعالى.

والإشارة ب)ذلك(إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب. والتأكيد للاهتمام.

والعزم مصدر بمعنى: الجزم والإلزام. والعزيمة: الإرادة التي لا تردد فيها.

و)عزم(مصدر بمعنى المفعول، أي من معزوم الأمور، أي التي عزمها الله وأوجبها.

)ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور[18](انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعد نفسه كواحد منهم.

وقرأ الجمهور)ولا تصاعر(. وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب)ولا تصعر(. يقال: صاعر وصعر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصغر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه فكأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال. قال عمرو بن حني التغلبي يخاطب بعض ملوكهم:

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له

من ميله فتقومش والمعنى: لا تحتقر الناس فالنهي عن الإعراض

عنهم احتقارا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك فهو قريب من قوله تعالى)فلا تقل لهما أف(إلا أن هذا تمثيل كنائي والآخر كناية لا تمثيل فيها.

صفحة : 3277

وكذلك قوله)ولا تمشي في الأرض مرحا(تمثيل كنائي عن النهي عن التكبر والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.
والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا فلذلك يسمى ذلك المشي مرحا كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي مشيا مرحا، وتقدم في سورة الإسراء. وموقع قوله)في الأرض(بعد)لا تمش(مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض هو الإيماء إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو لسائر الناس.
وموقع)إن الله لا يحب كل مخال فخور(موقع)إن الله لطيف خبير(كما تقدم. والمختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فعل خال إذا كان ذا خيلاء فهو خائل. والخيلاء: الكبر والازدهار، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، فقوله)إن الله لا يحب كل مختال(مقابل قوله)ولا تصاغر خدك للناس(، وقوله) فخور(مقابل قوله)ولا تمش في الأرض مرحا(.
والفخور: شديد الفخر. وتقدم في قوله)إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا(في سورة النساء.
ومعنى)إن الله لا يحب كل مختال فخور(أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين، ولا يخطر ببال أهل الاستعمال أن يكون مفادة أن الله لا يحب مجموع المختالين الفخورين إذا اجتمعوا بناء على ما ذكره عبد القاهر من أن)كل(إذا وقع في حيز النفي مؤخرا عن أداته ينصب النفي على الشمول، فإن ذلك إنما هو في)كل(التي يراد منها تأكيد الإحاطة لا في كل التي يراد منها الأفراد، والتعويل في ذلك على القرائن. على أنا نرى ما ذكره الشيخ أمر أغلبي غير مطرد في استعمال أهل اللسان ولذلك نرى صحة الرفع والنصب في لفظ كل في قول أبي النجم العجلي:
قد أصبحت أم الخيار تدعي علي ذنبا
كله لم أصنع وقد بينت ذلك في تعليقاتي على دلائل الإعجاز.

وموقع جملة)إن الله لا يحب كل مختل فخور(يجوز فيه ما مضى في جملة)إن الشرك لظلم عظيم(وجملة)إن الله لطيف خبير(، وجملة)إن ذلك من عزم الأمور(.

)واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[19](بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس قفاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه.

والقصد: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب ويقال: قصد في مشيه. فمعنى)أقصد في مشيك(ارتكب القصد.

والغض: نقص قوة استعمال الشيء. يقال: غض بصره، إذا خفض نظره فلم يحدق. وتقدم قوله تعالى)قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم(في سورة النور. فغض الصوت: جعله دون الجهر.

وجيء ب)من(الدالة على التبعيض لإفادة أنه بغض بعضه، أي بعض جهره، أي ينقص من جهورته ولكنه لا يبلغ به إلى التخافت والسرار.

وجملة)إن أنكر الأصوات لصوت الحمير(تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيها بليغا، أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات. ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظ من النكارة.

و)أنكر(: اسم تفضيل في كون الصوت منكورا، فهو تفضيل مشتق من الفعل المبني للمجهول ومثله سماعي وغير شاذ، ومنه قولهم في المثل)أشغل من ذات النحيين(أي أشد مشغولية من المرأة التي أريدت في هذا المثل.

وإنما جمع)الحمير(في نظم القرآن مع أن)صوت(مفردا ولم يقل الحمار لأن المعرف بلام الجنس يستوي مفرده وجمعه. ولذلك يقال: إن لام الجنس إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية. وإنما أوثر لفظ الجمع لأن كلمة الحمير أسعد بالفواصل لأن من محاسن الفواصل والأسجاع أن تجري على أحكام القوافي، والقافية المؤسسة بالواو أو الياء لا يجوز أن يرد معها ألف تأسيس فإن الفواصل المتقدمة من قوله)ولقد آتينا لقمان الحكمة(هي: حميد، عظيم، المصير، خبير، الأمور، فخور، الحمير، وفواصل القرآن تعتمد كثيرا على الحركات والمدود والصيغ دون تماثل الحروف وبذلك تخالف قوافي القصائد.

وهذا وفاء بما وعدت به عند الكلام على قوله تعالى)ولقد آتينا لقمان الحكمة(من ذكر ما انتهي إليه تتبعي لما أثر من حكمة لقمان غير ما في هذه السورة وقد ذكر الآلوسي في تفسيره منها ثمانيا وعشرين حكمة وهي: قوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها أناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوي الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا.

وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا، والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله: ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع.

وقوله: يا بني إياك والدين فإنه دل النهار وهم الليل.

وقوله: يا بني ارج الله عز وجل رجاء لا يجريك على معصيته تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤسك من رحمته تعالى شأنه.

وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم.

وقوله: يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمر من الفقر.

يا بني لا ترسل رسوله جاهلا فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك.

يا بني إياك والكذب فإنه شهي كالحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه.

يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا.

يا بني لا تأكل شبعا على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني لا تكن حلوا فتبلع ولا تكن مرا فتلفظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.

وقوله: لا خير لك في أن تتعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطبا فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى.

وقوله: يا بني إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

وقوله: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه.

يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة.

وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك.

وأنا أقفي عليها ما لم يذكره الآلوسي.

فمن ذلك ما في الموطأ فيما جاء في طلب العلم من كتاب الجامع: مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وفيه فيما جاء في الصدق والكذب من كتاب الجامع أنه بلغه أنه قيل للقمان ما بلغ بك ما نرى يريدون الفضل فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

وفي جامع المستخرجة للعتبي قال مالك: بلغني أن لقمان قال لابنه: يا بني ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة.

وفي أحكام القرآن لابن العربي عن مالك: أن لقمان قال لابنه: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون وهم إلى الآخرة سراعا يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن دارا تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها. وقال: ليس غني كصحة، ولا نعمة كطيب نفس. وقال: يا بني لا تجالس الفجار ولا تماشهم اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم، وقال: يا بني جالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

وفي الكشاف: أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وأن مولاه أمره بذبح شاة وأن يأتيه بأطيب مضغتين فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح أخرى وأن ألق منها أخبث مضغتين، فألقى اللسان والقلب؛ فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا.

ودخل على داود وهو يسرد الدروع فأراد أن يسأله عماذا يصنع فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها داود لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله.

وفي تفسير ابن عطية: قيل لقمان: أي الناس شر؟ فقال: الذي لا يبالي أن يراه الناس سيئا أو مسيئا.

وفي تفسير القرطبي: كان لقمان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى. فقيل له. فقال: ألا أكتفي إذا كفيت. وفيه: إن الحاكم بأشد المنازل وكدرها يغشاه المظلوم من كل مكان إن يصب فبالحري أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا. ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصب الآخرة.

وفي تفسير البيضاوي: أن داود سأل لقمان: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يدي غيري.

وفي درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي: قال لقمان لابنه: إن الله رضيني لك فلم يوصني بك ولم يرضك لي فأوصاك بي.

وفي الشفاء لعياض: قال لقمان لابنه: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وفي كتاب آداب النكاح لقاسم بن يأمون التليدي الأخماسي: أن من وصية لقمان: يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن في الرأس يلين العروق ويحسن الشعر، ومثلها كمثل التاج على رأس الملك، ومثلها كمثل اللؤلؤ والجوهر لا يدري أحد ما قيمته.

ومثل المرأة السوء كمثل السيل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه: إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرعت، وإذا قعدت رفعت، وإذا غضبت أسمعت. وكل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء.

يا بني لأن تساكن الأسد والأسود خير من أن تساكنها: تبكي وهي الظالمة، وتحكم وهي الجائرة، وتنطق وهي الجاهلة وهي أفعى بلدغها.

وفي مجمع البيان للطبرسي: يا بني سافر بسيفك وخفك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقا إلا في معصية الله عز وجل. يا بني إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم وكن كريما على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تثبت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد وتنام وتأكل وتصلي وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإن من لم يمحض النصيحة من استشاره سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا

رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سنا. وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئا فقل نعم ولا تقل لا فإن لا عي ولؤم، وإذا تحيرتم في الطريق فأنزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصا واحدا فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب لعله يكون عين اللصوص أو يكون هو الشيطان الذي حيركم. واحذروا الشخصين أيضا إلا أن تروا ما لا أرى لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئا عرف الحق منه والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلها واسترح منها فإنها دين، وصل في جماعة ولو على رأس زج. وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة وأكثرها عشبا. وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب عن الأرض. وإذا ارتحلت فصل ركعتين ثم ودع الأرض التي حللت بها وسلم على أهلها فإن لكل بقعة أهلا من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاما حتى تبتدئ فتتصدق منه فافعل. وعليك بقراءة كتاب الله لعله يعني الزبور ما دمت راكبا، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملا عملا، وعليك بالدعاء ما دمت خاليا. وإياك والسير في أول الليل إلى آخره. وإياك ورفع الصوت في مسيرك.

فقد استتقصينا ما وجدنا من حكمة لقمان مما يقارب سبعين حكمة.

)ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة(رجوع إلى تعداد دلائل الوحدانية وما صحب ذلك من منة على الخلق، فالكلام استئناف ابتدائي عن الكلام السابق ورجوع إلى ما سلف في أول السورة في قوله تعالى)خلق السماوات بغير عمد(فإنه بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والحيوان والأمطار عاد هنا الاستدلال والامتنان بأن سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض. وقد مضى الكلام على هذا التسخير في تفسير قوله تعالى)الله الذي خلق السماوات والأرض(الآيات من سورة إبراهيم، وكذلك في سورة النحل.

صفحة : 3280

ومعنى)سخر لكم(لأجلكم لأن من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها. والخطاب في)ألم تروا(يجوز أن يكون لجميع

الناس مؤمنهم ومشركهم لأنه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال.
والاستفهام في)ألم تروا(تقرير أو إنكار لعدم الرؤية بتنزيلهم منزلة من لم يروا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية. والرؤية بصرية. ورؤية التسخير رؤية آثاره ودلائله.
ويجوز أن تكون الرؤية علمية كذلك، والخطاب للمشركين كما في قوله)خلق السماوات بغير عمد ترونها(.
وإسباغ النعم: إكثارها. وأصل الإسباغ: جعل ما يلبس سابغا، أي وافيا في الستر. ومنه قولهم: درع سابغة. ثم استعير للإكثار لأن الشيء السابغ كثير فيه ما يتخذ منه من سرد أو شقق أثواب، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقيى فقيل: سوابغ النعم.
والنعمة: المنفعة التي يقصد بها فاعلها الإحسان إلى غيره.
وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر)نعمة(بصيغة جمع نعمة مضاف إلى ضمير الجلالة، وفي الإضافة إلى ضمير الله تنويه بهذه النعم. وقرأ الباقون)نعمة(بصيغة المفرد، ولما كان المراد الجنس استوى فيه الواحد والجمع.
والتنكير فيها للتعظيم فاستوى القراءتان في إفادة التنويه بما أسبغ الله عليهم.
وانتصب)ظاهرة وباطنة(على الحال على قراءة نافع ومن معه، وعلى الصفة على قراءة البقية.
والظاهرة: الواضحة. والباطنة: الخفية وما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلا.
وأصل الباطنة المستقرة في باطن الشيء أي داخله، قال تعالى) باطنه فيه الرحمة(فكم في بدن الإنسان وأحواله من نعم يعلمها الناس أو لا يعلمها بعضهم، أو لا يعلمها إلا العلماء، أو لا يعلمها أهل عصر ثم تنكشف لمن بعدهم، وكلا النوعين أصناف دينية ودنوية.
)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير[20] وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير[21]
(الواو في قوله)ومن الناس من يجادل(واو الحال. والمعنى: قد رأيتم أن الله سخر لكم ما في السماوات وأنعم عليكم نعما ضافية في حال أن بعضكم يجادل في وحدانية الله ويتعامى عن دلائل وجدانيته. وجملة الحال هنا خبر مستعمل في التعجيب من حال هذا الفريق.

ولك أن تجعل الواو اعتراضية والجملة معترضة بين جملة)ألم تروا أن الله سخر لكم(وبين جملة)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض(.

وقوله)ومن الناس(من الإظهار في مقام الإضمار كأنه قيل: ومنكم، و)من(تبعيضية. والمراد بهذا الفريق: هم المتصدون لمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم والتمويه على قومهم مثل النضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وعبد الله بن الزبعري.

وشمل قوله)بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير(مراتب اكتساب العلم وهي إما: الاجتهاد والاكتساب، أو التلقي من العالم، أو مطالعة الكتب الصائبة.

وتقدم تفسير نظير هذه الآية في سورة الحج.

وجملة)وإذا قيل لهم(الخ عطف على صلة من ، أي من حالهم هذا وذاك، وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة.

والضمير المنصوب في قوله)يدعوهم(عائد إلى الآباء، أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو الآباء إلى العذاب فهم يتبعونهم إلى العذاب ولا يهتدون. و)لو(وصلية، والواو معه للحال.

والاستفهام تعجيبي من فظاعة ضلالهم وعماهم بحيث يتبعون من يدعوهم إلى النار، وهذا ذم لهم. وهو وزان قوله في آية البقرة)أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا(. والدعاء إلى عذاب السعير: الدعاء إلى أسبابه. والسعير تقدم في قوله تعالى)كلما خبت زدناهم سعيرا(في سورة الإسراء.

)ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور[22](

صفحة : 3281

هذا مقابل قوله)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم(إلى قوله)يدعوهم إلى عذاب السعير(، فأولئك الذين اتبعوا ما وجدوا آباءهم عليه من الشرك على غير بصيرة فوقعوا في العذاب، وهؤلاء الذين لم يتمسكوا بدين آباءهم وأسلموا لله لما دعاهم إلى الإسلام فلم يصدهم عن اتباع الحق إلف ولا تقديس آباء، فأولئك تعلقوا بالأوهام واستمسكوا بها لإرضاء أهوائهم، وهؤلاء استمسكوا بالحق إرضاء للدليل وأولئك أرضوا الشيطان وهؤلاء اتبعوا رضى الله.

وإسلام الوجه إلى الله تمثيل لإفراده تعالى بالعبادة كأنه لا يقبل بوجهه على غير الله، وقد تقدم في قوله تعالى)بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن(في سورة البقرة، وقوله)فقل أسلمت وجهي لله(في سورة آل عمران.

وتعدية فعل)يسلم(بحرف)إلى(هنا دون اللام كما في آيتي سورة البقرة وسورة آل عمران عند الزمخشري مجاز في الفعل بتشبيه نفس الإنسان بالمتاع الذي يدفعه صاحبه إلى آخر ويكله إليه.
وحقيقته أن يعدى بالملام، أي وجهه وهو ذاته سالما لله، أي خالصا له كما في قوله تعالى)فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله(في سورة آل عمران.
والإحسان: العمل الصالح والإخلاص في العبادة. وفي الحديث الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(.
والمعنى: ومن يسلم إسلاما لا نفاق فيه ولا شك فقد أخذ بما يعتصم به من الهوي أو التزلزل.
وقوله)فقد استمسك بالعروة الوثقى(مصي الكلام على نظيره عند قوله تعالى)فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى(في سورة البقرة، وهو ثناء على المسلمين.
وتذييل هذا بقوله)وإلى الله عاقبة الأمور(إيماء إلى وعدهم بلقاء الكرامة عند الله في آخر أمرهم وهو الحياة الآخرة.
والتعريف في)الأمور(للاستغراق، وهو تعميم يراد به أن أمور المسلمين التي هي من مشمولات عموم الأمور صائرة إلى الله وموكولة إليه فجزاؤهم بالخير مناسب لعظمة الله.
والعاقبة: الحالة الخاتمة والنهاية.
والأمور: جمع أمر وهو الشأن.
وتقديم)إلى الله(للاهتمام والتنبيه إلى أن الراجع إليه يلاقي جزاءه وافيا.
)ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور[23](لما خلا ذم الذين كفروا عن الوعيد وانتقل منه إلى مدح المسلمين ووعدهم عطف عنان الكلام إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بتهوين كفرهم عليه تسلية له وتعريضا بقلة العبء بهم لأن مرجعهم إلى الله فيريهم الجزاء المناسب لكفرهم، فهو تعريض لهم بالوعيد.
وأسند النهي إلى كفرهم عن أن يكون محزنا للرسول صلى الله عليه وسلم مجازا عقليا في نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن مداومة الفكر بالحزن لأجل كفرهم لأنه إذا قلع ذلك من نفسه انتفى إحزان كفرهم إياه.
وقرأ نافع)يحزنك(بضم التحتية وكسر الزاي مضارع أحزنه إذا جعله حزينا. وقرأ البقية)يحزنك(بفتح التحتية وضم الزاي مضارع حزنه بذلك المعنى، وهما لغتان: الأولى لغة تميم، والثانية لغة قريش، والأولى أقيس وكلتاهما فصحى ولغة تميم من اللغات التي نزل بها القرآن وهي لغة عليا تميم وهم بنو دارم كما تقدم في

المقدمة السادسة. وزعم أبو زيد والزمخشري: أن المستفيض أحزن في الماضي ويحزن في المستقبل، يريدان الشائع على ألسنة الناس، والقراءة رواية وسنة. وتقدم في سورة يوسف)إني ليحزنني(وفي سورة الأنعام)قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون(.

وجملة)إلينا مرجعهم(واقعة موقع التعليل للنهي، وهي أيضا تمهيد لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله يتولى الانتقام منهم المدلول عليه بقوله)فنبئهم(مفرعا على جملة)إلينا مرجعهم(كناية عن المجازاة؛ استعمل الإنباء وأريد لازمه وهو الإظهار كما تقدم آنفا.

وجملة)إن الله عليم بذات الصدور(تعليل لجملة)فنبئهم بما عملوا(، فموقع حرف إن هنا مغن عن فاء التسبب كما في قول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير وذات الصدور: هي النوايا وأعراض النفس من نحو الحقد وتدبير المكر والكفر. ومناسبته هنا أن كفر المشركين بعضه إعلان وبعضه إسرار قال تعالى)وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور(، وتقدم في قوله تعالى)إنه عليم بذات الصدور(في سورة الأنفال.

صفحة : 3282

)نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ[24](استئناف بياني لأن قوله)إلينا مرجعهم فننبئهم بما علموا(يثير في نفوس السامعين سؤالا عن عدم تعجيل الجزاء إليهم، فبين بأن الله يمهلهم زمنا ثم يوقعهم في عذاب لا يجدون منه منجي. وهذا الاستئناف وقع معترضا بين الجمل المتعاطفة.

والتمتيع: العطاء الموقت فهو إعطاء المتاع، أي الشيء القليل. و)قليلا(صفة لمصدر مفعول مطلق، أي تمتيعا قليلا، وقلته بالنسبة إلى ما أعد الله للمسلمين أو لقلة مدته في الدنيا بالنسبة إلى مدة الآخرة، وتقدم عند قوله)ومتاع إلى حين(في الأعراف.

والاضطرار: الإلجاء، وهو جعل الغير ذا ضرورة، أي لزوم، وتقدم عند قوله تعالى)ثم أضطره إلى عذاب النار(في سورة البقرة.

والغليظ: من صفات الأجسام وهو القوي الخشن، وأطلق على الشديد من الأحوال على وجه الاستعارة بجامع الشدة على النفس وعدم الطاقة على احتماله. وتقدم قوله)ونجيناهم من عذاب غليظ(في سورة هود كما أطلق الكثير على القوي.

)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[25](عطف على جملة)وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا(باعتبار أن ما وجدوا عليه آباءهم هو الإشراك مع الله في الإلهية، وإن سألهم سائل: من خلق السماوات والأرض يقولوا خلقهن الله، وذلك تسخيف لعقولهم التي تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلهية غيره.

والمراد بالسماوات والأرض: ما يشمل ما فيها من المخلوقات ومن بين ذلك حجارة الأصنام، وتقدم نظيرها في سورة العنكبوت. وعبر هنا ب)لا يعلمون(وفي سورة العنكبوت ب)لا يعقلون(تفننا في المخالفة بين القصتين مع اتحاد المعنى.

)لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد[26](موقع هذه الجملة من التي قبلها موقع النتيجة من الدليل في قوله)لله ما في السماوات(فلذلك فصلت ولم تعطف لأنها بمنزلة بدل الاستمال من التي قبلها، كما تقدم آنفا في قوله)يأت بها الله إن الله لطيف خبير(؛ فإنه لما تقرر إقرارهم لله بخلق السماوات والأرض لزمهم إنتاج أن ما في السماوات والأرض ملك لله ومن جملة ذلك أصنامهم. والتصريح بهذه النتيجة لقصد التهاون بهم في كفرهم بأن الله يملكهم ويملك ما في السماوات والأرض، فهو غني عن عبادتهم محمود من غيرهم.

وضمير)هو(ضمير فصل مفاده اختصاص الغني والحمد بالله تعالى، وهو قصر قلب، أي ليس لآلهتهم المزعومة غني ولا تستحق حمدا.

وتقدم الكلام على الغني الحميد عند قوله)فان الله غني حميد(أول السورة.

)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم[27](تكرر فيما سبق من هذه السورة وصف الله تعالى بإحاطة العلم بجميع الأشياء ظاهرة وخفية فقال فيما حكى من وصية لقمان)إنها إن تك مثقال حبة من خردل(إلى قوله)لطيف خبير(، وقال بعد ذلك)فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور(فعقب ذلك بإثبات أن لعلم الله تعالى مظاهر يبلغ بعضها إلى من اصطفاه من رسله بالوحي مما تقتضي الحكمة إبلاغه، وأنه يستأثر بعلم ما اقتضت حكمته عدم إبلاغه، وأنه لو شاء أن يبلغ ما في علمه لما وفت به مخلوقاته الصالحة لتسجيل كلامه بالكناية فضلا على الوفاء بإبلاغ ذلك بواسطة القول. وقد سلك في هذا مسلك التقريب بصرب هذا المثل؛ وقد كان ما قص من أخبار الماضين موطئا لهذا فقد جرت قصة لقمان في هذه السورة كما جرت قصة أهل الكهف وذي القرنين في سورة الكهف فعقبتا بقوله في آخر السورة)قل لو كان البحر مدادا

لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا(وهي مشابهة للآية التي في سورة لقمان. فهذا وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من الآيات المتفرقة.

صفحة : 3283

ولما في اتصال الآية بما قبلها من الخفاء أخذ أصحاب التأويل من السلف من أصحاب ابن عباس في بيان إيقاع هذه الآية في هذا الموقع. فقيل: سبب نزولها ما ذكره الطبري وابن عطية والواحدي عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطاء بن يسار بروايات متقاربة: أن اليهود سألوا رسول الله أو أغروا قريشا بسؤاله لما سمعوا قول الله تعالى في شأنهم)ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(فقالوا: كيف وأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سألوه: هي في علم الله قليل، ثم أنزل الله)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(الآيتين أو الآيات الثلاث.

وعن السدي قالت قريش: ما أكثر كلام محمد فنزلت)ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام(الآية.

وعن قتادة قالت قريش: سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر أي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يقول بعده كلاما . وفي رواية سنفد هذا الكلام. وهذه يرجع بعضها إلى أن هذه الآية نزلت بالمدينة فيلزم أن يكون وضعها في هذا الموضع في السورة بتوقيف نبوي للمناسبة التي ذكرناها آنفا، وبعضها يرجع إلى أنها مكية فيقتضي أن تكون نزلت في أثناء نزول سورة لقمان على أن توضع عقب الآيات التي نزلت قبلها.

و)كلمات(جمع كلمة بمعنى الكلام كما في قوله تعالى)كلا إنها كلمة هو قائلها(أي الكلام المنبئ عن مراد الله من بعض مخلوقاته مما يخاطب به ملائكته وغيرهم من المخلوقات والعناصر المعدودة للتكون التي يقال لها: كن فتكون، ومن ذلك ما أنزله من الوحي إلى رسله وأنبيائه من أول أزمنة الأنبياء وما سينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، أي لو فرض إرادة الله أن يكتب كلامه كله صحفا ففرضت الأشجار كلها مقسمة أقلاما، وفرض أن يكون البحر مدادا فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لنفد البحر ونفدت الأقلام وما نفدت كلمات الله في نفس الأمر.

وأما قوله تعالى)وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا(فالتمام هنالك بمعنى التحقق والنفوذ، وتقدم قوله تعالى:)ويريد الله أن يحق الحق بكلماته(في سورة الأنفال.

وقد نظمت هذه الآية بإيجاز بديع إذ ابتدئت بحرف لو فعلم أن مضمونها أمر مفروض، وأن ل)لو(استعمالات كما حققه في مغنى اللبيب عن عبارة سيبويه. وقد تقدم عند قوله تعالى)ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون(في سورة الأنفال.

و)من شجرة(بيان ل)ما(الموصولة وهو في معنى التمييز فحقه الإفراد، ولذلك لم يقل: من أشجار, والأقلام: جمع قلم وهو العود المشقوق ليرفع به المداد ويكتب به، أي لو تصير كل شجرة أقلاما بمقدار ما فيها من أغصان صالحة لذلك. والأقلام هو الجمع الشائع لقلم فيرد للكثرة والقلة.

و)يمده(بفتح الياء التحتية وضم الميم، أي يزيده مدادا. والمداد بكسر الميم الحبر الذي يكتب به. يقال: مد الدواة يمدها. فكان قوله)يمده(متضمنا فرض أن يكون البحر مدادا ثم يزاد فيه إذا نشف مداده سبعة أبحر، ولو قيل: يمده، بضم الميم من أمد لفات هذا الإيجاز.

والسبعة: تستعمل في الكناية عن كثرة كثيرا كقول النبي صلى الله عليه وسلم والكافر يأكل في سبعة أمعاء فليس لهذا العدد مفهوم، أي والبحر يمده أبحر كثيرة.

ومعنى)ما نفدت كلمات الله(ما انتهت، أي فكيف تحسب اليهود ما في التوراة هو منتهى كلمات الله، أو كيف يحسب المشركون أن ما نزل من القرآن أوشك أن يكون انتهاء القرآن، فيكون المثل على هذا الوجه الآخر واردا مورد المبالغة في كثرة ما سينزل من القرآن إغاظة للمشركين، فتكون)كلمات الله(هي القرآن لأن المشركين لا يعرفون كلمات الله التي لا يحاط بها.

وجملة)إن الله عزيز حكيم(تذييل، فهو لعزته لا يغلبه الذين يزعمون عدم الحاجة إلى القرآن ينتزرون انفحام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لحكمته لا تنحصر كلماته لأن الحكمة الحق لا نهاية لها.

وقرأ الجمهور برفع)والبحر(على أن الجملة الاسمية في موضع الحال والواو واو الحال وهي حال من)ما في الأرض من شجرة(، أي تلك الأشجار كائنة في حال كون البحر مدادا لها، والواو يحصل بها من الربط والاكتفاء عن الضمير لدلالتها على المقارنة.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب)والبحر(بالنصب عطفا على اسم إن .

)ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير[28] (استئناف بياني متعلق بقوله)إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا(لأنه كلما ذكر أمر البعث هجس في نفوس المشركين استحالة إعادة الأجسام بعد اضمحلالها فيكثر في القرآن تعقيب ذكر البعث بالإشارة إلى إمكانه وتقريبه.

وكانوا أيضا يقولون: إن الله خلقنا أطوارا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة وكيف يحيي جميع الأمم والأجيال التي تضمنته الأرض في القرون الكثيرة، وكان أبي بن خلف وأبو الأسد أو أبو الأسدين ونبيه، ومنبه، ابنا الحجاج من بني سهم يقولون ذلك وربما أسر به بعضهم. وضميرا المخاطبين مراد بهما جميع الخلق فهما بمنزلة الجنس، أي ما خلق جميع الناس أول مرة ولا بعثهم، أي خلقهم ثاني مرة إلا كخلق نفس واحدة لأن خلق نفس واحدة هذا الخلق العجيب دال على تمام قدرة الخالق تعالى فإذا كان كامل القدرة استوى في جانب قدرته القليل والكثير والبدء والإعادة.

وفي قوله)ما خلقكم ولا بعثكم(التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد مجابهتهم بالاستدلال المفحم.

وفي قوله)كنفس واحدة(حذف مضاف دل عليه)ما خلقكم ولا بعثكم(. والتقدير: إلا كخلق وبعث نفس واحدة. وذلك إيجاز كقول النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتـي

على وعل في ذي المطارة عاقل التقدير: على مخافة وعل.

والمقصود: إن الخلق الثاني كالخلق الأول في جانب القدرة.

وجملة)إن الله سميع بصير(: إما واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب استدلالا بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها ومن شأن العالم أن يتصرف في المعلومات كما يشاء لأن العجز عن إيجاد بعض ما تتوجه إليه الإرادة يتأتى من خفاء السبب الموصل إلى إيجاده، وإذ قد كان المشركون أو عقلاؤهم يسلمون أن الله يعلم كل شيء جعل تسليمهم ذلك وسيلة إلى إقناعهم بقدرته تعالى على كل شيء، وإما واقعة موقع الاستئناف البياني لما ينشأ عن الإخبار بأن بعثهم كنفس من تعجب فريق ممن أسروا إنكار البعث في نفوسهم الذين أومأ إليهم قوله آنفا)إن الله عليم بذات الصدور(، ولأجل هذا لم يقل: إن الله عليم قدير.

)ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى اجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير[29](استدلال على ما تضمنته الآية قبلها من كون الخلق الثاني وهو البعث في متناول قدرة الله تعالى بأنه قادر على تغيير أحوال ما هو أعظم حالا من الإنسان، وذلك بتغيير أحوال الأرض وأفقها بين ليل ونهار في كل يوم وليلة تغييرا يشبه طرو الموت على الحياة في دخول الليل في النهار، وطرو الحياة على الموت في دخول النهار على الليل، وبأنه قادر على أعظم من ذلك بما سخره من سير الشمس والقمر.

فهذا الاستدلال على إمكان البعث بقياس التمثيل بإمكان ما هو أعظم منه من شؤون المخلوقات بعد أن استدل عليه بالقياس الكلي الذي اقتضاه قوله)إن الله سميع بصير(من إحاطة العلم الإلهي بالمعلومات المقتضي إحاطة قدرته بالممكنات لأنها جزئيات المعلومات وفرع عنها.

والخطاب لغير معين، والمقصود به المشركون بقرينة)وأن الله بما تعملون خبير(.

والرؤية علمية. والاستفهام لإنكار عدم الرؤية بتنزيل العالمين منزلة غير عالمين لعدم انتفاعهم بعلمهم.

والإيلاج: الإدخال. وهو هنا تمثيل لتعاقب الظلمة والضياء بولوج أحدهما في الآخر كقوله)وآية لهم الليل نسلخ منه النهار(.

وتقدم الكلام على نظيره في قوله)تولج الليل في النهار(أول آل عمران، وقوله)ذلك بأن الله يولج الليل في النهار(الآية في سورة الحج مع اختلاف الغرضين.

والابتداء بالليل لأن أمره أعجب كيف تغشى ظلمته تلك الأنوار النهارية، والجمع بين إيلاج الليل وإيلاج النهار لتشخيص تمام القدرة بحيث لا تلازم عملا متماثلا.

والكلام على تسخير الشمس والقمر مضى في سورة الأعراف.

وتنوين كل هو المسمى تنوين العوض عن المضاف إليه، والتقدير: كل من الشمس والقمر يجري إلى أجل.

صفحة : 3285

والجري: المشي السريع؛ استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض، تشبيها بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تقطع في خلال ذلك.

وزيادة قوله)إلى أجل مسمى(للإشارة إلى أن لهذا النظام الشمسي أمدا يعلمه الله فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم؛ فهذا تذكير بوقت البعث.

فيجوز أن يكون)إلى أجل(ظرفا لغوا متعلقا بفعل)يجري(، أي ينتهي جريه، أي سيره عند أجل معين عند الله لانتهاء سيرهما.

ويجوز أن يكون)إلى أجل(متعلقا بفعل)سخر(أي جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيا عند أجل مقدر.

وحرف)إلى(على التقديرين للانتهاء.

وليست)إلى(بمعنى اللام عند صاحب الكشاف هنا خلافا لبن مالك وابن هشام، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى)وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى(في سورة فاطر.

)وأن الله بما تعملون خبير(عطف على)أن الله يولج الليل في النهار(، فهو داخل في الاستفهام الإنكاري بتنزيل العالم منزلة غيره لعدم جريه على موجب العلم، فهم يعلمون أن الله خبير بما يعملون ولا يجرون على ما يقتضيه هذا العلم في شيء من أحوالهم.

)ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير[30](كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة موجه إلى غير معين، والمقصود به المشركون بقرينة قوله)وأن ما تدعون من دونه الباطل(بتاء الخطاب في قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم. والمشار إليه هو المذكور آنفا وهو الإيلاج والتسخير.

وموقع هذه الجملة موقع النتيجة من الدليل فلها حكم بدل الاشتمال ولذلك فصلت ولم تعطف فإنهم معترفون بأن الله هو فاعل ذلك فلزمهم الدليل ونتيجته.

والمعنى: أن إيلاج الليل في النهار وعكسه وتسخير الشمس والقمر مسبب عن انفراد الله تعالى بالإلهية، فلباء للسببية، وهو ظرف مستقر خبر عن اسم الإشارة.

وضمير الفصل مفيد للاختصاص، أي هو الحق لا أصنامكم ولا غيرها مما يدعي إلهية غيره تعالى.

والحق: هنا بمعنى الثابت، ويفهم أن المراد حقية ثبوت إلهية بقرينة السياق ولمقابلته بقوله)وأن ما تدعون من دونه الباطل(، والمعنى: لما كان ذلك الصنع البديع مسببا عن انفراد الله بالإلهية كان ذلك أيضا دليلا على انفراد الله بالإلهية للتلازم بين السبب والمسبب.

والتعريف في)الحق(و)الباطل(تعريف الجنس. وإنما لم يؤت بضمير الفصل في الشق الثاني لأن ما يدعونه من دون الله من أصنامهم

يشترك معها في أنه باطل. وذكر ضمير الفصل في نظيره من سورة الحج لاقتضاء المقام ذلك كما تقدم.
والظاهر أنا إذا جعلنا الباء في)بأن الله هو الحق(باء السببية أن يكون قوله)وأن ما تدعون من دونه الباطل(عطفا على الخبر وهو مجموع)بأن الله(. فالتقدير: ذلك أن ما تدعون من دونه الباطل. ويقدر حرف جر مناسب للمعنى حذف قبل)أن(وهو حرف) على(أي ذلك دال. وهذا كما قدر حرف عن في قوله تعالى) وترغبون أن تنكحوهن(ولا يكون عطفا على مدخول باء السببية إذ ليس لبطلان آلهتهم أثر في إيلاج الليل في النهار وتسخير الشمس والقمر، أو تقدر لام العلة، أي ذلك، لأن ما تدعونه باطل، فلذلك لم يكن لها حظ في إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر باعتراف المشركين.
وقوله)وأن الله هو العلي الكبير(واقع موقع الفذلكة لما تقدم من دلالة إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر لأنه إذا استقر أن ما ذكر دال على أن الله هو الحق بالإلهية، ودال على أن ما يدعونه باطل، ثبت أنه العلي الكبير دون أصنامهم. وقد أجتلب ضمير الفصل هنا للدلالة على الاختصاص وسلب العلو والعظمة عن أصنامهم.
والأحسن أن نجعل الباء للملابسة أو المصاحبة وهي ظرف مستقر خبر عن اسم الإشارة، فإن شأن الباء التي للملابسة أن تكون ظرفا مستقرا بل قال الرضي: إنها لا تكون إلا كذلك، أي أنها لا تتعلق إلا بنحو الخبر أو الحال كما قال:
وما لي بحمد الله لحم ولا دم أي حالة كوني ملابسا حمد الله، أي غير ساخط من قضائه، ويقال: أنت بخير النظرين، أي مستقر.

صفحة : 3286

فالتقدير: ذلك المذكور من الإيلاج والتسخير ملابس لحقية إلهية الله تعالى، ويكون المعطوفان معطوفين على المجرور بالياء، أي ملابس لكون الله إلها حقا، ولكون ما تدعون من دونه باطل الإلهية ولكون الله هو العلي الكبير. والملابسة المفادة بالباء هي ملابسة الدليل للمدلول وبذلك يستقيم النظم بدون تكلف، ويزداد وقوع جملة ذلك بأن الله هو الحق إلى آخرها في موقع النتيجة وضوحا.
وضمير الفصل في قوله)وأن الله هو العلي الكبير(للاختصاص كما تقدم في قوله)وإن الله هو الغني الحميد(.

والعلي: صفة مشتقة من العلو المعنوي المجازي وهو القدسية والشرف.
والكبير: وصف مشتق من الكبر المجازي وهو عظمة الشأن. وتقدم نظير هذه الآية في سورة الحج مع زيادة ضمير الفصل في قوله) وأن ما تدعون من دونه هو الباطل(.
)ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[31] وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجيناهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور[32](استئناف جاء على سنن الاستئنافين اللذين قبله في قوله)ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض(وقوله)ألم تر أن الله يولج الليل في النهار(، وجيء بها غير متعاطفة لئلا يتوهم السامع أن العطف على ما تخلل منها، وجاء هذا الاستئناف الثالث دليلا ثالثا على عظيم حكمة الله في نظام هذا العالم وتوفيق البشر للانتفاع بما هيأه الله لانتفاعهم به.
فلما أتى الاستئنافان الأولان على دلائل صنع الله في السماوات والأرض جاء في هذا الثالث دليل على بديع صنع الله بخلق البحر وتيسير الانتفاع به في إقامة نظام المجتمع البشري. وتخلص منه إلى اتخاذ فريق من الناس موجبات الشكلا دواعي كفر.
فكان خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسرا للانتفاع بالأسفار فيه حين لا تغني طرق البر في التنقل غناء فجعله قابلا لحمل المراكب العظيمة، وألهم الإنسان لصنع تلك المراكب على كيفية تحفظها من الغرق في عباب البحر، وعصمهم من توالي الرياح والموج في أسفارهم، وهداهم إلى الحيلة في مصانعتها إذا طرأت حتى تنجلي، ولذلك وصف هذا الجري بملابسة نعمة الله فإن الناس كلما مخرت بهم الفلك في البحر كانوا ملابسين لنعمة الله عليهم بالسلامة إلا في أحوال نادرة، وقد سميت هذه النعمة أمرا في قوله)والفلك تجري في البحر بأمره(في سورة الحج، أي بتقديره ونظام خلقه.
وتقدم تفصيله في قوله)فإذا ركبوا في الفلك(في سورة العنكبوت، وفي قوله)هو الذي يسيركم في البر والبحر(الآيات من سورة يونس وقوله)ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره(في سورة الحج.
ويتعلق)ليريكم(ب)تجري(أي تجري في البحر جريا، علة خلقه أن يريكم الله بعض آياته، أي آياته لكم فلم يذكر متعلق الآيات لظهوره من قوله)ليريكم(وجري الفلك في البحر آية من آيات القدرة في بديع الصنع أن خلق ماء البحر بنظام، وخلق الخشب بنظام، وجعل

لعقول الناس نظاما فحصل من ذلك كله إمكان سير الفلك فوق عباب البحر.
والمعنى أن جري السفن فيه حكم كثيرة مقصودة من تسخيره، منها أن يكون آية للناس على وجود الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته.
وليس يلزم من لام التعليل انحصار الغرض من المعلل في مدخولها لأن العل جزئية لا كلية.
وجملة)إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور(لها موقع التعليل لجملة)يريكم من آياته(. ولها موقع الاستئناف البياني إذ يخطر ببال السامع أن يسأل: كيف لم يهتد المشركون بهذه الآيات، فأفيد أن الذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو)كل صبار شكور(ثناء على هذا الفريق صريحا، وتعريضا بالذين لم ينتفعوا بدلالتها.
واقتران الجملة بحرف)إن(لأنه يفيد في مثل هذا المقام معنى التعليل والتنسيب.
وجعل ذلك عدة آيات لأن في ذلك دلائل كثيرة، أي الذين لا يفارقهم الوصفان.

صفحة : 3287

والصبار: مبالغة في الموصوف بالصبر، والشكور كذلك، أي الذين لا يفارقهم الوصفان. وهذان وصفان للمؤمنين الموحين في الصبر للضراء والشكر للسراء إذ يرجون بهم رضى الله تعالى الذي لا يتوكلون إلا عليه في كشف الضر والزيادة من الخير. وقد تخلقوا بذلك بما سمعوا من الترغيب في الوصفين والتحذير من ضديهما قال)والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس(وقال)لئن شكرتم لأزيدنكم(فهم بين رجاء الثواب وخوف العقاب لأنهم آمنوا بالحياة الخالدة ذات الجزاء وعلموا أن مصيرهم إلى الله الذي أمر ونهى، فصارا لهم خلقا تطبعوا عليه فلم يفارقاهم البتة أو إلا نادرا؛ فأما المشركون فنظرهم فأصر على الحياة الحاضرة فهم أسراء العالم الحسي فإذا أصابهم ضر ضجروا وإذا أصابهم نفع بطروا، فهم أخلياء من الصبر والشكر، فلذلك كان قوله)لكل صبار شكور(كناية رمزية عن المؤمنين وتعريضا رمزيا بالمشركين.
ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا للكناية بهما، من شعب الإيمان، أنهما أنسب بمقام السير في البحر إذ راكب البحر بين خطر وسلامة وهما مظهر الصبر والشكر، كما تقدم في قوله تعالى

)هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك(الآية في سورة يونس.
وفي قوله)لكل صبار شكور(حسن التخلص إلى التفصيل الذي عقبه في قوله)وإذا غشيهم موج كالظلل(الآية، فعطف على آيات سير الفلك إشارة إلى أن الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار، وغفلتهم عنها في حال السلامة، وهو ما تقدم مثله في قوله في سورة العنكبوت)فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون(وقوله في سورة يونس)حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة(الآيات.
والغشيان مستعار للمجيء لأنه يشبه التغطية، وتقدم في قوله تعالى)يغشي الليل النهار(في سورة الأعراف.
والظلل: بضم الظاء وفتح اللام: جمع ظلة بالضم وهي: ما أظل من سحاب.
والفاء في قوله)فمنهم مقتصد(تدل على مقدر كأنه قيل: فلما نجاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره كما سيأتي. وجعل ابن مالك الفاء داخلة على جواب)لما(أي رابطة للجواب ومخالفوه يمنعون اقتران جواب)لما(بالفاء كما في مغني اللبيب.
والمقتصد: الفاعل للقصد وهو التوسط بين طرفين، والمقام دليل على أن المراد الاقتصاد في الكفر لوقوع تذييله بقوله)وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور(ولقوله في نظيره في سورة العنكبوت) فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون(، وقد يطلق المقصد على الذي يتوسط حاله بين الصلاح وضده. كما قال تعالى)منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون(.
والجاحد الكفور: هو المفرط في الكفر والجحد. والجحود: الإنكار والنفي. وتقدم عند قوله تعالى)ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(في سورة الأنعام. وعلم أن هنالك قسما ثالثا وهو الموقن بالآيات الشاكر للنعمة وأولئك هم المؤمنون قال في سورة فاطر) فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات(وهذا الاقتصار كقول جرير:
كانت حنيفة أثلاثا فثلثـهـم من العبيد
وثلث من مواليها أي والثلث الآخر من أنفسهم.
والختار: الشديد الختر، والختر: أشد الغدر.
وجملة)وما يجحد(إلى آخرها تذييل لأنها تعم كل جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر ويجحد نعمة الله عليه بالنجاة ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه. والمعنى: ومنهم جاحد بآياتنا.
وفي الانتقال من الغيبة إلى التكلم في قوله)بآياتنا(التفات.

والباء في)بآياتنا(لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل قوله) وامسحوا برؤوسكم(، وقول النابعة:
لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا وقوله تعالى)وما نرسل بالآيات إلا تخويفا(.
)يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور[33](

صفحة : 3287

والصبار: مبالغة في الموصوف بالصبر، والشكور كذلك، أي الذين لا يفارقهم الوصفان. وهذان وصفان للمؤمنين الموحين في الصبر للضراء والشكر للسراء إذ يرجون بهم رضى الله تعالى الذي لا يتوكلون إلا عليه في كشف الضر والزيادة من الخير. وقد تخلقوا بذلك بما سمعوا من الترغيب في الوصفين والتحذير من ضديهما قال)والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس(وقال)لئن شكرتم لأزيدنكم(فهم بين رجاء الثواب وخوف العقاب لأنهم آمنوا بالحياة الخالدة ذات الجزاء وعلموا أن مصيرهم إلى الله الذي أمر ونهى، فصارا لهم خلقا تطبعوا عليه فلم يفارقاهم البتة أو إلا نادرا؛ فأما المشركون فنظرهم فأصر على الحياة الحاضرة فهم أسراء العالم الحسي فإذا أصابهم ضر ضجروا وإذا أصابهم نفع بطروا، فهم أخلياء من الصبر والشكر، فلذلك كان قوله)لكل صبار شكور(كناية رمزية عن المؤمنين وتعريضا رمزيا بالمشركين.
ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا للكناية بهما، من شعب الإيمان، أنهما أنسب بمقام السير في البحر إذ راكب البحر بين خطر وسلامة وهما مظهر الصبر والشكر، كما تقدم في قوله تعالى)هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك(الآية في سورة يونس.
وفي قوله)لكل صبار شكور(حسن التخلص إلى التفصيل الذي عقبه في قوله)وإذا غشيهم موج كالظلل(الآية، فعطف على آيات سير الفلك إشارة إلى أن الناس يذكرون الله عند تلك الآيات عند الاضطرار، وغفلتهم عنها في حال السلامة، وهو ما تقدم مثله في قوله في سورة العنكبوت)فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون(وقوله في سورة يونس)حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة(الآيات.
والغشيان مستعار للمجيء لأنه يشبه التغطية، وتقدم في قوله تعالى)يغشي الليل النهار(في سورة الأعراف.

والظلل: بضم الظاء وفتح اللام: جمع ظلة بالضم وهي: ما أظل من سحاب.
والفاء في قوله)فمنهم مقتصد(تدل على مقدر كأنه قيل: فلما نجاهم انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم غيره كما سيأتي. وجعل ابن مالك الفاء داخلة على جواب)لما(أي رابطة للجواب ومخالفوه يمنعون اقتران جواب)لما(بالفاء كما في مغني اللبيب.
والمقتصد: الفاعل للقصد وهو التوسط بين طرفين، والمقام دليل على أن المراد الاقتصاد في الكفر لوقوع تذييله بقوله)وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور(ولقوله في نظيره في سورة العنكبوت) فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون(، وقد يطلق المقصد على الذي يتوسط حاله بين الصلاح وضده. كما قال تعالى)منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون(.
والجاحد الكفور: هو المفرط في الكفر والجحد. والجحود: الإنكار والنفي. وتقدم عند قوله تعالى)ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(في سورة الأنعام. وعلم أن هنالك قسما ثالثا وهو الموقن بالآيات الشاكر للنعمة وأولئك هم المؤمنون قال في سورة فاطر) فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات(وهذا الاقتصار كقول جرير:
كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم من العبيد
وثلث من مواليها أي والثلث الآخر من أنفسهم.
والختار: الشديد الختر، والختر: أشد الغدر.
وجملة)وما يجحد(إلى آخرها تذييل لأنها تعم كل جاحد سواء من جحد آية سير الفلك وهول البحر ويجحد نعمة الله عليه بالنجاة ومن يجحد غير ذلك من آيات الله ونعمه. والمعنى: ومنهم جاحد بآياتنا.
وفي الانتقال من الغيبة إلى التكلم في قوله)بآياتنا(التفات.
والباء في)بآياتنا(لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل قوله) وامسحوا برؤوسكم(، وقول النابعة:
لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا وقوله تعالى)وما نرسل بالآيات إلا تخويفا(.
)يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور[33](

صفحة : 3288

إن لم يكن)يا أيها الناس(خطابا خاصا بالمشركين فهو عام لجميع الناس كما تقرر في أصول الفقه، فيعم المؤمن والمشرك

والمعطل في ذلك الوقت وفي سائر الأزمان إذ الجميع مأمورون بتقوى الله وأن الخطوات الموصلة إلى التقوى متفاوتة على حسب تفاوت بعد السائرين عنها، وقد كان فيما سبق من السورة حظوظ للمؤمنين وحظوظ للمشركين فلا يبعد أن تعقب بما يصلح لكلا الفريقين، وإن كان الخطاب خاصا بالمشركين جريا على ما روي عن ابن عباس أن)يا أيها الناس(خطاب لأهل مكة، فالمراد بالتقوى: الإقلاع عن الشرك.

وموقع هذه الآية بعد ما تقدمها من الآيات موقع مقصد الخطبة بعد مقدماتها إذ كانت المقدمات الماضية قد هيأت النفوس إلى قبول الهداية والتأثر بالموعظة الحسنة، وإن لاصطياد الحكماء فرصا يحرصون على عدم إضاعتها، وأحسن مثلها قول الحريري في المقامة الحادية عشرة فلما ألحدوا الميت، وفات قول ليت، أشرف شيخ من رباوة، متخصر بهراوة، فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون، فاذكروا أيا أيها الغافلون، وشمروا أيها المقصرون الخ فأما القلوب القاسية، والنفوس المتعاضية، فلن تأسوها آسية.

ولاعتبار هذا الموقع جعلت الجملة استئنافا لأنها بمنزلة الفذلكة والنتيجة.

والتقوى تبتدئ من الاعتراف بوجود الخالق وحدانيته وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم وتنتهي إلى اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات في الظاهر والباطن في سائر الأحوال. وتقدم تفصيلها عند قوله تعالى)هدى للمتقين(في سورة البقرة وتقدم نظير هذا في سورة الحج.

وخشية اليوم: الخوف من أهوال ما يقع فيه إذ الزمان لا يخشى لذاته، فانتصب)يوما(على المفعول به. والأمر بخشيته تتضمن وقوعه فهو كناية عن إثبات البعث وذلك حظ المشركين منه الذين لا يؤمنون به حتى صار سمة عليهم قال تعالى)وقال الذين لا يرجون لقاءنا(.

وجملة)لا يجزي والد عن ولده(الخ صفة يوم وحذف منها العائد المجرور ب)في(توسعا بمعاملته معاملة العائد المنصوب كقوله) واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا(في سورة البقرة.

وجزى إذا عدي ب)عن(فهو بمعنى قضى عنه ودفع عنه، ولذلك يقال للمتقاضي: المتجازي.

وجملة)ولا مولود(الخ عطف على الصفة و)مولود(مبتدأ. و)هو(ضمير فصل. و)جاز(خبر المبتدأ.

وذكر الوالد والولد هنا لأنهما أشد محبة وحمية من غيرهما فيعلم أن غيرهما أولى بهذا النفي قال تعالى)يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه(الآية.

وابتدئ ب)الوالد(لأنه أشد شفقة على ابنه فلا يجد له مخلصا من سوء إلا فعله.
ووجه اختيار هذه الطريقة في إفادة عموم النفي هنا دون طريقة قوله تعالى)واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا(في سورة البقرة أن هذه الآية نزلت بمكة وأهلها يومئذ خليط من مسلمين وكافرين، وربما كان الأب مسلما والوالد كافرا وربما كان العكس، وقد يتوهم بعض الكافرين حين تداخلهم الظنون في مصيرهم بعد الموت أنه إذا ظهر صدق وعيد القرآن إياهم فإن من له أب مسلم أو ابن مسلم يدفع عنه هنالك بما يدل به على رب هذا الدين، وقد كان قارا في نفوس العرب التعويل على المولى والنصير تعويلا على أن الحمية والأنفة تدفعهم إلى الدفاع عنهم في ذلك الجمع وإن كانوا من قبل مختلفين لهم لضيق عطن أفهامهم يقيسون الأمور على معتادهم.
وهذا أيضا وجه الجمع بين نفي جزاء الوالد عن ولده وبين نفي جزاء الولد عن والده ليشمل الفريقين في الحالتين فلا يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود.
ثم أوثرت جملة)ولا مولود هو جاز عن والده شيئا(بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة)لا يجزي والد عن ولده(فإنها نظمت جملة أسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وجعل النفي فيها منصبا إلى الجنس. ونكتة هذا الإيثار مبالغة تحقيق عدم جزء هذا الفريق عن الآخر إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم وأمهاتهم في الغالب على الشرك مثل أبي قحافة والد أبي بكر، وأبي طالب والد علي، وأم سعد بن أبي وقاص، وأم أسماء بنت أبي بكر، فأريد حسم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة بشيء.

صفحة : 3289

وعبر فيها ب)مولود(دون ولد لإشعار)مولود(بالمعنى الاشقاقي دون ولد الذي هو اسم بمنزلة الجوامد لقصد التنبيه على أن تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها التعرض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاء له بما تومئ إليه المولودية من تجشم المشقة من تربيته، فلعله يتجشم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسما لطمعه في الجزاء عنه، فهذا تعكيس للترقيق الدنيوي في قوله تعالى)وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا(وقوله)وصاحبهما في الدنيا معروفا(.

وجملة)إن وعد الله حق(علة لجملتي)اتقوا ربكم واخشوا يوما(. ووعد الله: هو البعث، قال تعالى)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون(.

وأكد الخبر ب)إن(مراعاة المنكري البعث، وإذ قد كانت شبهتهم في إنكاره مشاهدة الناس يموتون ويخلقهم أجيال آخرون ولم يرجع أحد ممن مات منهم)وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر(وقالوا)إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين(.

فرع على هذا التأكيد إبطال شبهتهم بقوله)فلا تغرنكم الحياة الدنيا(، أي لا تغرنكم حالة الحياة الدنيا بأن تتوهموا الباطل حقا والضر نفعا، فإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا مجاز عقلي لأن الدنيا ظرف الغرور أو شبهته، وفاعل التغرير حقيقة هم الذين يضلونهم بالأقيسة الباطلة فيشبهون عليهم إبطاء الشيء باستحالته فذكرت هنا وسيلة التغرير وشبهته ثم ذكر بعده الفاعل الحقيقي للتغرير وهو الغرور. والغرور بفتح الغين: من يكثر منه التغرير، والمراد به الشيطان بوسوسته وما يليه في نفوس دعاة الضلالة من شبه التمويه للباطل في صورة وما يلقيه في نفوس أتباعهم من قبول تغريرهم.

وعطف)ولا يغرنكم بالله الغرور(لأنه أدخل في تحذيرهم ممن يلقون إليهم الشبه أو من أوهام أنفسهم التي تخيل لهم الباطل حقا ليهموا آراءهم. وإذا أريد بالغرور الشيطان أو ما يشمله فذلك أشد في التحذير لما تقرر من عداوة الشيطان للإنسان، كما قال تعالى)يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة(وقال) إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا(، ففي التحذير شوب من التنفير.

والباء في قوله)ولا يغرنكم بالله(هي كالباء في قوله تعالى)يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم(. وقرر في الكشاف في سورة الانفطار معنى الباء بما يقتضي أنها للسببية، وبالضرورة يكون السبب شأنا من شؤون الله يناسب المقام لا ذات الله تعالى. والذي يناسب عنا أن يكون النهي عن الاغترار بما يسوله الغرور للمشركين كنوهم أن الأصنام شفعاء لهم عند الله في الدنيا واقتناعهم بأنه إذا ثبت البعث عن احتمال مرجوح عندهم شفعت لهم يومئذ أصنامهم، أو يغرهم بأن الله لو أراد البعث كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لبعث آباءهم وهم ينظرون، أو أن يغرهم بأن الله لو أراد بعث الناس لعجل لهم ذلك وهو ما حكى الله عنهم)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(فذلك كله غرور لهم مسبب يشؤون الله تعالى ففي هذا ما يوضح معنى الباء في قوله)ولا يغرنكم بالله الغرور(. وقد جاء مثله في سورة الحديد. وهذا الاستعمال في

تعدية فعل الغرور بالباء قريب من تعديته ب)من(الابتدائية في قول امرئ القيس:
أغرك مني أن حبك قاتلي أي لا يغرنك من معاملتي معك أن حبك قاتلي.
)إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير[34](كان من جملة غرورهم في نفي البعث أنهم يجعلون عدم إعلام الناس بتعيين وقته أمارة على أنه غير واقع، قال تعالى)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(وقال)وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها(، فلما جرى في الآيات قبلها ذكر يوم القيامة أعقبت بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا الله.

صفحة : 3290

فجملة)إن الله عنده علم الساعة(مستأنفة استئنافا بيانيا لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر في نفوس الناس. والجمل الأربع التي بعدها إدماج لجمع نظائرها تعليما للأمة. وقال الواحدي والبغوي: إن رجلا من محارب حصفة من أهل البادية سماه في الكشاف الحارث بن عمرو وقع في تفسير القرطبي وفي أسباب النزول للواحدي تسميته الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وتركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وماذا اكسب غدا؟ وبأي أرض أموت، فنزلت هذه الآية، ولا يدري سند هذا. ونسب إلى عكرمة ومقاتل، ولو صح لم يكن منافيا لاعتبار هذه الجملة استئنافا بيانيا فإنه مقتضى السياق.
وقد أفاد التأكيد بحرف)إن(تحقيق علم الله تعالى بوقت الساعة وذلك يتضمن تأكيد وقوعها. وفي كلمة)عنده(إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم لأن العندية شأنها الاستئثار. وتقديم)عند(وهو ظرف مسند على المسند إليه يفيد التخصص بالقرينة الدالة على أنه ليس مراد به مجرد التقوي.
وجملة)وينزل الغيث(عطف على جملة الخبر. والتقدير: وإن الله ينزل الغيث، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث. والمقصود أيضا عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث لأن ذلك ليس مما ينكرونه ولكن نظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة.

وفي اختيار الفعل المضارع إفادة أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض. ولا التفات إلى من قدروا: ينزل الغيث، بتقدير أن المصدرية على طريقة قول طرفة:

ألا أبهذا الزاجري احضر الوغى للبون بين المقامين وتفاوت الدرجتين في البلاغة. وإذ قد جاء هذا نسقا في عداد الحصر كان الإتيان بالمسند فعلا خبرا عن مسند إليه مقدم مفيدا للاختصاص بالقرينة؛ فالمعنى: وينفرد بعلم وقت نزول الغيث من قرب وبعد وضبط وقت.

وعطف عليه)ويعلم ما في الأرحام(، أي ينفرد بعلم جميع أطواره من نطفة وعلقة ومضغة ثم من كونه ذكرا أو أنثى وإبان وضعه بالتدقيق. وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال. والمعنى: ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها الناس لأنه عطف على ما قصد منه الحصر فكان المسند الفعلي المتأخر عن المسند إليه مفيدا للاختصاص بالقرينة كما قلنا في قوله تعالى)والله يقدر الليل والنهار(.

وأما قوله)وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت(فقد نسج على منوال آخر من النظم فجعل سداه نفي علم أية نفس بأخص أحوالها وهو حال اكتسابها القريب منها في اليوم الموالي يوم تأملها ونظرها، وكذلك مكان انقضاء حياتها للنداء عليهم بقلة علمهم؛ فإذا كانوا بهذه المثابة في قلة العلم فكيف يتطلعون إلى علم أعظم حوادث هذا العالم وهو حادث فنائه وانقراضه واعتياضه بعالم الخلود. وهذا النفي للدراية بهذين الأمرين عن كل نفس فيه كناية عن إثبات العلم بما تكسب كل نفس والعلم بأي أرض تموت فيها كل نفس إلى الله تعالى، فحصلت إفادة اختصاص الله تعالى بهذين العلمين فكانا في صميمة ما انتظم معهما مما تقدمهما.

وعبر في جانب نفي معرفة الناس بفعل الدراية لأن الدراية علم فيه معالجة للاطلاع على المعلوم ولذلك لا يعبر بالدراية عن علم الله تعالى فلا يقال: الله يدري كذا، فيفيد: انتفاء علم الناس بعد الحرص على علمه. والمعنى: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى بقرينة مقابلتهما بقوله)وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام(. وقد علق فعل الدراية عن العمل في مفعولين بوقوع الاستفهامين بعدهما، أي ما تدري هذا السؤال، أي جوابه.

وقد حصل إفادة اختصاص الله تعالى بعلم هذه الأمور الخمسة بأفانين بديعة من أفانين الإيجاز البالغ حد الإعجاز.

ولقبت هذه الخمسة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم بمفاتح الغيب وفسر بها قوله تعالى)وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو(،

ففي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتح الغيب خمس ثم قرأ)إن الله عنده علم الساعة(الآية، ومن حديث أبي هريرة ... في خمس لا يعلمهن إلا الله إن الله عنده علم الساعة جوابا عن سؤال جبريل متى الساعة?... .

صفحة : 3291

ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلقا وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين يوم كذا للزفاف ويوم كذا للغزو وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل: يوم كذا مدخل الربيع؛ فلا تجد مغيبات لا قبل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة فأما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة وليست لها مفاتح علم في هذا العالم.
وجملة)إن الله عليم خبير(مستأنفة ابتدائية واقعة موقع النتيجة لما تضمنه الكلام السابق من إبطال شبهة المشركين بقوله تعالى) إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا(كموقع قوله في قصة لقمان)إن الله لطيف خبير(عقب قوله)إنها إن تك مثقال حبة من خردل(الآية.
والمعنى: أن الله عليم بمدى وعده خبير بأحوالكم مما جمعه قوله)وما تدري نفس ماذا تكسب غدا(الخ. ولذا جمع بين الصفتين صفة)عليم(وصفة)خبير(لأن الثانية أخص.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة السجدة
أشهر أسماء هذه السورة هو)سورة السجدة(، وهو أخصر أسمائها، وهو المكتوب في السطر المجعول لاسم السورة من المصاحف المتداولة. وبهذا الاسم ترجم لها الترمذي في جامعه وذلك بإضافة كلمة)سورة(إلى كلمة)السجدة(. ولا بد من تقدير كلمة) ألم(محذوفة للاختصار إذ لا يكفي مجرد إضافة سورة إلى السجدة في تعريف هذه السورة، فإنه لا تكون سجدة من سجود القرآن إلا في سورة من السور.

وتسمى أيضا)ألم تنزيل(؛ روى الترمذي عن جابر بن عبد الله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ)ألم تنزيل(و)تبارك الذي بيده الملك(.

وتسمى)ألم تنزيل السجدة(. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر)ألم تنزيل السجدة(و)هل أتى على الإنسان(. قال شارحو صحيح البخاري ضبط اللام من كلمة)تنزيل(بضمة على الحكاية، وأما لفظ)السجدة(في هذا الحديث فقال ابن حجر هو بالنصب: وقال العيني والقسطلاني بالنصب على أنه عطف بيان يعني أنه بيان للفظ)ألم تنزيل(، وهذا بعيد لأن لفظ السجدة ليس اسما لهذه السورة إلا بإضافة)سورة(إلى)السجدة(، فالوجه أن يكون لفظ)السجدة(في كلام أبي هريرة مجرورا بإضافة مجموع)ألم تنزيل(إلى لفظ) السجدة(، وسأبين كيفية هذه الإضافة.

وعنونها البخاري في صحيحه)سورة تنزيل السجدة(. ويجب أن يكون)تنزيل(مضمونا على حكاية لفظ القرآن، فتميزت هذه السورة بوقوع سجدة تلاوة فيها من بين السور المفتتحة ب)ألم(، فلذلك فمن سماها)سورة السجدة(عنى تقدير مضاف أي سورة)ألم السجدة(.

ومن سماها)تنزيل السجدة(فهو على تقدير)ألم تنزيل السجدة(بجعل)ألم تنزيل(اسما مركبا ثم أضافته إلى السجدة، أي ذات السجدة، لزيادة التمييز والإيضاح، وإلا فإن ذكر كلمة) تنزيل(كاف في تمييزها عما عداها من ذوات)ألم(ثم اختصر بحذف)ألم(وإبقاء)تنزيل(، واضيف)تنزيل(إلى)السجدة(على ما سيأتي في توجيه تسميتها)ألم تنزيل السجدة(.

ومن سماها)إلم السجدة(فهو على إضافة)ألم(إلى) السجدة(إضافة على معنى اللام وجعل)ألم(اسما للسورة.

ومن سموها)ألم تنزيل السجدة(لم يتعرضوا لضبطها في شروح صحيح البخاري ولا في النسخ الصحيحة من الجامع الصحيح، ويتعين أن يكون)ألم(مضافا إلى)تنزيل(على أن مجموع المضاف والمضاف إليه اسم لهذه السورة محكي لفظه؛ فتكون كلمة)تنزيل(مضمونه على حكاية لفظها القرآني، وأن يعتبر هذا المركب الإضافي اعتبار العلم مثل: عبد الله، ويعتبر مجموع ذلك المركب الإضافي مضافا إلى السجدة إضافة المفردات، وهو استعمال موجود، ومنه قول تأبط شرا:

إني لمهد من ثنائي فقاصد به لبن عم الصدق شمس بن مالك إذ أضاف مجموع ابن عم إلى

الصدق ، ولم يرد إضافة عم إلى الصدق. وكذلك قول أحد الطائيين في ديوان الحماسة:

داو ابن السوء بالنأي والغنـى كفى بالغنى والنأي عنه مداويا

صفحة : 3292

فإنه ما أراد وصف عمه بالسوء ولكنه أراد وصف ابن عمه بالسوء. فأضاف مجموع ابن عم إلى السوء، ومثله قول رجل من كلب في ديوان الحماسة:

هنيئا لابن عم السوء أني مجاوره بني ثعل لبوني وقال عيينة بن مرداس في الحماسة:

فلما عرفت اليأس منه وقد بدت أيادي سبا الحاجات للمتذكـر فأضاف مجموع أيادي سبا وهو كالمفرد لأنه جرى مجرى المثل إلى الحاجات.

وقال بعض رجازهم:

أنا ابن عم الليل وابن خاله إذا دجى دخلت في سرباله فأضاف ابن عم إلى لفظ الليل ، وأضاف ابن خال إلى ضمير الليل على معنى أنا مخالط الليل، ولا يريد إضافة عم ولا خال إلى الليل.

ومن هذا اسم عبد الله بن قيس الرقيات، فالمضاف إلي الرقيات هو مجموع المركب إما عبد الله ، أو ابن قيس لا أحد مفرداته.

وهذه الإضافة قريبة من إضافة العدد المركب إلى من يضاف إليه مع بقاء اسم العدد على بنائه كما تقول: أعطه خمسة عشره.

وتسمى هذه السورة أيضا)سورة المضاجع(لوقوع لفظ) المضاجع(في قوله تعالى)تتجافى جنوبهم عن المضاجع(.

وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي أن خالد بن معدان سماها)المنجية(. قال: بلغني أن رجلا يقرؤها ما يقرأ شيئا غيرها، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها وقالت: رب اغفر له فإنه كان يكثر من قراءتي فشفعها الرب فيه وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة اه.

وقال الطبرسي: تسمى)سورة سجدة لقمان(لوقوعها بعد سورة لقمان لئلا تلتبس بسورة)حم السجدة(، أي كما سموا سورة)حم السجدة(وهي سورة فصلت)سورة سجدة المؤمن(لوقوعها بعد) سورة المؤمنين(.

وهي مكية في إطلاق أكثر المفسرين وإحدى روايتين عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه استثناء ثلاث آيات مدنية وهي)أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا(إلى)لعلهم يرجعون(. قيل نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد ابن عقبة وسيأتي إبطاله. وزاد بعضهم آيتين)تتجافى جنوبهم عن المضاجع(إلى)بما كانوا يعملون(لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف.

والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إن هو إلا تأويل أو إلحاق خاص بعام كما أصلنا في المقدمة الخامسة.

نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة نوح، وقد عدت الثالثة والسبعين في النزول.

وعدت آياتها عند جمهور العادين ثلاثين، وعدها البصريون سبعا وعشرين.

من أغراض هذه السورة

أولها التنويه بالقرآن أنه منزل من عند الله، وتوبيخ المشركين على ادعائهم أنه مفترى بأنهم لم يسبق لهم التشرف بنزول كتاب.

والاستدلال على إبطال إلهية أصنامهم بإثبات انفراد الله بأنه خالق السماوات والأرض ومدبر أمورهما.

وذكر البعث والاستدلال على كيفية بدء خلق الإنسان ونسله، وتنظيره بإحياء الأرض، وأدمج في ذلك أن إحياء الأرض نعمة عليهم كفروا بمسديها.

والإنحاء على الذين أنكروه ووعيدهم.

والثناء على المصدقين بآيات الله ووعدهم، ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين، ثم إثبات رسالة رسول عظيم قبل محمد صلى الله عليه وسلم هدى به أمة عظيمة.

والتذمير بما حل بالمكذبين السابقين ليكون ذلك عظة للحاضرين، وتهديدهم بالنصر الحاصل للمؤمنين.

وختم ذلك بانتظار النصر.

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنه تحقيرا لهم، ووعده بانتظار نصره عليهم.

ومن مزايا هذه السورة وفضائلها ما رواه الترمذي والنسائي وأحمد والدرامي عن جابر بن عبد الله قال كان النبي لا ينام حتى يقرأ)ألم تنزيل السجدة(و)تبارك الذي بيده الملك(.

)ألم[1](تقدم ما في نظائره.

)تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين[2](افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن لأنه جامع الهدى الذي تضمنته هذه السورة وغيرها ولأن جماع ضلال الضالين هو التكذيب بهذا الكتاب، فالله

جعل القرآن هدى للناس وخص العرب بأن شرفهم بجعلهم أول من يتلقى هذا الكتاب، وبأن أنزله بلغتهم، فكان منهم أشد المكذبين بما جاء به، لا جرم أن تكذيب أولئك المكذبين أعرق في الضلالة وأوغل في أفن الرأي.
وافتتاح الكلام بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.

صفحة : 3293

وجيء بالمسند إليه معرفا بالإضافة لإطالته ليحصل بتطويله ثم تعقيبه بالجملة المعترضة التشويق إلى معرفة الخبر وهو قوله)من رب العالمين(ولولا ذلك لقيل: قرآن منزل من رب العالمين أو نحو ذلك.
وإنما عدل عن أسلوب قوله)ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه(في سورة البقرة لأن تلك السورة نازلة بين ظهراني المسلمين ومن يرجى إسلامهم من أهل الكتاب وهم)الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك(؛ وأما هذه السورة فقد جابه الله بها المشركين الذين لا يؤمنون بالإله الواحد ولا يوقنون بالآخرة فهم أصلب عودا، وأشد كفرا وصدودا.
فقوله)تنزيل الكتاب(مبتدأ، وقوله)لا ريب فيه(جملة هي صفة للكتاب أو حال أو هي معترضة.
وقوله)من رب العالمين(خبر عن المبتدأ ومن ابتدائية.
والمعنى: من عنده ووحيه، كما تقول: جاءني كتاب من فلان. ووقعت جملة)لا ريب فيه(بأسلوب المعلوم المقرر فلم تجعل خبرا ثانيا عن المبتدأ لزيادة التشويق إلى الخبر ليقرر كونه من رب العالمين.
ومعنى)لا ريب فيه(أنه ليس أهلا لأن يرتاب أحد في تنزيله من رب العالمين لما حف بتنزيله من الدلائل القاطعة بأنه ليس من كلام البشر بسبب إعجاز أقصر سورة منه فضلا عن مجموعه، وما عضده من حال المرسل به من شهرة الصدق والاتسقامة، ومجئ مثله من مثله مع ما هو معلوم من وصف الأمية.
فمعنى نفي أن يكون الريب مظروفا في هذا الكتاب أنه لا يشتمل على ما يثير الريب، فالذين ارتابوا بل كذبوا أن يكون من عند الله فهم لا يعدون أن يكونوا متعنتين على علم، أو جهالا يقولون قبل أن يتأملوا وينتظروا، والأولون زعماؤهم والأخيرون دهماؤهم، وقد تقدم ذلك في أول سورة البقرة.
واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف)رب العالمين(دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم

الشريعة وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ما سبق من الكتب الإلهية، كما قال تعالى)مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(. وفيه إيماء إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم لأن ربوبية الله للعالمين تنبئ عن أنه لا يسأل عما يفعل وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته.

)أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون[3](جاءت)أم(للإضراب عن الكلام السابق إضراب انتقال، وهي)أم(المنقطعة التي بمعنى)بل(التي للإضطراب.

وحيثما وقعت)أم(فهي مؤذنة باستفهام بالهمزة بعدها الملتزم حذفها بعد)أم(. والاستفهام المقدر بعدها هنا تعجيبي لأنهم قالوا هذا القول الشنيع وعلمه الناس عنهم فلا جرم كانوا أحقاء بالتعجيب من حالهم ومقالهم لأنهم أبدوا به أمرا غريبا يقضي منه العجب لدى العقلاء وذوي الأحلام الراجحة والنفوس المنصفة، إذ دلائل انتفاء الريب عن كونه من رب العالمين واضحة بله الجزم بأنه مفترى على الله تعالى.

وصيغ الخبر عن قولهم العجيب بصيغة المضارع لاستحضار حالة ذلك القول تحقيقا للتعجيب منه حتى لا تغفل عن حال قولهم أذهان السامعين كلفظ)تقول(في بيت هذلول العنبري من شعراء الحماسة:

تقول وصكت صدرها بيمينها أبعلي

هذا بالرحى المتقاعس وفي المضارع مع ذلك إيذان بتجدد مقالتهم هذه وأنهم لا يقلعون عنها على الرغم مما جاءهم من البينات ورغم افتضاحهم بالعجز عن معارضته.

والضمير المرفوع في)افتراه(عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه معلوم من مقام حكاية مقالهم المشتهر بين الناس، والضمير المنصوب عائد إلى)الكتاب(.

وأضرب على قولهم)افتراه(إضراب إبطال ب)بل هو الحق من ربك(لإثبات أن القرآن حق، ومعنى الحق: الصدق، أي فيما اشتمل عليه الذي منه أنه منزل من الله تعالى. وتعريف)الحق(تعريف الجنس المفيد تحقيق الجنسية فيه.

أي هو حق ذلك الحق المعروفة ماهيته من بين الأجناس والمفارق لجنس الباطل. وفي تعريف المسند بلام الجنس ذريعة إلى اعتبار كمال هذا الجنس في المسند إليه وهو معنى القصر الادعائي للمبالغة نحو: أنت الحبيب وعمرو الفارس.

و)من ربك(في موضع حال من)الحق(، والحق الوارد من قبل الله لا جرم أنه أكمل جنس الحق. وكاف الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. واستحضرت الذات العلية هنا بعنوان)ربك(لأن الكلام جاء ردا على قولهم)افتراه(يعنون النبي صلى الله عليه وسلم فكان مقام الرد مقتضيا تأييد من ألصقوا به ما هو بريء منه بإثبات أن الكتاب حق من رب من ألصقوا به الافتراء تنويها بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتخلصا إلى تصديقه لأنه إذا كان الكتاب الذي جاء به حقا من عند الله فهو رسول الله حقا.

وقد جاءت هذه الآية على أسلوب بديع الإحكام إذ ثبت أن الكتاب تنزيل من رب جميع الكائنات، وأنه يحق أن لا يرتاب فيه مرتاب، ثم انتقل إلى الإنكار والتعجيب من الذين جزموا بأن الجائي به مغتر على الله، ثم رد عليهم بإثبات أنه الحق الكامل من رب الذي نسبوا إليه افتراءه فلو كان افتراه لقدر الله على إظهار أمره كما قال تعالى)ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين(.

ثم جاء بما هو أنكى للمكذبين وأبلغ في تسفيه أحلامهم وأوغل في النداء على إهمالهم النظر في دقائق المعاني، فبين ما فيه تذكرة لهم ببعض المصالح التي جاء لأجلها هذا الكتاب بقوله)لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون(فقد جمعوا من الجهالة ما هو ضغث على إبالة، فإن هذا الكتاب، على أن حقيته مقتضية المنافسة في الانتفاع به ولو لم يلفتوا إلى تقلده وعلى أنهم دعوا إلى الأخذ به وذلك مما يتوجب التأمل في حقيته؛ على ذلك كله فهم كانوا أحوج إلى اتباعه من اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء لم تسبق لهم رسالة مرسل فكانوا أبعد عن طرق الهدى بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول فكان ذلك كافيا في حرصهم على التمسك به وشعورهم بمزيد الحاجة إليه رجاء منهم أن يهتدوا، قال تعالى)وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها(، فمثل هؤلاء المكذبين كمثل قول المعري:

هل تزجرنكم رسالة مرسل أم ليس ينفع في أولاك ألوك والقوم: الجماعة العظيمة الذين يجمعهم أمر هو

كالقوام لهم من نسب أو موطن أو غرض تجمعوا بسببه. وأكثر إطلاقه على الجماعة الذين يرجعون في النسب إلى جد اختصوا بالانتساب إليه. وتميزوا بذلك عمن يشاركهم في جد هو أعلى منه، فقريش مثلا قوم اختصوا بالانتساب إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة فتميزوا عمن عداهم من عقب كنانة فيقال: فلان قرشي وفلان كناني ولا يقال لمن هو من أبناء قريش كناني.

ووصف القوم بأنهم)ما أتاهم من نذير(قبل النبي صلى الله عليه وسلم والنبي حينئذ يدعو أهل مكة ومن حولها إلى الإسلام وربما كانت الدعوة شملت أهل يثرب وكلهم من العرب فظهر أن المراد بالقوم العرب الذين لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فإما أن يكون المراد قريشا خاصة، أو عرب الحجاز أهل مكة والمدينة وقبائل الحجاز، وعرب الحجاز جذمان عدنانيون وقحطانيون؛ فأما العدنانيون فهم أبناء عدنان وهم من ذرية إسماعيل وإنما تقومت قوميتهم في أبناء عدنان: وهم مضر، وربيعة، وأنمار، وإياد. وهؤلاء لم يأتهم رسول منذ تقومت قوميتهم.

وأما جدهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فإنه وإن كان رسولا نبيا كما وصفه الله تعالى في سورة مريم فإنما كانت رسالته خاصة بأهله وأصهاره من جرهم ولم يكن مرسلا إلى الذين وجدوا بعده لأن رسالته لم تكن دائمة ولا منتشرة، قال تعالى) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة(.

وأما القحطانيون القاطنون بالحجاز مثل الأوس والخزرج وطيء فإنهم قد تغيرت فرقهم ومواطنهم بعد سيل العرم وانقسموا أقواما جددا ولم يأتهم نذير منذ ذلك الزمن وإن كان المنذرون قد جاءوا أسلافهم مثل هود وصالح وتبع، فذلك كان قبل تقوم قوميتهم الجديدة.

صفحة : 3295

وإما أن يكون المراد العرب كلهم بما يشمل أهل اليمن واليمامة والبحرين وغيرهم ممن شملتهم جزيرة العرب وكلهم لا يعدون أن يرجعوا إلى ذينك الجذمين، وقد كان انقسامهم أقواما ومواطن بعد سيل العرم ولم يأتهم نذير بعد ذلك الانقسام كما تقدم في حال القحطانين من أهل الحجاز. وأما ما ورد من ذكر حنظلة بن صفوان صاحب أهل الرس، وخالد بن سنان صاحب بني عبس فلم يثبت أنهما رسولان واختلف في نبوتهما. وقد روي أن ابنة خالد بن سنان

وفدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهي عجوز وأنه قال لها مرحبا بابنة نبي ضيعه قومه . وليس لذلك سند صحيح.

وأيا ما كان فالعرب كلهم أو الذين شملتهم دعوة الإسلام يومئذ يحق عليهم وصف)ما أتاهم من نذير(من وقت تحقق قوميتهم.

والمقصود به تذكيرهم بأنهم أحوج الأقوام إلى نذير، إذ لم يكونوا على بقية من هدى وأثارة هممهم لاغتباط أهل الكتاب ليتقبلوا الكتاب الذي أنول إليهم ويسبقوا أهل الكتاب إلى اتباعه؛ فيكون للمؤمنين منه السبق في الشرع الأخير كما كان لمن لم يسلم من أهل الكتاب السبق ببعض الاهتداء وممارسة الكتاب السابق. وقد اهتم بعض أهل الأحلام من العرب بتطلب الدين الحق فتهود كثير من عرب اليمن، وتنصرت طيء، وكلب، وتغلب وغيرهم من نصارى العرب، وتتبع الحنيفية نفر مثل قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وكان ذلك تطلبا للكمال ولم يأتهم رسول بذلك.

وهذا التعليل لا يقتضي اقتصار الرسالة الإسلامية على هؤلاء القوم ولا ينافي عموم الرسالة لمن أتاهم نذير، لأن لام العلة لا تقتضي إلا كون ما بعدها باعثا على وقوع الفعل الذي تعلقت به دون انحصار باعث الفعل في تلك العلة، فإن الفعل الواحد قد يكون له بواعث كثيرة، وأفعال الله تعالى منوطة بحكم عديدة، ودلائل عموم الرسالة متواترة من صريح القرآن والسنة ومن عموم الدعوة.

وقيل: أريد بالقوم الذين لم يأتهم نذير من قبل جميع الأمم، وأن المراد بأنهم لم يأتهم نذير أنهم كلهم لم يأتهم نذير بعد أن ضلوا، سواء منهم من ضل في شرعه مثل أهل الكتاب، ومن ضل بالخلو عن شرع كالعرب. وهذا الوجه بعيد عن لفظ قوم وعن فعل) أتاهم(ومفيت للمقصود من هذا الوصف كما قدمناه.

وأما قضية عموم الدعوة المحمدية فدلائلها كثيرة من غير هذه الآية.

)ولعل(مستعارة تمثيلا لإرادة اهتدائهم والحرص على حصوله.

)الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون[4](لما كان الركن الأعظم من أركان هدى الكتاب هو إثبات الوحدانية للإله وإبطال الشرك عقب الثناء على الكتاب بإثبات هذا الركن.

وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به قطعا الدابر عقيدة الشريك في الإلهية، وخبر المبتدأ جملة)ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع(، ويكون قوله)الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما(صفة لاسم الجلالة.

وجيء باسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه الانفراد بالربوبية لجميع الخلائق في السماوات والأرض وما بينهما، ومن أولئك المشركون المعنيون بالخبر. والخطاب موجه إلى المشركين على طريقة الالتفات.

والولي: مشتق من الولاء بمعنى العهد والحلف والقرابة. ومن لوازم حقيقة الولاء النصر والدفاع عن المولى. وأريد بالولي المشارك في الربوبية.

والشفيع: الوسيط في قضاء الحوائج من دفع ضر أو جلب نفع. والمشركون زعموا أن الأصنام آلهة شركاء لله في الإلهية ثم قالوا)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(وقالوا)ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(.

و)من(في قوله)من دونه(ابتدائية في محل الحال من ضمير) لكم(، و)دون(بمعنى غير ، و)من(في قوله)من ولي(زائدة لتأكيد النفي، أي لا ولي لكم ولا شفيع لكم غير الله فلا ولاية للأصنام ولا شفاعة لها إبطالا لما زعموه لأصنامهم من الوصفين إبطالا راجعا إلى إبطال الإلهية عنها. وليس المراد أنهم لا نصير لهم ولا شفيع إلا الله لأن الله لا ينصرهم على نفسه ولا يشفع لهم عند نفسه، قال الله تعالى)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم(وقال)من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه(.

صفحة : 3296

وتقدم تفسير نظيره)إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش(وبيان تأويل)ثم استوى على العرش(في سورة الأعراف.

وفرع على هذا الدليل إنكار على عدم تدبرهم في ذلك وإهمالهم النظر بقوله)أفلا تتذكرون(فهو استفهام إنكاري. والتذكر: مشتق من الذكر الذي هو يضم الذال وهو التفكر والنظر بالعقل.

)يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون[5](جملة)يدبر الأمر(في موضع الحال من اسم الجلالة في قوله تعالى)الله الذي خلق السماوات والأرض(، أي خلق تلك الخلائق مدبرا أمرها. ويجوز أن تكون الجملة استئنافا، وقوله)من السماء(متعلق ب)يدبر(أو صفة للأمر أو حال منه، و)من(ابتدائية. والمقصود من حرفي الابتداء والانتهاء شمول تدبير الله تعالى الأمور كلها في العالمين العلوي والسفلي تدبيرا

شاملا لها من السماء إلى الأرض، فأفاد حرف الانتهاء شمول التدبير لأمور كل ما في السماوات والأرض وفيما بينهما.

والتدبير: حقيقته التفكير في إصدار فعل متقن أوله وآخره وهو، مشتق من دبر الأمر، أي آخره لأن التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية. وهو إذا وصف به الله تعالى كناية عن لازم حقيقته وهو تمام الإتقان، وتقدم شيء من هذا في أول سورة يونس وأول سورة الرعد.

والأمر: الشأن للأشياء ونظامها وما به تقومها. والتعريف فيه للجنس وهو مفيد لاستغراق الأمور كلها لا يخرج عن تصرفه شيء منها، فجميع ما نقل عن سلف المفسرين في تفسير)الأمر(يرجع إلى بعض هذا العموم.

والعروج: الصعود. وضمير)يعرج(عائد على)الأمر(، وتعديته بحرف الانتهاء مفيدة أن تلك الأمور المدبرة تصعد إلى الله تعالى؛ فالعروج هنا مستعار للمصير إلى تصرف الخالق دون شائبة تأثير من غيره ولو في الصورة كما في أحوال الدنيا من تأثير الأسباب. ولما كان الجلال يشبه بالرفعة في مستعمل الكلام شبه المصير إلى ذي الجلال بانتقال الذوات إلى المكان المرتفع وهو المعبر عنه في اللغة بالعروج، كما قال تعالى)إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه(، أي يرفعه إليه.

و)ثم(للتراخي الرتبي لأن مرجع الأشياء إلى تصرفه بعد صدورها من لدنه أعظم وأعجب.

وقد أفاد التركيب أن تدبير الأمور من السماء إلى الأرض من وقت خلقهما وخلق ما بينهما يستقر على ما دبر عليه كل بحسب ما يقتضيه حال تدبيره من استقراره، ويزول بعضه ويبقى بعضه ما دامت السماوات والأرض، ثم يجمع ذلك كله فيصير إلى الله مصيرا مناسبا لحقائقه؛ فالذوات تصير مصير الذوات والأعراض والأعمال تصير مصير أمثالها، أي يصير وصفها ووصف أصحابها إلى علم الله وتقدير الجزاء، فذلك المصير هو المعبر عنه بالعروج إلى الله فيكون الحساب على جميع المخلوقات يومئذ.

واليوم من قوله)في يوم كان مقداره ألف سنة(هو اليوم الذي جاء ذكره في آية سورة الحج بقوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(.

ومعنى تقديره بألف سنة أنه تحصل فيه من تصرفات الله في كائنات السماء والأرض ما لو كان من عمل الناس لكان حصول مثله في ألف سنة، فلك أن تقدر ذلك بكثرة التصرفات، أو بقطع المسافات، وقد فرضت في ذلك عدة احتمالات. والمقصود: التنبيه على عظم القدرة وسعة ملكوت الله وتدبيره. ويظهر أن هذا اليوم

هو يوم الساعة، أي ساعة اضمحلال العالم الدنيوي، وليس اليوم المذكور هنا هو يوم القيامة المذكور في سورة المعارج قاله ابن عباس: ولم يعين واحدا منهما، وليس من غرض القراء تعيين أحد اليومين ولكن حصول العبرة بأهوالهما.
وقوله)في يوم(يتنازعه كل من فعلي)يدبر(و)يعرج(، أي يحصل الأمران في يوم.
و)ألف(عند العرب منتهى أسماء العدد وما زاد على ذلك من المعدودات يعبر عنه بأعداد أخرى مع عدد الألف كما يقولون خمسة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف.
و)ألف(يجوز أن يستعمل كناية عن الكثرة الشديدة كما يقال: زرتك ألف مرة، وقوله تعالى)يود أحدهم لم يعمر ألف سنة(، وهو هنا بتقدير كاف التشبيه أو كلمة نحو، أي كان مقداره كألف سنة أو نحو ألف سنة كما في قوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(.

صفحة : 3297

ويجوز أن يكون)ألف(مستعملا في صريح معناه. وقوله)ما تعدون(، أي مما تحسبون في أعدادكم، و)ما(مصدرية أو موصولية وهو وصف ل)ألف سنة(. وهذا الوصف لا يقتضي كون اسم) ألف(مستعملا في صريح معناه لأنه يجوز أن يكون إيضاحا للتشبيه فهو قريب من ذكر وجه الشبه مع التشبيه، وقد يترجح أن هذا الوصف لما كان في معنى الموصوف صار بمنزلة التأكيد اللفظي لمدلوله فكان رافعا لاحتمال المجاز في العدد.
)ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم[6](جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدما أجري عليه من أوصاف التصرف بخلق الكائنات وتدبير أمورها للتنبيه على أن المشار إليه باسم الإشارة حقيق بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الصفات المتقدمة كما تقدم في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة، لا جرم أن المتصرف بذلك الخلق والتدبير عالم بجميع مخلوقاته ومحيط بجميع شؤونها فهو عالم الغيب، أي ما غاب عن حواس الخلق، وعالم الشهادة، وهو ما يدخل تحت إدراك الحواس، فالمراد بالغيب والشهادة: كل غائب وكل مشهود.
والمقصود هو علم الغيب لأنهم لما أنكروا البعث وإحياء الموتى كانت شبهتهم في إحالته أن أجزاء الأجسام تفرقت وتخللت الأرض،

ولذلك عقب بقوله بعده)وقالوا أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(. وأما عطف)والشهادة(فهو تكميل واحتراس.

ومناسبة وصفه تعالى ب)العزيز الرحيم(عقب ما تقدم أنه خلق الخلق بمحض قدرته بدون معين، فالعزة وهي الاستغناء عن الغير ظاهرة، وأنه خلقهم على أحوال فيها لطف بهم فهو رحيم بهم فيما خلقهم إذ جعل أمور حياتهم ملائمة لهم فيها نعيم لهم وجنبهم الآلام فيها. فهذا سبب الجمع بين صفتي)العزيز(و)الرحيم(هنا على خلاف الغالب من ذكر)الحكيم(مع)العزيز(.

و)العزيز الرحيم(يجوز كونهما خبرين آخرين عن اسم الإشارة أو وصفين ل)عالم الغيب(.

)الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين[7] ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين[8] ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون[9](خبر آخر عن اسم الإشارة أو وصف آخر ل)عالم الغيب(، وهو ارتقاء في الاستدلال مشوب بامتنان على الناس أن أحسن خلقهم في جملة إحسان خلق كل شيء وبتخصيص خلق الإنسان بالذكر. والمقصود: أنه الذي خلق كل شيء وخاصة الإنسان خلقا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وأخرج أصله من تراب ثم كون فيه نظام النسل من ماء، فكيف تعجزه إعادة أجزائه.

والإحسان: جعل الشيء حسنا، أي محمودا غير معيب، وذلك بأن يكون وافيا بالمقصود منه فإنك إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي، فصلابة الأرض مثلا للسير عليها، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يمينا وشمالا لكثرت الحرائق فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق.

وقوله)خلقه(قرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بصيغة فعل المضي على أن الجملة صفة ل)شيء(أي كل شيء من الموجودات التي خلقها وهم يعرفون كثيرا منها.

وقرأه الباقون بسكون اللام على أنه اسم هو بدل من)كل شيء(بدل اشتمال. وتخلص من هذا الوصف العام إلى خلق الإنسان لأن في خلقة الإنسان دقائق في ظاهره وباطنه وأعظمها العقل.

والإنسان أريد به الجنس، وبدء خلقه هو خلق أصله آدم كما في قوله تعالى)ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم(، أي خلقنا أباكم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. ويدل على هذا المعنى هنا قوله)ثم جعل نسله من سلالة(فإن ذلك بدئ من أول نسل لآدم وحواء، وقد تقدم خلق آدم في سورة البقرة. و)من(في قوله)من طين(ابتدائية.

والنسل: الأبناء والذرية. سمي نسلا لأنه ينسل، أي ينفصل من أصله وهو مأخوذ من نسل الصوف والوبر إذا سقط عن جلد الحيوان، وهو من بابي كتب وضرب.

صفحة : 3298

و)من(في قوله)من سلالة(ابتدائية. وسميت النطفة التي يتقوم منها تكوين الجنين سلالة كما في الآية لأنها تنفصل عن الرجل، فقوله)من ماء مهين(بيان ل)سلالة(. و)من(بيانية فالسلالة هي الماء المهين، هذا هو الظاهر لمتعارف الناس؛ ولكن في الآية إيماء علمي لم يدركه الناس إلا في هذا العصر وهو أن النطفة يتوقف تكون الجنين عليها لأنه يتكون من ذرات فيها تختلط مع سلالة من المرأة وما زاد على ذلك يذهب فضله، فالسلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النسل لا جميع الماء المهين، فتكون)من(فتكون) من(في قوله)من ماء مهين(للتبعيض أو للابتداء.

والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به. والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصان.

والتسوية: التقويم، قال تعالى)لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم(. والضمير المنصوب في)سواه(عائد إلى)نسله(لأنه أقرب مذكور ولأنه ظاهر العطف ب)ثم(وإن كان آدم قد سوي ونفخ فيه من الروح، قال تعالى)فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين(. وذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل يؤذن بأن أصله كذلك، فالكلام إيجاز.

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا هو تعالى، فالإضافة تفيد أنه من أشد المخلوقات اختصاصا بالله تعالى وإلا فالمخلوقات كلها لله.

والنفخ: تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع، وقد تقدم في قوله تعالى)فإذا سويته ونفخت فيه من روحي(في سورة الحجر.

والانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله)وجعل لكم(التفات لأن المخاطبين من أفراد الناس وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنهم بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين وغيرهم ناسب أن يلتفت إلى الحاضرين بنقل

الكلام إلى الخطاب لأنه آثر بالامتنان وأسعد بما يرد بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله)قليلا ما تشكرون(. والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته لأن الانتفاع بالحواس والإدراك متكرر متجدد فهو محسوس بخلاف التكوين والتقويم فهو محتاج إلى النظر في آثاره.

والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى)جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة(لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والأبصار والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة) الأفئدة(أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها.

وأفرد)السمع(لأنه مصدر لا يجمع، وجمع)الأبصار والأفئدة(باعتبار تعدد الناس.

وتقديم السمع على البصر تقدم وجهه عند قوله تعالى)ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(في سورة البقرة. وتقديم)السمع والأبصار(هنا عكس آية البقرة لأنه روعي هنا ترتيب حصولها في الوجود فإنه يكتسب المسموعات والمبصرات قبل اكتساب التعقل.

و)قليلا(اسم فاعل منتصب على الحال من ضمير)لكم(، و)ما تشكرون(في تأويل مصدر وهو مرتفع على الفاعلية ب)قليلا(، أي أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلة الشكر. ثم يجوز أن يكون)قليلا(مستعملا في حقيقته وهي كون الشيء حاصلا ولكنه غير كثير. ويجوز أن يكون كناية عن العدم كقوله تعالى)فلا يؤمنون إلا قليلا(. وعلى الوجهين يحصل التوبيخ لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء.

)وقالوا أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون[10](الواو للحال، والحال للتعجيب منهم كيف أحالوا إعادة الخلق وهم يعلمون النشأة الأولى، وليست الإعادة بأعجب من بدء الخلق وخاصة بدء خلق آدم عن عدم، وخلو الجملة الماضوية عن حرف)قد(لا يقدح في كونها حالا على التحقيق.

والاستفهام في)أإذا ضللنا(للتعجب والإحالة، أي أظهروا في كلامهم استبعاد البعث بعد فناء الأجساد واختلاطها بالتراب، مغالطة

للمؤمنين وترويجا لكفرهم. والضلال: الغياب، ومنه: ضلال الطريق، والضالة: الدابة التي ابتعدت عن أهلها فلم يعرف مكانها. وأرادوا بذلك إذا تفرقت أجزاء أجسادنا في خلال الأرض واختلطت بتراب الأرض. وقيل: الضلال في الأرض: الدخول فيها بناء على أنه يقال: أضل الناس الميت، أي دفنوه. وأنشدوا قول النابغة في رثاء النعمان بن الحارث الغساني:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر

بالجولان حزم ونائل وقرأه نافع والكسائي ويعقوب)إنا لفي خلق جديد(بهمزة واحدة على الإخبار اكتفاء بدخول الاستفهام على أول الجملة ومتعلقها. وقرأ الباقون)أإنا لفي خلق جديد(بهمزتين أولاهما للاستفهام والثانية تأكيد لهمزة الاستفهام الداخلة على)أإذا ضللنا في الأرض(.

وقرأ ابن عامر بترك الاستفهام في الموضعين على أن الكلام خبر مستعمل في التهكم.

وتأكيد جملة)إنا لفي خلق جديد(بحرف)إن(لأنهم حكوا القول الذي تعجبوا منه وهو ما في القرآن من تأكيد تجديد الخلق فحكوه بالمعنى كما في الآية الأخرى)وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(، أي يحقق لكم ذلك.

و)إذا(ظرف وهو معمول لما في جملة)إنا لفي خلق جديد(من معنى الكون. والخلق: مصدر.

و)في(للظرفية المجازية ومعناها المصاحبة.

والجديد: المحدث، أي غير خلقنا الذي كنا فيه.

و)بل(من)بل هم بلقاء ربهم كافرون(إضراب عن كلامهم، أي ليس إنكارهم البعث للاستبعاد والاستحالة لأن دلائل إمكانه واضحة لكل متأمل ولكن الباعث على إنكارهم إياه هو كفرهم بلقاء الله، أي كفرهم الذي تلقوه عن أئمتهم عن غير دليل، فالمعنى: بل هم قد أيقنوا بانتفاء البعث فهم متعنتون في الكفر مصرون عليه لا تنفعهم الآيات والأدلة. فالكفر المثبت هنا كفر خاص وهو غير الكفر الذي دل عليه قولهم)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(فإنه كفر بلقاء الله لكنهم أظهروه في صورة الاستبعاد تشكيكا للمؤمنين وترويجا لكفرهم.

وتقديم المجرور على)كافرون(للرعاية على الفاصلة. والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على كفرهم والثبات عليه.

)قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون[11](استئناف ابتدائي جار على طريقة حكاية المقاولات لأن جملة) قل(في معنى جواب لقولهم)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق

جديد(؛ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعيد إعلامهم بأنهم مبعوثون بعد الموت. فالمقصود من الجملة هو قوله)ثم إلى ربكم ترجعون(إذ هو مناط إنكارهم، وأما أنهم يتوفاهم ملك الموت فذكره لتذكيرهم بالموت وهم لا ينكرون ذلك ولكنهم ألهتهم الحياة الدنيا عن النظر في إمكان البعث والاستعداد له فذكروا به ثم أدمج فيه ذكر ملك الموت لزيادة التخويف من الموت والتعريض بالوعيد من قوله)الذي وكل بكم(فإنه موكل بكل ميت بما يناسب معاملته عند قبض روحه.

وفيه إبطال لجهلهم بأن الموت بيد الله تعالى وأنه كما خلقهم يميتهم وكما يميتهم يحييهم، وأن الإماتة والإحياء بإذنه وتسخير ملائكته في الحالين. وذلك إبطال لقوله)ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا(فأعلمهم الله أنهم لا يخرجون عن قبضة تصرفه طرفة عين لا في حال الحياة ولا في حال الممات. وإذا كان موتهم بفعل ملك الموت الموكل من الله بقبض أرواحهم ظهر أنهم مردودة إليهم أرواحهم متى شاء الله.

والتوفي: الإماتة. وتقدم في قوله تعالى)وهو الذي يتوفاكم بالليل(في سورة الأنعام وقوله)ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة(في الأنفال.

صفحة : 3300

وملك الموت هو الملك الموكل بقبض الأرواح وقد ورد ذكره في القرآن مفردا كما هنا وورد مجموعا في قوله)ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة(في سورة الأنفال وقوله)توفته رسلنا(في سورة الأنعام؛ وذلك أن الله جعل ملائكة كثيرين لقبض الأرواح وجعل مبلغ أمر الله بذلك عزرائيل فإسناد التوفي إليه كإسناده إلى الله في قوله)الله يتوفى الأنفس(، وجعل الملائكة الموكلين بقبض الأرواح أعوانا له وأولئك يسلمون الأرواح إلى عزرائيل فهو يقبضها ويودعها في مقارها التي أعدها الله لها، ولم يرد اسم عزرائيل في القرآن. وقيل: إن ملك الموت في هذه الآية مراد به الجنس فتكون كقوله)توفته رسلنا(.

)ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون[12](أردف ذكر إنكارهم البعث بتصوير حال المنكرين أثر البعث وذلك عند حشرهم إلى الحساب، وجيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب)لو(حذفا يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم

وهول موقفهم بين يدي ربهم، وبتوجيه الخطاب إلى غير معين لإفادة تناهي حالهم في الظهور حتى لا يختص به مخاطب. والمعنى: لو ترى أيها الرائي لرأيت أمرا عظيما.

والمجرمون هم الذين قالوا)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم بأنهم في قولهم ذلك مجرمون، أي آتون بجرم وهو جرم تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعطيل الدليل.

والناكس: الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل، يقال: نكس رأسه، إذا طأطأه لأنه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل.

ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة.

والعندية عندية السلطة، أي وهم في حكم ربهم لا يستطيعون محيدا عنه، فشبه ذلك بالكون في مكان مختص بربهم في أنهم لا يفلتون منه.

وجملة)ربنا أبصرنا وسمعنا(إلى آخر مقول قول محذوف دل عليه السياق هو في موضع الحال، أي ناكسوا رؤوسهم يقولون أو قائلين: أبصرنا وسمعنا، وهم يقولون ذلك ندامة وإقرارا بأن ما توعدهم القرآن به حق.

وحذف مفعول)أبصرنا(ومفعول)سمعنا(لدلالة المقام، أي أبصرنا من الدلائل المبصرة ما يصدق ما أخبرنا به فقد رأوا البعث من القبور ورأوا ما يعامل به المكذبون ، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي توعدنا به، أي فعلمنا أن ما دعانا إليه الرسول هو الحق الذي به النجاة من العذاب فأرجعنا إلى الدنيا نعمل صالحا كما قالوا في موطن آخر)ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل(.

وقوله)إنا موقنون(تعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصالح بأنهم صاروا موقنين بحقية ما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إليه فكانت)إن(مغنية غناء فاء التفريع المفيدة للتعليل، أي ما يمنعنا من تحقيق ما وعدنا به شك ولا تكذيب، إنا أيقنا الآن أن ما دعينا إليه حق. فاسم الفاعل في قوله)موقنون(واقع زمان الحال كما هو أصله.

)ولو شئنا لأتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين[13](اعتراض بين القول المقدر قبل قوله)ربنا أبصرنا وسمعنا(وبين الجواب عنه بقوله)فذوقوا بما نسيتم(فالواو التي في صدر الجملة اعتراضية، وهي من قبيل واو الحال.

ومفعول فعل المشيئة محذوف على ما هو الغالب في فعل المشيئة الواقع شرطا استغناء عن المفعول بما يدل عليه جواب الشرط.

صفحة : 3301

والمعنى: لو شئنا لجبلنا كل نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيار كما جبلت العجماوات على ما ألهمت إليه من نظام حياة أنواعها فلكانت النفوس غير محتاجة إلى النظر في الهدى وضده، ولا إلى دعوة من الله إلى طريق الهدى، ولكن الله لما أراد أن يكل إلى نوع الإنسان تعمير هذا العالم، وأن يجعله عنوانا لعلمه وحكمته، وأن يفضله على جميع الأنواع والأجناس العامرة لهذا العالم؛ اقتضى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلا يدرك به النفع والضر، والكمال والنقص، والصلاح والفساد، والتعمير والتخريب، وتنكشف له بالتدبر عواقب الأعمال المشتبهة والمموهة بحيث يكون له اختيار ما يصدر عنه من أجناس وأنواع الأفعال التي هي في مكنته بإرادة تتوجه إلى الشيء وضده، وخلق فيه من أسباب العمل وآلاته من الجوارح والأعضاء إذا كانت سليمة فكان بذلك مستطيعا لأن يعمل وأن لا يعمل على وفاق ميله واختياره وكسبه. وهذا المعنى هو الذي سماه الأشعري بالكسب وبالاستطاعة وتكفل له بإعانته على ما خلق له من الإدراك يدعوه إلى ما يريده الله منه من الهدى والصلاح في هذا العالم بواسطة رسل من نوعه يبلغون إليه مراد ربهم فطردهم على الصفات الملكية وجعلهم وسائط بينه وبين الناس في إبلاغ مراد ربهم إليهم.

ووعده الناس بالجزاء على فعل الخير وفعل الشر بما فيه باعث على الخير ورادع عن الشر.

وقد أراد الله أن يفضل هذا النوع بأن يجعل منه عمارا لعالم الكمال الخالد عالم الروحانيات فجعل لأهل الكمال الديني مراتب سامية متفاوتة في عالم الخلد على تفاوت نفوسهم في ميدان السبق إلى الكمالات، وجعل أضداد هؤلاء عمارا لهوة النقائص فملأ منهم تلك الهوة المسماة جهنم.

فهذا معنى قوله)ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين(البالغ من الإيجاز مبلغ الإعجاز، إذ حذف معظم ما أريد بحرف الاستدراك الوارد على قوله)ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها(؛ فإن مقتضى الاستدراك أن يقدر: ولكنا لم نشأ ذلك بل شئنا أن نخلق الناس مختارين بين طريقي الهدى والضلال، ووضعنا لهم

دواعي الرجاء والخوف، وأريناهم وسائل النجاة والارتباك بالشرائع قال تعالى)وهديناه النجدين(، أي الطريقين، وحققنا الأخبار عن الجزاءين بالوعد والوعيد بالجنة وجهنم فلأملأن جهنم بأهل الضلال من الجنة والناس أجمعين، فدخل هذا في قوله)حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين(بما يشبه دلالة الاقتضاء، وقد أومأ إلى هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق الجنة وخلق لها ملأها وخلق النار وخلق لها ملأها وإنما اختير الاقتصار في المنطوق به الدال على المحذوف على شق مصير أهل الضلال لأنه الأنسب بسياق الاعتراض إثر كلام أهل الضلالة في يوم الجزاء، ولأنه أظهر في تعلق مضمون جملة الاعتراض بمضمون اقتراحهم، أي لو كان إرجاعهم إلى الدنيا ليعملوا الصالحات مقتضى لحكمتنا لكنا جبلناهم على الهدى في حياتهم الدنيا فكانوا يأتون الصالحات بالقسر والإلجاء.

فالمراد)القول(ما أوعد الله به أهل الشرك والضلال.

والجنة: الجن وهم شياطين.

وجعل جمهور المفسرين قوله)ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها(إلى آخره جوابا موجها من قبل الله تعالى إلى المجرمين عن قولهم) ربنا أبصرنا(الخ.

ووجود الواو في أول هذا الكلام ينادي على أنه ليس جوابا لقول المشركين يومئذ فهم أقل من أن يجعلوا أهلا لتلقي هذه الحكمة بل حقهم الإعراض عن جوابهم كما جاء في آية سورة المؤمنين) قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون(، ولأنه لا يلاقي سؤالهم لأنهم سألوا الرجوع ليعملوا صالحا ولم يكن كلامهم اعتذارا عن ضلالهم بأن الله لم يؤتهم الهدى في الحياة الدنيا، وإنما هذا بيان من الله ساقه للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ليحيطوا علما بدقائق الحكمة الربانية.

وعدل عن الإضافة في)حق القول مني(فلم يقل: حق قولي، لأنه أريد الإشارة إلى قول معهود وهو ما في سورة ص~)لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين(أي حق القول المعهود. واجتلبت) من(الابتدائية لتعظيم شأن هذا القول بأنه من الله.

صفحة : 3302

وعدل عن ضمير العظمة إلى ضمير النفس لإفادة الانفراد بالتصرف ولأنه الأصل، مع ما في هذا الاختلاف من التفنن.

)فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون[14](هذا جواب عن قولهم)ربنا أبصرنا وسمعنا(الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يكذبون به، المؤذن به قولهم)ربنا أبصرنا وسمعنا(. فالفاء لتفريع جواب عن إقرارهم إلزاما لهم بموجب إقرارهم، أي فيتفرع على اعترافكم بحقية ما كان الرسول يدعوكم إليه أن يلحقكم عذاب النار.

ومجيء التفريع من المتكلم على ما هو من كلام المخاطب فيه إلزام بالحجة كالفاءات في قوله تعالى)قال فاخرج منها فإنك رجيم(وقوله)قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين(وقوله)فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين(؛ فهذه خمس فاءات كل فاء منها هي تفريع من المتكلم بها على كلام غيره. وقد تقدم ذلك في العطف بالواو عند قوله تعالى)قال ومن ذريتي(في سورة البقرة.

واستعمال الذوق بمعنى مطلق الإحساس مجاز مرسل تقدم عند قوله تعالى)ليذوق وبال أمره(في سورة العقود.

ومفعول)ذوقوا(محذوف دل عليه السياق، أي فذوقوا ما أنتم فيه مما دعاكم إلى أن تسألوا الرجوع إلى الدنيا.

والنسيان الأول: الإهمال والإضاعة، وتقدم في قوله تعالى) فنسي(في سورة طه.

والباء للسببية، أي بسبب إهمالكم الاستعداد لهذا اليوم. والنسيان في قوله)نسيناكم(مستعمل في الحرمان من الكرامة مع المشاكلة.

واللقاء: حقيقته العثور على ذات، فمنه لقاء الرجل غيره وتجيء منه الملاقاة، ومنه: لقاء المرء ضالة أو نحوها. وقد جاء منه: شيء لقى، أي مطروح. ولقاء اليوم في هذه الآية مجاز في حلول اليوم ووجوده على غير ترقب كأنه عثر عليه.

وإضافة)يوم(إلى ضمير المخاطبين تهكم بهم لأنهم كانوا ينكرونه فلما تحققوه جعل كأنه أشد اختصاصا بهم على طريقة الاستعارة التهكمية لأن اليوم إذا أضيف إلى القوم أو الجماعة إذا كان يوم انتصار لهم على عدوهم قال السموأل:

وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر

معلومة وحجول ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان، أي أيام انتصارهم. وسبب ذلك أن تقدير الإضافة على معنى اللام وهي تفيد الاختصاص المنتزع من الملك، قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال وقال تعالى)ذلك اليوم الحق(، أي يوم نصر المؤمنين على المشركين في الآخرة نصرا مؤبدا، أي ليس كأيامكم في الدنيا التي هي أيام نصر زائل.

والإشارة ب)هذا(إلى اليوم تهويلا له.
وجملة)إنا نسيناكم(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن المجرمين إذا سمعوا ما علموا منه أنهم ملاقو العذاب من قوله)فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا(تطلعوا إلى معرفة مدى هذا العذاب المذوق وهل لهم منه مخلص وهل يجابون إلى ما سألوا من الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من التصديق، فأعلموا بأن الله ممهل شأنهم، أي لا يستجيب لهم وهو كناية عن تركهم فيما أذيقوه. وقد تقدم في سورة طه قوله)قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى(فشبه بالنسيان إظهارا للعدل في الجزاء وأنه من جنس العمل المجازى عنه.
وقد حقق هذا الخبر بمؤكدات وهي حرف التوكيد. وإخراج الكلام في صيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر من زمن الحال لإفادة تحقق الفعل حتى كأنه مضى ووقع.
وقوله)وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون(عطف على)فذوقوا بما نسيتم(، وهو وإن أفاد تأكيد تسليط العذاب عليهم فإن عطفه مراعى فيه ما بين الجملتين من المغايرة بالمتعلقات والقيود مغايرة اقتضت أن تعتبر الجملة الثانية مفيدة فائدة أخرى؛ فالجملة الأولى تضمنت أن من سبب استحقاقهم تلك الإذاقة إهمالهم التدبر في حلول هذا اليوم، والجملة الثانية تضمنت أن ذلك العذاب مستمر وأن سبب استمرار العذاب وعدم تخفيفه أعمالهم الخاطئة وهي أعم من نسيانهم لقاء يومهم ذلك.

صفحة : 3303

)إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون[15] تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون[16] فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[17](استئناف ناشئ عن قوله)أم يقولون افتراه(الآية، تفرغ المقام له بعد أن أنحى بالتقريع والوعيد للكافرين على كفرهم بلقاء الله، بما أفادت اسمية جملة)بل هم بلقاء ربهم كافرون(من أنهم ثابتون على الكفر بلقاء الله دائمون عليه، وهو مما أنذرتهم به آيات القرآن، فالتكذيب بلقاء الله تكذيب بما جاء به القرآن فهم لا يؤمنون، وإنما يؤمن بآيات الله الذين ذكرت أوصافهم هنا.

والمراد بالآيات هنا آيات القرآن بقرينة قوله)الذين إذا ذكروا بها(بتشديد الكاف، أي أعيد ذكرها عليهم وتكررت تلاوتها على مسامعهم.

ومفاد)إنما(قصر إضافي، أي يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكروا بها تذكيرا بما سبق لهم سماعه لم يتريثوا عن إظهار الخضوع لله دون الذين قالوا)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(، وهذا تأييس للنبي صلى الله عليه وسلم من إيمانهم، وتعريض بهم بأنهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم ولا يغيظونهم بالتصلب في الكفر.

وأوثرت صيغة المضارع في)إنما يؤمن(لما تشعر به من أنهم يتجددون في الإيمان ويزدادون يقينا وقتا فوقتا، كما تقدم في قوله تعالى)الله يستهزئ بهم(في سورة البقرة، وإلا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضى ففعل المضي آثر بحكاية حالهم في الكلام التداول لولا هذه الخصوصية، ولهذا عرفوا بالموصولية والصلة الدال معناها على أنهم راسخون في الإيمان، فعبر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها على أسماعهم بالتذكير المقتضي أن ما تتضمنه الآيات حقائق مقررة عندهم لا يفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم ولكنها تكسبهم تذكيرا)فإن الذكرى تنفع المؤمنين(. وهذه الصفة التي تضمنتها الصلة هي حالهم التي عرفوا بها لقوة إيمانهم وتميزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أن من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسبحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممن يؤمنون، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان وهي حالة المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ عرفوا بها، وهذا كما تقول للسائل عن علماء البلد: هم الذين يلبسون عمائم صفتها كذا. جاء في ترجمة مالك بن أنس أنه ما أفتى حتى أجازه سبعون محنكا، أي عالما يجعل شقة من عمامته تحت حنكه وهي لبسة أهل الفقه والحديث. قال مالك رحمه الله: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم، فقلت: تعال فالبس ثياب العلم. فألبستني ثيابا مشمرة ووضعت الويلة على رأسي وعممتني فوقها.

والخرور: الهوي من علو إلى سفل.

والسجود: وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع.

وانتصب)سجدا(على الحال المبينة للقصد من)خروا(، أي سجدا لله وشكرا له على ما حباهم به من العلم والإيمان كما دل عليه قرنه بقوله)وسبحوا بحمد ربهم(. والباء فيه للملابسة وتقدم في سورة الإسراء)إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا(.

ودلت الجملة الشرطية على اتصال تعلق حصول الجواب بحصول الشرط وتلازمهما.

وجيء في نفي التكبر عنهم بالمسند الفعلي لإفادة اختصاصهم بذلك، أي دون المشركين الذين كان الكبر خلقهم فهم لا يرضون لأنفسهم بالانقياد للنبي منهم وقالوا)لولا انزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا(.

وقوله تعالى)وهم لا يستكبرون(موضع سجدة من سجدات تلاوة القرآن رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنى الله عليهم بأنهم إذا ذكروا بآيات الله سجدوا، فالقارئ يقتدي بهم.

وجملة)تتجافى جنوبهم(حال من الموصول، أي الذين إذا ذكروا بها خروا ومن حالهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، أو استئناف.

وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرر ذلك وتجدده منهم في أجزاء كثيرة من الأوقات المعدة لاضطجاع وهي الأوقات التي الشأن فيها النوم.

صفحة : 3304

والتجافي: التباعد والمتاركة. والمعنى: أن تجافي جنوبهم عن المضاجع يتكرر في الليلة الواحدة، أي يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله؛ وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الرجل في جوف الليل، كما سيأتي في حديث معاذ عند الترمذي.

والمضاجع: الفرش جمع مضجع، وهو مكان الضجع، أي الاستلقاء للراحة والنوم. و)أل(فيه عوض عن المضاف إليه، أي عم مضاجعهم كقوله تعالى)فإن الجنة هي المأوى(.

وهذا تعريض بالمشركين إذ يمضون ليلهم بالنوم لا يصرفه عنهم تفكر بل يسقطون كما تسقط الأنعام. وقد صرح بهذا المعنى عبد الله بن رواحة بقوله يصف النبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد أصحاب هذا الشأن:

يبيت يجافي جنبه عن فـراشـه إذا

استثقلت بالمشركين المضاجع وجملة)يدعون ربهم(يجوز أن تكون حالا من ضمير)جنوبهم(والأحسن أن تجعل بدل اشتمال من جملة)تتجافى جنوبهم(.

وانتصب)خوفا وطمعا(على الحال بتأويل خائفين وطامعين، أي من غضبه وطمعا في رضاه وثوابه، أي هاتان صفتان لهم.

ويجوز أن ينتصبا على المفعول لأجله، أي لأجل الخوف من ربهم والطمع في رحمته.

ولما ذكر إيثارهم التقرب إلى الله على حظوظ لذاتهم الجسدية ذكر معه إيثارهم إياه على ما به نوال لذات أخرى وهو المال إذ

ينفقون منه ما لو أبقوه لكان مجلبة راحة لهم فقال)ومما رزقناهم ينفقون(أي يتصدقون به ولو أيسر أغنياؤهم فقراءهم.
ثم عظم الله جزاءهم إذ قال)فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين(أي لا تبلغ نفس من أهل الدنيا معرفة ما أعد الله لهم قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فدل على أن المراد ب)نفس(في هذه الآية أصحاب النفوس البشرية فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال ومحامدها ومحاسن النغمات، وإلى ما تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسموعات مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ، ومثل الأشجار من زبرجد، والأزهار من ياقوت، وتراب من مسك وعنبر، فكل ذلك قليل في جانب ما أعد لهم في الجنة من هذه الموصوفات ولا تبلغه صفات الواصفين لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ولا خطر على قلب بشر وهذا كقولهم في تعظيم شيء: هذا لا يعلمه إلا الله.
قال الشاعر:
فلم يدر إلا الله ما هيجت لنا عشية
آناء الديار وشامها وعبر عن تلك النعم ب)ما أخفي(لأنها مغيبة لا تدرك إلا في عالم الخلود.
وقرة الأعين: كناية عن المسرة كما تقدم في قوله تعالى)وقري عينا(في سورة مريم.
وقرأ الجمهور)أخفي(بفتح الياء بصيغة الماضي المبني للمجهول.
وقرأ حمزة ويعقوب)أخفي(بصيغة المضارع المفتتح بهمزة المتكلم والياء ساكنة، و)جزاء(منصوب على الحال من)ما أخفي لهم(وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم أنه جزاء على هذه الأعمال الصالحات في حديث أغر رواه الترمذي عن معاذ بن جبل قال قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا)تتجافى جنوبهم عن المضاجع(حتى بلغ)يعملون.. (الحديث.

)أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون[18] أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون[19] وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون[20](

صفحة : 3305

فرع بالفاء على ما تقدم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين استفهام بالهمزة مستعمل في إنكار المساواة بين المؤمن والكافر، وهو إنكار بتنزيل السامع منزلة المتعجب من البون بين جزاء الفريقين في ذلك اليوم فكان الإنكار موجها إلى ذلك التعجب في معنى الاستئناف البياني.
والكاف للتشبيه في الجزاء.
وجملة)لا يستوون(عطف بيان للمقصود من الاستفهام.
والفاسق هنا هو: من ليس بمؤمن بقرينة قوله بعده)وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون(. فالمراد: الفسق عن الإيمان الذي هو الشرك وهو إطلاق كثير في القرآن.
ثم أكد كلا الجزاءين بذكر مرادف لمدلوله مع زيادة فائدة، فجملة)فلهم جنات المأوى(إلى آخرها مؤكدة لمضمون جملة)فلا تعلم نفس ما أخفي لهم(إلى آخرها.
وجملة)فمأواهم النار(إلى آخرها مؤكدة لمضمون جملة)فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا(إلى)بما كنتم تعملون(.
و)من(الموصولة في الموضعين عامة بقرينة التفصيل بالجمع في قوله)أما الذين آمنوا(الخ و)أما الذين فسقوا(. فليست الآية نازلة في معين كما قيل.
والمأوى: المكان الذي يؤوى إليه، أي يرجع إليه.
والتعريف باللام فيه للعهد، أي مأوى المؤمنين قال تعالى)عندها جنة المأوى(. ولك أن تجعل اللام عوضا عن المضاف إليه، أي مأواهم بقرينة قوله في مقابلة)فمأواهم النار(. وإضافة)جنات(إلى المأوى من إضافة الموصوف إلى الصفة لقصد التخفيف وهي واقعة في الكلام وإن اختلف البصريون والكوفيون في تأويلها خلافا لا طائل تحته، وذلك مثل قولهم: مسجد الجامع، وقوله تعالى)وما كنت بجانب الغربي(، وقولهم: عشاء الآخرة. والمعنى: فلهم الجنات المأوى لهم، أي الموعودون بها.
وانتصب)نزلا(على الحال من)جنات المأوى(. والنزل بضمتين مشتق من النزول فيطلق على ما يعد للنزيل من العطاء والقرى قال في الكشاف النزل: عطاء النازل، ثم صار عاما ، أي يطلق

على العطاء ولو بدون ضيافة مجازا مرسلا. قلت: ويطلق على محل نزول الضيف ولأجل هذه الإطلاقات يختلف المفسرون في المراد منه في بعض الآيات رعيا لما يناسب سياق الكلام.
وفسره الزجاج في هذه الآية ونحوها بالمنزل، وفسره في قوله تعالى)أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم(فقال: يقول أذلك خير في بابا الإنزال التي تمكن معها الإقامة أم نزل أهل النار وقد تقدم في آخر سورة آل عمران والباء في)بما كانوا يعملون(للسببية.
وقوله)كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها(تقدم نظيره في سورة الحج.
ويتجه في هذه الآية أن يقال: لماذا أظهر اسم النار في قوله) ذوقوا عذاب النار(مع أن اسم النار تقدم في قوله)فمأواهم النار(فكان مقتضى الظاهر الإضمار بأن يقال: وقيل لهم ذوقوا عذابها. وهذا السؤال أورده ابن الحاجب في أماليه وأجاب بوجهين: أحدهما أن سياق الآية التهديد وفي إظهار لفظ النار من التخويف ما ليس في الإضمار الثاني: أن الجملة حكاية لما يقال لهم يومئذ فناسب أن يحكى كما قيل لهم وليس فيما يقال لهم تقدم ذكر النار.
)ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون[21](إخبار بأن لهم عذابا آخر لا يبلغ مبلغ عذاب النار الموعودين به في الآخرة فتعين أن العذاب الأدنى عذاب الدنيا. والمقصود من هذا: التعريض بتهديدهم لأنهم يسمعون هذا الكلام أو يبلغ إليهم. وهذا إنذار بما لحقهم بعد نزول الآية وهو ما محنوا به من الجوع والخوف وكانوا في أمن منهما وما يصيبهم يوم بدر من القتل والأسر ويوم الفتح من الذل.
وجملة)لعلهم يرجعون(استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه لرجاء رجوعهم، أي رجوعهم عن الكفر بالإيمان. والمراد: رجوع من يمكن رجوعه وهم الأحياء منهم. وإسناد الرجوع إلى ضمير جميعهم باعتبار القبيلة والجماعة، أي لعل جماعتهم ترجع.
وكذلك كان فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة، فصار من تحقق فيهم الرجوع المرجو مخصوصين من عموم الذين فسقوا في قوله تعالى)وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها(الآية، فبقي ذلك الوعيد للذين ماتوا على الشرك، وهي مسألة الموافاة عند الأشعري.

)ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون[22](عطف على جملة)إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها(إلى آخرها حيث اقتضت أن الذين قالوا)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(ليسوا كأولئك فانتقل إلى الإخبار عنهم بأنهم أشد الناس ظلما لأنهم يذكرون بآيات الله حين يتلى عليهم القرآن فيعرضون عن تدبرها ويلغون فيها، فآيات الله مراد بها القرآن.

وجيء في عطف جملة)أعرض(بحرف)ثم(لقصد الدلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخي استبعاد وتعجيب من حالهم كقول جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابـن حـرة يرى

غمرات الموت ثم يزورها أي عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع.

و)من(للاستفهام الإنكاري كقوله)ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه(أي لا أظلم منه، أي لا أحد أظلم منه لأنه ظلم نفسه بحرمانها من التأمل فيما نفعه، وظلم الآيات بتعطيل نفعها في بعض من أريد انتفاعهم بها، وظلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتكذيبه والإعراض عنه، وظلم حق ربه إذ لم يمتثل ما أراد منه.

وجملة)إنا من المجرمين منتقمون(مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تفظيع ظلم الذي ذكر بآيات ربه فأعرض عنها لأن السامع يترقب جزاء ذلك الظالم.

والمراد بالمجرمين هؤلاء الظالمون، عدل عن ذكر ضميرهم لزيادة تسجيل فظاعة حالهم بأنهم مجرمون مع أنهم ظالمون، وقد يقال: إن المجرمين أعم من الظالمين فيكون دخلوهم في الانتقام من المجرمين أحرويا وتصير جملة)إنا من المجرمين منتقمون(تذييلا.

)ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل[23](لما جرى ذكر إعراض المشركين عن آيات الله وهي آيات القرآن في قوله)ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها(، استطرد إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما لقي من قومه هو نظير ما لقيه موسى من قوم فرعون الذين أرسل إليهم فالخبر مستعمل في التسلية بالتنظير والتمثيل.

فهذه الجملة وما بعدها إلى قوله)فيما كانوا فيه يختلفون(معترضات. وموقع التأكيد بلام القسم وحرف التحقيق هو ما استعمل فيه الخبر من التسلية لا لأصل الأخبار لأنه أمر لا يحتاج إلى التأكيد، وبه تظهر رشاقة الاعتراض بتفريع)فلا تكن في مرية من لقائه(على الخبر الذي قبله.

وأريد بقوله)آتينا موسى الكتاب(أرسلنا موسى، فذكر إيتائه الكتاب كناية عن إرساله، وإدماج ذكر)الكتاب(للتنويه بشأن موسى وليس داخلا في تنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال موسى عليه السلام في تكذيب قومه إياه لأن موسى لم يكذبه قومه ألا ترى إلى قوله تعالى)وجعلناه هدى لبني إسرائيل(الآيات، وليتأتى من وفرة المعاني في هذه الآية ما لا يتأتى بدون ذكر)الكتاب(.

وجملة)فلا تكن في مرية من لقائه(معترضة وهو اعتراض بالفاء، ومثله وارد كثيرا في الكلام كما تقدم عند قوله تعالى)إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما(الآية في سورة النساء. ويأتي عند قوله تعالى)هذا فليذوقوه حميم وغساق(في سورة ص~.

والمرية: الشك والتردد. وحرف الظرفية مجاز في شدة الملابسة، أي لا يكن الشك محيطا بك ومتمكنا منك، أي لا تكن ممتريا في أنك مثله سينالك ما ناله من قومه.

والخطاب يجوز أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، فالنهي مستعمل في طلب الدوام على انتفاء الشك فهو نهي مقصود منه التثبيت كقوله)فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء(، وليس لطلب إحداث انكفاف عن المرية لأنها لم تقع من قبل.

صفحة : 3307

واللقاء: اسم مصدر لقي وهو الغالب في الاستعمال دون لقى الذي هو المصدر القياسي. واللقاء: مصادفة فاعل هذا الفعل مفعوله، ويطلق مجازا على الإصابة كما يقال: لقيت عناء، ولقيت عرق القربة، وهو هنا مجاز، أي لا تكن في مرية في أن يصيبك ما أصابه، وضمير الغائب عائد إلى موسى. واللقاء مصدر مضاف إلى فاعله، أي مما لقي موسى من قوم فرعون من تكذيب، أي من مثل ما لقي موسى، وهذا المضاف يدل عليه المقام أو يكون جاريا على التشبيه البليغ كقوله: هو البدر، أي من لقاء كلقائه، فيكون هذا في معنى آيات كثيرة في هذا المعنى وردت في القرآن كقوله تعالى)ولقد استهزيء برسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا(وقوله)وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا(. هذا أحسن تفسير للآية وقريب منه مأثور عن الحسن.

ويجوز أن يكون ضمير)لقائه(عائدا إلى موسى على معنى: من مثل ما لقي موسى من إرساله وهو أن كانت عاقبة النصر له على قوم فرعون، وحصول الاهتداء بالكتاب الذي أوتيه، وتأييده باهتداء

بني إسرائيل. فيكون هذا المعنى بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله سيظهر هذا الدين.

ويجوز أن يكون ضمير)لقائه(عائدا إلى الكتاب كما في الكشاف لكن على أن يكون المعنى: فلا تكن في شك من لقاء الكتاب، أي من أن تلقى من إيتائك الكتاب ما هو شنشنة تلقي الكتب الإلهية كما تلقاها موسى. فالنهي مستعمل في التحذير ممن ظن أن لا يلحقه في إيتاء الكتاب من المشقة ما لقيه الرسل من قبله، أي من جانب أذى قومه وإعراضهم.

ويجوز أن يكون الخطاب في قوله)فلا تكن(لغير معين وهو موجه للذين امتروا في أن القرآن أنزل من عند الله سواء كانوا المشركين أو الذين يلقنونهم من أهل الكتاب، أي لا تمتروا في إنزال القرآن على بشر فقد أنزل الكتاب على موسى فلا تكونوا في مرية من إنزال القرآن على محمد. وهذا كقوله تعالى)إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس(. فالنهي مستعمل في حقيقته من طلب الكف عن المرية في إنزال القرآن. وللمفسرين احتمالات أخرى كثيرة لا تسفر عن معنى بين، ومن أبعدها حمل اللقاء على حقيقته وعود ضمير الغائب لموسى وأن المراد لقاؤه ليلة الإسراء وعده الله به وحققه له في هذه الآية قبل وقوعه. قال ابن عطية: وقال المبرد حين امتحن أبا إسحاق الزجاج بهذه المسألة.

وضمير النصب في)وجعلناه هدى(يجوز أن يعود على الكتاب أو على موسى وكلاهما سبب هدى، فوصف بأنه هدى للمبالغة في حصول الاهتداء به وهو معطوف على)أتينا موسى الكتاب(وما بينهما اعتراض. وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يشكروا نعمة الله على أن أرسل إليهم محمد بالقرآن ليهتدوا فأعرضوا وكانوا أحق بأن يحرصوا على الاهتداء بالقرآن وبهدي محمد صلى الله عليه وسلم.

)وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون[24](أشير إلى ما من الله به على بني إسرائيل إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله والأمر يشمل الوحي بالشريعة لأنه أمر بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد فإن الله أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه فإذا هدوا فإنما هدوا بأمره وبالعلم الذي آتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم فأنعم الله عليهم بذلك لما صبروا وأيقنوا لما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم فإن كان المراد من قوله)بآياتنا يوقنون(دلائل صدق موسى عليه السلام، فالمعنى: أنهم صبروا على مشاق التكليف والخروج بهم من أرض مصر وما لقوه من فرعون وقومه من العذاب والاضطهاد وتيههم في البرية أربعين سنة وتدبروا في الآيات ونظروا حتى أيقنوا.

وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات لأنها معجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر. فكانت دلالات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا نحو ما وقع في حديث رجم اليهوديين من قول الراوي فوضع اليهودي يده على آية الرجم، أي الكلام الذي فيه حكم الرجم في التوراة فسماه الرواي آية مشاكلة لكلام القرآن.

وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم يكونون أيمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم.

وتقديم)بآياتنا(على)يوقنون(للاهتمام بالآيات.

وقرأ الجمهور)لما صبروا(بتشديد الميم وهي)لما(التي هي حرف وجود لوجود وتسمى التوقيتية، أي جعلناهم أئمة حين صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بتخفيف الميم على أنها مركبة من لام التعليل و)ما(المصدرية، أي جعلناهم أيمة لأجل صبرهم وإيقانهم.

)إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون[25](استئناف بياني لأن قوله تعالى)وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا(يثير سؤالا في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا ما في القرآن من وصف اختلاف بني إسرائيل وانحرافهم عن دينهم وشاهد كثير منهم بني إسرائيل في زمانه غير متحلين بما يناسب ما قامت به أئمتهم من الهداية فيود أن يعلم سبب ذلك فكان في هذه الآية جواب ذلك تعليما للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

والخطاب للنبي. والمراد أمته تحذيرا من ذلك وإيماء إلى وجوب تجنب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داع في مصلحة الأمة وفهم الدين.

والفصل: القضاء والحكم، وهو يقتضي أن اختلافهم أوقعهم في إبطال ما جاءهم من ا لهدى فهو اختلاف غير مستند إلى أدلة ولا جار في مهيع أصل الشريعة؛ ولكنه متابعة للهوى وميل لأعراض الدنيا كما وصفه القرآن في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها كقوله تعالى)ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم(.

وليس منه اختلاف أئمة الدين في تفاريع الأحكام وفي فهم الدين مما لا ينقض أصوله ولا يخالف نصوصه وإنما هو إعمال لأصوله ولأدلته في الأحوال المناسبة لها وحمل متعارضها بعضه على بعض فإن ذلك كله محمود غير مذموم؛ وقد اختلف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في حياته فلم يعنف أحدا، واختلفوا بعد وفاته فلم يعنف بعضهم بعضا.

ويشمل ما كانوا فيه يختلفون ما كان اختلافا بين المهتدين والضالين منهم وما كان اتفاقا من جميع أمتهم على الضلالة فإن ذلك خلاف بين المجمعين وبين ما نطقت به شريعتهم وسنته أنبياؤهم، ومن أعظم ذلك الاختلاف كتمانهم الشهادة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وجحدهم ما أخذ عليهم من الميثاق من أنبيائهم.

وضمير)هو(في قوله)هو يفصل(ضمير فصل لقصر الفصل عليه تعالى إيماء إلى أن ما يذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم وإنما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم لأنهم لا يقبلون الحجة فلا يفصل بينهم إلا يوم القيامة.

)أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مسكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون[26](عطف على جملة) ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها(، ولما كان ذلك التذكير متصلا كقوله)وقالوا أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون(كان الهدي، أي العلم المستفهم عنه بهذا الاستفهام شاملا للهدي إلى دليل البعث وإلى دليل العقاب على الإعراض عن التذكير فأفاد قوله)كم أهلكنا من قبلهم من القرون(معنيين: أحدهما: إهلاك أمم كانوا قبلهم فجاء هؤلاء المشركون بعدهم، وذلك تمثيل للبعث وتقريب لإمكانه. وثانيهما: إهلاك أمم كذبوا رسلهم ففيهم عبرة لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

صفحة : 3309

والاستفهام إنكاري، أي هم لم يهتدوا بدلائل النظر والاستدلال التي جاءهم بها القرآن فأعرضوا عنها ولا اتعظوا بمصارع الأمم الذين كذبوا أنبياءهم وفي مهلكهم آيات تزجر أمثالهم عن السلوك فيما سلكوه.

فضمير)لهم(عائد إلى المجرمين أو إلى من ذكر بآيات ربه. و)يهد(من الهداية وهي الدلالة والإرشاد، يقال: هداه إلى كذا.

وضمن فعل)يهد(معنى يبين، فعدي باللام فأفاد هداية واضحة بينة. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى)أو لم يهد للذين يرثون الأرض(في سورة الأعراف. واختير فعل الهداية في هذه الآية لإرادة الدلالة الجامعة للمشاهدة ولسماع أخبار تلك الأمم تمهيدا لقوله في آخرها)أفلا يسمعون(، ولأن كثرة ذلك المستفادة من)كم(الخبرية إنما تحصل بترتيب الاستدلال في تواتر الأخبار ولا تحصل دفعة كما تحصل دلالة المشاهدات.

وفاعل)يهد(ما دلت عليه)كم(الخبرية من معنى الكثرة: ولا يجوز عند الجمهور جعل)كم(فاعل)يهد(لأن)كم(الخبرية اسم له الصدارة في الاستعمال إذ أصله استفهام فتوسع فيه.

ويجوز جعل)كم(فاعلا عند من لم يشترطوا أن تكون) كم(الخبرية في صدر الكلام. وجوز في الكشاف أن يكون الفاعل جملة)كم أهلكنا(على معنى الحكاية لهذا القول، كما يقال: تعصم) لا إله إلا الله(الدماء والأموال، أي هذه الكلمة أي النطق بها لتقلد الإسلام.

ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الجلالة دالا عليه المقام، أي ألم يهد الله لهم فإن الله بين لهم ذلك وذكرهم بمصارع المكذبين، وتكون جملة)كم أهلكنا(على هذا استئنافا، وتقدم)ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن(في أول الأنعام.

ونيط الاستدلال هنا بالكثرة التي أفادتها)كم(الخبرية لأن تكرر حدوث القرون وزوالها أقوى دلالة من مشاهدة آثار أمة واحدة.

و)يمشون في مساكنهم(حال من فاعل)أو لم يروا(والمعنى: أنهم يمرون على المواضع التي فيها بقايا مساكنهم مثل حجر ثمود وديار مدين فتعضد مشاهدة مساكنهم الأخبار الواردة عن استئصالهم وهي دلائل إمكان البعث كما قال تعالى)وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون(، ودلائل ما يحيق بالمكذبين للرسل؛ وفي كل أمة وموطن دلائل كثيرة متماثلة أو متخالفة.

ولما كان الذي يؤثر من أخبار تلك الأمم وتقلبات أحوالها وزوال قوتها ورفاهيتها أشد دلالة وموعظة للمشركين فرع عليه)أفلا يسمعون(استفهاما تقريريا مشوبا بتوبيخ لأن اجتلاب المضارع وهو)يسمعون(مؤذن بأن استماع أخبار تلك الأمم متكرر متجدد فيكون التوبيخ على الإقرار المستفهم عنه أوقع بخلاف ما بعده من قوله)أفلا يبصرون(. وقد شاع توجيه الاستفهام التقريري إلى المنفي، وتقدم عند قوله تعالى)ألم يأتكم رسل منكم(في سورة الأنعام وقوله)ألم يروا أنه لا يكلمهم(في سورة الأعراف.

)أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون[27](عطف على)أو لم يهد لهم(. ونيط الاستدلال هنا بالرؤية لأن إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة. واختير المضارع في قوله) نسوق(لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة.

والسوق: إزجاء الماشي من ورائه.

والماء: ماء المزن، وسوقه إلى الأرض هو سوق السحاب الحاملة إياه بالرياح التي تنقل السحاب من جو إلى جو؛ فشبهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدابة. والتعريف في)الأرض(تعريف الجنس.

والجرز: اسم للأرض التي انقطع نبتها، وهو مشتق من الجرز، وهو: انقطاع النبت والحشيش، إما بسبب يبس الأرض أو بالرعي، والجرز: القطع. وسمي السيف القاطع جرازا، قال الراجز يصف أسنان ناقة:

تنحي على الشوك جرازا مقضبا
والهرم تذريه إذدراء عجـبـا

صفحة : 3310

فالأرض الجرز: التي انقطع نبتها. ولا يقال للأرض التي لا تنبت كالسباخ جرز. والزرع: ما نبت بسبب بذر حبوبه في الأرض كالشعير والبر والفصفصة وأكل الأنعام غالبه من الكلأ لا من الزرع فذكر الزرع بلفظه، ثم ذكر أكل الأنعام يدل على تقدير: وكلأ. ففي الكلام اكتفاء. والتقدير: ونخرج به زرعا وكلأ تأكل منه أنعامهم وأنفسهم. والمقصود: الاستدلال على البعث وتقريبه وإمكانه بإخراج النبت من الأرض بعد أن زال؛ فوجه الأول. وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بقوله)تأكل منه أنعامهم وأنفسهم(.

ثم فرع عليه استفهام تقريري بجملة)أفلا يبصرون(. وتقدم بيان مثله آنفا في قوله)أفلا يسمعون(. ونيط الحكم بالإبصار هنا دلالة إحياء الأرض بعد موتها دلالة مشاهدة.

)ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين[28] قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون[29] فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون[30](يجوز أن يكون عطفا على جملة)ثم أعرض عنها(، أي أعرضوا عن سماع الآيات والتدبر فيها وتجاوزوا ذلك إلى التكذيب والتهكم بها. ومناسبة ذكر ذلك هنا أنه وقع عقب الإشارة إلى دليل وقوع البعث وهو يوم الفصل.

ويجوز أن يعطف على جملة)وقالوا أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(.

والمعنى: أنهم كذبوا بالبعث وما معه من الوعيد في الآخرة وكذبوا بوعيد عذاب الدنيا الذي منه قوله تعالى)ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر(.

والفتح: النصر والقضاء. والمراد به: نصر أهل الإيمان بظهور فوزهم وخيبة أعدائهم فإن خيبة العدو نصر لضده وكان المسلمون يتحدون المشركين بأن الله سيفتح بينهم وينصرهم وتظهر حجتهم، فكان الكافرون يكررون التهكم بالمسلمين بالسؤال عن وقت هذا الفتح استفهاما مستعملا في التكذيب حيث لم يحصل المستفهم عنه.

وحكاية قولهم بصيغة المضارع لإفادة التعجيب منه كقوله تعالى) يجادلنا في قوم لوط(مع إفادة تكرر ذلك منهم واتخاذهم إياه.

والمعنى: إن كنتم صادقين في أنه واقع فبينوا لنا وقته فإنكم إذ علمتم به دون غيركم فلتعلموا وقته. وهذا من السفسطة الباطلة لأن العلم بالشيء إجمالا لا يقتضي العلم بتفصيل أحواله حتى ينسب الذي لا يعلم تفصيله إلى الكذب في إجماله.

واسم الإشارة في)هذا الفتح(مع إمكان الاستغناء عنه بذكر مبينه مقصود منه التحقير وقلة الاكتراث به كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة
لنفسي إلا قد قضيت قضاءها إنباء بقلة اكتراثه بالموت. ومنه قوله تعالى حكاية عنهم)أهذا الذي يذكر آلهتكم(فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأن يوم الفتح الحق هو يوم القيامة وهو يوم الفصل وحينئذ ينقطع أمل الكفار في النجاة والاستفادة من الندامة والتوبة ولا يجدون إنظارا لتدارك ما فاتهم، أي إفادتهم هذه الموعظة خير لهم من تطلبهم معرفة وقت حلول يوم الفتح لأنهم يقولون يومئذ)ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون(مع ما في هذا الجواب من الإيماء إلى أن زمن حلوله غير معلوم للناس وأنه مما استأثر الله به فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يعمل له من الآن فإنه لا يدري متى يحل به ف)لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا(.

ففي هذا الجواب سلوك الأسلوب الحكيم من وجهين: من وجه العدول عن تعيين يوم الفتح، ومن وجه العدول بهم إلى يوم الفتح الحق، وهم إنما أرادوا بالفتح نصر المسلمين عليهم في الحياة الدنيا.

وإظهار وصف الذين كفروا في مقام الإضمار مع أنهم هم القائلون)متى هذا الفتح(لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب خيبتهم.

ثم فرع على جميع هذه المجادلات والدلالات توجيه الله خطابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يعرض عن هؤلاء القائلين المكذبين وأن لا يزيد في الإلحاح عليهم تأييسا من إيمان المجادلين منهم المتصدين للتمويه على دهمائهم. وهذا إعراض متاركة عن الجدال وقتيا لا إعراض مستمر، ولا عن الدعوة إلى الله ولا علاقة له بأحكام الجهاد المشروع في غير هذه الآية.

صفحة : 3311

والانتظار: الترقب. وأصله مشتق من النظر فكأنه مطاوع: أنظره، أي أراه فانتظر، أي تكلف أن ينظر.
وحذف مفعول)انتظر(للتهويل، أي انتظر أياما يكون لك فيها النصر، ويكون لهم فيها الخسران مثل سني الجوع إن كان حصلت بعد نزول هذه السورة، ومثل يوم بدر ويوم فتح مكة وهما بعد نزول هذه السورة لا محالة، ففي الأمر بالانتظار تعريض بالبشارة للمؤمنين بالنظر، وتعريض بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدارين.
وجملة)إنهم منتظرون(تعليل لما تضمنه الأمر بالانتظار من إضمار العذاب لهم. ومفعول)منتظرون(محذوف دل عليه السياق، أي منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم قال تعالى)أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون(وقال)ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء(أي لم نكن ظالمين في تقدير العذاب لهم لأنهم بدأوا بالظلم.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الأحزاب
هكذا سميت)سورة الأحزاب(في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وكذلك رويت تسميتها عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة. ولا يعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.
وهي مدنية بالاتفاق، وسيأتي عن ابن عباس أن آية)وما كان لمؤمن(الخ نزلت في تزويج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة في مكة.
وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة.
وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في البيان والتحصيل. وروى ابن وهب

وابن القاسم عن مالك: أنها كانت سنة أربع وهي سنة غزوة الأحزاب وتسمى غزوة الخندق حين أحاط جماعات من قريش وأحابيشهم وكنانة وغطفان وكانوا عشرة آلاف وكان المسلمون ثلاثة آلاف وعقبتها غزوة قريظة والنضير.

وعدد آيها ثلاث وسبعون باتفاق أصحاب العدد.

ومما يجب التنبيه عليه مما يتعلق بهذه السورة ما رواه الحاكم والنسائي وغيرهما عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تعدون سورة الأحزاب؟ قال: قلت: ثلاثا وسبعين آية. قال: أقط بهمزة استفهام دخلت على قط، أي حسب فوالذي يحلف به أبي: إن كانت لتعدل سورة البقرة. ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتية نكالا من الله والله عزيز حكيم فرفع فيما رفع، أي نسخ فيما نسخ من تلاوة آياتها. وما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام بسنده وابن الأنباري بسنده عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن. وكلام الخبرين ضعيف السند.

ومحمل الخبر الأول عند أهل العلم أن أبيا حدث عن سورة الأحزاب قبل أن ينسخ منها ما نسخ. فمنه ما نسخت تلاوته وحكمه ومنه ما نسخت تلاوته خاصة مثل آية الرجم. وأنا أقول: إن صح عن أبي ما نسب إليه فما هو إلا أن شيئا كثيرا من القرآن كان أبي يلحقه بسورة الأحزاب وهو من سور أخرى من القرآن مثل كثير من سورة النساء الشبيه ببعض ما في سورة الأحزاب أغراضا ولهجة مما فيه ذكر المنافقين واليهود، فإن أصحاب رسول الله لم يكونوا على طريقة واحدة في ترتيب آي القرآن ولا في عدة سوره وتقسيم سوره كما تقدم في المقدمة الثامنة ولا في ضبط المنسوخ لفظه. كيف وقد أجمع حفاظ القرآن والخلفاء الأربعة وكافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الذين شذوا على أن القرآن هو الذي في المصحف وأجمعوا في عدد آيات القرآن على عدد قريب بعضه من بعض كما تقدم في المقدمة الثامنة.

وأما الخبر عن عائشة فهو أضعف سندا وأقرب تأويلا فإن صح عنها، ولا إخاله، فقد تحدثت عن شيء نسخ من القرآن كان في سورة الأحزاب.

وليس بعد إجماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصحف عثمان مطلب لطالب.

ولم يكن تعويلهم في مقدار القرآن وسوره إلا على حفظ الحفاظ. وقد افتقد زيد ابن ثابت آية من سورة الأحزاب لم يجدها فيما دفع إليه من صحف القرآن فلم يزل يسأل عنها حتى وجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد كان يسمع رسول الله يقرؤها، فلما وجدها مع خزيمة لم يشك في لفظها الذي كان عرفه. وهي آية)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه(إلى قوله) تبديلا(. وافتقد الآيتين من آخر سورة براءة فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس المشتهر بكنيته .

وبعد فخبر أبي بن كعب خبر غريب لم يؤثر عن أحد من أصحاب رسول الله فنوقن بأنه دخله وهم من بعض رواته. وهو أيضا خبر آحاد لا ينتقض به إجماع الأمة على المقدار الموجود من هذه السورة متواترا.

وفي الكشاف: وأما ما يحكى أن تلك الزيادة التي رويت عن عائشة كانت مكتوبة في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن، أي الشاة، فمن تأليفات الملاحدة والروافض ا ه.

ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ.

وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير. وقد استوعب قولهم واستوفى إبطاله أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم.

أغراض هذه السورة لكثير من آيات هذه السورة أسباب لنزولها، وأكثرها نزل للرد على المنافقين أقوالا قصدوا بها أذى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأهم أغراضها: الرد عليهم قولهم لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله تعالى إبطال التبني.

وأن الحق في أحكام الله لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق.

وأن ولاية النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم، وتلك ولاية من جعل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام.

وتحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين .
والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين.
والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين.
ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.
وانتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فضلهن وفضل آل النبي صلى الله عليه وسلم وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات.
وتشريع في عدة المطلقة قبل البناء.
وما يسوغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج. وحكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسة المؤمنات إذا خرجن.
وتهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة.
وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها)واتبع ما أوحي إليك من ربك(، وتخلل ذلك مستطردات من الأمر بالائتساء بالنبي صلى الله عليه وسلم.
وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكرا له على هديه.
وتعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمر بالصلاة عليه والسلام.
ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين.
والتحذير من التورط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام.
)يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما[1](افتتاح السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم وندائه بوصفه مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم.
وقد نودي فيها خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلق بغيره وله ملابسة به.
فالنداء الأول لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه.
والنداء الثاني لافتتاح غرض التنويه بمقام أزوجه واقترابه من مقامه.

والنداء الثالث لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته في معاملة الأمة.
والنداء الرابع في طالعة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه.
والنداء الخامس في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.
فهذا النداء الأول افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله، وهو نظير النداء الذي في قوله)يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك(الآية، وقوله)يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر(الآيات.
ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره ولذلك لم يناد في القرآن بغير)يا أيها النبي(أو)يا أيها الرسول(بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله)يوم لا يخزي الله النبي( )وقال الرسول يا رب( )قل الأنفال لله والرسول( )النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم(، ويجيء باسمه العلم كقوله)ما كان محمد أبا أحد من رجالكم(.
وقد يتعين إجراء العلم ليوصف بعده بالرسالة كقوله تعالى)محمد رسول الله(وقوله)وما محمد إلا رسول(. وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك ويدعوه به، فإن علم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب تعلينا للأمة. وقد أنهى أبو بكر ابن العربي أسماء النبي صلى الله عليه وسلم إلى سبعة وستين وأنهاها السيوطي إلى ثلاثمائة. وذكر ابن العربي أن بعض الصوفية قال: أسماء النبي ألفا اسم كما سيأتي عند قوله تعالى)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا(.
والأمر للنبي بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره، فإن معنى)لا تطع(مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى؛ فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى: يا أيها النبي لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين لأنه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلا الله لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة لأن

تقوى النبي صلى الله عليه وسلم ربه أمر معلوم، فسلك مسلك الإطناب لهذا، كقول السمؤال:

تسيل على حد الظبات نفوسنـا

وليست على غير الظبات تسيل فجاء بجملتي إثبات السيلان بقيد ونفيه في غير ذلك القيد للنص على أنهم لا يكرهون سيلان دمائهم على السيوف ولكنهم لا تسيل دماؤهم على غير السيوف.

فإن أصل صيغة القصر أنها مختصرة من جملتي إثبات ونفي، ولكون هذه الجملة كتكملة للتي قبلها عطفت عليها لاتحاد الغرض منهما. وقد تعين بهذا أن الأمر في قوله)اتق الله(والنهي في قوله)ولا تطع الكافرين والمنافقين(مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أن تشريعا عظيما سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.

وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبل أقوالهم ليبأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي صلى الله عليه وسلم ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام.

والمراد بالكافرين المجاهرون بالكفر لأنه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن والأنسب بما سيعقبه من قوله)ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(إلى آخر أحكام التبني، والموافق لما روي في سبب نزولها على ضعف فيه سنبينه؛ ويجوز أن يكونوا اليهود كما يقتضيه ما يروى في سبب النزول، ولو حمل على ما يعم نوعي الكافرين المجاهرين لم يكن بعيدا.

صفحة : 3314

والطاعة: العمل على ما يأمر به الغير أو يشير به لأجل إجابة مرغوبة. وماهيتها متفاوتة مقول عليها بالتشكيك، ووقوع اسمها في سياق النهي يقتضي النهي عن كل ما يتحقق فيه أدنى ماهيتها، مثل أن يعدل عن تزوج مطلقة متبناه لقول المنافقين: إن محمدا ينهى عن تزوج نساء الأبناء وتزوج زوج ابنه زيد بن حارثه، وهو المعنى الذي جاء فيه قوله تعالى)وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه(وقوله)ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم(عقب قضية امرأة زيد. ومثل نقض ما كان للمشركين من جعل الظهار موجبا

مصير المظاهرة أما للمظاهر حراما عليه قربانها أبدا، ولذلك أردفت الجملة بجملة)إن الله كان عليما حكيما(تعليلا للنهي.
والمعنى: أن الله حقيق بالطاعة له دون الكافرين والمنافقين لأنه عليم حكيم فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح. ودخول)إن(على الجملة قائم مقام فاء التعليل ومغن غناءها على ما بين في غير موضع، وشاهده المشهور قول بشار:
بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك
النجاح في التبكير وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول والثعلبي والقشيري والماوردي في تفاسيرهم: أن قوله تعالى)ولا تطع الكافرين والمنافقين(نزل بسبب أنه بعد وقعة أحد جاء إلى المدينة أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان من قريش وأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمان في المدينة وأن ينزلوا عند عبد الله بن أبي بن سلول ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله ابن أبي ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، وطمعة بن أبيرق فسألوا رسول الله أن يترك ذكر آلهة قريش، فغضب المسلمون وهم عمر بقتل النفر القريشيين، فمنعه رسول الله لأنه كان أعطاهم الأمان، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فنزلت هذه الآية، أي اتق الله في حفظ الأمان ولا تطع الكافرين وهم النفر القرشيون والمنافقين وهم عبد الله بن أبي ومن معه . وهذا الخبر لا سند له ولم يعرج عليه أهل النقد مثل الطبري وابن كثير.
)واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا[2]
(هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبني وما يتصل بها، ولذلك جيء بالفعل المضارع الصالح للاستقبال، وجرد من علامة الاستقبال لأنه قريب من زمن الحال. والمقصود من الأمر باتباعه أنه أمر باتباع خاص تأكيد للأمر العام باتباع الوحي. وفيه إيذان بأن ما سيوحي إليه قريبا هو ما يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني لأنهم ألفوه واستقر في عوائدهم وعاملوا المتبنين معاملة الأبناء الحق.
ولذلك ذيلت جملة)واتبع ما أوحي إليك(بجملة)إن الله كان بما تعملون خبيرا(تعليلا للأمر بالاتباع وتأنيسا به لأن الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإن إبطاله من تعلق العلم بلزوم تغييره فلا تتريثوا في امتثال أمره في ذلك، فجملة)إن الله كان بما تعملون خبيرا(في موقع العلة فلذلك فصلت لأن حرف التوكيد مغن غناء فاء التفريع كما مر آنفا.
وفي إفراد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله)
واتبع(وجمعه بما يشمله وأمته في قوله)بما تعملون(إيماء إلى أن

فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبي عليه الصلاة والسلام مشاركا لبعض الأمة في التلبس بها وهو حكم التبني إذ كان النبي متبنيا زيد بن حارثة من قبل بعثته.
وقرأ الجمهور)بما تعملون(بتاء الخطاب على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والأمة لأن هذا الأمر أعلق بالأمة. وقرأ أبو عمرو وحده)بما يعملون(بالمثناة التحتية على الغيبة على أنه راجع للناس كلهم شامل للمسلمين والكافرين والمنافقين ليفيد مع تعليل الأمر بالاتباع تعريضا بالمشركين والمنافقين بمحاسبة الله إياهم على ما يبيتونه من الكيد، وكناية عن إطلاع الله رسوله على ما يعلم منهم في هذا الشأن كما سيجيء)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم(، أي لنطلعنك على ما يكيدون به ونأذنك بافتضاح شأنهم.
وهذا المعنى الحاصل من هذه القراءة لا يفوت في قراءة الجمهور بالخطاب لأن كل فريق من المخاطبين يأخذ حظه منه.

صفحة : 3315

)وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا[3](زيادة تمهيد وتوطئة لتلقي تكليف يترقب منه أذى من المنافقين مثل قولهم: إن محمدا نهى عن تزوج نساء الأبناء وتزوج امرأة ابنه زيد بن حارثة، وهو ما يشير إليه قوله تعالى)ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا(؛ فأمره بتقوى ربه دون غيره، وأتبعه بالأمر باتباع وحيه، وعززه بالأمر بما فيه تأييده وهو أن يفوض أموره إلى الله.
والتوكل: إسناد المرء مهمه وشأنه إلى من يتولى عمله وتقدم عند قوله تعالى)فإذا عزمت فتوكل على الله(في سورة آل عمران.
والوكيل: الذي يسند إليه غيره أمره، وتقدم عند قوله تعالى)وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل(في سورة آل عمران.
وقوله)وكيلا(تمييز نسبة، أي كفى الله وكيلا، أي وكالته، وتقدم نظيره في قوله)وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا(في سورة النساء.
)ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(استئناف ابتدائي ابتداء المقدمة للغرض بعد التمهيد له بما قبله، والمقدمة أخص من التمهيد لأنها تشتمل على ما يوضح المقصد بخلاف التمهيد؛ فهذا مقدمة لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه مما يوحى إليه وهو تشريع الاعتبار بحقائق الأشياء ومعانيها، وأن مواهي الأمور لا تتغير بما يلصق بها من الأقوال المنافية للحقائق، وأن تلك

الملصقات بالحقائق هي التي تحجب العقول عن التفهم في الحقائق الحق، وهي التي ترين على القلوب بتلبيس الأشياء.
وذكر ها هنا نوعان من الحقائق: أحدهما من حقائق المعتقدات لأجل إقامة الشريعة على العقائد الصحيحة، ونبذ الحقائق المصنوعة المخالفة للواقع لأن إصلاح التفكير هو مفتاح إصلاح العمل، وهذا ما جعل تأصيله إبطال أن يكون الله جعل في خلق بعض الناس نظاما لم يجعله في خلق غيرهم.
وثاني النوعين من حقائق الأعمال لتقوم الشريعة على اعتبار مواهي الأعمال بما هي ثابتة عليه في نفس الأمر إلا بالتوهم والادعاء. وهذا يرجع إلى قاعدة أن حقائق الأشياء ثابتة وهو ما أشير إليه بقوله تعالى)وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق(، أي لا يقول الباطل مثل بعض أقوالكم من ذلك القبيل.
والمقصود التنبيه إلى بطلان أمور كان أهل الجاهلية قد زعموها وادعوها. وابتدئ من ذلك بما دليل بطلانه الحس والاختبار ليعلم من ذلك أن الذين اختلقوا مزاعم يشهد الحس بكذبها يهون عليهم اختلاق مزاعم فيها شبه وتلبيس للباطل في صورة الحق فيتلقى ذلك بالإذعان والامتثال.
والإشارة بقوله)ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(إلى أكذوبة من تكاذيب الجاهلية كانوا يزعمون أن جميل بن معمر ويقال: ابن أسد بن حبيب الجمحي الفهري وكان رجلا داهية قوي الحفظ أن له قلبين يعملان ويتعاونان وكانوا يدعونه ذا القلبين يريدون العقلين لأنهم كانوا يحسبون أن الإدراك بالقلب وأن القلب محل لعقل. وقد غره ذلك أو تغاور به فكان لشدة كفره يقول إن في جوفي قلبين أعمل بكل واحد منهما عملا أفضل من عمل محمد . وسموا بذي القلبين أيضا عبد الله بن خطل التيمي، وكان يسمى في الجاهلية عبد العزى وأسلم فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ثم كفر وقتل صبرا يوم فتح مكة وهو الذي تعلق بأستار الكعبة فلم يعف عنه، فنفت الآية زعمهم نفيا عاما، أي ما جعل الله لأي رجل من الناس قلبين لا لجميل بن معمر ولا لابن خطل، فوقوع)رجل(وهو نكرة في سياق النفي يقتضي العموم، ووقوع فعل)جعل(في سياق النفي يقتضي العموم لأن الفعل في سياق النفي مثل النكرة في سياق النفي. ودخول) من(على)قلبين(للتنصيص على عموم قلبين في جوف رجل فدلت هذه العمومات الثلاثة على انتفاء كل فرد من أفراد الجعل لكل فرد مما يطلق عليه أنه قلبان، عن كل رجل من الناس، فدخل في العموم جميل بن معمر وغيره بحيث لا يدعى ذلك لأحد أيا كان.

ولفظ)رجل(لا مفهوم له لأنه أريد به الإنسان بناء على ما تعارفوه في مخاطباتهم من نوط الأحكام والأوصاف الإنسانية بالرجال جريا على الغالب في الكلام ما عدا الأوصاف الخاصة بالنساء يعلم أيضا أنه لا يدعى لامرأة أن لها قلبين بحكم فحوى الخطاب أو لحن الخطاب.

صفحة : 3316

والجعل المنفي هنا هو الجعل الجبلي، أي ما خلق الله رجلا بقلبين في جوفه وقد جعل إبطال هذا الزعم تمهيدا لإبطال ما تواضعوا عليه من جعل أحد ابنا لمن ليس هو بابنه، ومن جعل امرأة أما لمن هي ليست أمه بطريقة قياس التمثيل، أي أن هؤلاء الذين يختلقون ما ليس في الخلقة لا يتورعون عن اختلاق ما هو من ذلك القبيل من الأبوة والأمومة، وتفريعهم كل اختلاقهم جميع آثار الاختلاق، فإن البنوة والأمومة صفتان من أحوال الخلقة وليستا مما يتواضع الناس عليه بالتعاقد مثل الولاء والحلف.

فأما قوله تعالى)وأزواجه أمهاتهم(فهو على معنى التشبيه في أحكام البرور وحرمة التزويج؛ ألا ترى ما جاء في الحديث أن رسول الله لما خطب عائشة من أبي بكر قال له أبو بكر: يا رسول الله إنما أنا أخوك فقال رسول الله: أنت أخي وهي لي حلال، أي أن الأخوة لا تتجاوز حالة المشابهة في النصيحة وحسن المعاشرة ولا تترتب عليها آثار الأخوة الجبلية لأن تلك آثار مرجعها إلى الخلقة فذلك معنى قوله أنت أخي وهي لي حلال .

والجوف: باطن الإنسان صدره وبطنه وهو مقر الأعضاء الرئيسية عدا الدماغ.

وفائدة ذكر هذا الظرف زيادة تصوير المدلول عليه بالقلب وتجليه للسامع فإذا سمع ذلك كان أسرع إلى الاقتناع بإنكار احتواء الجوف على قلبين، وذلك مثل قوله)ولكن تعمى القلوب التي في الصدور(ونحوه من القيود المعلومة؛ وإنما يكون التصريح بها تذكيرا بما هو معلوم وتجديدا لتصوره، ومنه قوله تعالى)وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه(وقد تقدم في سورة الأنعام.

)وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم(عطف إبطال ثان لبعض مزاعمهم وهو ما كان في الجاهلية أن الرجل إذا أراد فراق زوجه فراقا لا رجعة فيه بحال يقول لها أنت علي كظهر أمي ، هذه صيغته المعروفة عندهم، فهي موجبة طلاق المرأة وحرمة تزوجها من بعد لأنها صارت أما له، وليس المقصود هنا

تشريع إبطال آثار التحريم به لأن ذلك أبطل في سورة المجادلة وهي مما نزل قبل نزول سورة الأحزاب كما سيأتي؛ ولكن المقصود أن يكون تمهيدا لتشريع إبطال التبني تنظيرا بين هذه الأوهام إلا أن هذا التمهيد الثاني أقرب إلى المقصود لأنه من الأحكام التشريعية.

واللاء: اسم موصول لجماعة النساء فهو اسم جمع التي ، لأنه على غير قياس صيغ الجمع، وفيه لغات: اللاء مكسور الهمزة أبدا بوزن الباب، واللائي بوزن الداعي، والاء بوزن باب داخلة عليه لام التعريف بدون ياء.

وقرأ قالون عن نافع وقنبل عن ابن كثير وأبو جعفر)اللاء(بهمزة مكسورة غير مشبعة وهو لغة. وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف)واللائي(بياء بعد الهمزة بوزن الداعي، وقرأه أبو عمرو والبزي عن ابن كثير ويعقوب و)اللاي(بياء ساكنة بعد الألف بدلا عن الهمزة وهو بدل سماعي، قيل وهي لغة قريش. وقرأ ورش بتسهيل الهمزة بين الهمزة والياء مع المد والقصر. وروي ذلك عن أبي عمرو والبزي أيضا.

وذكر الظهر في قولهم: أنت علي كظهر أمي، تخييل للتشبيه المضمر في النفس على طريقة الاستعارة المكنية إذ شبه زوجه حين يغشاها بالدابة حين يركبها راكبها، وذكر تخييلا كما ذكر أظفار المنية في بيت أبي ذؤيب الهذلي المعروف، وسيأتي بيانه في أول تفسير سورة المجادلة.

وقولهم: أنت علي، فيه مضاف محذوف دل عليه ما في المخاطبة من معنى الزوجية والتقدير: غشيانك، وكلمة علي تؤذن بمعنى التحريم، أي أنت حرام علي، فصارت الجملة بما لحقها من الحذف علامة على معنى التحريم الأبدي. ويعدى إلى اسم المرأة المراد تحريمها بحرف)من(الابتدائية لتضمينه معنى الانفصال منها.

فلما قال الله تعالى)اللاء تظهرون منهن(علم الناس أنه يعني قولهم: أنت علي كظهر أمي.

والمراد بالجعل المنفي في قوله)وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم(الجعل الخلقي أيضا كالذي في قوله)ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(أي ما خلقهن أمهاتكم إذ لسن كذلك في الواقع، وذلك كناية عن انتفاء الأثر الشرعي الذي هو من آثار الجعل الخلقي لأن الإسلام هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى)إن أمهاتهم إلا اللاء ولدنهم(. وقد بسط

الله ذلك في سورة المجادلة وبه نعلم أن سورة المجادلة هي التي ورد فيها إبطال الظهار وأحكام كفارته فنعلم أن آية سورة الأحزاب وردت بعد تقرير إبطال الظهار فيكون ذكره فيها تمهيدا لإبطال التبني بشبه أن كليهما ترتيب آثار ترتيبا مصنوعا باليد غير مبني على جعل إلهي. وهذا يوقننا بأن سورة الأحزاب نزلت بعد سورة المجادلة خلافا لما درج عليه ابن الضريس وابن الحصار وما أسنده محمد بن الحارث بن أبيض عن جابر بن زيد مما هو مذكور في نوع المكي والمدني في نوع أول ما أنزل من كتاب الإتقان. وقال السيوطي: في هذا الترتيب نظر. وسنذكر ذلك في تفسير سورة المجادلة إن شاء الله.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو)تظهرون(بفتح التاء وتشديد الظاء مفتوحة دون ألف وتشديد الهاء مفتوحة. وقرأ حفص عن عاصم) تظاهرون(بضم التاء وفتح الظاء مخففة وألف وهاء مكسورة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف تظاهرون بفتح التاء وفتح الظاء مخففة بعدها ألف وفتح الهاء.

)وما جعل أدعياءكم أبناءكم(هذا هو المقصود الذي وطئ بالآيتين قبله، ولذلك أسهب الكلام بعده بتفاصيل التشريع فيه. وعطفت هاته الجملة على اللتين قبلها لاشتراك ثلاثتها في أنها نفت مزاعم لا حقائق لها.

والقول في المراد من قوله)ما جعل(كالقول في نظيره من قوله)وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم(.

والمعنى: أنكم تنسبون الأدعياء أبناء فتقولون للدعي: هو ابن فلان، للذي تبناه، وتجعلون له جميع ما للأبناء.

والأدعياء: جمع دعي بوزن فعيل بمعنى مفعول مشتقا من مادة الادعاء، والادعاء: زعم الزاعم الشيء حقا له من مال أو نسب أو نحو ذلك بصدق أو كذب، وغلب وصف الدعي على المدعي أنه ابن لمن يتحقق أنه ليس أبا له؛ فمن ادعي أنه ابن لمن يحتمل أنه أب له فذلك هو اللحيق أو المستلحق، فالدعي لم يجعله الله ابنا لمن ادعاه للعلم بأنه ليس أبا له، وأما المستلحق فقد جعله الله ابنا لمن استلحقه بحكم استلحاقه مع إمكان أبوته له.

وجمع على أفعلاء لأنه معتل اللام فلا يجمع على فعلى، والأصح أن أفعلاء يطرد في جمع فعيل المعتل اللام سواء كان بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول.

نزلت هذه الآية في إبطال التبني، أي إبطال ترتيب آثار البنوة الحقيقة من الإرث، وتحريم القرابة، وتحريم الصهر، وكانوا في الجاهلية يجعلون للمتبنى أحكام البنوة كلها، وكان من أشهر المتبنين في عهد الجاهلية زيد بن حارثة تبناه النبي صلى الله عليه وسلم،

وعامر بن ربيعة تبناه الخطاب أبو عمر بن الخطاب، وسالم تبناه أبو حذيفة، والمقداد بن عمرو تبناه الأسود بن عبد يغوث، فكان كل واحد من هؤلاء الأربعة يدعى ابنا للذي تبناه.
وزيد بن حارثة الذي نزلت الآية في شأنه كان غريبا من بني كلب من وبرة، من أهل الشام، وكان أبوه حارثة توفي وترك ابنيه جبلة وزيدا فبقيا في حجر جدهما، ثم جاء عماهما فطلبا من الجد كفالتهما فأعطاهما جبلة وبقي زيد عنده فأغارت على الحي خيل من تهامة فأصابت زيدا فأخذ جده يبحث عن مصيره، وقال أبياتا منها:
بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل وأنه علم أن زيدا بمكة وأن الذين سبوه باعوه بمكة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم فأقام عنده زمنا ثم جاء جده وعمه يرغبان في فدائه فأبى الفداء واختار البقاء على الرق عند النبي فحينئذ أشهد النبي قريشا أن زيدا ابنه يرث أحدهما الآخر فرضي أبوه وعمه وانصرفا فأصبح يدعى: زيد بن محمد، وذلك قبل البعثة. وقتل زيد في غزوة مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

صفحة : 3318

)ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[4]
(استئناف اعتراضي بين التمهيد والمقصود من التشريع وهو فذلكة كما تقدم من الجمل الثلاث التي نفت جعلهم ما ليس بواقع واقعا، ولذلك فصلت الجملة لأنها تتنزل منزلة البيان بالتحصيل لما قبلها.
والإشارة إلى مذكور ضمنا من الكلام المتقدم، وهو ما نفي أن يكون الله جعله من وجود قلبين لرجل، ومن كون الزوجة المظاهر منها أما لمن ظاهر منها، ومن كون الأدعياء أبناء للذين تبنوهم. وإذ قد كانت تلك المنفيات الثلاثة ناشئة عن أقوال قالوها صح الإخبار عن الأمور المشار إليها بأنها أقوال باعتبار أن المراد أنها أقوال فحسب ليس لمدلولاتها حقائق خارجية تطابقها كما تطابق النسب الكلامية الصادقة النسب الخارجية، وإلا فلا جدوى في الإخبار عن تلك المقالات بأنها قول بالأفواه.
ولإفادة هذا المعنى قيد بقوله)بأفواهكم(فإنه من المعلوم أن القول إنما هو بالأفواه فكان ذكر)بأفواهكم(مع العلم به مشيرا إلى أنه قول لا تتجاوز دلالته الأفواه إلى الواقع ونفس الأمر فليس له

من أنواع الوجود إلا الوجود في اللسان والوجود في الأذهان دون الوجود في العيان، ونظير هذا قوله تعالى)كلا إنها كلمة هو قائلها(أي لا تتجاوز ذلك الحد، أي لا يتحقق مضمونها في الخارج وهو الإرجاع إلى الدنيا في قول الكافر)رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت(، فعلم من تقييده)بأفواهكم(أنه قول كاذب لا يطابق الواقع وزاده تصريحا بقوله)والله يقول الحق(فأومأ إلى أن قولهم ذلك قول كاذب. ولهذا عطفت عليه جملة)والله يقول الحق(لأنه داخل في الفذلكة لما تقدم من قوله)ما جعل الله(الخ. فمعنى كونها أقوالا أن ناسا يقولون: جميل له قلبان، وناسا يقولون لأزواجهم: أنت كظهر أمي، وناسا يقولون للدعي: فلان ابن فلان، يريدون من تبناه.

وانتصب)الحق(على أنه صفة لمصدر محذوف مفعول به ل)يقول(. تقديره: الكلام الحق، لأن فعل القول لا ينصب إلا الجمل أو ما هو في معنى الجملة نحو)إنها كلمة هو قائلها(، فالهاء المضاف إليها) قائل(عائدة إلى)كلمة(وهي مفعول أضيف إليها.

وفي الإخبار عن اسم الجلالة وضميره بالمسندين الفعليين إفادة قصر القلب، أي هو يقول الحق لا الذين وضعوا لكم تلك المزاعم، وهو يهدي السبيل لا الذين أضلوا الناس بالأوهام. ولما كان الفعلان متعديين استفيد من قصرهما قصر معموليهما بالقرينة، ثم لما كان قول الله في المواضع الثلاثة هو الحق والسبيل كان كناية عن كون ضده باطلا ومجهلة. فالمعنى: وهم لا يقولون الحق ولا يهدون السبيل.

والسبيل: الطريق السابلة الواضحة، أي الواضح أنها مطروقة فهي مأمونة الإبلاغ إلى غاية السائر فيها.

وإذا تقرر أن تلك المزاعم الثلاثة لا تعدو أن تكون ألفاظا ساذجة لا تحقق لمدلولاتها في الخارج اقتضى ذلك انتفاء الأمرين اللذين جعلا توطئة وتمهيدا للمقصود وانتفاء الأمر الثالث المقصود وهو التبني، فاشترك التمهيد والمقصود في انتفاء الحقية، وهو أتم في التسوية بين المقصود والتمهيد.

وهذا كله زيادة تحريض على تلقي أمر الله بالقبول والامتثال ونبذ ما خالفه.

)ادعوهم لابائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم(استئناف بالشروع في المقصود من التشريع لإبطال التبني وتفصيل لما يحق أن يجريه المسلمون في شأنه.

وهذا الأمر إيجاب أبطل به ادعاء المتبني متبناه ابنا له. والمراد بالدعاء النسب.

والمراد من دعوتهم بآبائهم ترتب آثار ذلك، وهي أنهم أبناء آبائهم لا أبناء من تبناهم.
واللام في)لآبائهم(لام الانتساب، وأصلها لام الاستحقاق. يقال: فلان لفلان، أي هو ابنه، أي ينتسب له، ومنه قولهم: فلان لرشدة وفلان لغية، أي نسبه لها، أي من نكاح أو من زنى، وقال النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجـلـق وقبر بصيداء الذي عند حارب

أي من أبناء صاحبي القبرين. وقال علقمة بن عبد يمدح الملك الحارث:

فلست لأنسي ولكن لمـلاك تنزل من جو السماء يصوب

وفي حديث أبي قتادة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملا أمامة ابنة بنته زينب ولأبي العاص ابن ربيعة فكانت اللام مغنية عن أن يقول وابنة أبي العاص.
وضمير)هو أقسط(عائد إلى المصدر المفهوم من فعل)ادعوهم لآبائهم(أي الدعاء للآباء.
وجملة)هو أقسط عند الله(استئناف بياني كأن سائلا قال: لماذا لا ندعوهم للذين تبنوهم؟ فأجيب ببيان أن ذلك القسط فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة، اي هو قسط كامل وغيره جور على الآباء الحق والأدعياء، لأن فيه إضاعة أنسابهم الحق. والغرض من هذا الاستئناف تقرير ما دل عليه قوله)وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(لتعلم عناية الله تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبني، ولتطمئن نفوس المسلمين من التبنين والأدعياء ومن يتعلق بهم بقبول هذا التشريع الذي يشق عليهم إذ ينزع منهم إلفا ألفوه.
ولهذا المعنى الدقيق فرع عليه قوله)فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم(، فجمع فيه تأكيدا للتشريع بعدم التساهل في بقاء ما كانوا عليه بعذر أنهم لا يعلمون آباء بعض الأدعياء، وتأنيسا للناس أن يعتاضوا عن ذلك الانتساب المكذوب اتصالا حقا لا يفوت به ما في الانتساب القديم من الصلة، ويتجافى به عما فيه من المفسدة فصاروا يدعون سالما متبنى أبي حذيفة: سالما مولى أبي حذيفة، وغيره، ولم يشذ عن ذلك إلا قول الناس للمقداد بن عمرو: المقداد بن الأسود، نسبة للأسود بن عبد يغوث الذي كان قد تبناه في الجاهلية كما تقدم.

قال القرطبي لما نزلت هذه الآية قال المقداد: أن المقداد بن عمرو، ومع ذلك بقي الإطلاق عليه ولم يسمع فيمن مضى من عصى مطلق ذلك عليه ولو كان متعمدا ا ه. وفي قول القرطبي: ولو كان متعمدا، نظر، إذ لا تمكن معرفة تعمد من يطلق ذلك عليه. ولعله جرى على ألسنة الناس المقداد بن الأسود فكان داخلا في قوله تعالى)وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به(لأن ما جرى على الألسنة مظنة النسيان، والمؤاخذة بالنسيان مرفوعة.

وارتفاع)إخوانكم(على الإخبار عن مبتدأ محذوف هو ضمير الأدعياء، أي فهم لا يعدون أن يوصفوا بالإخوان في الإسلام إن لم يكونوا موالي أو يوصفوا بالموالي إن كانوا موالي بالحلف أو بولاية العتاقة وهذا استقراء تام. والإخبار بأنهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين.

والواو للتقسيم وهي بمعنى)أو(فتصلح لمعنى التخيير، أي فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم بإخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس.

و)في(للظرفية المجازية، أي إخوانكم أخوة حاصلة بسبب الدين كما يجمع الظرف محتوياته، أو تجعل)في(للتعليل والتسبب، أي إخوانكم بسبب الإسلام مثل قوله تعالى)فإذا أوذي في الله(، أي لأجل الله لقوله تعال)إنما المؤمنون إخوة(.

وليس في دعوتهم بوصف الأخوة ريبة أو التباس مثل الدعوة بالبنوة لأن الدعوة بالأخوة في أمثالهم ظاهرة لأن لوصف الأخوة فيهم تأويلا بإرادة الاتصال الديني بخلاف وصف البنوة فإنما هو ولاء وتحالف فالحق أن يدعوا بذلك الوصف، وفي ذلك جبر لخواطر الأدعياء ومن تبنوهم.

والمراد بالولاء في قوله)ومواليكم(ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوة. وهذه الآية ناسخة لما كان جاريا بين المسلمين ومن النبي صلى الله عليه وسلم من دعوة المتبنين إلى الذين تبنوهم فهو من نسخ السنة الفعلية والتقريرية بالقرآن. وذلك مراد من قال:إن هذه الآية نسخت حكم التبني.

قال في الكشاف وفي فصل هذه الجمل ووصلها من الحسن والفصاحة ما لا يعبئ عن عالم بطرق النظم .

صفحة : 3320

وبينه الطيبي فقال: يعني في إخلاء العاطف وإثباته من الجمل من مفتتح السورة إلى هنا. وبيانه: أن الأوامر والنهي في)اتق( )ولا تطع(

)واتبع( )وتوكل(، فإن الاستهلال بقوله)يا أيها النبي اتق الله(دال على أن الخطاب مشتمل على أمر معني شأنه لائح منه الإلهاب، ومن ثم عطف عليه)ولا تطع(كما يعطف الخاص على العام، وأردف به النهي، ثم أمر بالتوكل تشجيعا على مخالفة أعداء الدين، ثم عقب كلا من تلك الأوامر بما يطابقه على سبيل التتميم، وعلل)ولا تطع الكافرين(بقوله)إن الله كان عليما حكيما(تتميما للارتداع، وعلل قوله)واتبع ما يوحى إليك(بقوله)إن الله كان بما تعملون خبيرا(تتميما، وذيل قوله)وتوكل على الله(بقوله)وكفى بالله وكيلا(تقريرا وتوكيدا على منوال: فلان ينطق بالحق والحق أبلج، وفصل قوله)ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(على سبيل الاستئناف تنبيها على بعض من أباطيلهم. وقوله)ذلكم قولكم بأفواهكم(فذلكة لتلك الأحوال آذنت بأنها من البطلان وحقيق بأن يذم قائله. ووصل قوله)والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(على هذه الفذلكة بجامع التضاد على منوال ما سبق في المحمل في) ولا تطع(و)اتبع(، وفصل قوله)ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله(، وقوله)النبي أولى بالمؤمنين(، وهلم جرا إلى آخر السورة تفصيلا لقول الحق والاهتداء إلى السبيل القويم ا ه.

)وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما[5](عطف على جملة)ادعوهم لآبائهم(لأن الأمر فيها للوجوب فهو نهي عن ضده لتحريمه كأنه قيل: ولا تدعوهم للذين تبنوهم إلا خطأ.

والجناح: الإثم، وهو صريح في أن الأمر في قوله)ادعوهم لآبائهم(أمر وجوب.

ومعنى)فيما أخطأتم به(ما يجري على الألسنة خارجا مخرج الغالب فيما اعتادوه أن يقولوا: فلان ابن فلان للدعي ومتبنيه، ولذلك قابله بقوله)ولكن ما تعمدت قلوبكم(أي ما تعمدته عقائدكم بالقصد والإرادة إليه.

وبهذا تقرر إبطال حكم التبني وأن لا يقول أحد لدعيه: هو ابني، ولا يقول: تبنيت فلانا، ولو قاله أحد لم يكن لقوله أثر ولا يعتبر وصية وإنما يعتبر قول الرجل: أنزلت فلانا منزلة ابن لي يرث ما يرثه ابني. وهذا هو المسمى بالتنزيل وهو خارج مخرج الوصية بمناب وارث إذا حمله ثلث الميت. وأما إذا قال لمن ليس بابنه: هو ابني، على معنى الاستلحاق فيجري على حكمه إن كان المنسوب مجهول النسب ولم يكن الناسب مريدا التطلف والتقريب. وعند أبي حنيفة وأصحابه من قال: هو ابني، وكان أصغر من القائل وكان مجهول النسب سنا ثبت نسبه منه، وإن كان عبده عتق أيضا، وإن كان لا

يولد مثله لمثله لم يثبت النسب ولكنه يعتق عليه عند أبي حنيفة خلافا لصاحبيه فقالا: لا يعتق عليه.
وأم معروف النسب فلا يثبت نسبه بالقائل فإن كان عبدا يعتق عليه لأن إطلاقه ممنوع إلا من جهة النسب فلو قال لعبده: هو أخي، لم يعتق عليه إذا قال: لم أرد به أخوة النسب لأن ذلك يطلق في أخوة الإسلام بنص الآية وإذا قال أحد لدعيه: يا بني، على وجه التلطف فهو ملحق بالخطأ ولا ينبغي التساهل فيه إذا كانت فيه ريبة.
وقوله)ادعوهم لآبائهم(يعود ضمير أمره إلى الأدعياء فلا يشمل الأمر دعاء الحفدة أبناء لأنهم أبناء. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحسن رضي الله عنه إن ابني هذا سيد وقال لا تزرموا ابني أي لا تقطعوا عليه بوله . وكذلك لا يشمل ما يقوله أحد لآخر غير دعي له: يا ابني، تلطفا وتقربا، فليس به بأس لأن المدعو بذلك لم يكن دعيا للقائل ولم يزل الناس يدعون لداتهم بالأخ أو الأخت، قال الشاعر:

أنت أختي وأنت حرمة جاري وحرام علي خون الجـوار

ويدعون من هو أكبر باسم العم كثيرا، قال النمر بن تولب:

دعاني الغواني عمهن وخلتنـي لي اسم فلا أدعى به وهو أول

يريد أنهن كن يدعونه: يا أخي.

صفحة : 3321

ووقوع)جناح(في سياق النفي ب)ليس(يقتضي العموم فيفيد تعميم انتفاء الإثم عن العمل الخطأ بناء على قاعدة عدم تخصيص العام بخصوص سببه الذي ورد لأجله وهو أيضا معضود بتصرفات كثيرة في الشريعة، منها قوله تعالى)ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه .
ويفهم من قوله)ادعوهم لآبائهم(النهي عن أن ينسب أحد إلى غير أبيه بطريق لحن الخطاب. وفي الحديث من انتسب إلى غير أبيه فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .
ويخرج من النهي قول الرجل لآخر: أنت أبي وأنا ابنك على قصد التعظيم والتقريب وذلك عند انتفاء اللبس، كقول أبي الطيب يرقق سيف الدولة:

إنما أنت والد والأب الـقـا طع أحنى
من واصل الأولاد وجملة)إن الله كان غفورا رحيما(تعليل نفي الجناح عن الخطأ بأن نفي الجناح من آثار اتصاف الله تعالى بالمغفرة والرحمة بخلقه.
)النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم(استئناف بياني أن قوله تعالى)وما جعل أدعياءكم أبناءكم(وقوله)ادعوهم لآبائهم(كان قد شمل في أول ما شمله إبطال بنوة زيد بن حارثة للنبيء صلى الله عليه وسلم فكان بحيث يثير سؤالا في نفوس الناس عن مدى صلة المؤمنين بنبيئهم صلى الله عليه وسلم وهل هي وعلقة الأجانب من المؤمنين بعضهم ببعض سواء فلأجل تعليم المؤمنين حقوق النبي وحرمته جاءت هذه الآية مبينة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.
والمعنى: أنه أولى بكل مؤمن من أنفس المؤمنين.
و)من(تفضيلية.
ثم الظاهر أن الأنفس مراد بها جمع النفس وهي اللطيفة الإنسانية كقوله)تعلم ما في نفسي(، وأن الجمع للتوزيع على كل مؤمن آيل إلى كل فرد من الأنفس، أي أن النبي أولى بكل مؤمن من نفس ذلك المؤمن، أي هو أشد ولاية، أي قربا لكل مؤمن من قرب نفسه إليه، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة.
ف)أولى(اسم تفضيل من الولي وهو القرب، أي أشد قربا. وهذا الاسم يتضمن معنى الأحقية بالشيء فيتعلق به متعلقه بباء المصاحبة والملابسة. والكلام على تقدير مضاف، أي أولى بمنافع المؤمنين أو بمصالح المؤمنين، فهذا المضاف حذف لقصد تعميم كل شأن من شؤون المؤمنين الصالحة.
والأنفس: الذوات، أي هو أحق بالتصرف في شؤونهم من أنفسهم في تصرفهم في شؤونهم.
ومن هذا المعنى ما في الحديث الصحيح من قول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه. فقال: عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي .
ويجوز أن يكون المراد بالأنفس مجموع نوعهم كقوله)إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم(، ويجوز أن يكون المراد بالأنفس الناس.
والمعنى: أنه أولى بالمؤمنين من ولاية بعضهم لبعض، أي من ولاية جميعهم لبعضهم على نحو قوله تعالى)ثم أنتم هؤلاء تقتلون

أنفسكم(، أي يقتل بعضكم بعضا وقوله)ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما(.
والوجه الأول أقوى وأعم في اعتبار حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يفيد أولويته بمن عدا الأنفس من المؤمنين بدلالة فحوى الخطاب. وأما الاحتمال الثاني فإنه لا يفيد أنه أولى بكل مؤمن بنفس ذلك المؤمن إلا بدلالة قياس الأدون، ولذلك استثنى عمر ابن الخطاب بادئ الأمر نفسه فقال: لأنت أحب إلي إلا من نفسي التي بين جنبي.
وعلى كلا الوجهين فالنبي عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين من آبائهم وأبنائهم، وعلى الاحتمال الأول أولى بكل مؤمن من نفسه. وسننبه عليه عند قوله تعالى)وأزواجه أمهاتهم(فكانت ولاية النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين بعد إبطال التبني سواء على جميع المؤمنين.
وفي الحديث ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولما علمت من أن هذه الولاية راجعة إلى حرمته وكرامته تعلم أنها لا تتعدى ذلك فيما هو من تصرفات الناس وحقوق بعضهم من بعض، مثل ميراث الميت من المسلمين فإن ميراثه لورثته، وقد بينه قول النبي صلى الله عليه وسلم

صفحة : 3322

أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه ورثته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه .
وهذا ملاك معنى هذه الآية.
)وأزواجه أمهاتهم(عطف على حقوق النبي صلى الله عليه وسلم حقوق أزواجه على المسلمين لمناسبة جريان ذكر حق النبي عليه الصلاة والسلام فجعل الله لهن ما للأمهات من تحريم التزوج بهن بقرينة ما تقدم من قوله)وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم(.
وأما ما عدا حكم التزوج من وجوه البر بهن ومواساتهن فذلك راجع إلى تعظيم أسباب النبي صلى الله عليه وسلم وحرماته ولم يزل أصحاب النبي والخلفاء الراشدون يتوخون حسن معاملة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ويؤثرونهن بالخير والكرامة والتعظيم.
وقال ابن عباس عند حمل جنازة ميمومة: هذه زوج نبيكم فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوا ولا تزلزلوا وارفقوا رواه مسلم.

وكذلك ما عدا حكم الزواج من وجوه المعاملة غير ما يرجع إلى التعظيم ولهذه النكتة جيء بالتشبيه البليغ للمبالغة في شبههن بالأمهات للمؤمنين مثل الإرث وتزوج بناتهن، فلا يحسب أن تركاتهن يرثها جميع المسلمين، ولا أن بناتهن أخوات للمسلمين في حرمة التزوج بهن.

وأما إطلاق وصف خال المؤمنين على الخليفة معاوية لأنه أخو أم حبيبة أم المؤمنين فذلك من قبيل التعظيم كما يقال: بنو فلان أخوال فلان، إذا كانوا قبيلة أمه.

والمراد بأزواجه اللآئي تزوجهن بنكاح فلا يدخل في ذلك ملك اليمين، وقد قال الصحابة يوم قريظة حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي: أهي إحدى ما ملكت يمينه أم هي إحدى أمهات المؤمنين؟ فقالوا: ننظر، فإذا حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين وإذا لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما بنى بها ضرب عليها الحجاب، فعلموا أنها إحدى أمهات المؤمنين، ولذلك لم تكن مارية القبطية إحدى أمهات المؤمنين.

ويشترط في اعتبار هذه الأمومة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بنى بالمرأة، فأما التي طلقها قبل البناء مثل الجونية وهي أسماء بنت النعمان الكندية، وذكر ابن العربي أن امرأة كان عقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت في خلافة عمر فهم عمر برجمها. فقالت: لم وما ضرب علي النبي حجابا ولا دعيت أم المؤمنين. فكف عنها. وهذه المرأة هي ابنة الجون الكندية تزوجها الأشعث بن قيس. وهذا هو الأصح وهو مقتضى مذهب مالك وصححه إمام الحرمين والرافعي من الشافعية. وعن مقاتل: يحرم تزوج كل امرأة عقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم يبن بها. وهو قول الشافعي وصححه في الروضة، واللآء طلقهن الرسول عليه الصلاة والسلام بعد البناء بهن فاختلف فيهن على قولين، قيل: تثبت حرمة التزوج بهن حفظا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: لا يثبت لهن ذلك، والأول أرجح.

وقد أكد حكم أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بقوله تعالى)وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب(، وبتحريم تزوج إحداهن على المؤمنين بقوله)ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما(. وسيجيء بيان ذلك عند ذكر هاتين الآيتين في أواخر هذه السورة.

وروي أن ابن مسعود قرأ بعدها: وهو أب لهم. وروي مثله عن أبي بن كعب وعن ابن عباس. وروي عن عكرمة: كان في الحرف الأول وهو أبوهم .

ومحملها أنها تفسير وإيضاح وإلا فقد أفاد قوله تعالى)النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم(أكثر من مفاد هذه القراءة.
)وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا[6](

صفحة : 3323

أعقب نسخ أحكام التبني التي منها ميراث المتبني من تبناه والعكس بإبطال نظيره وهو المواخاة التي كانت بين رجال من المهاجرين مع رجال من الأنصار وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل بالمدينة مع من هاجر معه، جعل لكل رجل من المهاجرين رجلا أخا له من الأنصار فآخى بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد، وبين الزبير وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري؛ فتوارث المتآخون منهم بتلك المؤاخاة زمانا كما يرث الإخوة ثم نسخ ذلك بهذه الآية، كما نسخ التوارث بالتبني بآية)ادعوهم لآبائهم(، فبينت هذه الآية أن القرابة هي سبب الإرث إلا الانتساب الجعلي.
فالمراد بأولي الأرحام: الإخوة الحقيقيون. وعبر عنهم بأولي الأرحام لأن الشقيق مقدم على الأخ للأب في الميراث وهم الغالب، فبينت الآية أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث من ولاية المتآخين المهاجرين والأنصار فعم هذا جميع أولي الأرحام وخصص بقوله)من المؤمنين والمهاجرين(على أحد وجهين في الآيتين في معنى)من(. وهو بمنزلة العام الوارد على سبب خاص وهو مطلق في الأولوية والمطلق من قبيل المجمل، وإذ لم يكن معه بيان فمحمل إطلاقه محمل العموم، لأن الأولوية حال من أحوال أولي الأرحام وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال، فالمعنى: أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في جميع الولايات إلا ما خصصه أو قيده الدليل.
والآية مبينة في أن القرابة الحقيقية أرجح من الأخوة الجعلية، وهي مجملة في تفصيل ذلك فيما بين أولي الأرحام، وذلك مفصل في الكتاب والسنة في أحكام المواريث.
وتقدم الكلام على لفظ)أولوا(عند قوله تعالى)واتقون يا أولي الألباب(في سورة البقرة.
ومعنى)في كتاب الله(فيما كتبه، أي فرضه وحكم به. ويجوز أن يراد به القرآن إشارة إلى ما تضمنته آية المواريث، وقد تقدم نظير

هذه الآية في آخر سورة الأنفال. وتقدم الكلام في توريث ذوي الأرحام إن لم يكن للميت وارث معلوم سهمه.
و)أولوا الأرحام(مبتدأ، و)بعضهم(مبتدأ ثان و)أولى(خبر الثاني والجملة خبر المبتدأ الأول، و)في كتاب الله(متعلق ب)أولى(.
وقوله)من المؤمنين والمهاجرين(يجوز أن يتعلق باسم التفضيل وهو)أولى(فتكون)من(تفضيلية. والمعنى: أولوا الأرحام أولى بإرث ذوي أرحامهم من إرث أصحاب ولاية الإيمان والهجرة بتلك الولاية، أي الولاية التي بين الأنصار والمهاجرين. وأريد بالمؤمنين خصوص الأنصار بقرينة مقابلته بعطف)والمهاجرين(على معنى أصحاب الإيمان الكامل تنويها بإيمان الأنصار لأنهم سبقوا بإيمانهم قبل كثير من المهاجرين الذين آمنوا بعدهم فإن الأنصار آمنوا دفعة واحدة لما أبلغهم نقباؤهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إياهم بعد بيعة العقبة الثانية. قال تعالى)والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم(أي من قبل كثير من فقراء المهاجرين عدا الذين سبق إيمانهم.
فالمعنى: كل ذي رحم أولى بإرث قريبه من أن يرثه أنصاري إن كان الميت مهاجرا، أو أن يرثه مهاجر إن كان الميت من الأنصار، فيكون هذا ناسخا للتوارث بالهجرة الذي شرع بآية الأنفال)والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا(، فتوارث المسلمون بالهجرة فكان الأعرابي المسلم لا يرث قريبه المهاجر، ثم نسخ بآية هذه السورة.
ويجوز أن يكون قوله)من المؤمنين(ظرفا مستقرا في موضع الصفة، أي وأولوا الأرحام الكائنون من المؤمنين والمهاجرين، بعضهم أولى ببعض، أي لا يرث ذو الرحم ذا رحمة إلا إذا كانا مؤمنين ومهاجرين، فتكون الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة الذي شرع عند قدوم المهاجرين إلى المدينة، فلما نزلت هذه الآية رجعوا إلى مواريثهم فبينت هذه الآية أن القرابة أولى من الحلف والمواخاة، وأيا ما كان فإن آيات المواريث نسخت هذا كله.
ويجوز أن تكون)من(بيانية، أي وأولوا الأرحام المؤمنون والمهاجرون، أي فلا يرث أولوا الأرحام الكافرون ولا يرث من لم يهاجر من المؤمنين لقوله تعالى)والذين كفروا بعضهم أولياء بعض(ثم قال)والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا(.

والاستثناء بقوله)إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا(منقطع، و)إلا(بمعنى)لكن(لأن ما بعد)إلا(ليس من جنس ما قبلها فإن الأولوية التي أثبتت لأولي الأرحام أولوية خاصة وهي أولوية الميراث بدلالة السياق دون أولوية حسن المعاشرة وبذل المعروف.

وهذا استدراك على ما قد يتوهم من قطع الانتفاع بأموال الأولياء عن أصحاب الولاية بالإخاء والحلف فبين أن الذي أبطل ونسخ هو انتفاع الإرث وبقي حكم المواساة وإسداء المعروف بمثل الإنفاق والإهداء والإيصاء.

وجملة)كان ذلك في الكتاب مسطورا(تذييل لهذه الأحكام وخاتمة لها مؤذنة بانتهاء الغرض من الأحكام التي شرعت من قوله) ادعوهم لآبائهم(إلى هنا، فالإشارة بقوله)ذلك(إلى المذكور من الأحكام المشروعة فكان هذا التذييل أعم مما اقتضاه قوله)بعضهم أولى ببعض في كتاب الله(. وبهذا الاعتبار لم يكن تكريرا له ولكنه يتضمنه ويتضمن غيره فيفيد تقريره وتوكيده تبعا وهذا شأن التذييلات.

والتعريف في)الكتاب(للعهد، أي كتاب الله، أي ما كتبه على الناس وفرضه كقوله)كتاب الله عليكم(، فاستعير الكتاب للتشريع بجامع ثبوته وضبطه التغيير والتناسي، كما قال الحارث بين حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل ين قض

ما في المهارق الأهواء ومعنى ها مثل قوله تعالى)وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله(في سورة الأنفال.

فالكتاب استعارة مكنية وحرف الظرفية ترسيخ للاستعارة.

والمسطور: المكتوب في سطور، وهو ترشيح أيضا للاستعارة وفيه تخييل للمكنية.

وفعل)كان(في قوله)كان ذلك(لتقوية ثبوته في الكتاب مسطورا، لأن)كان(إذا لم يقصد بها أن اسمها اتصف بخبرها في الزمن الماضي كانت للتأكيد غالبا مثل)وكان الله غفورا رحيما(أي لم يزل كذلك.

)وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا[7] ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما[8](عطف على قوله)يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين(إلى قوله)وكفى بالله وكيلا(فلذلك تضمن الأمر بإقامة الدين على ما أراده اله تعالى وأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى نبذ سنن الكافرين الصرحاء والمنافقين من أحكام الهوى والأوهام.

فلما ذكر ذلك وعقب بمثل ثلاثة من أحكام جاهليتهم الضالة بما طال من الكلام إلى هنا ثني عنان الكلام إلى الإعلام بأن الذي

أمره الله به هو من عهود أخذها الله على النبيين والمرسلين من أول عهود الشرائع. وتربط هذا الكلام بالكلام الذي عطف هو عليه مناسبة قوله)كان ذلك في الكتاب مسطورا(. وبهذا الارتباط بين الكلامين لم يحتج إلى بيان الميثاق الذي أخذه الله تعالى على النبيين، فعلم أن المعنى: وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم بتقوى الله وبنبذ طاعة الكافرين والمنافقين وباتباع ما أوحى الله به. وقوله)إن الله كان عليما حكيما ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما(. فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتصار على تقوى الله وبالإعراض عن دعوى الكافرين والمنافقين. أعلم بأن ذلك شأن النبيين من قبله، ولذلك عطف قوله)ومنك(عقب ذكر النبيين تنبيها على أن شأن الرسل واحد وأن سنة الله فيهم متحدة، فهذه الآية لها معنى التذييل لآية)يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين(الآيات الثلاث ولكنها جاءت معطوفة بالواو لبعد ما بينها وما بين الآيات الثلاث المتقدمة.

صفحة : 3325

وقوله)وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم(الآيتين لهما موقع المقدمة لقصة الأحزاب لأن مما أخذ الله عليه ميثاق النبيين أن ينصروا الدين الذي يرسله الله به، وأن ينصروا دين الإسلام، قال تعالى) وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه(فمحمد صلى الله عليه وسلم مأمور بالنصرة لدينه بمن معه من المسلمين لقوله في هذه الآية)ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما(. وقال في الآية الآتية في الثناء على المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه)ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين(الآية.
وقد جاء قوله)وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم(جاريا على أسلوب ابتداء كثير من قصص القرآن في افتتاحها ب)إذ(على إضمار)اذكر(. و)إذ(اسم للزمان مجرد عن معنى الظرفية. فالتقدير: واذكر وقتا، وبإضافة)إذ(إلى الجملة بعده يكون المعنى: اذكر وقت أخذنا ميثاقا على النبيين. وهذا الميثاق مجمل هنا بينته آيات كثيرة. وجماعها أن يقولوا الحق ويبلغوا ما أمروا به دون ملاينة للكافرين والمنافقين، ولا خشية منهم، ولا مجاراة للأهواء، ولا مشاطرة مع أهل الضلال في الإبقاء على بعض ضلالهم. وأن الله واثقهم ووعدهم على ذلك بالنصر. ولما احتوت عليه هذه السورة من الأغراض مزيد التأثر بهذا

الميثاق بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وشديد المشابهة بما أخذ من المواثيق على الرسل من قبله.
ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى هنا)والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(وقوله في ميثاق أهل الكتاب)ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق(في سورة الأعراف.
وفي تعقيب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقوى ومخالفة الكافرين والمنافقين والتثبيت على اتباع ما يوحي إليه، وأمره بالتوكل على الله، وجعلها قبل قوله)يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود(الخ. إشارة إلى أن ذلك التأييد الذي أيد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه إذ رد عنهم أحزاب الكفار والمنافقين بغيظهم لم ينالوا خيرا ما هو إلا أثر من آثار الميثاق الذي أخذه الله على رسوله حين بعثه.
والميثاق: اسم العهد وتحقيق الوعد، وهو مشتق من وثق، إذا أيقن وتحقق، فهو منقول من اسم آلة مجازا غلب على المصدر، وتقدم في قوله تعالى)الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه(في سورة البقرة.
وإضافة ميثاق إلى ضمير النبيين من إضافة المصدر إلى فاعله على معنى اختصاص الميثاق بهم فيما ألزموا به وما وعدهم الله على الوفاء به. ويضاف أيضا إلى ضمير الجلالة في قوله)واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به(.
وقوله)ومنك ومن نوح(الخ هو من ذكر بعض أفراد العام للاهتمام بهم فإن هؤلاء المذكورين أفضل الرسل، وقد ذكر ضمير محمد صلى الله عليه وسلم قبلهم إيماء إلى تفضيله على جميعهم، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود. ولهذه النكتة خص ضمير النبي بإدخال حرف)من(عليه بخصوصه، ثم أدخل حرف)من(على مجموع الباقين فكان قد خص باهتمامين: اهتمام التقديم، واهتمام إظهار اقتران الابتداء بضمير بخصوصه غير مندمج في بقيتهم عليهم السلام.
وسيجيء أن ما في سورة الشورى من تقديم)ما وصى به نوحا(على)والذي أوحينا إليك(طريق آخر هو آثر بالغرض الذي في تلك السورة من قوله تعالى)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم(الآية.
وجملة)وأخذنا منهم ميثاقا غليظا(أعادت مضمون جملة)وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم(لزيادة تأكيدها، وليبنى عليها وصف الميثاق بالغليظ، أي عظيما جليل الشأن في جنسه فإن كل ميثاق له عظم فلما وصف هذا ب)غليظا(أفاد أن له عظما خاصا، وليعلق به لام التعليل من قوله)ليسأل الصادقين(.

وحقيقة الغليظ: القوي المتين الخلق، قال تعالى)فاستغلظ فاستوى على سوقه(. واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه لأن الغليظ من كل صنف هو أمكنه في صفات جنسه.

صفحة : 3326

واللام في قوله)ليسأل الصادقين عن صدقهم(لام كي، أي أخذنا منهم ميثاقا غليظا لنعظم جزاء للذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ولنشدد العذاب جزاء للذين يكفرون بما جاءتهم به رسل الله، فيكون من دواعي ذكر هذا الميثاق هنا أنه توطئة لذكر جزاء الصادقين وعذاب الكافرين زيادة على ما ذكرنا من دواعي ذلك آنفا.
وهذه علة من علل أخذ الميثاق من النبيين وهي آخر العلل حصولا فأشعر ذكرها بأن لهذا الميثاق عللا تحصل قبل أن يسأل الصادقون عن صدقهم، وهي ما في الأعمال المأخوذ ميثاقهم عليها من جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك هو ما يسأل العاملون عن عمله من خير وشر.
وضمير)يسأل(عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.
والمراد بالصادقين أمم الأنبياء الذين بلغهم ما أخذ على أنبيائهم من الميثاق، ويقابلهم الكافرون الذين كذبوا أنبياءهم أو الذين صدقوهم ثم نقضوا الميثاق من بعد، فيشملهم اسم الكافرين.
والسؤال: كناية عن المؤاخذة لأنها من ثواب جواب السؤال أعني إسداد الثواب للصادقين وعذاب الكافرين، وهذا نظير قوله تعالى)لا يسأل عما يفعل(، أي لا يتعقب أحد فعله ولا يؤاخذه على ما لا يلائمه، وقول كعب بن زهير:
وقيل: إنك منسوب ومسؤول. وجملة)وأعد للكافرين(عطف على جملة)ليسأل الصادقين(وغير فيها الأسلوب للدلالة على تحقيق عذاب الكافرين حتى لا يتوهم أنهم يسألون سؤال من يسمع جوابهم أو معذرتهم، ولإفادة أن إعداد عذابهم أمر مضى وتقرر في علم الله.
)يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا[9](ابتداء لغرض عظيم من أغراض نزول هذه السورة والذي حف بآيات وعبر من ابتدائه ومن عواقبه تعليما للمؤمنين وتذكيرا ليزيدهم يقينا وتبصيرا. فافتتح الكلام بتوجيه الخطاب إليهم لأنهم أهله وأحقاء به، ولأن فيه تخليد كرامتهم ويقينهم وعناية الله بهم ولطفه لهم

وتحقيرا لعدوهم ومن يكيد لهم، وأمروا أن يذكروا هذه النعمة ولا ينسوها لأن في ذكرها تجديدا للاعتزاز بدينهم والثقة بربهم والتصديق لنبيهم صلى الله عليه وسلم.

واختيرت للتذكير بهذا اليوم مناسبة الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لأن من النعم التي حفت بالمؤمنين في يوم الأحزاب أن الله رد كيد الكافرين والمنافقين فذكر المؤمنون بسابق كيد المنافقين في تلك الأزمة ليحذروا مكائدهم وأراجيفهم في قضية التبني وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم مطلقة متبناه، ولذلك خص المنافقون بقوله)وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض(الآيات؛ على أن قضية إبطال التبني وإباحة تزوج مطلق الأدعياء كان بقرب وقعة الأحزاب.

و)إذ(ظرف للزمن الماضي متعلق ب)نعمة(لما فيها من معنى الإنعام، أي اذكروا ما أنعم الله به عليكم زمان جاءتكم جنود فهزمهم الله بجنود لو تروها.

وهذه الآية وما بعدها تشير إلى ما جرى من عظيم صنع الله بالمؤمنين في غزوة الأحزاب فلنأت على خلاصة ما ذكره أهل السير والتفسير ليكون منه بيان لمطاوي هذه الآيات.

وكان سبب هذه الغزوة أن قريشا بعد وقعة أحد تهادنوا مع المسلمين لمدة عام على أن يلتقوا ببدر من العام القابل فلم يقع قتال ببدر لتخلف أبي سفيان عن الميعاد، فلم يناوش أحد الفريقين الفريق الآخر إلا ما كان من حادثة غدر المشركين بالمسلمين وهي حادثة بئر معونة حين غدرت قبائل عصية، ورعل، وذكوان من بني سليم بأربعين من المسلمين إذ سأل عامر بن مالك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوجههم إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام. وكان ذلك كيدا كاده عامر بن مالك وذلك بعد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أحد.

صفحة : 3327

فلما أجلى النبي صلى الله عليه وسلم بني النضير لما ظهر من غدرهم به وخيسهم بالعهد الذي لهم مع المسلمين، هنالك اغتاظ كبراء يهود قريظة بعد الجلاء وبعد أن نزلوا بديار بني قريظة وبخيبر فخرج سلام بن أبي الحقيق بتشديد لام سلام وضم حاء الحقيق وفتح قافه وكنانة بن بيأبيأبي الحقيق، وحيي بن أخطب بضم حاء حيي وفتح همزة وطاء أخطب وغيرهم في نفر من بني النضير فقدموا على قريش لذلك وتآمروا مع غطفان على أن يغزوا

المدينة فخرجت قريش وأحابيشها وبنو كنانة في عشرة آلاف وقائدهم أبو سفيان، وخرجت غطفان في ألف قائدهم عيينة بن حصن، وخرجت معهم هوازن وقائدهم عامر بن الطفيل.

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على منازلة المدينة أبلغته إياه خزاعة وخاف المسلمون كثرة عدوهم، وأشار سلمان الفارسي أن يحفر خندق يحيط بالمدينة تحصينا لها من دخول العدو فاحتفره المسلمون والنبي صلى الله عليه وسلم معهم يحفر وينقل التراب، وكانت غزوة الخندق سنة أربع في رواية ابن وهب وابن القاسم عن مالك. وقال ابن إسحاق: سنة خمس. وهو الذي اشتهر عند الناس وجرى عليه ابن رشد في جامع البيان والتحصيل اتباعا لما اشتهر، وقول مالك أصح.

وعندما تم حفر الخندق أقبلت جنود المشركين وتسموا بالأحزاب لأنهم عدة قبائل تحزبوا، أي صاروا حزبا واحدا، وانضم إليهم بنو قريظة فكان ورود قريش من أسفل الوادي من جهة المغرب، وورود غطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة المشرق، فنزل جيش قريش بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة بزاي معجمة مضمومة وغين معجمة وبعضهم يرويه بالعين المهملة وبعضهم يقول: والغابة، والتحقيق هو الأول كما في الروض الأنف ونزل جيش غطفان وهوازن بذنب نقمى إلى جانب أحد، وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف، وخرج المسلمون إلى خارج المدينة فعسكروا تحت جبل سلع وجعلوا ظهورهم إلى الجبل والخندق بينهم وبين العدو، وجعل المسلمون نساءهم وذراريهم في آطام المدينة. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ودام الحال كذلك بضعا وعشرين ليلة لم تكن بينهم فيها حرب إلا مصارعة بين ثلاثة فرسان اقتحموا الخندق من جهة ضيقة على أفراسهم فتقاتلوا في السبخة بين الخندق وسلع وقتل أحدهم قتله علي بن أبي طالب وفر صاحباه، وأصاب سهم غرب سعد بن معاذ في أكحله فكان منه موته في المدينة. ولحقت المسلمين شدة من الحصار وخوف من كثرة جيش عدوهم حتى هم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصالح الأحزاب على أن يعطيهم نصف ثمر المدينة في عامهم ذلك يأخذونه عند طيبه وكاد أن يكتب معهم كتابا في ذلك، فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقال سعد بن معاذ: قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عزم عليه.

وأرسل الله على جيش المشركين ريحا شديدة فأزالت خيامهم وأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، واختل أمرهم، وهلك كراعهم وخفهم، وحدث تخاذل بينهم وبين قريظة وظنت قريش أن قريظة صالحت المسلمين وأنهم ينضمون إلى المسلمين على قتال الأحزاب، فرأى أهل الأحزاب الرأي في أن يرتحلوا فارتحلوا عن المدينة وانصرف جيش المسلمين راجعا إلى المدينة.

فقوله تعالى)إذ جاءتكم جنود(ذكر توطيئة لقوله)فأرسلنا عليهم ريحا(الخ لأن ذلك هو محل المنة.

والريح المذكورة هنا هي ريح الصبا وكانت باردة وقلعت الأوتاد والإطناب وسفت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم. وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور .

والجنود التي لم يروها هي جنود الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل بين الأحزاب وكانوا وسيلة إلقاء الرعب في نفوسهم.

صفحة : 3328

وجملة)وكان الله بما تعملون بصيرا(في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله)نعمة الله(، وهي إيماء إلى أن الله نصرهم على أعدائهم لأنه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة والمصابرة في حفر الخندق والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة وبذلهم النفوس في نصر دين الله فجازاهم الله بالنصر المبين كما قال)ولينصرن الله من ينصره(.

وقرأ الجمهور)بما تعملون بصيرا(بتاء الخطاب. وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة ومحملها على الالتفات.

والجنود الأول جمع جند، وهو الجمع المتحد المتناصر ولذلك غلب على الجمع المجتمع لأجل القتال فشاع الجند بمعنى الجيش. وذكر جنود هنا بلفظ الجمع مع أن مفرده مؤذن بالجماعة مثل قوله تعالى)جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب(فجمعه هنا لأنهم كانوا متجمعين من عدة قبائل لكل قبيلة جيش خرجوا متساندين لغزو المسلمين في المدينة، ونظيره قوله تعالى)فلما فصل طالوت بالجنود(في سورة البقرة.

والجنود الثاني جمع جند بمعنى الجماعة من صنف واحد. والمراد بهم ملائكة أرسلوا لنصر المؤمنين وإلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

)إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا[10] هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا[11]( )إذ جاءوكم(بدل من)إذ جاءتكم جنود(بدل مفصل من مجمل.

والمراد ب)فوق(و)أسفل(فوق جهة المدينة وأسفلها.

و)إذ زاغت الأبصار(عطف على البدل وهو من جملة التفصيل، والتعريف في)الأبصار(و)القلوب(و)الحناجر(للعهد، أي أبصار المسلمين وقلوبهم وحناجرهم، أو تجعل اللام فيها عوضا عن المضافات إليها، أي زاغت أبصاركم وبلغت قلوبكم حناجركم.

والزيغ: الميل عن الاستواء إلى الانحراف. فزيغ البصر أن لا يرى ما يتوجه إليه، أو أن يريد التوجه إلى صوب فيقع إلى صوب آخر من شدة الرعب والانذعار.

والحناجر: جمع حنجرة بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم: منتهى الحلقوم وهي رأس الغلصمة. وبلوغ القلوب الحناجر تمثيل لشدة اضطراب القلوب من الفزغ والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجازوها من الضيق؛ فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب تجاوز موضعه وذهب متصاعدا طالبا الخروج، فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين.

وليس الكلام على الحقيقة فإن القلوب لا تتجاوز مكانها، وقريب منه قولهم: تنفس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.

وجملة)وتظنون بالله الظنون(يجوز أن تكون عطفا على جملة) زاغت الأبصار(، ويجوز أن يكون الواو للحال وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها كناية عن طول مدة هذا البلاء.

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب وضيق الحصار أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها.

والمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مرجأ إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله وحكمته لا يحاط به.

وحذف مفعولا)تظنون(بدون وجود دليل يدل على تقديرهما فهو حذف لتنزيل الفعل منزلة اللازم، ويسمى هذا الحرف عند النحاة الحذف اقتصارا، أي للاقتصار على نسبة فعل الظن لفاعله،

والمقصود من هذا التنزيل أن تذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، وهو حذف مستعمل كثيرا في الكلام الفصيح وعلى جوازه أكثر النحويين ومنه قوله تعالى)أعنده علم الغيب فهو يرى(وقوله) وظننتم ظن السوء(، وقول المثل: من يسمع يخل، ومنعه سيبويه والأخفش.

صفحة : 3329

وضمن)تظنون(معنى تلحقون فعدي بالباء فالباء للملابسة. قال سيبويه: قولهم: ظننت به، معناه: جعلته موضع ظني. وليست الباء هنا بمنزلتها في)كفى بالله حسيبا(، أي ليست زائدة، ومجرورها معمول للفعل قبلها كأنك قلت: ظننت في الدار، ومثله: شككت فيه، أي فالباء عنده بمعنى في . والوجه أنها للملابسة كقول دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج

سراتهم في الفارسي المسرد وسيأتي تفصيل ذلك عند قوله تعالى)فما ظنكم برب العالمين(في سورة الصافات.

وانتصب)الظنونا(على المفعول المطلق المبين للعدد، وهو جمع ظن. وتعريفه باللام تعريف الجنس، وجمعه للدلالة على أنواع من الظن كما في قول النابغة:

أبيتك عاريا خلقا ثيابي على خوف تظن بي الظنون وكتب)الظنونا(في الإمام بعد النون، زيدت هذه الألف في النطق للرعاية على الفواصل في الوقوف، لأن الفواصل مثل الأسجاع تعتبر موقوفا عليها لأن المتكلم أرادها كذلك. فهذه السورة بنيت على فاصلة الألف مثل القصائد المقصورة، كما زيدت الألف في قوله تعالى)وأطعنا الرسولا(وقوله)فأضلونا السبيلا(.

وعن أبي علي في الحجة: من أثبت الألف في الوصل لأنها في المصحف كذلك وهو رأس آية ورؤوس الآيات تشبه بالقوافي من حيث كانت مقاطع، فأما من طرح الألف في الوصل فإنه ذهب إلى أن ذلك في القوافي وليس رؤوس الآي بقواف.

فأما القراء فقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بإثبات الألف في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم والكسائي بحذف الألف في الوصل وإثباتها في الوقف. وقرأ أبو عمرو وحمزة ويعقوب بحذف الألف في الوصل والوقف، وقرأ خلف بإثبات الألف بعد النون في الوقف وحذفها في الوصل. وهذا اختلاف من قبيل الاختلاف في وجوه الأداء لا في لفظ القرآن. وهي كلها

فصيحة مستعملة والأحسن الوقف عليها لأن الفواصل كالأسجاع والأسجاع كالقوافي.

والإشارة ب)هنالك(إلى المكان الذي تضمنته قوله)جاءتكم جنود(وقوله)إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم(. والأظهر أن تكون الإشارة إلى الزمان الذي دلت عليه)إذ(في قوله)وإذ زاغت الأبصار(. وكثيرا ما ينزل أحد الظرفين منزلة الآخر ولهذا قال ابن عطية هنالك: ظرف زمان والعامل فيه)ابتلي(اه. قلت: ومنه دخول لات على هنا في قول حجل بن نضلة:

خنت نوار ولات هنا حنت وبدا الذي

كانت نوار أجنت فإن لات خاصة بنفي أسماء الزمان فكان هنا إشارة إلى زمان منكر وهو لغة في هنا . ويقولون: يوم هنا، أي يوم أول، فيشيرون إلى زمن قريب، وأصل ذلك مجاز توسع فيه وشاع.

والابتلاء: أصله الاختبار، ويطلق كناية عن إصابة الشدة لأن اختبار حال الثبات والصبر لازم لها، وسمى الله ما أصاب المؤمنين ابتلاء إشارة إلى أنه لم يزعزع إيمانهم.

والزلزال: اضطراب الأرض، وهو مضاعف زل تضعيفا يفيد المبالغة، وهو هنا استعارة لاختلال الحال اختلالا شديدا بحيث تخيل مضطربة اضطرابا شديدا كاضطراب الأرض وهو أشد اضطرابا للحاقه أعظم جسم في هذا العالم. ويقال: زلزل فلان، مبنيا للمجهول تبعا لقولهم: زلزلت الأرض، إذ لا يعرف فاعل هذا الفعل عرفا. وهذا هو غالب استعماله قال تعالى)وزلزلوا حتى يقول الرسول(الآية.

والمراد بزلزلة المؤمنين شدة الانزعاج والذعر لأن أحزاب العدو تفوقهم عددا وعدة.

)وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا[12] وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا[13](عطف على)وإذ زاغت الأبصار(فإن ذلك كله مما ألحق بالمسلمين ابتلاء فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين، ليحذروا المنافقين فيما يحدث من بعد، ولئلا يخشوا كيدهم فإن الله يصرفه كما صرف أشده يوم الأحزاب.

وقول المنافقين هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علنا بين المسلمين قصدوا به إدخال الشك في قلوب المؤمنين لعلهم يردونهم عن

دينهم فأوهموا بقولهم)ما وعدنا الله ورسوله(الخ أنهم ممن يؤمن بالله ورسوله، فنسبة الغرور إلى الله ورسوله إما على معنى التشبيه البليغ وإما لأنهم بجهلهم يجوزون على الله أن يغر عباده، ويحتمل أنهم قالوا ذلك بين أهل ملتهم فيكون نسبة الوعد إلى الله ورسوله تهكما كقول فرعون)إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون(.

والغرور: ظهور الشيء المكروه في صورة المحبوب، وقد تقدم عند قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(في سورة آل عمران، وقوله تعالى)زخرف القول غرورا(في سورة الأنعام.

والمعنى: أن الله وعدهم النصر فكان الأمر هزيمة وهم يعنون الوعد العام وإلا فإن وقعة الخندق جاءت بغتة ولم يرو أنهم وعدوا فيها بنصر.

والذين في قلوبهم مرض: هم الذين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق وصمموا عليه.

والمراد بالطائفة الذين قالوا)يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا(عبد الله ابن أبي بن سلول وأصحابه. كذا قال السدي. وقال الأكثر هو أوس بن قيظي أحد بني حارثة، وهو والد عرابة بن أوس الممدوح بقول الشماخ:

رأيت عرابة الأوسي يسمـو إلى

الخيرات منقطع القرين في جماعة من منافقي قومه. والظاهر هو ما قاله السدي لأن عبد الله ابن أبي رأس المنافقين، فهو الذي يدعو أهل يثرب كلهم.

وقوله)لا مقام لكم(قرأه الجمهور بفتح الميم وهو اسم لمكان القيام، أي الوجود. وقرأه حفص عن عاصم بضم الميم، أي محل الإقامة، والنفي هنا بمعنى نفي المنفعة فلما رأى هذا الفريق قلة جدوى وجودهم جعلها كالعدم، أي لا فائدة لكم في ذلك، وهو يروم تخزيل الناس كما فعل يوم أحد.

ويثرب: اسم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال أبو عبيدة يثرب: اسم أرض والمدينة في ناحية منها، أي اسم أرض بما فيها من الحوائط والنخل واللمدينة في تلك الأرض سميت باسم يثرب من العمالقة، وهو يثرب من قانية الحفيد الخامس لإرم بن سام ابن نوح. وقد روي عن البراء بن عازب وابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تسميتها يثرب وسماها طابة.

وفي قوله)يا أهل يثرب لا مقام لكم(محسن بديعي، وهو الاتزان لأن هذا القول يكون منه مصراع من بحر السريع من عروضه الثانية المخبولة المكشوفة إذ صارت مفعولات بمجموع الخبل والكشف إلى)فعلن(فوزنه مستفعلن مستفعلن فعلن .

والمراد بقوله)فريق منهم(جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وليسوا فريقا من الطائفة المذكورة آنفا، بل هؤلاء هم أوس بن قيظي وجمع من عشيرته بني حارثة وكان بنو حارثة أكثرهم مسلمين وفيهم منافقون، فجاء منافقوهم يعتذرون بأن منازلهم عورة، أي غير حصينة.

وجملة)ويستأذن فريق(عطف على جملة)قالت طائفة(، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يلحون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه.

والعورة: الثغر بين الجبلين الذي يتمكن العدو أن يتسرب منه إلى الحي، قال لبيد:

وأجن عورات الثغور ظلامها والاستئذان: طلب الإذن وهؤلاء راموا الانخزال واستحيوا. ولم يذكر المفسرون أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لهم. وذكر أهل السير أن ثمانين منهم رجعوا دون إذنه. وهذا يقتضي أنه لم يأذن لهم وإلا لما ظهر تميزهم عن غيرهم، وأيضا فإن في الفعل المضارع من قوله)يستأذن(إيماء إلى أنه لم يأذن لهم وستعلم ذلك، ومنازل بني حارثة كانت في أقصى المدينة قرب منازل بني سلمة فإنهما كانا حيين متلازمين قال تعالى)إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا(هما بنو حارثة وبنو سلمة في غزوة أحد. وفي الحديث: أن بني سلمة راموا أن ينقلوا منازلهم قرب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم أي خطاكم. فهذا الفريق منهم يعتلون بأن منازلهم بعيدة عن المدينة وأطامها.

والتأكيد بحرف)إن(في قولهم)إن بيوتنا عورة(تمويه لإظهار قولهم)بيوتنا عورة(في صورة الصدق. ولما علموا أنهم كاذبون وأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم كذبهم جعلوا تكذيبه إياهم في صورة أنه يشك في صدقهم فأكدوا الخبر.

صفحة : 3331

وجملة)وما هي بعورة(إلى قوله)مسئولا(معترضة بين جملة) يستأذن فريق منهم(الخ وجملة)لن ينفعكم الفرار(الآية.

فقوله)وما هي بعورة(تكذيب لهم فإن المدينة كانت محصنة يومئذ بخندق وكان جيش المسلمين حارسها. ولم يقرن هذا التكذيب بمؤكد لإظهار أن كذبهم واضح غير محتاج إلى تأكيد.

)ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا[14](موقع هذه الآية زيادة تقرير لمضمون جملة)وما

هي بعورة ان يريدون إلا فرارا(فإنها لتكذيبهم في إظهارهم التخوف على بيوتهم، ومرادهم خذل المسلمين. ولم أجد فيما رأيت من كلام المفسرين ولا من أهل اللغة من أفصح عن معنى الدخول في مثل هذه الآية وما ذكروا إلا معنى الولوج إلى المكان مثل ولوج البيوت أو المدن، وهو الحقيقة. والذي أراه أن الدخول كثر إطلاقه على دخول خاص وهو إقتحام الجيش أو المغيرين أرضا أو بلدا لغزو أهله قال تعالى)وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا(إلى قوله)يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم(، وأنه يعدى غالبا إلى المغزوين بحرف)على(. ومنه قوله تعالى)قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتوه فإنكم غالبون(إلى قوله)قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا(فإنه ما يصلح إلا معنى دخول القتال والحرب لقوله)فإذا دخلتموه فإنكم غالبون(لظهور أنه لا يراد: إذا دخلتم دخول ضيافة أو تجول أو تجسس،فيفهم من الدخول في مثل هذا المقام معنى الغزو والفتح كما نقول: عام دخول التتار بغداد، ولذلك فالدخول في قوله)ولو دخلت عليهم(هو دخول الغزو فيتعين أن يكون ضمير)دخلت(عائدا إلى مدينة يثرب لا إلى البيوت من قولهم)إن بيوتنا عورة(. والمعنى: لو غزيت المدينة من جوانبها الخ.

وقوله)عليهم(يتعلق ب)دخلت(لأن بناء)دخلت(للنائب مقتض فاعلا محذوفا. فالمراد: دخول الداخلين على أهل المدينة كما جاء على الأصل في قوله)ادخلوا عليهم الباب(في سورة العقود.

والأقطار: جمع قطر بضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية من المكان. وإضافة)أقطار(وهو جمع تفيد العموم، أي من جميع جوانب المدينة وذلك أشد هجوم العدو على المدينة كقوله تعالى)إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم(. وأسند فعل)دخلت(إلى المجهول لظهور أن فاعل الدخول قوم غزاة. وقد أبدى المفسرون في كيفية نظم هذه الآية احتمالات متفاوتة في معاني الكلمات وفي حاصل المعنى المراد، وأقربها ما قاله ابن عطية على غموض فيه، ويليه ما في الكشاف.

والذي ينبغي التفسير به أن تكون جملة)ولو دخلت عليهم(في موضع الحال من ضمير)يريدون(أو من ضمير)وما هي بعورة(زيادة في تكذيب قولهم)إن بيوتا عورة(.

والضمير المستتر في)دخلت(عائد إلى المدينة لأن إضافة الأقطار يناسب المدن والمواطن ولا يناسب البيوت. فيصير المعنى: لو دخل الغزاة عليهم المدينة وهم قاطنون فيها.

و)ثم(للترتيب الرتبي، وكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالواو لا ب)ثم(لأن المذكور بعد)ثم(هنا داخل في فعل شرط)لو(وارد عليه جوابها، فعدل عن الواو إلى)ثم(للتنبيه على أن ما بعد) ثم(أهم من الذي قبلها كشأن)ثم(في عطف الجمل، أي أنهم مع ذلك يأتون الفتنة، والفتنة هي أن يفتنوا المسلمين، أي الكيد لهم وإلقاء التخاذل في جيش المسلمين. ومن المفسرين من فسر الفتنة بالشرك ولا وجه له ومنهم من فسرها بالقتال وهو بعيد.

والإتيان: القدوم إلى مكان. وقد أشعر هذا الفعل بأنهم يخرجون من المدينة التي كانوا فيها ليفتنوا المسلمين. وضمير النصب في) أتوها(عائد إلى الفتنة والمراد مكانها وهو مكان المسلمين، أي لأتوا مكانها ومظنتها. وضمير)بها(للفتنة، والباء للتعدية.

وجملة)وما تلبثوا بها(عطف على جملة)لأتوها(. والتلبث: اللبث، أي الاستقرار في المكان وهو هنا مستعار للإبطاء، أي ما أبطاوا بالسعي في الفتنة ولا خافوا أن تؤخذ بيوتهم.

صفحة : 3332

والمعنى: لو دخلت جيوش الأحزاب المدينة وبقي جيش المسلمين خارجها أي مثلا لأن الكلام على الفرض والتقدير وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخزيل لخرجوا لذلك القصد مسرعين ولم يثبطهم الخوف على بيوتهم أن يدخلها اللصوص أو ينهبها الجيش: إما لأنهم آمنون من أن يلقوا سوءا من الجيش الداخل لأنهم أولياء له ومعاونون، فهم منهم وإليهم، وإما لأن كراهتهم الإسلام تجعلهم لا يكترثون بنهب بيوتهم.

والاستثناء في قوله)إلا يسيرا(يظهر أنه تهكم بهم فيكون المقصود تأكيد النفي بصورة الاستثناء.

ويحتمل أنه على ظاهره، أي إلا ريثما يتأملون فلا يطيلون التأمل فيكون المقصود من ذكره تأكيد قلة الثلبت، فهذا هو التفسير المنسجم مع نظم القرآن أحسن انسجام.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر)لأتوها(بهمزة تليها مثناة فوقية، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف)لآتوها(بألف بعد الهمزة على معنى: لأعطوها، أي لأعطوا الفتنة سائليها، فإطلاق فعل)أتوها(مشاكلة لفعل)سئلوا(.

)ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا[15](هؤلاء هم بنو حارثة وبنو سلمة وهم الذين قال فريق منهم)إن بيوتنا عورة(واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، أي

كانوا يوم أحد جبنوا ثم تابوا وعاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لا يولون الأدبار في غزوة بعدها، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى)إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما(؛ فطرأ على نفر من بني حارثة نفاق وضعف في الإيمان فذكرهم الله بذلك وأراهم أن منهم فريقا قلبا لا يرعى عهدا ولا يستقر لهم اعتقاد وأن ذلك لضعف يقينهم وغلبة الجبن عليهم حتى يدعوهم إلى نبذ عهد الله. وهذا تنبيه للقبيلين ليزجروا من نكث منهم.

وتأكيد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق وفعل كان، مع أن الكلام موجه إلى المؤمنين تنزيلا للسامعين منزلة من يتردد في أنهم عاهدوا الله على الثبات.

وزيادة)من قبل(للإشارة إلى أن ذلك العهد قديم مستقر وهو عهد يوم أحد.

وجملة)لا يولون الأدبار(بيان لجملة)عاهدوا(.

والتولية: التوجه بالشيء وهي مشتقة من الولي وهو القرب، قال تعالى)فول وجهك شطر المسجد الحرام(.

والأدبار: الظهور. وتولية الأدبار: كناية عن الفرار فإن الذي استأذنوا لأجله في غزوة الخندق أرادوا منه الفرار ألا ترى قوله)إن يريدون إلا فرارا(، والفرار مما عاهدوا الله على تركه.

وجملة)وكان عهد الله مسئولا(تذييل لجملة)ولقد كانوا عاهدوا(الخ. والمراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان مع ربه.

والمسؤول: كناية عن المحاسب عليه كقول النبي صلى الله عليه وسلم وكلكم مسؤول عن رعيته ، وكما تقدم آنفا عند قوله) ليسأل الصادقين عن صدقهم(. وهذا تهديد.

)قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا[16](جواب عن قولهم)إن بيوتنا عورة(ولذلك فصلت لأنها جرت على أسلوب التقاول والتجاوب، وما بين الجملتين من قوله)ولو دخلت عليهم(إلى قوله)مسئولا(اعتراض كما تقدم.

وهذا يرجح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن لهم بالرجوع إلى المدينة وأنه رد عليهم بما أمره الله أن يقوله لهم، أي قد علم الله أنكم ما أردتم إلا الفرار جبنا والفرار لا يدفع عنكم الموت أو القتل، فمعنى نفي نفعه: نفي ما يقصد منه لأن نفع الشيء هو أن يحصل منه ما يقصد له. فقوله)من الموت(يتعلق ب)الفرار(و)فررتم(وليس متعلقا ب)ينفعكم(لأن متعلق)ينفعكم(غير مذكور لظهوره من السياق، فالفائدة مستغنية عن المتعلق، أي لن ينفعكم بالنجاة.

ومعنى نفي نفع الفرار وإن كان فيه تعاطي سبب النجاة، هذا السبب غير مأذون فيه لوجوب الثبات في وجه العدو مع النبي صلى الله عليه وسلم فيتمحض في هذا الفرار مراعاة جانب الحقيقة وهو ما قدر للإنسان من الله إذ لا معارض له، فلو كان الفرار مأذونا فيه لجاز مراعاة ما فيه من أسباب النجاة؛ فقد كان المسلمون مأمورين بثبات الواحد للعشرة من العدو فكان حينئذ الفرار من وجه عشرة أضعاف المسلمين غير مأذون فيه وأذن فيما زاد على ذلك، ولما نسخ الله ذلك بأن يثبت المسلمون لضعف عددهم من العدو فالفرار فيما زاد على ذلك مأذون فيه، وكذلك إذ كان المسلمون زحفا فإن الفرار حرام ساعتئذ.

وأحسب أن الأمر في غزوة الخندق كان قبل النسخ فلذلك وبخ الله الذين أضمروا الفرار فإن عدد جيش الأحزاب يومئذ كان بمقدار أربعة أمثال جيش المسلمين ولم يكن المسلمون يومئذ زحفا فإن الحالة حالة حصار.

ويجوز أن يكون المعنى أيضا: أنكم إن فررتم فنجوتم من القتل لا ينفعكم الفرار من الموت بالأجل وعسى أن تكون آجالكم قريبة.

والموت أريد به: الموت الزؤام وهو الموت حتف أنفه لأنه قوبل بالقتل. والمعنى: أن الفرار لا يدفع الموت الذي علم الله أنه يقع بالفار في الوقت الذي علم أن الفار يموت فيه ويقتل فإذا خيل إلى الفار أن الفرار قد دفع عنه خطرا فإنما ذلك في الأحوال التي علم الله أنها لا يصيب الفار فيها أذى ولا بد له من موت حتف أنفه أو قتل في الإبان الذي علم الله أنه يموت فيه أو يقتل.

ولهذا عقب بجملة)وإذا لا تمتعون إلا قليلا(جوابا عن كلام مقدر دل عليه المذكور، أي إن خيل إليكم أن الفرار نفع الذي فر في وقت ما فما هو إلا نفع زهيد لأنه تأخير في أجل الحياة وهو متاع قليل، أي إعطاء الحياة مدة منتهية، فإن)إذن(قد يكون جوابا لمحذوف دل عليه الكلام المذكور، كقول العنبري:

لو كنت من مأزن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان
إذن لقام بنصري معشر خشـن عند

الحفيظة إن ذو لوثة لانـا فإن قوله: إذن لقام بنصري، جواب وجزاء عن مقدر دل عليه: لم تستبح إبلي. والتقدير: فإن استباحوا إبلي إذن لقام بنصري معشر، وهو الذي أشعر كلام المرزوقي باختياره خلافا لما في مغنى اللبيب.

والأكثر أن)إذن(إن وقعت بعد الواو والفاء العاطفتين أن لا ينصب المضارع بعدها، وورد نصبه نادرا.
والمقصود من الآية تخليق المسلمين بخلق استضعاف الحياة الدنيا وصرف هممهم إلى السعي نحو الكمال الذي به السعادة الأبدية سيرا وراء تعاليم الدين التي تقود النفوس إلى أوج الملكية.
)قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة(يظهر أن هذه الجملة واقعة موقع التعليل لجملة)لن ينفعكم الفرار إن فررتم(الآية؛ فكأنه قيل: فمن ذا الذي يعصمكم من الله، أي فلا عاصم لكم من نفوذ مراده فيكم. وإعادة فعل)قل(تكرير لأجل الاهتمام بمضمون الجملة.
والمعنى: لأن قدرة الله وإرادته محيطة بالمخلوقات فمتى شاء عطل تأثير الأسباب أو عرقلها بالموانع فإن يشأ شرا حرم الانتفاع بالأسباب أو الاتقاء بالموانع فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، ومتى شاء خيرا خاصا بأحد لطف له بتمهيد الأسباب وتيسيرها حتى يلاقي من التيسير ما لم يكن مترقبا، ومتى لم تتعلق مشيئته بخصوص أرسل الأحوال في مهيعها وخلى بين الناس وبين ما سببه في أحوال الكائنات فنال كل أحد نصيبا على حسب فطنته ومقدرته واهتدائه، فإن الله أودع في النفوس مراتب التفكير والتقدير؛ فأنتم إذا عصيتم الله ورسوله وخذلتم المؤمنين تتعرضون لإرادته بكم السوء فلا عاصم لكم من مراده، فالاستفهام إنكاري في معنى النفي لاعتقادهم أن الحيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعهم وأن الفرار يعصمهم من الموت إن كان قتال.
وجملة)من هذا الذي يعصمكم(الخ جواب الشرط في قوله)إن أراد بكم سوءا(الخ، دليل الجواب عند نحاة البصرة.
والعصمة: الوقاية والمنع مما يكرهه المعصوم.

صفحة : 3334

وقوبل السوء بالرحمة لأن المراد سوء خاص وهو السوء المجعول عذابا لهم على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سوء النقمة فهو سوء خاص مقدر من الله لأجل تعذيبهم إن أراده، فيجري على خلاف القوانين المعتادة.
وعطف)أو أراد بكم رحمة(على)أراد بكم(المجعول شرطا يقتضي كلاما مقدرا في الجواب المتقدم، فإن إرادته الرحمة تناسب فعل)يعصمكم(لأن ا لرحمة مرغوبة. فالتقدير: أو يحرمكم منه إن أراد بكم رحمة، فهو من دلالة الاقتضاء إيجازا للكلام، كقول الراعي:

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن
الحواجب والعيونا تقديره: وكحلن العيون، لأن العيون لا تزجج ولكنها تكحل حين تزجج الحواجب وذلك من التزين.
)ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا[17](عطف على جملة)قل من ذا الذي يعصمكم(، أو هي معترضة بين أجزاء القول، والتقديران متقاربان لأن الواو الاعتراضية ترجع إلى العاطفة. والكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وليس هو من قبيل الالتفات. والمقصود لازم الخبر وهو إعلام النبي عليه الصلاة والسلام ببطلان تحيلاتهم وأنهم لا يجدون نصيرا غير الله وقد حرمهم الله النصر لأنهم لم يعقدوا ضمائرهم على نصر دينه ورسوله. والمراد بالولي: الذي يتولى نفعهم، وبالنصير: النصير في الحرب فهو أخص.
)قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا[18] أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير(استئناف بياني ناشئ عن قوله)من ذا الذي يعصمكم من الله(لأن ذلك يثير سؤالا يهجس في نفوسهم أنهم يخفون مقاصدهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يشعر بمرادهم من الاستئذان، فأمر أن يقول لهم)قد يعلم الله المعوقين منكم(أي فالله ينبئ رسوله بكم بأن فعل أولئك تعويق للمؤمنين. وقد جعل هذا الاستئناف تخلصا لذكر فريق آخر من المعوقين.
و)قد(مفيد للتحقيق لأنهم لنفاقهم ومرض قلوبهم يشكون في لازم هذا الخبر وهو إنباء الله رسوله عليه الصلاة والسلام بهم، أو لأنهم لجهلهم الناشئ عن الكفر يظنون أن الله لا يعلم خفايا القلوب. وذلك ليس بعجيب في عقائد أهل الكفر. ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون(. فللتوكيد بحرف التحقيق موقع.
ودخول)قد(على المضارع لا يخرجها عن معنى التحقيق عند المحققين من أهل العربية، وأن ما توهموه من التقليل إنما دل عليه المقام في بعض المواضع لا من دلالة)قد(، ومثله إفادة التكثير، وتقدم ذلك عند قوله تعالى)قد نرى تقلب وجهك في

السماء(في سورة البقرة، وقوله تعالى)قد يعلم ما أنتم عليه(في آخر سورة النور.
والمعوق: اسم فاعل من عوق الدال على شدة حصول العوق. يقال: عاقه عن كذا، إذا منعه وثبطه عن شيء، فالتضعيف فيه للشدة والتكثير مثل: قطع الحبل، إذا قطعه قطعا كبيرة،)وغلقت الأبواب(، أي أحكمت غلقها. ويكون للتكثير في الفعل القاصر مثل: موت المال، إذا كثر الموت في الإبل، وطوف فلان، إذا أكثر الطواف، والمعنى: يعلم الله الذين يحرصون على تثبيط الناس عن القتال. والخطاب بقوله)منكم(للمنافقين الذين خوطبوا بقوله)لن ينفعكم الفرار(.
ويجوز أن يكون القائلون لإخوانهم هلم إلينا هم المعوقين أنفسهم فيكون من عطف صفات الموصوف الواحد، كقوله:
لى الملك القرم وابن الهمام

صفحة : 3335

ويجوز أن يكونوا طائفة أخرى وإخوانهم هم الموافقون لهم في النفاق، فالمراد: الأخوة في الرأي والدين. وذلك أن عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، ومن معهما من الذين انخزلوا عن جيش المسلمين يوم أحد فرجعوا إلى المدينة كانوا يرسلون إلى من بقي من المنافقين في جيش المسلمين يقولون لهم)هلم إلينا(أي ارجعوا إلينا. قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين يقولون لهم: ما محمد وأصحابه ألا أكلة رأس أي نفر قليل يأكلون رأس بعير ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان ومن معه تمثيلا بأنهم سهل تغلب أبي سفيان عليهم .
و)هلم(اسم فاعل أمر بمعنى أقبل في لغة أهل الحجاز وهي الفصحى، فلذلك تلزم هذه الكلمة حالة واحدة عندهم لا تتغير عنها، يقولون: هلم، للواحد والمتعدد المذكر والمؤنث، وهي فعل عند بني تميم فلذلك يلحقونها العلامات يقولون: هلم وهلمي وهلما وهلموا وهلممن. وتقدم في قوله تعالى)قل هلم شهداءكم(في سورة الأنعام.
والمعنى: انخزلوا عن جيش المسلمين وأقبلوا إلينا.
وجملة)ولا يأتون البأس إلا قليلا(كلام مستقل فيجوز أن تكون الجملة حالا من القائلين لإخوانهم)هلم إلينا(. ويجوز أن تكون عطفا على المعوقين والقائلين لأن الفعل يعطف على المشتق كقوله تعالى)فالمغيرات صبحا فأثرن(وقوله)إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله(، فالتقدير هنا: قد يعلم الله المعوقين والقائلين وغير

الآتين البأس، أو والذين لا يأتون البأس. وليس في تعدية فعل العلم إلى)لا يأتون(إشكال لأنه على تأويل كما أن عمل الناسخ في قوله)وأقرضوا(على تأويل، أي يعلم الله أنهم لا يأتون البأس إلا قليلا، أي يعلم أنهم لا يقصدون بجمع إخوانهم معهم الاعتضاد بهم في الحرب ولكن عزلهم عن القتال.

ومعنى)إلا قليلا(إلا زمانا قليلا، وهو زمان حضورهم مع المسلمين المرابطين، وهذا كقوله)فلا يؤمنون إلا قليلا(، أي إيمانا ظاهرا، ومثل قوله تعالى)أو بظاهر من القول(. و)قليلا(صفة لمصدر محذوف، أي إتيانا قليلا، وقلته تظهر في قلة زمانه وفي قلة غنائه.

والبأس: الحرب وتقدم في قوله تعالى)ليحصنكم من بأسكم(في سورة الأنبياء. وإتيان الحرب مراد به إتيان أهل الحرب أو موضعها. والمراد: اليأس مع المسلمين، أي مكرا بالمسلمين لا جبنا.

و)أشحة(جمع شحيح بوزن أفعلة على غير قياس وهو فصيح وقباسه أشحاء. وضمير الخطاب في قوله)عليكم(للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين، وهو انتقال من القول الذي أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم إلى كشف أحوالهم للرسول والمسلمين بمناسبة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في قوله)ولا يأتون البأس(. وتقدم الشح عند قوله تعالى)وأحضرت الأنفس الشح(في سورة النساء.

و)أشحة(حال من ضمير)يأتون(. والشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير. وأصله: عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، وهو يتعدى إلى الشيء المبخول به بالباء و ب)على(قال تعالى)أشحة على الخير(ويتعدى إلى الشخص الممنوع ب)على(أيضا لما في الشح من معنى الاعتداء فتعديته في قوله تعالى)أشحة عليكم(من التعدية إلى الممنوع.

والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي إذا حضروا البأس منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا ومن ذلك شحهم بأنفسهم وكل ما يشح به.

ويجوز جعل)على(هنا متعدية إلى المضنون به، أي كما في البيت الذي أنشده الجاحظ:

لقد كنت في قوم عليك أشحة

بنفسك إلا أن ما طاح طائح وجعل المعنى: أشحة في الظاهر، أي يظهرون أنهم يخافون عليكم الهلاك فيصدونكم عن القتال ويحسنون إليكم الرجوع عن القتال، وهذا الذي ذهب إليه في الكشاف.

وفرع على وصفهم بالشح على المسلمين قوله)فإذا جاء الخوف(إلى آخره.

والمجيء: مجاز مشهور من حدوث الشيء وحصوله. كما قال تعالى)فإذا جاء وعد الآخرة(.

صفحة : 3336

والخوف: توقع القتال بين الجيشين، ومنه سميت صلاة الخوف. والمقصود: وصفهم بالجبن، أي إذا رأوا جيوش العدو مقبلة رأيتهم ينظرون إليك. والظاهر أن الآية تشير إلى ما حصل في بعض أيام الأحزاب من القتال بين الفرسان الثلاثة الذين اقتحموا الخندق من أضيق جهاته وبين علي بن أبي طالب. ومن معه من المسلمين كما تقدم.
والخطاب في)رأيتم(للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقتضي أن هذا حكاية حالة وقعت لا فرض وقوعها ولهذا أتي بفعل)رأيتهم(ولم يقل: فإذا جاء الخوف ينظرون إليك . ونظرهم إليه نظر المتفرس فيماذا يصنع ولسان حالهم يقول: ألسنا قد قلنا لكم إنكم لا قبل لكم بقتال الأحزاب فارجعوا، وهم يرونه أنهم كانوا على حق حين يحذرونه قتال الأحزاب، ولذلك خص نظرهم بأنه للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل: ينظرون إليكم.
وجيء بصيغة المضارع ليدل على تكرر هذا النظر وتجدده.
وجملة)تدور أعينهم(حال من ضمير)ينظرون(لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها.
والدور والدوران: حركة جسم رحوية أي كحركة الرحى منتقل من موضع إلى موضع فينتهي إلى حيث ابتدأ. وأحسب أن هذا الفعل وما تصرف منه مشتقات من اسم الدار، وهي المكان المحدود المحيط بسكانه بحيث يكون حولهم. ومنه سميت الدارة لكل أرض تحيط بها جبال. وقالوا: دارت الرحى حول قطبها. وسموا الصنم: دوارا بضم الدال وفتحها لأنه يدور به زائروه كالطواف. وسميت الكعبة دوارا أيضا، وسموا ما يحيط بالقمر دارة. وسميت مصيبة الحرب دائرة لأنهم تخيلوها محيطة بالذي نزلت به لا يجد منها مفرا، قال عنترة:

ولقد خشيت بأن أمـوت ولـم تـدر
في الحرب دائرة على ابني ضمضم فمعنى)تدور أعينهم(أنها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائرة من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة.

وشبه نظرهم بنظر الذي يغشى عليه بسبب النزع عند الموت فإن عينيه تضطربان.
وذهاب الخوف مجاز مشهور في الانقضاء، أي زوال أسبابه بأن يترك القتال أو يتبين أن لا يقع قتال. وذلك عند انصراف الأحزاب عن محاصرة المدينة كما سيدل عليه قوله)يحسبون الأحزاب لم يذهبوا(.
والسلق: قوة الصوت والصياح. والمعنى: رفعوا أصواتهم بالملامة على التعرض لخطر العدو الشديد وعدم الانصياع إلى إشارتهم على المسلمين بمسالمة المشركين، وفسر السلق بأذى اللسان. قيل: سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن)سلقوكم(فقال: الطعن باللسان. فقال نافع: هل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول الأعشى:
فيهم الخصب والسماحة والنج دة
فيهم والخاطب المسلاق وحداد: جمع حديد، وحديد: كل شيء نافذ فعل أمثاله قال تعالى)فبصرك اليوم حديد(.
وانتصب)أشحة على الخير(على الحال من ضمير الرفع في) سلقوكم(، أي خاصموكم ولاموكم وهم في حال كونهم أشحة على ما فيه الخير للمسلمين، أي أن خصامهم إياهم ليس كما يبدو خوفا على المسلمين واستبقاء عليهم ولكنه عن بغض وحقد؛ فإن بعض اللوم والخصام يكون الدافع إليه حب الملوم وإبداء النصيحة له، وأقوال الحكماء والشعراء في هذا المعنى كثيرة.
ويجوز أن يكون الخير هنا هو المال كقوله تعالى)إن ترك خيرا(وقوله)وإنه لحب الخير لشديد(، أي هم في حالة السلم يسرعون إلى ملامكم ولا يواسونكم بأموالهم للتجهيز للعدو إن عاد إليكم. ودخلت)على(هنا على المبخول به.
)أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا[19](جيء باسم الإشارة لقصد تمييزهم بتلك الصفات الذميمة التي أجريت عليهم من قبل، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد من الحكم بعد اسم الإشارة، كقوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون(في سورة البقرة.
وقد أجري عليهم حكم انتفاء الإيمان عنهم بقوله)أولئك لم يؤمنوا(كشفا لدخائلهم لأنهم كانوا يوهمون المسلمين أنهم منهم كما قال تعالى)وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا(في سورة البقرة.
ورتب على انتفاء إيمانهم أن الله أحبط أعمالهم.
والإحباط: جعل شيء حابطا، فالهمزة فيه للجعل مثل الإذهاب.
والحبط حقيقته: أنه فساد ما يراد به الصلاح والنفع.

ويطلق مجازا على إفساد ما كان نافعا أو على كون الشيء فاسدا ويظن أنه ينفع يقال: حبط حق فلان، إذا بطل. والإطلاق المجازي ورد كثيرا في القرآن. وفعله من بابي سمع وضرب. ومصدره: الحبط، واسم المصدر: الحبوط.

ويقال: أحبط فلان الشيء، إذا أبطله، ومنه إحباط دم القتيل، أي إبطال حق القود به.

فإحباط الأعمال: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة والمظنون بها أنها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين.

وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام، فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة، أي الرجوع إلى الكفر، أو بسبب زيادة السيئات على الحسنات بحيث يستحق صاحب الأعمال العذاب بسبب زيادة سيئاته على حسناته بحسب ما قدر الله لذلك وهو أعلم به، ومن هذه الجهة عدت مسألة الحبوط مع المسائل الكلامية؛ أو بحيث ينظر في انتفاعه بما فعل من الواجبات عليه إذا ارتد عن الإسلام ثم عاد إلى الإسلام كمن حج ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام، ومن هذه الجهة تعد مسألة الحبوط في مسائل الفقه، فقال مالك وأبو حنيفة: الردة تحبط الأعمال بمجرد حصولها فإذا عاد إلى الإسلام وكان قد حج مثلا قبل ردته وجبت عليه إعادة الحج تمسكا بإطلاق هذه الآية إذ ناطت الحبوط بانتفاء الإيمان، ولم يريا أن هذا مما يحمل فيه المطلق على المقيد احتياطا لأن هذا الحكم راجع إلى الاعتقادات ولا يكفي فيها الظن. وقال الشافعي: إذا رجع إلى الإسلام رجعت إليه أعماله الصالحة التي عملها قبل الردة تمسكا بقوله تعالى)ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة(في سورة البقرة حملا للمطلق في آية سورة الأحزاب ونحوها على المقيد في آية سورة البقرة تغليبا للجانب الفروعي في هذه المسألة على الجانب الاعتقادي.

وتعرف هذه المسألة بمسألة الموافاة، أي استمرار المرتد على الردة إلى انقضاء حياته فيوافي يوم القيامة مرتدا. فمالك وأبو حنيفة لم يريا شرط الموافاة والشافعي اعتبر الموافاة. والمعتزلة قائلون بمثل ما قال به مالك وأبو حنيفة. وحكى الفخر عن المعتزلة اعتبار الموافاة على الكفر، وانظر ما تقدم في قوله تعالى)ومن يرتدد

منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة(في سورة البقرة.
والمعنى: أنهم لا تنفعهم قرباتهم ولا جهادهم.
وجملة)وكان ذلك على الله يسيرا(خبر مستعمل في لازمه وهو تحقيرهم وأن الله لما أخرجهم من حظيرة الإسلام فأحبط أعمالهم لم يعبأ بهم ولا عد ذلك ثلمة في جماعة المسلمين.
وكان المنافقون يدلون بإظهار الإيمان ويحسبون أن المسلمين يعتزون بهم، قال تعالى)يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين(.
)يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا[20](لما ذكر حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض من فتنتهم في المسلمين وإذا هم حين مجيء جنود الأحزاب وحين زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ثني عنان الكلام الآن إلى حالهم حين أنعم الله على المسلمين بانكشاف جنود الأحزاب عنهم، فأفاد بأن انكشاف الأحزاب حصل على حين غفلة من المنافقين فلذلك كانوا يشتدون في ملام المسلمين ويسلقونهم بألسنة حداد على أن تعرضوا للعدو الكثير، وكان الله ساعتئذ قد هزم الأحزاب فانصرفوا وكفى الله المؤمنين شرهم، وليس للمنافقين وساطة في ذلك.
ولعلهم كانوا لا يودون رجوع الأحزاب دون أن يأخذوا المدينة، فتكون جملة)يحسبون(استئنافا ابتدائيا مرتبطا بقوله)اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا(الخ، جاء عودا على بدء بمناسبة ذكر أحوال المنافقين، فإن قوله)يحسبون الأحزاب لم يذهبوا(يؤذن بانهزام الأحزاب ورجوعهم على أعقابهم، أي وقع ذلك ولم يشعر به المنافقون.

صفحة : 3338

ويجوز أن يكون المعنى: أنهم كانوا يسلقون المؤمنين اعتزازا بالأحزاب لأن الأحزاب حلفاء لقريظة وكان المنافقون أخلاء لليهود فكان سلقهم المسلمين في وقت ذهاب الأحزاب وهم لا يعلمون ذلك ولو علموه لخفضوا من شدتهم على المسلمين، فتكون جملة) يحسبون(حالا من ضمير الرفع في)سلقوكم(أي فعلوا ذلك حاسبين الأحزاب محيطين بالمدينة ومعتزين بهم فظهرت خيبتهم فيما قدروا.
وأما قوله)وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب(فهو وصف لجبن المنافقين، أي لو جاء الأحزاب كرة أخرى

لأخذ المنافقون حيطتهم فخرجوا إلى البادية بين الأعراب القاطنين حول المدينة وهم غفار وأسلم وغيرهم، قال تعالى)ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب(الآية.

والود هنا مستعمل كناية عن السعي لحصول الشيء المودود لأن الشيء المحبوب لا يمنع من تحصيله إلا مانع قاهر فهو لازم للود.

والبادي: ساكن البادية. وتقدم عند قوله تعالى)سواء العاكف فيه والباد(في سورة الحج.

والأعراب: هم سكان البوادي بالأصالة، أي يودوا الالتحاق بمنازل الأعراب ما لم يعجزوا لما دل عليه قوله عقبه)ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا(، أي فلو لم يستطيعوا ذلك فكانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا.

و)لو(حرف يفيد التمني بعد فعل ود ونحوه. أنشد الجاحظ وعبد القاهر: يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تمنع الموت النفوس الشحائح وتقدم عند قوله تعالى)يود أحدهم لو يعمر ألف سنة(في البقرة.

والسؤال عن الأنباء لقصد التجسس على المسلمين للمشركين وليسرهم ما عسى أن يلحق المسلمين من الهزيمة.

ومعنى)ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا(أنهم إذا فرض أن لا يتمكنوا من الخروج إلى البادية وبقوا في المدينة مع المسلمين ما قاتلوا مع المسلمين إلا قتالا قليلا، أي ضعيفا لا يؤبه به وإنما هو تعلة ورياء، وتقدم نظيره آنفا.

والأنباء: جمع نبأ وهو: الخبر المهم، وتقدم عند قوله تعالى)ولقد جاءك من نبأ المرسلين(في سورة الأنعام.

وقرأ الجمهور)يسألون(بسكون السين فهمزة، مضارع)سأل(. وقرأ رويس عن يعقوب)يساءلون(بفتح السين مشددة وألف بعدها الهمزة، مضارع تساءل، وأصله: يتساءلون أدغمت التاء في السين.

)لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا[21](بعد توبيخ المنافقين والذين في قلوبهم مرض أقبل الكلام على خطاب المؤمنين في عموم جماعتهم ثناء على ثباتهم وتأسيهم بالرسول صلى الله عليه وسلم على تفاوت درجاتهم في ذلك الائتساء، فالكلام خبر ولكن اقترانه بحرفي التوكيد في)لقد(يومئ إلى تعريض بالتوبيخ للذين لم ينتفعوا بالإسوة الحسنة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض فلذلك أتي بالضمير مجملا ابتداء من قوله)لكم(، ثم فصل بالبدل منه بقوله) لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا(، أي بخلاف لمن لم يكن كأولئك، فاللام في قوله)لمن كان يرجو الله(توكيد للام التي في المبدل منه مثل قوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا(،

فمعنى هذه الآية قريب من معنى قوله تعالى في سورة براءة في قصة تبوك)رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم(الآية.

والإسوة بكسر الهمزة وضمها اسم لما يؤتسى به، أي يقتدى به ويعمل مثل عمله. وحق الأسوة أن يكون المؤتسى به هو القدوة ولذلك فحرف)في(جاء على أسلوب ما يسمى بالتجريد المفيد للمبالغة إذ يجرد من الموصوف بصفة موصوف مثله ليكون كذاتين، كقول أبي خالد الخارجي:

وفي الرحمان للضعفاء كاف أي الرحمان كاف. فالأصل: رسول الله إسوة، فقيل: في رسول الله إسوة. وجعل متعلق الائتساء ذات الرسول صلى الله عليه وسلم دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهى عنه، والائتساء بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات.

وقرأ الجمهور)إسوة(بكسر الهمزة. وقرأ عاصم بضم الهمزة وهما لغتان.

صفحة : 3339

و)لمن كان يرجو الله(بدل من الضمير في)لكم(بدل بعض من كل أو شبه الاشتمال لأن المخاطبين بضمير)لكم(يشتملون على من يرجون الله واليوم الآخر، أو هو بدل مطابق إن كان المراد بضمير)لكم(خصوص المؤمنين، وفي إعادة اللام في البدل تكثير للمعاني المذكورة بكثرة الاحتمالات وكل يأخذ حظه منها.

فالذين ائتسوا بالرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ ثبت لهم أنهم ممن يرجون الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. وفيه تعريض بفريق من الذين صدهم عن الائتساء به ممن كانوا منافقين أو في قلوبهم مرض من الشك في الدين.

وفي الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه الإسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب وتفصيله في أصول الفقه. واصطلاح أهل الأصول على جعل التأسي لقبا لاتباع الرسول في أعماله التي لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع. وذكر القرطبي عن الخطيب البغدادي أنه روي عن عقبة بن حسان الهجري عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر)لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة(قال: في جوع النبي صلى الله عليه وسلم.

)ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما[22](لما ذكرت أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض المؤذنة بما يداخل قلوبهم من الخوف وقلة الإيمان والشك فيما وعد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من النصر ابتداء من قوله)وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض(قوبلت أقوال أولئك بأقوال المؤمنين حينما نزلت بهم الأحزاب ورأوا كثرتهم وعددهم وكانوا على بصيرة من تفوقهم عليهم في القوة والعدد أضعافا وعلموا أنهم قد ابتلوا وزلزلوا، كل ذلك لم يخر عزائمهم ولا أدخل عليهم شكا فيما وعدهم الله من النصر.

وكان الله وعدهم النصر غير مرة منها قوله في سورة البقرة)أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين أمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب(. فلما رأى المسلمون الأحزاب وابتلوا وزلزلوا ورأوا مثل الحالة التي وصفت في تلك الآية علموا أنهم منصورون عليهم، وعلموا أن ذلك هو الوعد الذي وعدهم الله بآية سورة البقرة. وكانت آية البقرة نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام، كذا روي عن ابن عباس، وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين: أن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع أو عشر، فلما رأى المؤمنون الأحزاب وزلزلوا راجعهم الثبات الناشئ عن قوة الإيمان وقالوا)هذا ما وعدنا الله ورسوله(، أي من النظر ومن الإخبار بمسير الأحزاب وصدقوا وعد الله إياهم بالنصر وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بمسير الأحزاب، فالإشارة)بهذا(إلى ما شاهدوه من جيوش الأحزاب وإلى ما يتبع ذلك من الشدة والصبر عليها وكل ذلك وعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. ثم أخبروا عن صدق الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فيما أخبرا به وصدقوا الله فيما وعدهم من النصر خلافا لقول المنافقين)ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا(فالوعد راجع إلى الأمرين والصدق كذلك.

والوعد: إخبار مخبر بأنه سيعمل عملا للمخبر بالفتح .

ففعل)صدق(فيما حكي من قول المؤمنين)وصدق الله ورسوله(مستعمل في الخبر عن صدق مضى وعن صدق سيقع في المستقبل محقق وقوعه بحيث يجعل استقباله كالمضي)مثل أتى أمر الله(فهو مستعمل في معنى التحقق.

أو هو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، ولا شك أن محمل الفعل على الصدق في المستقبل أنسب بمقام الثناء على المؤمنين وأعلق بإناطة قولهم بفعل)رأى المؤمنون الأحزاب(دون أن يقال:

ولما جاءت الأحزاب. فإن أبيت استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه فاقصره على المجاز واطرح احتمال الإخبار عن الصدق الماضي.

صفحة : 3340

وضمير)زادهم(المستتر عائد إلى ما عاد إليه اسم الإشارة، أي وما زادهم ما رأوا إلا إيمانا وتسليما، أي بعكس حال المنافقين إذ زادهم شكا في تحقق الوعد، والمعنى: وما زاد ذلك المؤمنين إلا إيمانا، أي ما زاد في خواطر نفوسهم إلا إيمانا، أي لم يزدهم خوفا على الخوف الذي من شأنه أن يحصل لكل مترقب أن ينازله العدو الشديد، بل شغلهم عن الخوف والهلع شاغل الاستدلال بذلك على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به وفيما وعدهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر فأعرضت نفوسهم عن خواطر الخوف إلى الاستبشار بالنصر المترقب.

والتسليم: الانقياد والطاعة لأن ذلك تسليم النفس للمنقاد إليه، وتقدم في قوله تعالى)ويسلموا تسليما(في سورة النساء. ومن التسليم هنا تسليم أنفسهم لملاقاة عدو شديد دون أن يتطلبوا الإلقاء بأيديهم إلى العدو وأن يصالحوه بأموالهم. فقد ذكر ابن إسحاق وغيره أنه لما اشتد البلاء على المسلمين استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم السعدين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ في أن يعطي ثلث ثمار المدينة تلك السنة عيينة بن حصن، والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان على أن يرجعا عن المدينة، فقالا: يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت وذاك. فهذا موقف المسلمين في تلك الشدة وهذا تسليم أنفسهم للقتال.

ومن التسليم الرضى بما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الثبات معه كما قال تعالى)ويسلموا تسليما(.

وإذ قد علم أنهم مؤمنون لقوله)ولما رأى المؤمنون الأحزاب(إلى آخره فقد تعين أن الإيمان الذي زادهم ذلك هو زيادة على إيمانهم، أي إيمان مع إيمانهم.
والإيمان الذي زادهموه أريد به مظهر من مظاهر إيمانهم القوي، فجعل تكرر مظاهر الإيمان وآثاره كالزيادة في الإيمان لأن تكرر الأعمال بقوي الباعث عليها في النفس يباعد بين صاحبه وبين الشك والارتداد فكأنه يزيد في ذلك الباعث، وهذا من قبيل قوله تعالى) ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(وقوله)فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا(كما تقدم في سورة براءة، فكذلك القول في ضد الزيادة وهو النقص، وإلا فإن حقيقة الإيمان وهو التصديق بالشيء إذا حصلت بمقوماتها فهي واقعة، فزيادتها تحصيل حاصل ونقصها نقص لها وانتفاء لأصلها. وهذا هو محمل ما ورد في الكتاب والسنة من إضافة الزيادة إلى الإيمان وكذلك ما يضاف إلى الكفر والنفاق من الزيادة، كقوله تعالى)الأعراب أشد كفرا ونفاقا(وقوله)وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون(.
وإلى هذا المحمل يرجع خلاف الأئمة في قبول الإيمان الزيادة والنقص فيؤول إلى خلاف لفظي.
)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا[23](أعقب الثناء على جميع المؤمنين الخلص على ثباتهم ويقينهم واستعدادهم للقاء العدو الكثير يومئذ وعزمهم على بذل أنفسهم ولم يقدر لهم لقاؤه كما يأتي في قوله)وكفى الله المؤمنين القتال(بالثناء على فريق منهم كانوا وفوا بما عاهدوا الله عليه وفاء بالعمل والنية، ليحصل بالثناء عليهم بذلك ثناء على إخوانهم الذين لم يتمكنوا من لقاء العدو يومئذ ليعلم أن صدق أولئك يؤذن بصدق هؤلاء لأن المؤمنين يد واحدة.

صفحة : 3341

والإخبار عنهم برجال زيادة في الثناء لأن الرجل مشتق من الرجل وهي قوة اعتماد الإنسان كما اشتق الأبد من اليد، فإن كانت هذه الآية نزلت مع بقية آي السورة بعد غزوة الخندق فهي تذكير بما حصل من المؤمنين من قبل، وإن كانت نزلت يوم أحد فموضعها في هذه السورة إنما هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم فهو تنبيه على المعنى الذي ذكرناه على تقدير: أنها نزلت مع سورة الأحزاب. وأيا ما كان وقت نزول الآية فإن المراد منها: رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد وهم: عثمان

بن عفان، وأنس بن النضر، وطلحة بن عبيد الله، وحمزة، وسعيد ابن زيد، ومصعب بن عمير. فأما أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا. وسياق الآية وموقعها يقتضيان أنها نزلت بعد وقعة الخندق. وذكر القرطبي رواية البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه فوقف ودعا له ثم تلا)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه(الآية.

ومعنى)صدقوا ما عاهدوا الله عليه(أنهم حققوا ما عاهدوا عليه فإن العهد وعد وهو إخبار بأنه يفعل شيئا في المستقبل فإذا فعله فقد صدق. وفعل الصدق يستعمل قاصرا وهو الأكثر، ويستعمل متعديا إلى المخبر بفتح الباء يقال: صدقه الخبر، أي قال له في الصدق، ولذلك فإن تعديته هنا إلى)ما عاهدوا الله عليه(إنما هو على نزع الخافض، أي صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، كقولهم في المثل: صدقني سن بكره، أي في سن بكره.

والنحب: النذر وما يلتزمه الإنسان من عهد ونحوه، أي من المؤمنين من وفى بما عاهد عليه من الجهاد كقول أنس بن النضر حين لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ذلك عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله ما أصنع فشهد أحدا وقاتل حتى قتل. ومثل الذين شهدوا أيام الخندق فإنهم قضوا نحبهم يوم قريظة.

وقد حمل بعض المفسرين)قضى نحبه(في هذه الآية على معنى الموت في الجهاد على طريقة الاستعارة بتشبيه الموت بالنذر في لزوم الوقوع، وربما ارتقى ببعض المفسرين ذلك إلى جعل النحب من أسماء الموت، ويمنع منه ما ورد في حديث الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في طلحة بن عبيد الله)إنه ممن قضى نحبه(، وهو لم يمت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله)وما بدلوا تبديلا(فهو في معنى)صدقوا ما عاهدوا الله عليه(وإنما ذكر هنا للتعريض بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يولون الأدبار ثم ولوا يوم الخندق فرجعوا إلى بيوتهم في المدينة.

وانتصب)تبديلا(على أنه مفعول مطلق مؤكد ل)بدلوا(المنفي. ولعل هذا التوكيد مسوق مساق التعريض بالمنافقين الذين بدلوا عهد الإيمان لما ظنوا أن الغلبة تكون للمشركين.

)ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما[24](لام التعليل يتنازعه من التعلق

كل من)صدقوا( )وما بدلوا(أي صدق المؤمنون عهدهم وبدله المنافقون ليجزي الله الصادقين ويعذب المنافقين.
ولام التعليل بالنسبة إلى فعل)ليجزي الله الصادقين(مستعمل في حقيقة معناه، وبالنسبة إلى فعل)ويعذب(مستعار لمعنى فاء العاقبة تشبيها لعاقبة فعلهم بالعلة الباعثة على ما اجترحوه من التبديل والخيس بالعهد تشبيها يفيد عنايتهم بما فعلوه من التبديل حتى كأنهم ساعون إلى طلب ما حق عليهم من العذاب على فعلهم، أو تشبيها إياهم في عنادهم وكيدهم بالعالم بالجزاء الساعي إليه وإن كان فيه هلاكه.
والجزاء: الثواب لأن أكثر ما يستعمل فعل جزى أن يكون في الخير، ولأن ذكر سبب الجزاء وهو)بصدقهم(يدل على أنه جزاء إحسان، وقد جاء الجزاء في ضد ذلك في قوله تعالى)اليوم تجزون عذاب الهون(في سورة الأنعام.
وإظهار اسم الجلالة في مقام إضماره للدلالة على عظمة الجزاء.

صفحة : 3342

وتعليق التعذيب على المشيئة تنبيه لهم بسعة رحمة الله وانه لا يقطع رجاءهم في السعي إلى مغفرة ما أتوه بأن يتوبوا فيتوب الله عليهم فلما قابل تعذيبه إياهم بتوبته عليهم تعين أن التعذيب باق عند عدم توبتهم لقوله في الآية الأخرى)إن الله لا يغفر أن يشرك به(.
والتوبة هنا هي التوبة من النفاق، أي هي إخلاص الإيمان، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم معتب بن قشير.
وجملة)إن الله كان غفورا رحيما(تعليل للجزاء والتعذيب كليهما على التوزيع، أي غفور للمذنب إذا أناب إليه، رحيم بالمحسن أن يجازيه على قدر نصبه.
وفي ذكر فعل)كان(إفادة أن المغفرة والرحمة صفتان ذاتيتان له كما قدمناه غير مرة، من ذلك عند قوله تعالى)أكان للناس عجبا أن أوحينا(في أول سورة يونس.
)ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا[25](عطف على جملة)فأرسلنا عليهم ريحا(وهو الأنسب بسياق الآيات بعدها، أي أرسل عليهم ريحا وردهم، أو حال من ضمير)يحسبون الأحزاب لم يذهبوا(، أي يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وقد رد الله الأحزاب فذهبوا.

والرد: الإرجاع إلى المكان الذي صدر منه فإن ردهم إلى ديارهم من تمام النعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم لأن رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين. وعبر عن الأحزاب بالذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو سبب خيبتهم العجيبة الشأن.

والباء في)بغيظهم(للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي ردهم مغيظين.

وإظهار اسم الجلالة دون ضمير المتكلم للتنبيه على عظم شأن هذا الرد العجيب كما تقدم في قوله تعالى)ليجزي الله الصادقين بصدقهم(.

والغيظ: الحنق والغضب، وكان غضبهم عظيما يناسب حال خيبتهم لأنهم تجشموا كلفة التجمع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة وأكل ثمارها وإفناء المسلمين، وهم يحسبون أنها منازلة أيام قليلة، ثم غاظهم ما لحقهم من النكبة بالريح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه.

وجملة)لم ينالوا خيرا(حال ثانية. ولك أن تجعل جملة)لم ينالوا خيرا(استئنافا بيانيا لبيان موجب غيظهم.

و)كفى(بمعنى أغنى، أي أراحهم من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب. و)كفى(بهذا المعنى تتعدى إلى مفعولين يقال: كفيتك مهمك وليست هي التي تزاد الباء في مفعولها فتلك بمعنى: حسب.

وفي قوله)وكفى الله المؤمنين القتال(حذف مضاف، أي كلفة القتال، أو أرزاء القتال، فإن المؤمنين كانوا يومئذ بحاجة إلى توفير عددهم وعددهم بعد مصيبة يوم أحد ولو التقوا مع جيش المشركين لكانت أرزاؤهم كثيرة ولو انتصروا على المشركين.

والقول في إظهار اسم الجلالة في قوله)وكفى الله المؤمنين القتال(كالقول في)ورد الذين كفروا بغيظهم(.

وجملة)وكان الله قويا عزيزا(تذييل لجملة)ورد الله الذين كفروا(إلى آخرها.

والقوة: القدرة، وقد تقدمت في قوله)لو أن لي بكم قوة(في سورة هود.

والعزة: العظمة والمنعة، وتقدمت في قوله تعالى)أخذته العزة بالإثم(في سورة البقرة.

وذكر فعل)كان(للدلالة على أن العزة والقوة وصفان ثابتان لله تعالى، ومن تعلقات قوته وعزته أن صرف ذلك الجيش العظيم خائبين مفتضحين وألقى بينه وبين أحلافه من قريظة الشك، وأرسل عليهم الريح والقر، وهدى نعيما بن مسعود الغطفاني إلى الإسلام دون أن يشعر قومه فاستطاع النصح للمسلمين بالكيد للمشركين. ذلك كله معجزة للنبيء صلى الله عليه وسلم.

)وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا[26] وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا[27])

صفحة : 3343

كان يهود قريظة قد أعانوا الأحزاب وحاصروا المدينة معهم وكان حيي بن أخطب من بني النضير منضما إليهم وهو الذي حرض أبا سفيان على غزو المدينة. فلما صرف الله الأحزاب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغزو قريظة وهم فريق من اليهود يعرفون ببني قريظة وكانت منازلهم وحصونهم بالجنوب الشرقي من المدينة تعرف قريتهم باسمهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاد إلى المدينة من الخندق ظهرا وكان بصدد أن يغتسل ويستقر فلما جاءه الوحي بأن يغزو قريظة نادى في الناس أن لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة. وخرج الجيش الذي كان بالخندق معه فنزلوا على قرية قريظة واستعصم أهل القرية بحصونهم فحاصرهم المسلمون نحوا من عشرين ليلة، فلما جهدهم الحصار وخامرهم الرعب من أن يفتح المسلمون بلادهم فيستأصلوهم طمعوا أن يطلبوا أن يسلموا بلادهم على أن يحكم حكم في صفة ذلك التسليم. ويقال لهذا النوع من ا لمصالحة: النزول على حكم حكم، فأرسلوا شاس بن قيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرضون أن ينزلوا على مثل ما نزلت عليه بنو النضير من الجلاء على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول ذلك وبعد مداولات نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد أن تقتل المقاتلة وتسبى النساء والذراري وأن تكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حكم به سعد كما هو مفصل في السيرة.

ومعنى)ظاهروهم(ناصروهم وأعانوهم، وتقدم في قوله تعالى)ولم يظاهروا عليكم أحدا(في سورة براءة.

والإنزال: الإهباط، أي من الحصون أو من المعتصمات كالجبال.

والصياصي: الحصون، وأصلها أنها جمع صيصية وهي القرن للثور ونحوه. قال عبد بني الحسحاس:

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت

نساء تميم يلتقطن الـصياصـيا أي القرون لبيعها كانوا يستعملون القرون في مناسج الصوف ويتخذون أيضا منها أوعية للكحل ونحوه

فلما كان القرن يدافع به الثور عن نفسه سمي المعقل الذي يعتصم به الجيش صيصية والحصون صياصي.
والقذف: الإلقاء السريع، أي جعل الله في قلوبهم الرعب بأمره التكويني فاستسلموا ونزلوا على حكم المسلمين.
والفريق الذين قتلوا هم الرجال وكانوا زهاء سبعمائة والفريق الذين أسروا هم النساء والصبيان.
والخطاب من قوله)فريقا تقتلون(إلى آخره للمؤمنين تكملة للنعمة التي أنبأ عنها قوله)يأيها الذين أمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا(الآية، أي فأهلكنا الجنود وردهم الله بغيظهن وسلطكم على أحلافهم وأنصارهم.
وتقديم المفعول في)فريقا تقتلون(للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، ولذلك لم يقدم مفعول)تأسرون(إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله.
وقوله)وأرضا لم تطؤوها(أي تنزلوا بها غزاة وهي أرض أخرى غير أرض قريظة وصفت بجملة)لم تطئوها(أي لم تمشوا فيها. فقيل: إن الله بشرهم بأرض أخرى يرثونها من بعد. قال قتادة: كنا نحدث أنها مكة. وقال مقاتل وابن رومان: هي خيبر، وقيل: أرض فارس والروم.
وعلى هذه التفاسير يتعين أن يكون فعل)أورثكم(مستعملا في حقيقته ومجازه؛ فأما في حقيقته فبالنسبة إلى مفعوله وهو)أرضهم وديارهم وأموالهم(، وأما استعماله في مجازه فبالنسبة إلى تعديته إلى)أرضا لم تطئوها(، أي أن يورثكم أرضا أخرى لم تطؤوها، من باب)أتى أمر الله(أو يؤول فعل)أورثكم(بمعنى: قدر أن يورثكم.
وأظهر هذه الأقوال أنها أرض خيبر فإن المسلمين فتحوها بعد غزوة قريظة بعام وشهر. ولعل المخاطبين بضمير)أورثكم(هم الذين فتحوا خيبر لم ينقص منهم أحد أو فقد منه القليل ولأن خيبر من أرض أهل الكتاب وهم ممن ظاهروا المشركين فيكون قصدها من قوله) وأرضا(مناسبا تمام المناسبة.
وفي التذييل بقوله)وكان الله على كل شيء قديرا(إيماء إلى البشارة بفتح عظيم يأتي من بعده.
وعندي: أن المراد بالأرض التي لم يطؤوها أرض بني النضير وأن معنى)لم تطئوها(لم تفتحوها عنوة فإن الوطء يطلق على معنى الأخذ الشديد، قال الحارث بن وعلة الذهلي:

ووطئتنا وطئا على حنق وطء المقيد نابت الهرم

ومنه قوله تعالى)ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم(، فإن أرض بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله من غير إيجاف.

)يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا[28] وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما[29](يستخلص مما ذكره ابن عطية رواية عن ابن الزبير ومما ذكره أبو حيان في البحر المحيط وغير ذلك: أن وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أنه لما فتحت على المسلمين أرض قريظة وغنموا أموالهم وكانت أرض النضير قبيل ذلك فيئا للنبي صلى الله عليه وسلم حسب أزواج رسول الله أن مثله أحد من الرجال إذا وسع عليهم الرزق توسعوا فيه هم وعيالهم فلم يكن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام يسألنه توسعة قبل أن يفيء الله عليه من أهل النضير وقبل أن يكون له الخمس من الغنائم، فلما رأين النبي صلى الله عليه وسلم جعل لنفسه ولأزواجه أقواتهم من مال الله ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال حسبن أنه يوسع في الإنفاق فصار بعضهن يستكثرنه من النفقة كما دل عليه قول عمر لحفصة ابنته أم المؤمنين لا تستكثري النبي ولا تراجعيه في شيء وسليني ما بدا لك . ولكن الله أقام رسوله صلى الله عليه وسلم مقاما عظيما فلا يتعلق قلبه بمتاع الدنيا إلا بما يقتضيه قوام الحياة وقد كان يقول ما لي وللدنيا وقال حبب إلي من دنياكم النساء والطيب . وقد بينت وجه استثناء هذين في رسالة كتبتها في الحكمة الإلهية من رياضة الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه بتقليل الطعام.

وقال عمر: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه من خيل و لا ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق منها على أهله نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة للمسلمين . وقد علمت أن أرض قريظة قسمت على المهاجرين بحكم سعد بن معاذ فلعل المهاجرين لما اتسعت أرزاقهم على أزواجهم أمل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يكن كالمهاجرين فأراد الله أن يعلمهن سيرة الصالحات في العيش وغيره. وقد روي أن بعضهن سألنه أشياء من زينة الدنيا فأوحى إلى رسوله بهذه الآيات المتتابعات. وهذا مما يؤذن به وقع هذه الآيات عقب ذكر وقعة قريظة وذكر الأرض التي لم يطؤوها وهي أرض بني النضير.

وإذ قد كان شأن هذه السيرة أن يشق على غالب الناس وخاصة النساء أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبئ أزواجه بها ويخيرهن عن ا لسير عليها تبعا لحاله وبين أن يفارقهن.

لذا فافتتاح هذه الأحكام بنداء النبي صلى الله عليه وسلم ب)يا أيها النبي(تنبيه على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوءة، وتحديد تزوجه وهو الغرض الثاني من الأغراض التي تقدم ذكرها في قوله)يا ايها النبي اتق الله(.

والأزواج المعنيات في هذه الآية هن أزواجه التسع اللاتي توفي عليهن. وهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أمية المخزومية، وجويرية بنت الحارث الخزاعية، وميمونة بنت الحارث الهلالية من بني عامر بن صعصعة، وسودة بنت زمعة العامرية القرشية، وزينب بنت جحش الأسدية، وصفية بن حيي النضيرية.

وأما زينب بنت خزيمة الهلالية الملقبة أم المساكين فكانت متوفاة وقت نزول هذه الآية.

ومعنى)إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها(: إن كنتن تؤثرن ما في الحياة من الترف على الاشتغال بالطاعات والزهد، فالكلام على حذف مضاف يقدر صالحا للعموم إذ لا دليل على إرادة شأن خاص من شؤون الدنيا. وهذه نكتة تعدية فعل)تردن(إلى اسم ذات) الحياة(دون حال من شؤونها.

وعطف)زينتها(عطف خاص على عام، وفي عطفه زيادة تنبيه على أن المضاف المحذوف عام، وأيضا ففعل)تردن(يؤذن باختيار شيء على غيره فالمعنى: إن كنتن تردن الانغماس في شؤون الدنيا، وقد دلت على هذا مقابلته بقوله)وإن كنتن تردن الله ورسوله(كما سيأتي.

صفحة : 3345

و)تعالين(اسم فعل أمر بمعنى: أقبلن، وهو هنا مستعمل تمثيلا لحال تهيؤ الأزواج لأخذ التمتيع وسماع التسريح بحال من يحضر إلى مكان المتكلم.

وقد مضى القول على)تعال(عند قوله تعالى)فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم(في سورة آل عمران.

والتمتيع: أن يعطي الزوج امرأته حين يطلقها عطية جبرا لخاطرها لما يعرض لها من الانكسار. وتقدم الكلام عليها مفصلا عند قوله

تعالى)ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف(في سورة البقرة.
وجزم)أمتعكن(في جواب)تعالين(وهو اسم فعل أمر وليس أمرا صريحا فجزم جوابه غير واجب فجيء به مجزوما ليكون فيه معنى الجزاء فيفيد حصول التمتيع بمجرد إرادة إحداهن الحياة الدنيا.
والسراح: الطلاق، وهو من أسمائه وصيغه، قال تعالى)فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف(.
والجميل: الحسن حسنا بمعنى القبول عند النفس، وهو الطلاق دون غضب ولا كراهية لأنه طلاق مراعى فيه اجتناب تكليف الزوجة ما يشق عليها. وليس المذكور في الآية من قبيل التخيير والتمليك اللذين هما من تفويض الطلاق إلى الزوجة، وإنما هذا تخيير المرأة بين شيئين يكون اختيارها أحدهما داعيا زوجها لأن يطلقها إن أراد ذلك.
ومعنى)وإن كنتن تردن الله ورسوله(إن كنتن تؤثرن الله على الحياة الدنيا، أي تؤثرن رضى الله لما يريده لرسوله، فالكلام على حذف مضاف. وإرضاء الله: فعل ما يحبه الله ويقرب إليه، فتعدية فعل)تردن(إلى اسم ذات الله تعالى على تقدير تقتضيه صحة تعلق الإرادة باسم ذات لأن الذات لا تراد حقيقة فوجب تقدير مضاف ولزم أن يقدر عاما كما تقدم.
وإرادة رضى الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك على تقدير، أي كل ما يرضي الرسول عليه الصلاة والسلام، وأول ذلك أن يبقين في عشرته طيبات الأنفس.
وإرادة الدار الآخرة: إرادة فوزها، فالكلام على حذف مضاف يقتضيه المقام أيضا، فأسلوب الكلام جرى على إناطة الحكم بالأعيان وهو أسلوب يقتضي تقديرا في الكلام من قبيل دلالة الاقتضاء.
وفي حذف المضافات وتعليق الإرادة بأسماء الأعيان الثلاثة مقصد أن تكون الإرادة متعلقة بشؤون المضاف إليه التي تتنزل منزلة ذاته مع قضاء حق الإيجاز بعد قضاء حق الإعجاز.
فالمعنى: إن كنتن تؤثرن ما يرضي الله ويحبه رسوله وخير الدار الآخرة فتخترن ذلك على ما يشغل عن ذلك كما دلت عليه مقابلة إرادة الله ورسوله والدار الآخرة بإرادة الحياة الدنيا وزينتها، فإن المقابلة تقتضي إرادتين يجمع بين إحداهما وبين الأخرى، فإن التعلق بالدنيا يستدعي الاشتغال بأشياء كثيرة من شؤون الدنيا لا محيص من أن تلهي صاحبها عن الاشتغال بأشياء عظيمة من شؤون ما يرضي الله وما يرضي رسوله عليه الصلاة والسلام وعن التملي من أعمال كثيرة مما يكسب الفوز في الآخرة فإن الله يحب أن ترتقي النفس الإنسانية إلى مراتب الملكية والرسول صلى الله عليه وسلم

يبتغي أن يكون أقرب الناس إليه وأعقلهم به سائرا على طريقته لأن طريقته هي التي اختارها الله له. وبمقدار الاستكثار من ذلك يكثر الفوز بنعيم الآخرة، فالناس متسابقون في هذا المضمار وأولاهم بقصب السبق فيه أشدهم تعلقا بالرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت همم أفاضل السلف، وأولى الناس بذلك أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام وقد ذكرهن الله تذكيرا بديعا بقوله) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة(كما سيأتي.

ولما كانت إرادتهن الله ورسوله والدار الآخرة مقتضية عملهن الصالحات وكان ذلك العمل متفاوتا، وجعل الجزاء على ذلك بالإحسان فقال)فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما(ليعلمن أن هذا الأجر حاصل لهن على قدر إحسانهن، فهذا وجه ذكر وصف المحسنات وليس هو للاحتراز.

وفي ذكر الإعداد إفادة العناية بهذا الأجر والتنويه به زيادة على وصفه بالعظيم.

صفحة : 3346

وتوكيد جملة الجزاء بحرف)إن(الذي ليس هو لإزالة التردد إظهار للاهتمام بهذا الأجر. وقد جاء في كتب السنة: أنه لما نزلت هذه الآية ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة فقال لها: إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك، ثم تلا هذه الآية، فقالت عائشة: أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وقال لسائر أزواجه مثل ذلك فقلن مثل ما قالت عائشة.

ولا طائل تحت الاشتغال بأن هذا التخيير هل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم، أو مندوبا فإنه أمر قد انقضى ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يخالف أمر الله تعالى بالوجوب أو الندب.

)يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا[30](تولى الله خطابهن بعد أن أمر رسوله بتخييرهن فخيرهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فخاطبهن ربهن خطابا لأنهن أصبحن على عهد مع الله تعالى أن يؤتيهن أجرا عظيما. وقد سماه عمر عهدا فإنه كان كثيرا ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب فإذا بلغ هذه الآية رفع بها صوته فقيل له في ذلك فقال)أذكرهن العهد(، ولما كان الأجر الموعود منوطا بالإحسان أريد تحذيرهن من المعاصي بلوغا بهن إلى مرتبة

الملكية مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهن عذابا مضاعفا.
ونداؤهن للاهتمام بما سيلقى إليهن.
وناداهن بوصف)نساء النبي(ليعلمن أن ما سيلقى إليهن خبر يناسب علو أقدارهن. والنساء هنا مراد به الحلائل، وتقدم في قوله تعالى)ونساءنا ونساءكم(في سورة آل عمران.
وقرأ الجمهور)يأت(بتحتية في أوله مراعاة لمدلول)من(الشرطية لأن مدلولها شيء فأصله عدم التأنيث. وقرأه يعقوب)من تأت(بفوقية في أوله مراعاة لما صدق)من(أي إحدى النساء.
وقرأ الجمهور)يضاعف(بتحتية في أوله للغائب وفتح العين مبنيا للنائب ورفع)العذاب(على أنه نائب فاعل. وقرأه ابن كثير وابن عامر)نضعف(بنون العظمة وبتشديد العين مكسورة ونصب)العذاب(على المفعولية، فيكون إظهار اسم الجلالة في قوله بعده)وكان ذلك على الله يسيرا(إظهارا في مقام الإضمار. وقرأه أبو عمر ويعقوب)يضعف(بتحتية للغائب وتشديد العين مفتوحة. ومفاد هذه القراءات متحد المعنى على التحقيق.
وروى الطبري عن أبي عمرو بن العلاء وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن بين)ضاعف وضعف(فرقا، فأما)ضاعف(فيفيد جعل الشيء مثليه فتصير ثلاثة أعذبه وأما)ضعف(المشدد فيفيد جعل الشيء مثله. قال الطبري:وهذا التفريق لا نعلم أحدا من أهل العلم ادعاه غيرهما.
وصيغة التثنية في قوله)ضعفين(مستعملة في إرادة الكثرة كقوله تعالى)ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير(لظهور أن البصر لا يرجع خاسئا وحسيرا من تكرر النظر مرتين، والتثنية ترد في كلام العرب كناية عن التكرير، كقولهم: لبيك وسعديك، وقولهم: دواليك، ولذلك لا نشتغل بتحديد المضاعفة المرادة في الآية بأنها تضعيف مرة واحدة بحيث يكون هذا العذاب بمقدار ما هو لأمثال الفاحشة مرتين أو بمقدار ذلك ثلاث مرات وذلك ما لم يشتغل به أحد من المفسرين، وما إعراضهم عنه إلا لأن أفهامهم سبقت إلى الاستعمال المشهور في الكلام، فما روي عن أبي عمرو وأبي عبيدة لا يلتفت إليه.
والفاحشة: المعصية قال تعالى)قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن(وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.
والمبينة: بصيغة اسم الفاعل مبالغة في بيان كونها فاحشة ووضوحه حتى كأنها تبين نفسها وكذلك قرأها الجمهور. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء، أي يبينها فاعلها.

والمضاعفة: تكرير شيء ذي مقدار بمثل مقداره.
والضعف: مماثل عدد ما. وتقدم في قوله تعالى)فآتهم عذابا ضعفا من النار(في سورة الأعراف.
ومعنى مضاعفة العذاب: أنه يكون ضعف العذاب عذاب أمثال تلك المعصية إذا صدرت من غيرهن، وهو ضعف في القوة وفي المدة، وأريد عذاب الآخرة.

صفحة : 3347

وجملة)وكان ذلك على الله يسيرا(معترضة، وتقدم القول في نظيرها آنفا. والمعنى: أن الله يحقق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنها زوجة نبيء، قال تعالى)كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين(إلى قوله)فلم يغنيا عنهما من الله شيئا(.
والتعريف في)العذاب(تعريف العهد، أي العذاب الذي جعله الله للفاحشة.
)ومن يقنت منكن لله ورسله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما[31](أعقب الوعيد بالوعد جريا على سنة القرآن كما تقدم في المقدمة العاشرة.
والقنوت: الطاعة، والقنوت للرسول على طاعته واجتلاب رضاه لأن في رضاه رضى الله تعالى، قال تعالى)من يطع الرسول فقد أطاع الله(.
وقرأ الجمهور)يقنت(بتحتية في أوله مراعاة لمدلول) من(الشرطية كما تقدم في)من يأت منكن(. وقرأه يعقوب بفوقية في أوله مراعاة لما صدق)من(، أي إحدى النساء، كما تقدم في قوله تعالى)من يأت منكن(.
وأسند فعل إيتاء أجرهن إلى ضمير الجلالة بوجه صريح تشريفا لإيتائهن الأجر لأنه المأمول بهن، وكذلك فعل)واعتدنا(.
ومعنى)مرتين(توفير الأجر وتضعيفه كما تقدم في قوله تعالى) ضعفين(.
وضمير)أجرها(عائد إلى)من(باعتبار أنها صادقة على واحدة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم.
وفي إضافة الأجر إلى ضميرها إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر بأنه يناسب مقامها وإلى تشريفها بأنها مستحقة ذلك الأجر.
ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات كرامة لقدرهن، وهذه المضاعفة في الحالين من خصائص أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لعظم قدرهن لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة فضل الآتي بها.

ودرجة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عظيمة.
وقرأ الجمهور)وتعمل(بالتاء الفوقية على اعتبار معنى)
من(الموصولة المراد بها أحد النساء وحسنه معطوف على فعل)
يقنت(بعد أن تعلق به الضمير المجرور وهو ضمير نسوة.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف)ويعمل(بالتحتية مراعاة لمدلول)من(
في أصل الوضع. وقرأ الجمهور)نؤتها(بنون العظمة. وقرأه حمزة
والكسائي وخلف بالتحتية على اعتبار ضمير الغائب عائدا إلى اسم
الجلالة في قوله قبله)وكان ذلك على الله يسيرا(.
والقول في)اعتدنا لها(كالقول في)فإن الله أعد للمحسنات(.
والتاء في)اعتدنا(بدل عن أحد الدالين من)أعد(لقرب مخرجيها
وقصد التخفيف. والعدول عن المضارع إلى فعل ماضي في قوله)
اعتدنا(إفادة تحقيق وقوعه.
والرزق الكريم هو زرق الجنة قال تعالى)كلما رزقوا منها من
ثمره رزقا(الآية. ووصفه بالكريم لأنه أفضل جنسه. وقد تقدم في
قوله تعالى)أني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.
)يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن(أعيد خطابهن من
جانب ربهن وأعيد نداءهن للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصه.
وأحد: اسم بمعنى واحد مثل)قل هو الله أحد(وهمزته بدل من
الواو. وأصله: وحد بوزن فعل، أي متوحد، كما قالوا: فرد بمعنى
منفرد. قال النابغة يذكر ركوبه راحلته:
كان رحلي وقد زاد النهار بنا يوم
الجليل على مستأنس وحد يريد على ثور وحشي منفرد. فلما ثقل
الابتداء بالواو شاع أن يقولوا: أحد، وأكثر ما يستعمل في سياق
النفي، قال تعالى)فما منكم من أحد عنه حاجزين(فإذا وقع في
سياق النفي دل على نفي كل واحد من الجنس.

ونفي المشابهة هنا يراد به نفي المساواة مكنى به عن الأفضلية
على غيرهن مثل نفي المساواة في قوله تعالى)لا يستوي
القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل
الله(، فلولا قصد التفضيل ما كان لزيادة)غير أولي الضرر(وجد ولا
لسبب نزولها داع كما تقدم في سورة النساء. فالمعنى: أنتن أفضل
النساء، وظاهرة تفضيل لجملتهن على نساء هذه الأمة، وسبب ذلك
أنهن اتصلن بالنبي عليه الصلاة والسلام اتصالا قريبا من كل اتصال
وصرن أنيساته ملازمات شؤونه فيختصصن باطلاع ما لم يطلع عليه

غيرهن من أحواله وخلقه في المنشط والمكره، ويتخلقن بخلقه أكثر مما يقتبس منه غيرهن، ولأن إقباله عليهن إقبال خاص، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم حبب إليكم من دنياكم النساء والطيب ، وقال تعالى)والطيبات للطيبين(. ثم إن نساء النبي عليه الصلاة والسلام يتفاضلن بينهن.

والتقييد بقوله)إن اتقيتن(ليس لقصد الاحتراز عن ضد ذلك وإنما هو الهاب وتحريض على الازدياد من التقوى، وقريب من هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة إن عبد الله يعني أخاها رجل صالح لو كان يقوم الليل ، فلما أبلغت حفصة ذلك عبد الله بن عمر لم يترك قيام الليل بعد ذلك لأنه علم أن المقصود التحريض على القيام.

وفعل الشرط مستعمل في الدلالة على الدوام، أي إن دمتن على التقوى فإن نساء النبي صلى الله عليه وسلم متقيات من قبل، وجواب الشرط عليه ما قبله.

واعلم أن ظاهر هذه الآية تفضيل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على جميع نساء هذه الأمة. وقد أختلف في التفاضل بين الزوجات وبين بنات النبي صلى الله عليه وسلم. وعن الأشعري الوقف في ذلك، ولعل ذلك لتعارض الأدلة السمعية ولاختلاف جهات أصول التفضيل الدينية والروحية بحيث يعسر ضبطها بضوابط.

أشار إلى جملة منها أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي في حديث رؤيا رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أنه رأى ميزانا نزل من السماء فوزن النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فرجح النبي صلى الله عليه وسلم، ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. والجهات التي بني عليها أبو بكر بن العربي أكثرها من شؤون الرجال. وليس يلزم أن تكون بنات النبي صلى الله عليه وسلم على أزواجه وبخاصة فاطمة رضي الله عنها وهو ظاهر كلام التفتزاني في كتاب المقاصد. وهي مسألة لا يترتب على تدقيقها عمل فلا ينبغي تطويل البحث فيها.

والأحسن أن يكون الوقف على)إن اتقيتن(، وقوله)فلا تخضعن(ابتداء تفريع وليس هو جواب الشرط.

)فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا[32](فرع على تفضيلهن وترفيع قدرهن إرشادهن إلى دقائق من الأخلاق قد تقع الغفلة عن مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، ولأنها ذرائع خفية نادرة تفضي إلى ما لا يليق بحرمتهن في نفوس بعض ممن اشتملت عليه الأمة، وفيها منافقوها.

وابتدئ من ذلك بالتحذير من هيئة الكلام فأن الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقة طبيعية وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضم إلى لينها الجبلي قربت هيئته الهيئة التدلل لقلة اعتياد مثله إلا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظن بعض من يشافهها من الرجال أنها تحبب إليه، فربما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة، بله أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي هن أمهات المؤمنين.

والخضوع: حقيقة التذلل، وأطلق هنا على الرقة لمشابهتها التذلل.

والباء في قوله)بالقول(يجوز أن تكون للتعدية بمنزلة همزة التعدية، أي لا تخضعن القول، أي تجعلنه خاضعا ذليلا، أي مفككا. وموقع الباء هنا أحسن من موقع همزة التعدية لأن باء التعدية جاءت من باء المصاحبة على ما بينه المحققون من النحاة أن أصل قولك: ذهبت بزيد، أنك ذهبت مصاحبا له فأنت أذهبته معك، ثم تنوسي معنى المصاحبة في نحو:)ذهب الله بنورهم(، فلما كان التفكك والتزيين للقول يتبع تفكك القائل أسند الخضوع إليهن في صورة، وأفيدت التعدية بالباء. ويجوز أن تكون الباء بمعنى)في(، أي لا يكن منكن لين في القول.

صفحة : 3349

والنهي عن الخضوع بالقول إشارة إلى التحذير مما هو زائد على المعتاد في كلام النساء من الرقة وذلك ترخيم الصوت أي ليكن كلامكن جزلا.

والمرض: حقيقة اختلال نظام المزاج البدني من ضعف القوة، وهو هنا مستعار لاختلال الوازع الديني مثل المنافقين ومن كان أول الإيمان من الأعراب ممن لم ترسخ فيه أخلاق الإسلام، وكذلك من تخلقوا بسوء الظن فيرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، وقضية إفك المنافقين على عائشة رضي الله عنها شاهد لذلك. وتقدم في قوله تعالى)في قلوبهم مرض(في سورة البقرة.

وانتصب)يطمع(في جواب النهي بعد الفاء لأن المنهي عنه سبب في هذا الطمع.

وحذف متعلق)يطمع(تنزها وتعظيما لشأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم مع قيام القرينة.

وعطف)وقلن قولا معروفا(على)لا تخضعن بالقول(بمنزلة الاحتراس لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار.

والقول: الكلام.

والمعروف: هو الذي يألفه الناس بحسب العرف العام، ويشمل القول المعروف هيئة الكلام وهي التي سيق لها المقام، ويشمل مدلولاته أن لا ينتهزن من يكلمهن أو يسمعنه قولا بذيئا من باب: فليقل خيرا أو ليصمت. وبذلك تكون هذه الجملة بمنزلة التذييل.

)وقرن في بيوتكن(هذا أمر خصصن به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرا لهن. وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لما ضاق عليهم المسجد النبوي يصلون الجمعة في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث الموطأ. وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف. ووجها أبو عبيدة عن الكسائي والفراء والزجاج بأنها لغة أهل الحجاز في قر بمعنى: أقام واستقر، يقولون: قررت في المكان بكسر الراء من باب علم فيجيء مضارعه بفتح الراء فأصل قرن اقررن قولهم: أحسن بمعنى أحسسن في قول أبي زبيد:

سوى أن الجياد من المطايا أحسن

به إلـيه شـوس وأنكر المازني وأبو حاتم أن تكون هذه لغة، وزعم أن قررت بكسر الراء في الماضي لا يرد إلا في معنى قرة العين، والقراءة حجة عليهما. والتزم النحاس قولهما وزعم أن تفسير الآية على هذه القراءة أنها من قرة العين وأن المعنى: واقررن عيونا في بيوتكن، أي لكن في بيوتكن قرة فلا تتطلعن إلى ما جاوز ذلك، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن.

وقرأ بقية العشرة)وقرن(بكسر القاف. قال المبرد: هو من القرار، أصله: اقررن بكسر الراء الأولى فحذفت تخفيفا، وألقيت حركتها على القاف كما قالوا: ظلت ومست. وقال ابن عطية: يصح أن يكون قرن، أي بكسر القاف أمرا من الوقار، يقال: وقر فلان فلا يقر والأمر منه قر للواحد، وللنساء قرن مثل عدن، أي فيكون كناية عن ملازمة بيوتهن مع الإيماء إلى علة ذلك بأنه وقار لهن.

وقرأ الجمهور)بيوتكن(بكسر الباء. وقرأه ورش عن نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر بضم الباء.

وإضافة البيوت إليهن لأنهن ساكنات بها أسكنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم يميز

بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى)لا تخرجوهن من بيوتهن(. وذلك أن زوج الرجل هي ربة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت ولا يقتضي ذلك أنها ملك لهن لأن البيوت بناها الرسول صلى الله عليه وسلم تباعا تبعا لبناء المسجد، ولذلك لما توفيت أزواج كلهن أدخلت ساحة بيوتهن إلى المسجد في التوسعة التي وسعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على لمدينة ولم يعط عوضا لورثتهن.

وهذه الآية تقتضي وجوب مكث أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في بيوتهن وأن لا يخرجهن إلا لضرورة، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن يريد حاجات الإنسان.

صفحة : 3350

ومحمل هذا الأمر على ملازمة بيوتهن فيما عدا ما يضطر فيه الخروج مثل موت الأبوين. وقد خرجت عائشة إلى بيت أبي بكر في مرضه الذي مات فيه كما دل عليه حديثه معها في عطيته التي كان أعطاها من ثمرة نخلة وقوله لها وإنما هو اليوم مال وارث رواه في الموطأ. وكن يخرجن من للحج وفي بعض الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مقر النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره قائم مقام بيوته في الحضر، وأبت سودة أن تخرج إلى الحج والعمرة بعد ذلك. وكل ذلك مما يفيد إطلاق الأمر في قوله)وقرن في بيوتكن(.

ولذلك لما مات سعد بن أبي وقاص أمرت عائشة أن يمر عليها بجنازته في المسجد لتدعو له، أي لتصلي عليه. رواه في الموطأ.

وقد أشكل على الناس خروج عائشة إلى البصرة في الفتنة التي تدعى: وقعة الجمل، فلم يغير عليها ذلك كثير من جلة الصحابة منهم طلحة والزبير. وأنكر ذلك عليها بعضهم مثل: عمار بن ياسر، وعلي بن أبي طالب، ولكل نظر في الاجتهاد. والذي عليه المحققون مثل أبي بكر بن العربي أن ذلك كان منها عن اجتهاد فإنها رأت أن في خروجها إلى البصرة مصلحة للمسلمين تسعى بين فريقي الفتنة بالصلح فإن الناس تعلقوا بها وشكوا إليها ما صار إليه من عظم لفتنة ورجوا بركتها أن تخرج فتصلح بين الفريقين وظنوا أن الناس يستحيون منها فتأولت لخروجها مصلحة تفيد إطلاق القرار المأمور به في قوله تعالى)وقرن في بيوتكن(يكافئ الخروج للحج. وأخذت

بقوله تعالى)وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا(ورأت أن الأمر بالإصلاح يشملها وأمثالها ممن يرجون سماع الكلمة فكان ذلك منها عن اجتهاد. وقد أشار عليها جمع من الصحابة بذلك وخرجوا معها مثل طلحة والزبير وناهيك بهما. وهذا من مواقع اجتهاد الصحابة التي يجب علينا حملها على أحسن المخارج ونظن بها أحسن المذاهب كقولنا في تقاتلهم في صفين وكاد أن يصلح الأمر ولكن أفسده دعاة الفتنة ولم تشعر عائشة إلا والمقاتلة قد جرت بين فريقين من الصحابة يوم الجمل. ولا ينبغي تقلد كلام المؤرخين على علاته فإن فيهم من أهل الأهواء ومن تلقفوا الغث والسمين. وما يذكر عنها رضي الله عنها: أنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى يبتل خمارها فلا ثقة بصحة سنده ولو صح لكان محمله أنها أسفت لتلك الحوادث التي ألجأتها إلى الاجتهاد في تأويل الآية.

)ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى(التبرج: إظهار المرأة محاسن ذاتها وثيابها وحليها بمرأى الرجال. وتقدم في قوله تعالى)غير متبرجات بزينة(في سورة النور.

وانتصب)تبرج الجاهلية الأولى(على المفعول المطلق وهو في معنى الوصف الكاشف أريد به التنفير من التبرج. والمقصود من النهي الدوام على الانكفاف عن التبرج وأنهن منهيات عنه. وفي تعريض بنهي غيرهن من المسلمات عن التبرج فإن المدينة أيامئذ قد بقي فيها نساء المنافقين وربما كن على بقية من سيرتهن في الجاهلية فأريد النداء على إبطال ذلك في سيرة المسلمات، ويظهر أن أمهات المؤمنين منهيات عن التبرج مطلقا حتى في الأحوال التي رخص للنساء التبرج فيها)في سورة النور(في بيوتهن لأن ترك التبرج كمال وتنزه عن الاشتغال بالسفاسف.

فنسب إلى أهل الجاهلية إذ كان قد تقرر بين المسلمين تحقير ما كان عليه أمر الجاهلية إلا ما أقره الإسلام.

والجاهلية: المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، وتأنيثها لتأويلها بالمدة. والجاهلية نسبة إلى الجاهل لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وقد تقدم عند قوله تعالى) يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية(في سورة آل عمران.

ووصفها ب)الأولى(وصف كاشف لأنها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها فهو كقوله تعالى)وأنه أهلك عاد الأولى(، وكقولهم: العشاء الآخرة، وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية. ومن المفسرين من جعلوا وصفوا مقيدا وجعلوا الجاهلية جاهلتين فمنهم من قال: الأولى هي ما قبل الإسلام وستكون جاهلية أخرى بعد الإسلام يعني حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله. ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم ولم يكن للنساء وازع ولا

لرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مخلفة أو مبالغا فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد.

صفحة : 3351

)وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله(أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم. وفي هذا مقمع لبعض المتصوفين الزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم تكاليف الشرعية.

وخص الصلاة والزكاة بالأمر ثم جاء المر عاما بالطاعة لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما، قال تعالى)إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر(وقد بيناه في سورة العنكبوت.

)إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[33](متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى)يا نساء النبي من يأت منكن(الآية. فإن موقع)إنما(يفيد ربط ما بعدها بما قبلها لأن حرف)إن(جزءا من)إنما(وحرف)إن(من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب كما ينه الشيخ عبد القاهر، فالمعنى أمركن الله بما أمر ونهاكن عما نهى لأنه أراد لكن تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.

والتعريف في)البيت(تعريف العهد وهو بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبيوت النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة فالمراد هنا بالبيت هنا بيت كل واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكل بيت من تلك البيوت أهله النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه صاحبة ذلك ولذلك جاء بعده قوله)واذكرن ما يتلى في بيوتكن(وضميرا الخطاب موجهان إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم على سنن الضمائر التي تقدمت. وإنما جيء بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب لأن رب كل بيت من بيوتهن وهو حاضر الخطاب إذ هو مبلغه. وفي هذا التغليب إيماء إلى أن هذا التطهير لهن لأجل مقام النبي صلى الله عليه وسلم لتكون قريناته مشابهات له في الزكاء والكمال، كما قال تعالى)والطيبات للطيبين(يعني أزواج النبي للنبي صلى الله

عليه وسلم، وهو نظير قوله في قصة إبراهيم)رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت(والمخاطب زوج إبراهيم وهو معها.
والرجس في الأصل: القذر الذي يلوث الأبدان، واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مرذولا مكروها كالجسم الملوث بالقذر. وقد تقدم في قوله تعالى)رجس من عمل الشيطان(في سورة العقود. واستعير التطهير لضد ذلك وهو تجنيب الذنوب والنقائص كما يكون الجسم أو الثوب طاهرا.
واستعير الإذهاب للإنجاء والإبعاد.
وفي التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمرا قدره إذ لا راد لإرادته.
والمعنى: ما يريد الله لكن مما أمركن ونهاكن إلا عصمتكن من النقائص وتحليتكن بالكمالات ودوام ذلك، أي لا يريد من ذلك مقتا لكن ولا نكاية. فالقصر قصر قلب كما قال تعالى)ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم(. وهذا وجه مجيء صيغة القصر ب)إنما(. والآية تقتضي أن الله عصم أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم من ارتكاب الكبائر وزكى نفوسهن.
وأهل البيت: أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والخطاب موجه إليهن وكذلك ما قبله وما بعده لا يخالط أحدا شك في ذلك ولم يفه منها أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام هن المراد بذلك وأن النزول في شأنهن.

صفحة : 3352

وأما ما رواه الترمذي عن عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة قال: لما نزلت على النبي)إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره جللهم بكساء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وقال: هو حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة ولم يسمه الترمذي بصحة ولا حسن ووسمه بالغرابة. وفي صحيح مسلم عن عائشة خرج رسول الله غداة وعليه مرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله فقال:)إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(. وهذا أصرح من حديث الترمذي.
فمحمله أن النبي صلى الله عليه وسلم ألحق أهل الكساء بحكم هذه الآية وجعلهم أهل بيته كما ألحق المدينة بمكة في حكم

الحرمية بقوله إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم ما بين لابيتها . وتأول البيت على معنييه الحقيقي والمجازي يصدق ببيت النسب كما يقولون: فيهم البيت والعدد، ويكون هذا من محمل القرآن على جميع محامله غير المتعارضة كما أشرنا إليه في المقدمة التاسعة. وكأن حكمة تجليلهم معه بالكساء تقوية استعارة البيت بالنسبة إليهم تقريبا لصورة البيت بقدر الإمكان في ذلك الوقت ليكون الكساء بمنزلة البيت ووجود النبي صلى الله عليه وسلم معهم في الكساء كما هو في حديث مسلم تحقيق لكون ذلك الكساء منسوبا إليه وبهذا يتضح أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم هن آل بيته بصريح منسوب إليه بذلك الآية وأن فاطمة وابنيها وزوجها مجعولون أهل بيته بدعائه أو بتأويل الآية على محاملها. ولذلك هم أهل بيته بدليل السنة وكل أولئك قد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا بعضه بالجعل الإلهي وبعضه بالجعل النبوي ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم سلمان منا أهل البيت . وقد أستوعب ابن كثير روايات كثيرة من هذا الخبر مقتضية أن أهل البيت يشمل فاطمة وعليا وحسنا وحسينا. وليس فيها أن هذه الآية نزلت فيهم إلا حديثا واحدا نسبه ابن كثير إلى الطبري ولم يوجد في تفسيره عن أم سلمة أنها ذكر عندها علي ابن أبي طالب فقالت: فيه نزلت)إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(وذكرت خبر تجليله مع فاطمة وابنيه بكساء وذكر في مصحح طبعة تفسير ابن كثير أن في متن ذلك اختلافا في جميع النسخ ولم يفصله المصحح .

وقد تلقف الشيعة حديث الكساء فغصبوا وصف أهل البيت وقصروه على فاطمة وزوجها وابنيهما عليهم الرضوان، وزعموا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لسن من أهل البيت. وهذه مصادمة للقرآن بجعل هذه الآية حشوا بين ما خوطب به أزواج النبي. وليس في لفظ حديث الكساء ما يقتضي قصر هذا الوصف على أهل الكساء إذ ليس في قوله هؤلاء أهل بيتي صيغة قصر وهو كقوله تعالى)إن هؤلاء ضيفي(ليس معناه ليس لي ضيفا غيرهم، وهو يقتضي أن تكون هذه الآية مبتورة عما قبلها وما بعدها. ويظهر أن هذا التوهم من زمن عصر التابعين وأن منشأ قراءة هذه الآية على الألسن دون اتصال بينها وبين ما قبلها وما بعدها. ويدل لذلك ما رواه المفسرين عن عكرمة أنه قال: من شاء بأهلية أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه قال أيضا: ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان يصرخ بذلك في السوق. وحديث عمر بن أبي سلمة صريح في أن الآية نزلت قبل أن يدعو النبي الدعوة لأهل الكساء وأنها نزلت في بيت أم سلمة.

وأما ما وقع من قول عمر بن أبي سلمة أن أم سلمة قالت: وأنا معهم يا رسول الله؟.. فقال: أنت على مكانك وأنت على خير. فقد وهم فيه الشيعة فظنوا أنه منعها من أن تكون من أهل بيته، وهذه جهالة لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد ما سألته من الحاصل لأن الآية نزلت فيها وفي ضرائرها فليست هي بحاجة إلى إلحاقها بهم، فالدعاء لها بأن يذهب الله عنها الرجس ويطهرها دعاء بتحصيل أمر حصل وهو مناف بآداب الدعاء كما حرره شهاب الدين القرافي في الفرق بين الدعاء المأذون فيه والدعاء الممنوع منه، فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم تعليما لها. وقد وقع في بعض الروايات أنه قال لأم سلمة: إنك من أزواج النبي . وهذا أوضح في المراد بقوله إنك على خير .

صفحة : 3353

ولما استجاب الله دعاءه كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلق أهل البيت على فاطمة وعلي وابنيهما، فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت)إما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
واللام في قوله)ليذهب(لام جر تزاد للتأكيد غالبا بعد مادتي الإرادة والأمر، وينتصب الفعل المضارع بعدها ب)أن(مضمرة إضمارا واجبا، ومنه قوله تعالى)وأمرنا لنسلم لرب العالمين(وقول كثير:
أريد لأنسى حبها فكأنما تمثل لي
ليلى بكل مكان وعن النحاس أن بعض القراء سماها لام أن وتقد قوله تعالى)يريد الله ليبين لكم(في سورة النساء.
وقوله)أهل البيت(نداء للمخاطبين من نساء النبي صلى الله عليه وسلم مع حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وقد شمل كل من ألحق النبي صلى الله عليه وسلم بهن بأنه من أهل وهم: فاطمة وابناها وزوجها وسلمان لا يعدو هؤلاء.
)واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة كان لطيفا خبيرا[34](لما ضمن الله لهن العظمة أمرهن بالتحلي بأسبابها والتملي من آثارها والتزود من علم الشريعة بدراسة القرآن ليجمع ذلك اهتداءهن في أنفسهن ازدياد في الكمال والعلم، وإرشادهن الأمة إلى ما فيه صلاح لها من علم النبي صلى الله عليه وسلم.

وفعل)اذكرن(يجوز أن يكون من الذكر بضم الذال وهو التذكر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن مما ينزل فيها وما يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبين فيها من الدين، ويشمل معنى كنائيا ثانيا وهو تذكر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهن موقع تلاوة القرآن.

ويجوز أن يكون من الذكر بكسر الذال، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي بلغنه للناس بان يقرأن القرآن ويبلغن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته. وفيه كناية عن العمل به. والتلاوة: القراءة، أي إعادة كلام مكتوب أو محفوظ، أي ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم. و من آيات الله والحكمة بيان لما يتلى فكل ذلك متلو، وذلك القرآن، وقد بين المتلو بشيئين: هما آيات الله، والحكمة، فآيات الله يعم القرآن كله، لأنه معجز عن معارضته فكان آية على أنه من عند الله.

وعطف)الحكمة(عطف خاص على عام وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاما شرعية قال تعالى بعد ذكر الأحكام التي في سورة الإسراء)ذلك مما أوحي إليك من ربك من الحكمة(، أي ما يتلى في بيوتهن عند نزوله، أو بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم ودراستهن القرآن، ليتجدد ما علمنه ويلمع لهن من أنواره ما هو مكنون لا ينضب معينه، وليكن مشاركات في تبليغ القرآن وتواتره ولم يزل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم يرجعون إلى أمهات المؤمنين في كثير من أحكام النساء ومن أحكام الرجل مع أهله، كما في قوله تعالى)اذكرني عند ربك(، أي بلغ خبر سجني وبقائي فيه.

وموقع مادة الذكر هنا موقع شريف لتحملها هذه المحامل ما لا يتحمله غيرها إلا بإطناب. قال ابن العربي: إن الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل إليه فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من تبعه أن يبلغه إلى غيره ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة.

وقد تكرر ذكر الحكمة في القرآن في مواضع كثيرة وبيناه في سورة البقرة وتقدم قريبا اختلاف القراء في كسر باء)بيوت(أو ضمنها.

وجملة)أن الله كان لطيفا خبيرا(تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحامل الأمر كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المسدى إليه.

وفيما وجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدى النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث إلى ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه، ولأن الخبير ، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تاما لا خلل ولا غفلة.

فمعنى الجملة أنه تعالى موصوف باللطف والعلم كما دل عليه فعل)كان(فيشمل عموم لطفه بهن وعلمه بما فيه نفعهن.

)إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما[35](ويجوز أن تكون هذه الجملة استئنافا بيانيا لأن قوله)ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين(بعد قوله)لستن كأحد من النساء(يثير في نفوس المسلمات أن يسألن: أهن مأجورات على ما يعملن من الحسنات وأهن مأمورات بمثل ما أمرت به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أم تلك خصائص لنساء النبي عليه لصلاة والسلام، فكان في هذه الآية ما هو جواب لهذا السؤال على عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال أمثالها أو بحال أضدادها.

ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا ورد بمناسبة ما ذكر من فضائل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن جرير والواحدي عن قتادة أن نساء دخلن على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فقلن: قد ذكركن الله في القرآن ولم يذكرنا بشيء ولو كان فينا خير لذكرنا فأنزل الله هذه الآية.

وروى الترمذي والطبراني أن أم عمارة الأنصارية أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية وقال الواحدي: قال مقاتل بلغني أن أسماء بنت عميص لما رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء النبي فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قيل: لا، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار. قال: ومم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بالخير كما تذكر الرجال فأنزل الله هذه الآية .

فالمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأما ذكر الرجال فللإشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصا بالرجال إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء، فشريعة الإسلام بعكس ذلك الأصل في شرائعها أن تعم الرجال والنساء إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين، ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية فأغنى عن التنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنة، ولعل هذا هو وجه تعدد الصفات المذكورة لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة.

وسلك مسلك الإطناب في تعداد الأوصاف لأن المقام لزيادة البيان لاختلاف أفهام الناس في ذلك، على أن في هذا التعداد إيماء إلى أصول التشريع كما سنبينه في آخر تفسير هذه الآية.

وبهذه الآثار يظهر اتصال هذه الآيات بالتي قبلها.

وبه يظهر وجه تأكيد هذا الخبر بحرف)إن(لدفع شك من شك في هذا الحكم من النساء.

والمراد ب)المسلمين والمسلمات(من اتصف بهذا المعنى المعروف شرعا. والإسلام بالمعنى الشرعي هو شهادة أن لا أله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، ولا يعتبر إسلاما إلا مع الإيمان. وذكر المؤمنين والمؤمنات بعده للتنبيه على أن الإيمان هو الأصل، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى)فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون(في البقرة.

)والقانتين والقانتات(: أصحاب القنوت وهو الطاعة لله وعبادته، وتقدم آنفا)ومن يقنت منكن لله ورسوله(.

صفحة : 3355

)والصادقين والصادقات(: من حصل منهم صدق القول وهو ضد الكذب والصدق كله حسن والكذب لا خير فيه إلا لضرورة. وشمل ذلك الوفاء بما يلتزم به من أمور الديانة كالوفاء بالعهد والوفاء بالنذر، وتقدم من قوله تعالى)أولئك الذين صدقوا(في سورة البقرة.

و ب)الصابرين والصابرات(: أهل الصبر. والصبر محمود في ذاته لدلالته على قوة العزيمة، ولكن المقصود هنا هو تحمل المشاق في أمور الدين وتحمل المكاره في الذب عن الحوزة الإسلامية، وتقدم مستوفى عند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا(آخر سورة آل عمران.

وب)الخاشعين والخاشعات(: أهل الخشوع، وهو الخضوع لله والخوف منه وهو يرجع إلى معنى الإخلاص بالقلب فيما يعمله المكلف. ومطابقة ذلك لما يظهر من آثاره على صاحبه. والمراد: الخشوع لله بالقلب والجوارح، وتقدم في قوله تعالى)وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين(في سورة البقرة.

وأما الصائمون والصائمات فظاهر ما في الصيام من تخلق برياضة النفس لطاعة الله إذ يترك المرء ما هو جبلي من الشهوة تقربا إلى الله، أي برهانا على أن رضى الله عنه ألذ من أشد اللذات ملازمة له.

وأما حفظ الفروج فلأن شهوة الفرج شهوة جبلية وهي في الرجل أشد وقد أثنى الله على الأنبياء بذلك فقال في يحيى) وحصورا(وقال في مريم)التي أحصنت فرجها(، وهذا الحفظ له حدود سنتها الشريعة، فالمراد: حفظ الفروج على أن تستعمل في نهي عنه شرعا، وليس المراد: حفظها عن الاستعمال أصلا وهو الرهبنة فإن الرهبنة مدحوضة في الإسلام بأدلة متواترة المعنى.

وأما الذاكرون والذاكرات فهو وصف صالح لأن يكون من الذكر بكسر الذال وهو ذكر اللسان كالذي في قوله)فاذكروني أذكركم(وقوله في الحديث ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن الذكر بضمنها كما تقدم آنفا في قوله)واذكرن ما يتلى في بيوتكن(، والذي في قوله)ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم(.

ومفعول و)الحافظات(محذوف دل عليه ما قبله من قوله) والحافظين فروجهم(، وكذلك مفعول و)الذاكرات(.

وقد اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلها.

فالإسلام يجمع قواعد الدين الخمس المفروضة التي هي أعمال، والإيمان يجمع الاعتقادات القلبية المفروضة وهو شرط أعمال الإسلام كلها قال تعالى)ثم كان من الذين آمنوا(.

والقنوت يجمع الطاعات كلها مفروضها ومسنونها، وترك المنهيات والإقلاع عنها ممن هو مرتكبها، وهو معنى التوبة، فالقنوت هو تمام الطاعة، فهو خير مساو للتقوى. فهذه جوامع شرائع المكلفين في أنفسهم.

والصدق يجمع كل عمل هو في موافقة القول والفعل للواقع في القضاء والشهادة والعقود والالتزامات وفي المعاملات بالوفاء بها وترك الخيانة، ومطابقة الظاهر للباطن في المراتب كلها. ومن الصدق صدق الأفعال.

والصبر جامع لما يختص بتحمل المشاق من الأعمال كالجهاد والحسبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومناصحة المسلمين

وتحمل الأذى في الله، وهو خلق عظيم هو مفتاح أبواب محامد الأخلاق والآداب والإنصاف من النفس.
والخشوع: الإخلاص بالقلب الظاهر، وهو الانقياد وتجنب المعاصي. ويدخل في الإحسان وهو المفسر في حديث جبريل)أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(. ويدخل تحت ذلك جميع القرب والنوافل فإنها من آثار الخشوع، ويدخل فيه التوبة مما أقترفه المرء من الكبائر إذ لا يتحقق الخشوع بدونها.
والتصدق يحتوي جميع أنواع الصدقات والعطيات وبذل المعروف والإرفاق.
والصوم: عبادة عظيمة فلذلك خصصت بالذكر من أن الفروض منه مشمول للإسلام في قوله)إن المسلمين والمسلمات(ويفي صوم النافلة، فالتصريح بذكر الصوم تنويه به وفي الحديث قال تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به(.
وحفظ الفروج أريد به حفظها عما ورد الشرع بحفظها عنه، وقد اندرج في هذا جميع أحكام النكاح وما يتفرع عنها وما هو وسيلة لها.
وذكر الله كما علمت له محملان: أحدهما: ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته.

صفحة : 3356

قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكر الله فيمن عنده ، ففي قوله) وذكرهم الله(إيماء إلى أن الجزاء من جنس عملهم فدل على أنهم كانوا في شيء من ذكر الله وقد قال تعالى)فاذكروني أذكركم(وقال فيما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . وشمل ما يذكر عقب الصلوات ونحو ذلك من الأذكار .
والمحل الثاني: الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه كما قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى)والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفر لذنوبهم(فدخل فيه التوبة ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلها من القتل وأخذ أموال الناس والحرابة والإضرار بالناس في المعاملات. ومما يوضح شموله بالشرائع كلها

تقييده ب)كثيرا(لأن المرء إذا ذكر الله كثيرا فقد استغرق ذكره المحملين جميع ما يذكر الله عنده.
ويراعى في الاتصاف بهذه الصفات أن تكون جارية على ما حدده الشرع في تفاصيلها.
والمغفرة: عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، وقد تقدمت في قوله تعالى)وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين(في سورة الأعراف. واعلم أن عطف الصفات بالواو المفيد مجرد التشريك في الحكم دون حرفي الترتيب: الفاء وثم، شأنه أن يكون الحكم المذكور معه ثابتا لكل واحد اتصف بوصف من الأوصاف المشتق منها موصوفه لأن أصل العطف بالواو أن يدل على مغايرة المعطوفات في الذات، فإذا قلت: وجدت فيهم الكريم الشجاع والشاعر كان المعنى: أنك وجدت فيهم ثلاثة أناس كل واحد منهم موصوف بصفة من المذكورات. وفي الحديث فإن منهم المريض والضعيف وذا الحاجة أي أصحاب المرض والضعف والحاجة، وبخلاف العطف بالفاء كقوله تعالى)والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا(فإن أوصاف المذكورة في تلك الآية ثابتة لموصوف واحد. ولهذا فحق جملة)أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما(أن تكون خبرا في المعنى عن كل واحد من المتعاطفات فكأنه قيل: إن المسلمين أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيم، إن المسلمات أعد الله لهن مغفرة وأجرا عظيما، وهكذا. والفعل الواقع في جملة الخبر وهو فعل)أعد(قد تعدى إلى مفعول ومعطوف على المفعول فصحة الإخبار به عن كل واحد من الموصوفات والمتعاطفات باعتبار المعطوف على مفعوله واضحة لأن الأجر العظيم يصلح لأن يعطى لكل واحد ويقبل التفاوت فيكون لكل من أصحاب تلك الأوصاف أجره على اتصافه به ويكون أجر بعضهم أوفر من أجر بعض آخر.
وأما صحة الإخبار بفعل)أعد(عن كل واحد من المتعاطفات باعتبار المفعول به)مغفرة(فيمنع منه ما جاء من دلائل الكتاب والسنة الدالة على أن الذنوب الكبيرة التي فرطت لا يضمن غفرانها للمذنبين إلا بشرط التوبة من المذنب وعدا من الله بقوله)كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم(. وألحقت السنة بموجبات المغفرة الحج المبرور والجهاد في سبيل الله وأشياء أخرى.
والوجه في تفسير ذلك عندي أن تحمل كل صفة من هذه الصفات على عدم ما يعارضها مما يوجب التبعة، أي سلامته من التلبس بالكبائر حملا أراعي فيه الجري على سنن القرآن في مثل مقام الثناء والتنويه بالمسلمين من اعتبار حال كمال الإسلام كقوله

)أولئك هم المؤمنون حقا(فإنا لا نجد التفصيل بين أحوال المسلمين إلا في مقام التحذير من الذنوب.

صفحة : 3357

والمرجع في هذا المحمل إلى بيان الإجمال بالجمع بين أدلة الشريعة. وقد سكت جمهور المفسرين عن التصدي لبيان مفاد هذا الوعد ولم يعرج عليه فيما رأيت سوى صاحب الكشاف فجعل معنى قوله)أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما(: إن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما، وجعل واو العطف بمعنى المعية، وجعل العطف على اعتبار المغايرة بين المتعاطفات في الأوصاف لا المغايرة بالذوات، وهذا تكلف وصنع باليد وتبعه البيضوي وكثير. ويعكر عليه أن يجمع تلك الصفات لا يوجب المغفرة لأن الكبائر لا تسقطها عن صاحبها إلا التوبة إلا أن يضم إلى كلامه ضميمة وهي حمل)الذاكرين الله والذاكرات(على معنى المتصفين بالذكر اللساني والقلبي، فيكون الذكر القلبي شاملا للتوبة كما في قوله تعالى)والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم(فيكون الذين جمعوا هذه الخصال العشر قد حصلت لهم التوبة، غير أن هذا الاعتذار عن الزمخشري لا يتجاوز هذه الآية فإن في القرآن آيات كثيرة مثلها يضيق عنها نطاق هذا الاعتذار، منها قوله تعالى)وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا(إلى قوله)أولئك يجزون الغرفة بما صبروا(الآية في سورة الفرقان.

)وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا[36](معظم الروايات على أن هذه الآية نزلت في شأن خطبه زينب بنت جحش على زيد بن حارثة. قال ابن عباس: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على فتاه زيد ابن حارثة زينب بنت جحش فاستنكفت وأبت وأبي وأخوها عبد الله بن جحش فأنزل الله تعالى)وما كان لمؤمن ولا مؤمنة(الآية، فتابعته ورضيت لأن تزويج زينب يزيد بن حارثة كان قبل الهجرة فتكون هذه الآية نزلت بمكة ويمون موقعها في هذه السورة التي هي مدنية إلحاقا لها بها لمناسبة أن تكون مقدمة لذكر تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب الذي يظهر أن وقع بعد وقعة الأحزاب وقد علم الله ذلك من قبل فقدر له الأحوال التي حصلت من بعد.

ووجود واو العطف في أول الجملة يقتضي أنها معطوفة على كلام نزل قبلها من سورة أخرى لم نقف على تعيينه ولا تعيين السورة التي كانت الآية فيها، وهو عطف جملة على جملة لمناسبة بينهما.

وروي عن جابر بن زيد أن سبب نزول هذه الآية أن وأم كلثوم بتت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هجران من النساء وأنها وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد بن حارثة، بعد أن طلق زيد زينب بنت جحش كما سيأتي قريبا، فكرهت هي وأخوها ذلك وقالت: إنما أردت رسول الله فزوجني عبده ثم رضيت هي وأخوها بعد نزول الآية.

والمناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فلما أعقب ذلك بما في الاتصاف بما هو من أمر الله مما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوى في ذلك بين النساء والرجال، أعقبه بيان أ، طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به ويعتزم الأمر هي طاعة واجبة وأنها ملحقة بطاعة الله وأن صنفي الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية.

وإقحام)كان(في النفي أقوى دلالة على انتفاء الحكم لأن فعل) كان(لدلالته على الكون، أي الوجود يقتضي نفيه انتفاء الكون الخاص برمته كما تقدم غير مرة.

والمصدر المستفاد من)أن تكون لهم الخيرة(في محل رفع اسم)كان(المنفية وهي)كان(التامة.

وقضاء الأمر تبيينه والإعلام به قال تعالى)وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع)مصبحين(.

صفحة : 3358

ومعنى)إذا قضى الله ورسوله(إذا عزم أمره ولم يجعل للمأمور خيارا في الامتثال، فهذا الأمر هو الذي يجب على المؤمنين امتثاله احترازا من نحو قوله للذين وجدهم يأبرون نخلهم: لو تركتموها لصلحت، ثم قالوا: تركناها فلم تصلح، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم . ومن نحو ما تقدم في أول السورة من همه بمصالحة الأحزاب على نصف ثمر المدينة ثم رجوعه عن ذلك لما استشار السعدين، ومن نحو أمره يوم بدر بالنزول بأدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن النذر: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى

ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأي، فنهض بالناس. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر وكان صائما فلما غربت الشمس قال لبلال: انزل فاجدح لنا، فقال يا رسول الله لو أمسيت. ثم قال: انزل فاجدح لنا، فقال: يا رسول الله لو أمسيت إن عليك نهارا ثم قال: انزل فأجدح، فنزل فجدح له في الثالثة فشرب . فمراجعة بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل أنه علم أن الأمر غير عزم.

وذكر اسم الجلالة هنا للإيماء إلى أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة لله قال تعالى)ومن يطع الرسول فقد أطاع الله(. فالمقصود إذا قضى رسول الله أمرا كما تقدم في قوله تعالى)فإن لله خمسه وللرسول(في سورة الأنفال إذ المقصود: فإن للرسول خمسه.

والخيرة: اسم مصدر تخير كالطيرة اسم مصدر تطير. قيل ولم يسمع في هذا الوزن غيرهما، وتقدم في قوله تعالى)ما كان لهم الخيرة(في سورة القصص.

و)من(تبعيضية. و)أمرهم(بمعنى شأنهم وهو جنس، أي أمورهم. والمعنى: ما كان اختيار بعض شؤونهم ملكا يملكونه بل يتعين عليهم اتباع ما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا خيرة لهم.

و)مؤمن ومؤمنة(لما وقعا في حيز النفي يعمان جميع المؤمنين والمؤمنات فلذلك جاء ضميرها ضمير جمع لأن المعنى: ما كان لجمعهم ولا لكل واحد منهم الخيرة كما هو شأن العموم.

وقرأ الجمهور)أن تكون(بمثناة فوقية لأن فاعله مؤنث لفظا. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام وابن عمر بتحتية لأن الفاعل المؤنث غير الحقيقي يجوز في فعله التذكير ولا سيما إذا وقع الفصل بين الفعل وفاعله.

وقوله)ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا(تذييل تعميم للتحذير من مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام سواء فيما هو فيه الخيرة أم كان عن عمد للهوى في المخالفة.

)وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشيه(و)إذ(اسم زمان مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة. وهو من الذكر بضم الذال الذي هو بمعنى التذكر فلم يأمره الله بأن يذكر ذلك للناس إذ لا جدوى في ذلك لكنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرتب عليه قوله)وتخفي في نفسك ما الله مبديه(. والمقصود بهذا الاعتبار بتقدير الله الأسباب

لمسبباتها لتحقيق مراده سبحانه، ولذلك قال عقبه:)فلما قضى زيدا منها وطرا زوجناكها(إلى قوله)وكان أمر الله مفعولا(وقوله)وكان أمر الله قدرا مقدورا(.
وهذا مبدأ المقصود من الانتقال إلى حكم إبطال التبني ودحض ما بناه المنافقون على أساسه الباطل بناء على كفر المنافقين الذين غمزوا مغامز في قضية تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج حليلة ابنه وقد نهى عن تزوج حلائل الأبناء. ولذلك ختمت هذه القصة وتوابعها بالثناء على المؤمنين بقوله)هو الذي يصلي عليكم(الآية. وبالإعراض عن المشركين والمنافقين وعن أذاهم.

صفحة : 3359

وزيد هو المعني بقوله تعالى)للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه(، فالله أنعم عليه بالإيمان والخلاص من أيدي المشركين بأن يسر دخوله في ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم والرسول عليه الصلاة والسلام أنعم عليه بالعتق والتبني والمحبة، ويأتي التصريح باسمه العلم إثر هذه الآية في قوله)فلما قضى زيد منها وطرا(وهو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي من كلب بن وبرة وبنو كلب من تغلب. كانت خيل من بني القين بن جسر أغاروا على أبيات من بني معن خرجت به إلى قومها تزورهم فسبقته الخيل المغيرة وباعوه في سوق بضم الحاء المهملة بناحية مكة فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته خديجة لرسول اله صلى الله عليه وسلم وزيد يومئذ ابن ثمان سنين وذلك قبل البعثة، فحج ناس من كلب فرأوا زيدا بمكة فعرفوه وعرفهم فأعلموا أباه ووصفوا موضعه وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب لفدائه فدخلا مكة وكلما النبي صلى الله عليه وسلم في فدائه فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم إليهما فعرفهما، فقال له النبي عليه لصلاة والسلام: اخترني أو اخترهما. قال زيدا: ما أنا بالذي اختار عليك أحدا فانصرف أبوه وعمه وطابت أنفسهما ببقائه، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك أخرجه إلى الحجر وقال: يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وارثه فصار ابنا للنبي صلى الله عليه وسلم على حكم التبني بالجاهلية وكان يدعى: زيد بن محمد.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أم أيمن مولاته فولدت له أسامة بن زيد وطلقها. ثم أن رسول اله صلى الله عليه وسلم زوجه زينب بنت جحش الأسدي حليف آل عبد شمس وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو يومئذ بمكة. ثم بعد أن الهجرة آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ولما بطل حكم التبني بقوله تعالى)وما جعل أدعياءكم أبناءكم(صار يدعى: حب رسول الله. وفي سنة خمس قبل الهجرة بعد غزوة الخندق طلق زيد بن حارثة زينب بنت جحش فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط وأمها البيضاء بنت عبد المطلب وولدت له زيد بن زيد ورقية ثم طلقها، وتزوج درة بنت أبي لهب، ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير.

وشهد زيد بدرا والمغازي كلها. وقتل في غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير على الجيش وهو ابن خمس وخمسون سنة.

وزوج زيد المذكورة في الآية هي زينب بنت جحش الأسدية وكان اسمها برة فلما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سماها زينب، وأبوها جحش من بني أسد بن خزيمة وكان أبوها حليفا لآل عبد شمس بمكة وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها زيد بن حارثة في الجاهلية ثم طلقها بالمدينة، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة خمس، وتوفيت سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة، فتكون مولودة سنة ثلاث وثلاثين قبل الهجرة، أي سنة عشرين قبل البعثة.

والإتيان بفعل القول بصيغة المضارع لاستحضار صورة القول وتكريره مثل قوله تعالى)يجادلنا في قوم لوط(وقوله)ويصنع الفلك(وفي ذلك تصوير لحث النبي صلى الله عليه وسلم زيدا إلى إمساك زوجه وأن لا يطلقها، ومعاودته عليه.

والتعبير عن زيد بن حارثة هنا بالموصول دون اسمه العلم الذي يأتي في قوله)فلما قضى زيد(ولما تشعر به من الصلة المعطوفة وهي)وأنعمت عليه(من تنزه النبي صلى الله عليه وسلم عن استعمال ولائه لحمله على تطليق زوجه، فالمقصود هو الصلة الثانية وهي)وأنعمت عليه(لأن المقصود منها أن زيدا أخص الناس به وأنه الرسول عليه الصلاة والسلام احرص على صلاحه وأنه أشار عليه بإمساك زوجه لصلاحها به، وأما صلة)أنعم الله عليه(فهي توطئة للثانية.

واعلم أن المأثور الصحيح في هذه الحادثة: أن زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين فلم تلد له فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلت عليه بسؤددها وغضت منه بولايته

فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها وجاء يعلم رسول الله بعزمه على ذلك لأنه تزوجها من عنده.

صفحة : 3360

وروي عن علي زين العابدين: أن الله أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه سينكح زينب بنت جحش. وعن الزهري: نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله زوجه زينب بنت جحش وذلك هو ما في نفسه. وذكر القرطبي أنه مختار بكر بن العلاء القشيري وأبي بكر بن العربي.

والظاهر عندي: أن ذلك كان في الرؤيا كما أرى أنه قال لعائشة أتاني بك الملك في المنام في سرقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك فأكشف فإذا هي أنت فأقول: أن يكن هذا من عند لله يمضه .

فقول النبي صلى الله عليه وسلم لزيد)أمسك عليك زوجك(توفية بحق النصيحة وهو أمر نصح وإشارة بخير لا أمر تشريع لأن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا المقام متصرف بحق الولاء والصحبة لا بصفة التشريع والرسالة، وأداء هذه الأمانة لا يتأكد أنه كان يعلم أن زينب صائرة زوجا له لأن علم النبي بما سيكون لا يقتضي إجراءه وإرشاده أو تشريعه بخلاف علمه أو ظنه فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن أبا جهل مثلا لا يؤمن ولم يمنعه ذلك أن يبلغه الرسالة ويعاوده الدعوة، ولأن رغبته في حصول شيء لا تقتضي إجراء أمره على حسب رغبته إن كانت رغبته تخالف ما يحمل الناس عليه، كما كان يرغب أن يقوم أحد يقتل عبد الله بن سعد بن أبي سرح قبل أن يسمع إعلانه بالتوبة من ارتداده حين جاء به عثمان بن عفان يوم الفتح تائبا.

ولذلك كله لا يعد تصميم زيد على طلاق زينب عصيانا للنبي صلى الله عليه وسلم لأن أمره في ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه. ولا يلزم أحدا المصير إلى إشارة المشير كما اقتضاه حديث بريرة مع زوجها مغيث إذ قال لها لو راجعته؟ فقالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: لا إنما أنا أشفع، قالت: لا حاجة لي فيه .

وقوله)أمسك عليك زوجك(يؤذن بأنه جواب عن كلام صدر من زيد بأن جاء زيدا مستشيرا في فراق زوجه، أو معلما بعزمه على فراقها.

)وأمسك عليك(معناه: لازم عشرتها، فالإمساك مستعار لبقاء الصحبة تشبيها للصاحب بالشيء الممسك باليد.

وزيادة)عليك(للدلالة)على(على الملازمة والتمكن مثل)أولئك على هدى من ربهم(أو لتضمن)أمسك(معنى احبس، أي ابق في بيتك زوجك، وأمره بتقوى الله تابع للإشارة بإمساكها، أي اتق الله في عشرتها كما أمر الله ولا تحد عن واجب حسن المعاشرة، أي اتق لله بملاحظة قوله تعالى)فإمساك بمعروف(.

وجملة)وتخفي في نفسك ما الله مبديه(عطف على جملة) تقول(. والإتيان بالفعل المضارع في قوله)وتخفي(للدلالة على تكرر إخفاء ذلك وعدم ذكره. والذي في نفسه علمه بأنه سيتزوج زينب وأن زيدا يطلقها وذلك سر بينه وبين ربه ليس مما يجب عليه تبليغه ولا مما للناس فائدة من علمه حتى يبلغوه، ألا ترى أنه لم يعلم عائشة ولا أباها برؤيا إتيان الملك بها في سرقة حرير إلا بعد أن تزوجها.

فما صدق)ما في نفسك(هو التزوج بزينب وهو الشيء الذي سيبديه الله لأن الله أبدى ذلك في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بها ولم يكن أحد يعلم أنه سيتزوجها ولم يبد الله شيئا غير ذلك فلزم أن يكون ما أخفاه في نفسه أمر يصلح للإظهار في الخارج، أي يكون من الصور المحسوسة.

وليست جملة)وتخفي في نفسك(حالا من الضمير في)تقول(كما جعله في الكشاف لأن ذلك مبني على توهم أن الكلام مسوق مساق العتاب على أن يقول كلاما يخالف ما هو مخفي في نفسه ولا يستقم له معنى. إذ يفضي إلى أن يكون اللائق به أن يقول له غير ذلك وهو ينافي مقتضى الاستشارة، ويفضي إلى الطعن في صلاحية زينب للبقاء في عصمة زيد، وقد استشعر هذا صاحب الكشاف فقال فإن قلت فماذا أراد الله منه أن يقول حين قال له زيد: اريد مفارقتها، وكان من الهجنة أن يقول له: أفعل فإني أريد نكاحها. قلت: كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك أو يقول أنت أعلم بشأنك حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته اه وهو بناء على أساس كونه عتابا وفيه وهن.

وجملة)وتخشى الناس(عطف على جملة)وتخفي في نفسك(، أي تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه.

صفحة : 3361

والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب الخشية إذ الخشية جنس مقول على أفراده بالتشكيك فليست هي خشية خوف إذ خشية النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخاف

أحد من ظهور تزوجه بزينب ولم تكن قد ظهرت أراجيف المنافقين بعد ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوسم من خبثهم وسوء طويتهم ما كان منهم في قضية الإفك، ولم تكن خشية تبلغ به مبلغ صرفه عما يرغبه بدليل أنه لم يتردد في تزوج زينب بعد طلاق زيد، ولكنها استشعار في النفس وتقدير لما سيرجفه المنافقون.

والتعريف في)الناس(للعهد، أي تخشى المنافقين، أي يؤذوك بأقوالهم.

وجملة)والله أحق أن تخشاه(معترضة لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو اعتراضية وليست واو الحال فمعنى الآية معنى قوله تعالى)فلا تخشوا الناس واخشون(. وحملها على معنى الحال هو الذي حمل كثيرا من المفسرين على جعل الكلام عتابا للنبي صلى الله عليه وسلم.

و)أحق(اسم تفضيل مسلوب المفاضلة فهو بمعنى حقيق، إذ ليس في الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس على خشية الله ولا ما يفيد تعارضا بين الخشيتين حتى يحتاج إلى ترجيح خشية الله على خشية الناس، والمعنى: والله حقيق بأن تخشاه.

وليس في هذا التركيب ما يفيد أنه قدم خشية الناس على خشية الله لأن الله لم يكلفه شيئا فعمل بخلافه.

وبهذا تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل إلا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيدا بإمساك زوجه وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوج زينب خفية أن يكون قولهم فتنة لضعفاء الإيمان كقوله للرجلين اللذين رأياه في الليل مع زينب فأسرعا خطاهما فقال على رسلكما إنما هي زينب. فكبر ذلك عليهما وقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم خشيت أن يقذف في قلوبكما .

فمقام النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة مقام الطبيب الناصح في بيمارستان يحوي أصنافا من المرضى إذا رأى طعاما يجلب لما لا يصلح ببعض مرضاه أن ينهي عن إدخاله خشية أن يتناوله من المرضى من لا يصلح ذلك بمرضه ويزيد في علته أو يفضي إلى انتكاسه.

وليس في قوله)وتخشى الناس(عتاب ولا لوم ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين. وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب وليس في سياق الكلام ما يقتضيه فأحسبهم مخطئين فيه ولكنه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين وتعليم له بأن يمضي في سبيله ويتناول ما أباح الله له ولرسله من تناول ما هو مباح من مرغوباتهم ومحباتهم إذا لم يصدهم شيء عن طاعة ربهم كما قال

تعالى)ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله(، وأن عليه ان يعرض عن قول المنافقين وعلى نحو قوله)لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين(، فهذا جوهر ما أشارت إليه الآية وليس فيها ما يشير إلى غير ذلك.

وقد رويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة، فلا تصغ ذهنك إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر زيدا بإمساك زوجه فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فأما أن يكون ذلك اختلافا من لقصاصين لتزيين القصة، وأما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم فتلفقة القصاص وهو الذي نجزم به. ومما يدل لذلك انك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثرا مسندا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى زيد أو إلى زينب أو إلى أحد من الصحابة رجالهم ونسائهم ولكنها قصص وأخبار وقيل وقال.

ولسوء فهم الآية كبر أمرها على بعض المسلمين واستفزت كثيرا من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب. وقد تصدى أبو بكر بن العربي في الأحكام لوهن أسانيدها وكذلك عياض في الشفاء.

صفحة : 3362

والآن نريد أن ننقل مجرى الكلام إلى التسليم بوقوع ما روي من الأخبار الواهية السند لكي لا نترك في هذه الآية مهواة لأحد.

ومجموع القصة من ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بيت زيد يسأل عنه فرأى زينب وقيل رفعت الريح ستار البيت فرأى النبي عليه الصلاة والسلام زينب فجأة على غير قصد فأعجبه حسنها وسبح لله وأن زينب علمت أنه وقعت منه موقع الاستحسان وأن زيدا علم ذلك وانه أحب أن يطلقها ليؤثر بها مولاه النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لما اخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال له:)أمسك عليك زوجك(وهو يود طلاقها في قلبه ويعلم أنها صائرة زوجا له .

وعلى تفاوت أسانيده في الوهن ألقي إلى الناس في القصة فانتقل غثه وسمينه، وتحمل خفه ورزينه، فأخذ منه كل ما وسعه فهمه ودينه. ولو كان كله واقعا لما كان فيه مغمز في مقام النبوة.

فأما رؤية زينب في بيت زيد إن كانت عن عمد فذلك أنه استأذن في بيت زيد فإن الاستئذان واجب فلا شك أنه رأى وجهها وأعجبته ولا أحسب ذلك لأن النساء لم يكن يسترن وجوههن قال تعالى)ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها(أي الوجه والكفين وزيد كان من أشد الناس اتصالا بالنبي، وزينب كانت ابنة عمته وزوج مولاه ومتبناه، فكانت مختلطة بأهله، وهو الذي زوجها زيدا، فلا يصح أن يكون ما رآها إلا حين جاء بيت زيد، وأن كانت الريح رفعت الستر فرأى من محاسنها وزينتها ما لم يكن يراه من قبل، فكذلك لا عجب فيه لأن رؤية الفجأة لا مؤاخذة عليها، وحصول الاستحسان عقب النظر الذي ليس بحرام أمر قهري لا يملك الإنسان صرفه عن نفسه، وهل استحسان ذات المرأة إلا كاستحسان الرياض والجنات والزهور والخيل ونحو ذلك مما سماه الله زينة إذا لم يتبعه النظار نظرة.

وأما ما خطر في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من مودة تزوجها فإن وقع فما هو بخطب جليل لأنه خاطر لا يملك المرء صرفه عن نفسه وقد علمت أن قوله)وتخشى الناس(ليس بلوم، وأن قوله)والله أحق أن تخشاه(ليس فيه لوم ولا توبيخ على عدم خشية الله ولكنه تأكيد لعدم الاكتراث بخشية الناس.

وإنما تظهر مجالات النفوس في ميادين الفتوة بمقدار مصابرتها على الكمال في مقاومة ما ينشأ عن تلك المرائي من ضعف في النفوس وخور العزائم وكفاك دليلا على تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المقام هو أفضل من ترسيخ قدمه في أمثاله أنه لم يزل يراجع زيدا في إمساك زوجه مشيرا عليه بما فيه خير له وزيد يرى ذلك إشارة ونصحا لا أمرا وشرعا.

ولو صح أن زيدا علم مودة النبي صلى الله عليه وسلم تزوج زينب فطلقها زيدا لذلك دون أمر من النبي عليه الصلاة والسلام ولا التماس لما كان عجبا فإنهم كانوا يؤثرون النبي صلى الله عليه وسلم على أنفسهم، وقد تنازل له دحية الكلبي عن صفية بنت حيي بعد أن صارت له في سهمه من مغانم خيبر، وقد عرض سعد بن الربيع على عبد الرحمان بن عوف أن يتنازل عن إحدى زوجتيه يختارها للمؤاخاة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهما.

وأما إشارة النبي عليه الصلاة والسلام على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة وهو يوقن أن إشارته لا تمتثل. والتخليط بين الحالتين تخليط بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث. وليس هذا من

خائنة الأعين، كما توهمه من لا يحسن، لأن خائنة الأعين المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.
ولي هو أيضا من الكذب لأن قول النبي عليه الصلاة والسلام لزيد)أمسك عليك زوجك واتق الله(لا يناقض رغبته في تزوجها وإنما ينقاضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يخفى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار. ومن حق المستشار أعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه فضلا على كون ما في هذه القصة إنما تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه لا يؤثر.

صفحة : 3363

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية)وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك(الآية.
قلت: أرادت أن رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في تزوج زينب أو إعلام الله إياه بذلك كان سرا في نفسه لم يطلع عليه أحدا إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد، وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد في قوله)أمسك عليك زوجك(. فما طلقها زيد ورام تزوجها علم ان المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع انه ليس في كتمه تعطيل شرع ولا نقص مصلحة فلو كان كاتما لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربه تعالى، ولكنه لما كان وحيا بلغه لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.
واعلم أن للحقائق نصابها، وللتصرفات موانعها وأسبابها، وأن الناس قد تمتلكهم العوائد، فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد، فإذا تفشت أحوال في عاداتهم استحسنوها ولو ساءت، وإذا ندرت المحامد دافعوها إذا رامت مداخلة عقولهم وشاءت، وكل ذلك من تحريف الفطرة عن وضعها، والمباعدة بين الحقائق وشرعها.
ولما جاء الإسلام أخذ يغزو تلك الجيوش ليقلعها من أقاصيها، وينزلها من صياصيها، فالحسن المشروع ما تشهد الفطرة لحسنه، والقبيح الممنوع الذي أماتته الشريعة وأمرت بدفنه.
)فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا[37](تفريع على جملة)وإذ تقول للذي أنعم الله عليه

وأنعمت عليه(الآية، وقد طوي كلام يدل عليه السياق، وتقديره: فلم يقبل منك ما أشرت عليه ولم يمسكها.
ومعنى)قضى(استوفى وأتم. واسم)زيد(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: فلما قضى منها وطرا، أي قضى الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه، فعدل عن مقتضى الظاهر للتنويه بشأن زيد. قال القرطبي قال السهيلي: كان يقال له زيد بن محمد فلما نزع عنه هذا الشرف حين نزل)ادعوهم لآبائهم(وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن سماه في القرآن، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم نوه غاية التنويه اه.
والوطر: الحاجة المهمة والنهمة قال النابغة:
فمن يكن قد قضى من خلة وطرا
فإنني منك قضـيت أوطـاري والمعنى: فلما استتم زيدا مدة معاشرة زينب فطلقها، أي فلما لم يبق له وطر منها.
ومعنى)زوجناكها(إذنا لك بأن تتزوجها، وكانت زينب أيما فتزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام برضاها. وذكر أهل السير: أنها زوجها إياه أخوها أبو أحمد بن الضرير واسمه عبد بن جحش فلما أمره الله بتزوجها قال لزيد بن حارثة: ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب علي، قال زيد: فجئتها فوليتها ظهري توقيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت: يا زينب أرسل رسول الله يذكرك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي وقامت إلى مسجدها وصلت صلاة الاستخارة فرضيت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فبنى بها. وكانت زينب تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن آباؤكن وزوجني ربي. وهذا يقتضي إن لم يتول أخوها أبو أحمد تزويجها فتكون هذه خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم عند الذين يشترطون الولي في لنكاح كالمالكية دون قول الحنفية. ولم يذكر في الروايات أن النبي عليه الصلاة والسلام أصدقها فعده بعض أهل السير من خصوصياته صلى الله عليه وسلم فيكون في تزوجها خصوصيتان نبويتان.
وأشار إلى حكمة هذا التزويج في إقامة الشريعة وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل زوجة دعيه، فلما أبطله الله بالقول إذ قال)وما جعل أدعياءكم أبناءكم(أكد إبطاله بالفعل حتى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالا فينبغي التنزه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوج بامرأة الدعي من أفضل الناس وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

والجمع بين اللام وكي توكيد للتعليل كأنه يقول: ليست العلة غير ذلك ودلت الآية على أن الأصل في الحكام التشريعية أن تكون سواء بين النبي صلى الله عليه وسلم والأمة حتى يدل دليل على الخصوصية.
وجملة)وكان أمر الله مفعولا(تذييل لجملة)زوجناكها(. وأمر الله يجوز أن يراد به من إباحة تزوج من كن حلائل الأدعياء، فهو معنى الأمر التشريعي فيه. ومعنى)مفعولا(أنه متبع ممتثل فلا ينزه أحد عنه، قال تعالى)قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق(.
ويجوز أن يراد الأمر التكويني وهو ما علم أنه يكون وقدر أسباب كونه، فيكون معنى)مفعولا(واقعا. والمر من إطلاق السبب على المسبب، والمفعول هو المسبب.
وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب من أمر الله بالمعنيين.
)ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا[38] الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا[39](استئناف لزيادة بيان مساواة النبي صلى الله عليه وسلم للأمة في إباحة تزوج مطلقة دعيه وبيان أن ذلك لا يخل بصفة النبوة لأن تناول المباحات من سنة الأنبياء قال تعالى)يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا(، وان النبي إذا رام الانتفاع بمباح لميل نفسه إليه ينبغي له أن يتناوله لئلا يجاهد نفسه فيما لم يؤمر بمجاهدة النفس فيه، لأن الأليق به أن يستبقي عزيمته ومجاهدته لدفع ما أمر بتجنبه.
وفي هذا الاستئناف ابتداء لنقض أقوال المنافقين: أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة ابنه.
ومعنى)فرض الله له(قدره، إذ أذنه بفعله. وتعدية فعل) فرض(باللام تدل على هذا المعنى بخلاف تعديه بحرف)على(كقوله)قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم(.
والسنة: السيرة من عمل أو خلق يلازمه صاحبه. ومضى القول في هل السنة اسم جامد أو مصدر عند قوله تعالى)قد خلت من قبلكم سنن(في سورة آل عمران، وعلى الأول فانتصاب)سنة الله(هنا على أنه اسم وضع في موضع المصدر لدلالته على معنى فعل ومصدر. وقال في الكشاف كقولهم: تربا وجندلا، أي في الدعاء، أي

ترب تربا. وأصله: ترب له وجندل له. وجاء على مراعاة الأصل قول المعري:

تمنت قويقا والسراة حيالها تراب لها

من أينق وجمال ساق مساق التعجب المشوب بغضب.

وعلى الثاني فانتصاب)سنة(على المفعول المطلق وعلى كلا الوجهين فالفعل مقدر دل عليه المصدر أو نائبه. فالتقدير: سن الله سنته في الذين خلوا من قبل.

والمعنى: أن محمدا صلى الله عليه وسلم متبع سنة الأنبياء الذين سبقوه اتباعا لما فرض الله له كما فرض لهم، أي أباح.

والمراد ب)الذين خلوا(: الأنبياء بقرينة سياق لفظ النبي، أي الذين خلوا من قبل النبوة . وقد زاده بيانا قوله)الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه(، فالأنبياء كانوا متزوجين وكان لكثير منهم عدة أزواج، وكان بعض أزواجهم أحب إليهم من بعضهن.

فإن وقفنا عند ما جاء في هذه الآية وما بينته الآثار الصحيحة فالعبرة بأحوال جميع الأنبياء.

وإن تلقينا بشيء من الإغضاء بعض الآثار الضعيفة التي ألصقت بقصة تزوج زينب كان داود عليه السلام عبرة بالخصوص فقد كانت له زوجات كثيرات وكان قد أحب أن يتزوج زوجة)أوريا(وهي التي ضرب الله لها مثلا بالخصم الذين تسوروا المحراب وتشاركوا بين يديه. وستأتي في سورة ص~، وقد ذكرت القصة في سفر الملوك. ومحل التمثيل بداود في أصل انصراف رغبته إلى امرأة لم تكن حلالا له فصارت حلالا له، وليس محل التمثيل فيما حف بقصة داود من لوم الله إياه على ذلك كما قال)وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه(الآية لأن ذلك منتف في قصة تزوج زينب.

وجملة)وكان أمر الله قدرا مقدورا(معترضة بين الموصوف والصفة إن كانت جملة)الذين يبلغون(صفة ل)الذين خلوا من قبل(أو تذييل مثل جملة)وكان أمر الله مفعولا(إن كانت جملة) الذين يبلغون(مستأنفة كما سيأتي، والقول فيه مثل نظيره المتقدم آنفا.

صفحة : 3365

والقدر بفتح الدال: إيجاد الأشياء على صفة مقصودة وهو مشتق من القدر بسكون الدال وهو الكمية المحددة المضبوطة، وتقدم في قوله تعالى)فسالت أودية بقدرها(في سورة الرعد وقوله)وما ننزله إلا بقدر معلوم(في سورة الحجر. ولما كان من لوازم هذا

المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم. ومنه حديث: كل شيء بقضاء وقدر، أي من الله.

واصطلح علماء الكلام: أن القدر اسم للإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، ويطلقونه على الشيء الذي تعلق به القدر وهو المقدور كما في هذه الآية، فالمعنى: وكان أمر الله مقدرا على حكمة أرادها الله تعالى من ذلك الأمر، فالله لما أمر رسوله عليه الصلاة السلام بتزوج زينب التي فارقها زيد كان عالما بأن ذلك لائق برسوله عليه الصلاة والسلام كما قدر لأسلافه من الأنبياء.

وفي قوله)الذين يبلغون(جيء بالموصول دون اسم الإشارة أو الضمير لما في هذه الصلة من إيماء إلى انتفاء الحرج عن الأنبياء في تناول المباح بأن الله أراد منهم تبليغ الرسالة وخشية الله بتجنب ما نهى عنه ولم يكفلهم إشقاق نفوسهم بترك الطيبات التي يريدونها، ولا حجب وجدانهم عن إدراك الأشياء على ما هي عليه من حسن الحسن وقبح القبيح، ولا عن انصراف الرغبة إلى تناول ما حسن لديهم إذ كان ذلك في حدود الإباحة، ولا كلفهم مراعاة أميال الناس ومصطلحاتهم وعوائدهم الراجعة إلى الحيدة بالأمور عن مناهجها فإن في تناولهم رغباتهم المباحة عونا لهم على النشاط في تبليغ رسالات الله، ولذلك عقب بقوله)ولا يخشون أحدا إلا الله(، أي لا يخشون أحدا خشية تقتضي فعل شيء أو تركه.

ثم أن جملة)الذين يبلغون(إلى آخرها يجوز أن تكون في موضع الصفة للذين خلوا من قبل، أي الأنبياء. وإذ قد علم أن النبي صلى الله عليه وسلم متبع ما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله علم أنه متصف بمضمون جملة)الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله(بحكم قياس المساواة، فعلم أن الخشية التي في قوله)وتخشى الناس(ليست خشية خوف توجب ترك ما يكرهه الناس أو فعل ما يرغبونه بحيث يكون الناس محتسبين على النبي عليه الصلاة والسلام ولكنها توقع أن يصدر من الناس وهم المنافقون ما يكرهه النبي عليه الصلاة والسلام ويدل لذلك قوله) وكفى بالله حسيبا(، أي الله حسيب الأنبياء لا غيره.

هذا هو الوجه في سياق تفسير هذه الآيات، فلا تسلك في معنى الآية مسلكا يفضي بك إلى توهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حصلت منه خشية الناس وان الله عرض به في قوله)ولا يخشون أحدا إلا الله(تصريحا بعد أن عرض به تلميحا في قوله)وتخشى الناس(بل النبي عليه الصلاة والسلام لم يكترث بهم وأقدم على تزوج زينب، فكل ذلك قبل نزول هذه الآيات التي ما نزلت إلا بعد

تزوج زينب كما هو صريح قوله)زوجناكها(ولم يتأخر إلى نزول هذه الآية.
وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار في قوله)وكفى بالله حسيبا(حيث تقدم ذكره لقصد أن تكون هذه الجملة جارية مجرى المثل والحكمة.
وإذ قد كان هذا وصف الأنبياء فليس في الآية مجال الاستدراك عليها بمسألة التقية في قوله تعالى)إلا تتقوا منهم تقاة(.
)ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما[40](استئناف للتصريح بإبطال أقوال المنافقين والذين في قلوبهم مرض وما يلقيه اليهود في نفوسهم من الشك.
وهو ناظر إلى قوله تعالى)وما جعل أدعياءكم أبناءكم(. والغرض من هذا العموم قطع توهم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ولد من الرجال تجري عليه أحكام النبوة حتى لا يتطرق الإرجاف والاختلاق إلى أن يتزوجهن من أيامي المسلمين أصحابه مثل أم سلمة وحفصة.
و)من رجالكم(وصف ل)أحد(، وهو احتراس لأن النبي صلى الله عليه وسلم أبو بنات. والمقصود: نفي أن يكون أبا لأحد من الرجال في حين نزول الآية لأنه كان ولد له أولاد أو ولدان بمكة من خديجة وهم الطيب والطاهر أو هما اسمان لواحد والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صبيانا ولم يكن منهم موجود حين نزول الآية.

صفحة : 3366

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها إذ ليس ذلك بمقصود. ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنى الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.
وإضافة)رجال(إلى ضمير المخاطبين والعدول عن تعريفه باللام لقصد توجيه الخطاب إلى الخائضين في قضية تزوج زينب إخراجا للكلام في صيغة التغليط والتغليظ.
وأما توجيهه بأنه كالاحتراز عن أحفاده وانه قال)من رجالكم(وأما الأحفاد فهم من رجاله ففيه سماجة وهو أن يكون في الكلام توجيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم بريء من المخاطبين اعني

المنافقين وليس بينه وبينهم الصلة الشبيهة بصلة الأبوة الثابتة بطريقة لحن الخطاب من قوله تعالى)وأزواجه أمهاتكم(كما تقدم.
واستدراك قوله)ولكن رسول الله(لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة فذكروا بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبي مع أمته.
والواو الداخلة على)لكن(زائدة و)لكن(عاطفة ولم ترد)لكن(في كلام العرب عاطفة إلا مقترنة بالواو كما صرح به المرادي في شرح التسهيل. وحرف)لكن(مفيد الاستدراك.
وعطف صفة)خاتم النبيين(على صفة)رسول الله(تكميل وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم وإيماء إلى أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه.
وإذا قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبي كان كونه خاتم النبيين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوءة لأجل ختم النبوة به كان ذلك غضا فيه دون سائر الرسل وذلك ما لا يريده الله به. ألا ترى أن الله لما أراد قطع النبوة من بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام صرف عيسى عن التزوج.
فلا تجعل قوله)وخاتم النبيين(داخلا في حيز الاستدراك لما علمت من أنه تكميل واستطراد بمناسبة إجراء وصف الرسالة عليه. وببيان الحكمة يظهر حسن موقع التذييل بجملة)وكان الله بكل شيء عليما(إذ يظهر حكمته فيما قدره من الأقدار كما في قوله تعالى)جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس(إلى قوله)ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم(.
والآية نص في أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده في البشر لأن النبيين عام فخاتم النبيين هو خاتمهم في صفة النبوة. ولا يعكر على نصية الآية أن العموم دلالته على الأفراد ظنية لأن ذلك لاحتمال وجود مخصص. وقد تحققنا عدم المخصص بالاستقراء.
وقد اجمع الصحابة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء وعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي فصار معلوما من الدين بالضرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأن محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله للناس كلهم. وهذا النوع في اختلاف بعضهم في ججية الإجماع إذ المختلف

في حجيته هو الإجماع المستند لنظر وأدلة اجتهادية بخلاف المتواتر المعلوم بالضرورة في كلام الغزالي في خاتمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد مخالفة لهذا على ما فيه من قلة تحرير. وقد حمل عليه ابن عطية حملة غير منصفة وألزمه إلزاما فاحشا ينزه عنه علمه ودينه فرحمة الله عليها.

صفحة : 3367

ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يثبت نبوة لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم وفي إخراجه من حظيرة الإسلام ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك إلا البابية والبهائية وهما نحلتان مشتقة ثانيتهما من الأولى. وكان ظهور الفرقة الأولى في بلاد فارس في حدود ستة مائتين وألف وتسربت إلى العراق وكان القائم بها رجلا من أهل شيراز يدعوه اتباعه السيد علي محمد كذا اشتهر اسمه، كان في أول أمره من غلاة الشيعة الأمامية. أخذ عن رجل من المتصوفين اسمه الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي الذي كان ينتحل التصوف بالطريقة الباطنية وهي الطريقة الملقاة عن الحلاج. وكانت طريقته تعرف بالشيخية، ولما اظهر نحلته علي محمد هذا لقب نفسه باب العلم فغلب عليه اسم الباب. وعرفت نحلته بالبابية واعى لنفسه النبوة وزعم أنه أوحي إليه بكتاب اسمه البيان وأن القرآن أشار إليه بقوله تعالى)خلق الإنسان علمه البيان(.
وكتاب البيان مؤلف بالعربية الضعيفة ومخلوط بالفارسية. وقد حكم عليه بالقتل سنة 1266 في تبريز.
وأما البهائية فهي شعبة من البابية تنسب إلى مؤسسها الملقب ببهاء الله واسمه ميرزا حسين علي من أهل طهران تتلمذ للباب بالمكاتبة وأخرجته حكومة شاه العجم إلى بغداد بعد قتل الباب. ثم نقلته الدولة العثمانية من بغداد إلى أدرنة ثم إلى عكا، وفيما ظهرت نحلته وهم يعتقدون نبوة الباب وقد التف حوله أصحاب نحلة البابية وجعلوه ليفة الباب فقام اسم لبهائية مقام اسم البابية فالبهائية هم البابية. وقد كان البهاء بني بناء في جبل الكرمل ليجعله مدفنا لرفات الباب وآل أمره إلى سجنته السلطنة العثمانية في سجن عكا فلبث في السجن سبع سنوات ولم يطلق من السجن إلا عند ما أعلن الدستور التركي فكان في عداد المساجين السياسيين الذين أطلقوا يومئذ فرحل منتقلا في أوربا وأمريكا مدة عامين ثم عامين ثم عاد إلى حيفا فاستقر بها إلى أن توفي سنة 1340 وبعد

موته نشأ شقاق بين أبنائه وإخوته فتفرقوا في الزعامة وتضاءلت نحلتهم.

فمن كان من المسلمين متبعا للبهائية أو البابية فهو خارج عن الإسلام مرتد عن دينه تجري عليه أحكام المرتد. ولا يرث مسلما ويرثه جماعة المسلمين ولا ينفعهم قولهم: إنا مسلمون ولا نطقهم بكلمة الشهادة لأنهم يثبتون الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم قالوا بمجيء رسول من بعده. ونحن كفرنا الغرابية من الشيعة لقولهم: بأن جبريل أرسل إلى علي ولكنه شبه له محمد بعلي إذ كان أحدهما أشبه بالآخر من الغراب بالغراب وكذبوا فبلغ الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهم أثبتوا الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم زعموه غير المعين من عند الله.

وتشبه طقوس البهائية طقوس الماسونية إلا أن البهائية تنتسب إلى التلقي من الوحي الإلهي ، فبذلك فارقت الماسونية وعدت في الأديان والملل ولم تعد في الأحزاب.

وانتصب)رسول الله(معطوفا على)أبا أحد من رجالكم(عطفا بالواو المقترنة ب)لكن(لتفيد رفع النفي الذي دخل على عامل المعطوف عليه.

وقرأ الجمهور)وخاتم النبيين(بكسر تاء)خاتم(على أنه اسم فاعل من ختم. وقرأ عاصم بفتح التاء على تشبيهه بالخاتم الذي يختتم به المكتوب في أن ظهوره كان غلقا للنبوة.

)يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله 1ذكرا كثيرا[41] وسبحوه بكرة وأصيلا[42](إقبال على مخاطبة المؤمنين بأن يشغلوا ألسنتهم بذكر الله وتسبيحه، أي أن يمسكوا عن مماراة المنافقين أو عن سبهم فيما يرجفون به في قضية تزوج زينب فأمر المؤمنين أن يعتاضوا عن ذلك بذكر الله وتسبيحه خيرا لهم، وهذا كقوله تعالى)فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا(أي خيرا من التفاخر بذكر آبائكم وأحسابكم، فذلك أنفع لهم وأبعد عن أن تثور بين المسلمين والمنافقين ثائرة فتنة في المدينة، فهذا من نحو قوله لنبيه)ودع أذاهم(ومن نحو قوله)ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم(، فأمروا بتشغيل ألسنتهم وأوقاتهم بما يعود بنفعهم وتجنب ما عسى أن يوقع في مضرة.

وفيه تسجيل على لمنافقين بأن خوضهم في ذلك بعد هذه الآية علامة على النفاق لأن المؤمنين لا يخالفون أمر ربهم.

والجملة استئناف ابتدائي متصل بما قبله للمناسبة التي أشرنا إليها.
والذكر: ذكر اللسان وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها.
والتسبيح يجوز أن يراد به الصلوات النوافل فليس عطف (وسبحوه(على)اذكروا الله(من عطف الخاص على العام.
ويجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون عطف)وسبحوه(على)اذكروا الله(من عطف الخاص على العام اهتماما بالخاص لأن معنى التسبيح التنزيه عما لا يجوز على الله من النقائص فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتجميد، ولأن في التسبيح إيماء إلى التبرؤ مما يقوله المنافقون في حق النبي صلى الله عليه وسلم فيكون في معنى قوله تعالى)ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم(فإن كلمة: سبحان الله، يكثر أن تقال في مقام التبرؤ من نسبة ما لا يليق إلى أحد كقول النبي صلى الله عليه وسلم سبحان الله المؤمن لا ينجس . وقول هند بنت عتبة حين أخذ على النساء البيعة)أن لا يزنين(: سبحان الله أتزني الحرة.
والبكرة: أول النهار. والأصيل: العشي الوقت الذي بعد العصر. وانتصبا على الظرفية التي يتنازعها الفعلان)اذكروا الله ... وسبحوه(.
والمقصود من البكرة والأصل إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المكنة لأن ذكر طرفي الشيء يكون كناية على استيعابه كقول طرفة:
لكالطول المرخى وثنياه باليد ومنه قولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلها، والرأس والعقب كناية الجسد كله، والظهر والبطن كذلك.
وقدم البكرة على الأصيل لأن البكرة أسبق من الأصيل لا محالة. وليس الأصيل جديرا بالتقديم في الذكر كما قدم لفظ)تمسون(في قوله في سورة الروم)فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون(لأن كلمة المساء تشمل أول الليل فقدم لفظ (تمسون(هنالك رعيا لاعتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام وليست كذلك كلمة الأصيل.
)هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما[43](تعليل للأمر بذكر الله وتسبيحه بأن ذلك مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاءالله على ذلك بأفضل منه من جنسه وهو صلاته وصلاة ملائكته. والمعنى: أنه يصلي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرا بكرة وأصيلا.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله)هو الذي يصلي عليكم(لإفادة التقوي وتحقيق الحكم. والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل)يصلي(من قول)ليخرجكم من الظلمات إلى النور(.

والصلاة: الدعاء والذكر بخير، وهي من الله الثناء. وأمره بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة ،أي اذكروه ليذكركم لقوله)فاذكروني أذكركم(وقوله في الحديث القدسي فإن ذكروني في نفسه ذكرتهم في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم .

وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين فيكون دعاؤهم مستجابا عند الله فيزيد الذاكرين على ما أعطاهم بصلاته تعالى عليهم.

ففعل)يصلي(مسند إلى الله والى ملائكته لأن حرف العطف يفيد تشريك المعطوف والمعطوف عليه في العامل، فهو عامل واحد له معمولان فهو يستعمل في القدر المشترك الصالح لصلاة الله تعالى وصلاة الملائكة الصادق في كل بما يليق به بحسب لوازم معنى الصلاة التي تتكيف بالكيفية المناسبة لمن أسندت إليه.

ولا حاجة إلى دعوى استعمال المشترك في معنييه على أنه لا مانع منه على الأصح، ولا إلى دعوى عموم المجاز. واجتلاب) يصلي(بصيغة المضارع لإفادة تكرر الصلاة وتجددها كلما تجدد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجددها بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم.

صفحة : 3369

وفي إيراد الموصول إشارة إلى أنه تعالى معروف عندهم بمضمون الصلة بحسب غالب الاستعمال: فأما لأن المسلمين يعلون على وجه الأجمال أنهم لا يأتهم خير لا من جانب الله تعالى فكل تفصيل لذلك الإجمال دخل في علمهم، ومنه أنه يصلي عليهم ويأمر ملائكته بذلك، وإما أن يكون قد سبق لهم علم بذلك تفصيلا من قبل:فبعض آيات القرآن كقوله تعالى)والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض (فقد علم المسلمون أن استغفار الملائكة للمؤمنين بأمر من الله تعالى لقوله تعالى)ما من شفيع إلا من بعد أذنه(، والدعاء لأحد الشفاعة له، على أن جملة صلة الموصول أن ملائكته يصلون على المؤمنين. وذلك معلوم من آيات كثيرة، وقد يكون ذلك بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين فيما قبل نزول هذه الآية، ويؤيد هذا المعنى قوله بعده)وكان بالمؤمنين رحيما(كما يأتي قريبا.

واللام في قوله)ليخرجكم(متعلقة ب)يصلي(. فعلم أن هذه الصلاة جزاء عاجل حاصل وقت ذكرهم وتسبيحهم.
والمراد بالظلمات: الضلالة، وبالنور: الهدى، وبإخراجهم من الظلمات: دوام ذلك والاستزادة منه لأنهم لما كانوا مؤمنين كانوا قد خرجوا من الظلمات إلى النور)ويزيد الله الذين اهتدوا هدى(.
وجملة)وكان بالمؤمنين رحيما(تذييل.
ودل بالإخبار عن رحمته بالمؤمنين بإقحام فعل)كان(وخبرها لما تقتضيه)كان(من ثبوت ذلك الخبر له تعالى تحقيقه وأنه شأن من شؤونه المعروف بها في آيات كثيرة.
ورحمته بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم لأنها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف.
)تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما[44](أعقب الجزاء العاجل الذي أنبأ عنه قوله)هو الذي يصلي عليكم وملائكته(بذكر جزاء آجل وهو ظهور أثر الأعمال التي عملوها في الدنيا وأثر الجزاء الذي عجل لهم عليها من الله في كرامتهم يوم يلقون ربهم.
فالجملة تكملة للتي قبلها لإفادة صلاة الله وملائكته واقعة في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة.
والتحية: الكلام الذي يخاطب به عند ابتداء الملاقاة إعرابا عن السرور باللقاء من دعاء ونحوه. وهذا الاسم في الأصل مصدر حياه، إذا قال له: أحياك الله، أي أطال حياتك. فسمى به كلام المعرب عن ابتغاء الخير للملاقى أو الثناء عليه لأن غلب أن يقولوا: أحياك الله عند ابتداء الملاقاة فأطلق اسمها على كل دعاء وثناء يقال عند الملاقاة. وتحية الإسلام: سلام عليك أو السلام عليكم، دعاء بالسلامة والأمن، أي من المكروه لأن السلامة أحسن ما يبتغى في الحياة. فإذا أحياه الله ولم يسلمه كانت الحياة ألما وشرا، ولذلك كانت تحية المؤمنين يوم القيامة السلام بشارة بالسلامة مما يشاهده الناس من الأهوال المنتظرة. وكذلك تحية أهل الجنة فيما بينهم تلذذا باسم ما هم فيه من السلامة من أهوال أهل النار، وتقدم في قوله)وتحيتهم فيها سلام(في سورة يونس.
وإضافة التحية إلى ضمير المؤمنين من إضافة اسم المصدر إلى مفعوله، أي تحية يحيون بها.
ولقاء الله: الحضور إلى حضرة قدسه للحساب في المحشر. وتقدم تفصيل الكلام عليها عند قوله تعالى)واعلموا أنكم ملاقوه(في سورة البقرة. وهذا اللقاء عام لجميع الناس كما قال تعالى)فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه(فميز الله المؤمنين يومئذ بالتحية كرامة لهم.

وجملة)وأعد لهم أجرا كريما(حال من ضمير الجلالة، أي يحييهم يوم يلقونه وقد أعد لهم أجرا كريما. والمعنى: ومن رحمته بهم أن بدأهم بما فيه بشارة بالسلامة وقد أعد لهم أجرا كريما إتماما لرحمته بهم.

والأجر: الثواب. والكريم: النفيس في نوعه، وقد تقدم عند قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل. والأجر الكريم: نعيم الجنة.

)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا[45] وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا[46](

صفحة : 3370

هذا النداء الثالث للنبي صلى الله عليه وسلم فإن الله لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بأزواجه وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة مقداره وبين له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمم السالفة.

وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد. ومبشر. ونذير. وداع إلى الله. وسراج منير. فهذه الأوصاف ينطوي إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة.

والشاهد: المخبر عن حجة المدعي ودفع دعوى المبطل، فالرسول صلى الله عليه وسلم شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها ويشهد ببطلان ما ألصق بها وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنة، قال تعالى)مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(. وفي حديث الحشر يسأل كل رسول هو بلغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته ... الحديث.

ومحمد صلى الله عليه وسلم شاهد أيضا على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته وشاهد عليهم في عرصات القيامة، قال تعالى)وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل. وفي حديث الحوض ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي. فيقال لي: أنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول تبا وسحقا لمن أحدث بعدي يعني: أحدثوا الكفر وهم أهل الردة كما في بعض روايات الحديث إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى

الله عليه وسلم بوصف كونه رسولا لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتما للشرائع ومتمما لمراد الله من بعثة الرسل.
والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبي صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل.
وقدمت البشارة على النذارة لأن النبي صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.
والنذير: مشتق من لإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبي عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عنه دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.
وانتصب)شاهدا(على الحال من كاف الخطاب وهي حال مقدرة، أي أرسلناك مقدرا أن تكون شاهدا على الرسل والأمم في الدنيا والآخرة. ومثل سيبويه للحال المقدرة بقوله: مررت برجل معه صقر صائدا به.
وجيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإدارة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي الآتي بخبر حلول العدو بديار القوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال)إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد(للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع؛ وهذا لا يؤديه الا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر. وفي الصحيح: أن رسول الله لما أنزل عليه)وأنذر عشيرتك الأقربين(خرج حتى صعد الصفا فنادى يا صباحاه كلمة ينادي بها من يطلب النجدة فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فهذا يشير إلى تمثيل الحالة التي استخلصها بقوله)فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد(من معنى التقريب.

وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسم التقوى فإن المنهيات متضمنة مفاسد فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل.

والداعي إلى الله هو الذي يدعو لناس إلى ترك عبادة غير الله ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله. وأصل دعاه إلى فلان: أنه دعاه إلى الحضور عنده. يقال: أدع فلانا إلي. ولما علم أن الله تعالى منزه من جهة يحضرها الناس عنده تعين أن معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره كما يقولون: أبو مسلم الخرساني يدعو إلى الرضى من آل البيت فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم.

وزيادة)بأذنه(ليفيد أن الله أرسله داعيا إليه ويسر له الدعاء إليه مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره وهو ما كان استشعره النبي صلى الله عليه وسلم في مبدأ الوحي من الخشية إلى أن أنزل عليه)يا أيها المدثر قم فأنذر(، ومثله قوله تعالى لموسى)لا تخف إنك أنت الأعلى(، فهذا إذن خاص وهو الإذن بعد الإحجام المقتضي للتيسير، فأطلق اسم الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل. ونظيره قوله تعالى خطابا لعيسى عليه السلام)وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني(وقوله حكاية عن عيسى) فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله(.

وقوله)وسراجا منيرا(تشبيه بليغ بطريقة الحالية وهو طريق جميل، أي أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله من الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبه بالنور فناسبه السراج المنير. وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفا فهو كالفذلكة وكالتذييل.

ووصف السراج ب)منيرا(مع أن الإنارة من لوازم السراج هو كوصف الشيء بالوصف المشتق من لفظه في قوله: شعر شاعر، وليل أليل لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف به الخاص فإن هدى النبي صلى الله عليه وسلم هو أوضح الهدى. وإرشاد أبلغ إرشاد.

روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه في الكلام على سورة الفتح عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أن هذه الآية التي في القرآن)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا(قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح أو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح أو فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا اه.

وقول عبد الله بن عمرو في التوراة يعني بالتوراة: أسفار التوراة وما معها من أسفار الأنبياء إذ لا يوجد مثل ذلك فيما رأيت من الأسفار الخمسة الأصلية من التوراة. وهذا الذي حدث به عبد الله بن عمرو ورأيت مقاربه في سفر النبي أشعياء من الكتب المعبر عنها تغليبا وهي الكتب المسماة بالعهد القديم؛ وذلك في الإصحاح الثاني والأربعين منه بتغيير بقليل أحسب أنه من اختلاف الترجمة أو من تفسيرات بعض الأحبار وتأويلاتهم، ففي الإصحاح الثاني والأربعين منه هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، وفتيلة خامدة لا تطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم لنفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة، أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر .

صفحة : 3372

وإليك نظائر صفته التي في التوراة من صفاته في القرآن)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا(نظيرها هذه الآية) وحرزا للأميين( )هو الذي بعث في الأميين رسولا(سورة الجمعة أنت عبدي ورسولي)الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب(سورة الكهف سميتك المتوكل)وتوكل على الله(سورة الأحزاب ليس بفظ غليظ)ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك(سورة آل عمران ولا صخاب في الأسواق)واغضض من صوتك(سورة لقمان ولا يدفع السيئة بالسيئة)ادفع بالتي هي أحسن(سورة فصلت ولكن يعفو ويصفح)فاعف عنهم واصفح(سورة العقود ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء

بأن يقولوا: لا إله إلا الله)اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا(سورة المائدة ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا)ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(في سورة البقرة في ذكر الذين كفروا مقابلا لذكر المؤمنين في قوله قبله)هدى للمتقين(الآية .

ولنذكر هنا ما في سفر أشعياء ونقحم فيه بيان مقابلة كلماته بالكلمات التي جاءت في حديث عبد الله بن عمرو.

جاء في الإصحاح الثاني والأربعين من سفر أشعياء: هو ذا عبدي أنت عبدي الذي أعضده مختاري ورسولي الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح ليس بفظ ولا يرفع ولا غليظ ولا يسمع في الشارع صوته ولا صخاب في الأسواق قصبة مرفوضة لا يقصف ولا يدفع السيئة بالسيئة وفتيلة خامدة لا يطفأ يعفو ويصفح إلى الأمان يخرج الحق وحرزا لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء وتنتظر الجزائر شريعته للأميين أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك سميتك المتوكل وأحفظك ولن يقبضه الله واجعلك عهدا للشعب أرسلناك شاهدا ونورا للأمم مبشرا لنفتح عيون العمي ونفتح به أعينا عميا لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن وآذانا صما الجالسين في الظلمة وقلوبا غلفا ومجدي لا أعطيه لآخر بأن يقولوا لا إله إلا الله .

)وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا [47](عطف على جملة)إنا أرسلناك(عطف الإنشاء على الخبر لا محالة وهي أوضح دليل على صحة عطف الإنشاء على الخبر إذ لا يتأتى فيها تأويل مما تأوله المانعون لعطف الإنشاء على الخبر وهم الجمهور والزمخشري والتفتزاني مما سنذكره إن شاء الله عند قوله تعالى) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله(إلى قوله)وبشر المؤمنين(في سورة الصف، فالجملة المعطوف عليها إخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أرسله متلبسا بتلك الصفات الخمسة. وهذا أمر له بالعمل بصفة المبشر، فلاختلاف مضمون الجملتين عطفت هذه على الأولى.

والفضل: العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطية. فالفضل كناية عن العطية أيضا لأنه لا يكون فضلا إلا إذا كان زائدا على العطية. والمراد أن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم قال تعالى :)للذين احسنوا الحسنى وزيادة(.

ووصف)كثيرا(مستعار للفائق في نوعه. قال ابن عطية : قال لي أبي رضي الله عنه : هذه أرجى آية عندي في كتاب الله لان الله

قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا. وقد بين الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله)والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير(فالآية التي في هذه السورة خبر والآية التي في حم عسق تفسير لها اه.

)ولا 'تطع الكافرين والمنفقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا[48](جاء في مقابلة قوله)وبشر المؤمنين(بقوله)ولا تطع الكافرين والمنافقين(تحذيرا له من موافقتهم فيما يسألون منه وتأيدا لفعله معهم حين استأذنه المنافقون في الرجوع عن الأحزاب فلم يأذن لهم فنهي عن الإصغاء إلى ما يرغبونه فيترك ما احل له من التزوج، أو فيعطي الكافرين من الأحزاب ثمر النخل صلحا أو نحو ذلك والنهي مستعمل في معنى الدوام على الانتهاء.

صفحة : 3373

وعلم من مقابلة أمر التبشير للمؤمنين بالنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين أن الكافرين والمنافقين هم متعلق الإنذار من قوله) ونذيرا(لأن وصف)بشيرا(قد أخذ متعلقه فقد صار هذا ناظرا إلى قوله)ونذيرا(.

وقوله)ودع أذاهم(يجوز أن يكون فعل)دع(مرادا به أن لا يعاقبهم فيكون)دع(مستعملا في حقيقته وتكون إضافة أذاهم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي دع أذاك إياهم. ويجوز أن يكون) دع(مستعمله مجازا في عدم الاكتراث وعدم الاهتمام فيما يقولونه مما يؤدي ويكون إضافة أذاهم من إضافة المصدر إلى فاعله، أي لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك فإنك أجل من الاهتمام بذلك، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. واكثر المفسرين اقتصرو ا على هذا الاحتمال الأخير. والوجه : الحمل على كلا المعنيين، فيكون الأمر بترك أذاهم صادقا بالإعراض عما يؤذون به النبي صلى الله عليه وسلم من أقوالهم وصادقا بالكف عن الإضرار بهم، أي أن يترفع النبي صلى الله عليه وسلم عن مؤاخذتهم على ما يصدر منه في شأنه، وهذا إعراض عن أذى خاص لا عموم له، فهو بمنزلة المعرف بلام العهد، فليست آيات القتال بناسخه له.

وهذا يقتضي انه يترك أذاهم ويكلهم إلى عقاب اجل وذلك من معنى قوله)شاهدا(لأنه يشهد عليهم بذلك كقوله)فتولى عنه حتى حين وأبصرهم(.

والتوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الله. وقد تقدم عند قوله تعالى)فإذا عزمت فتوكل على الله(في سورة آل عمران وقوله) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين(في سورة العقود، أي أعتمد على الله في تبليغ الرسالة وفي كفايته إياك شر عدوك، فهذا ناظر إلى قوله)وداعيا إلى الله(وقوله)وكفى بالله وكيلا(تذييل لجملة) وتوكل على الله(.

والمعنى: فإن الله هو الوكيل الكافي في الوكالة، أي المجزي من توكل عليه ما وكله عليه فالباء تأكيد، وتقدم قوله)وكفى بالله وكيلا(في سورة النساء. والتقدير: كفى الله. و)وكيلا(تمييز.

فقد جاءت هذه الجمل الطلبية مقابلة وناظرة للجمل الإخبارية من قوله)إنا أرسلناك شاهدا(إلى)وسراجا منيرا(فقوله)وبشر المؤمنين(ناظرا إلى قوله)ومبشرا(.

وقوله)ولا تطع الكافرين(ناظر إلى قوله)ونذيرا(لأنه جاء في مقابلة بشارة المؤمنين كما تقدم.

وقوله)ودع أذاهم(ناظر إلى قوله شاهدا كما علمت. وقوله)وتوكل على الله(ناظر إلى قوله)وداعيا إلى الله(. وأما قوله)وسراجا منيرا(فلم يذكر له مقابل في هذه المطالب إلا انه لما كان كالتذييل للصفات كما تقدم ناسب أن يقابله ما هو تذييل للمطالب، وهو قوله)وكفى الله وكيلا(. وهذا اقرب من بعض ما في الكشاف من وجوه المقابلة ومن بعض ما للآلوسي فانظرهما واحكم.

)يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا [49](جاءت هذه الآية تشريعا لحكم المطلقات قبل البناء بهن أن لا تلزمهن عدة بمناسبة حدوث طلاق زيد بن حارثة زوجه زينب بنت جحش لتكون الآية مخصصة لآيات العدة من سورة البقرة فإن الأحزاب نزلت بعد البقرة وليخصص بها أيضا آية العدة في سورة الطلاق النازلة بعدها لئلا يظن ظان أن العدة من آثار العقد على المرأة سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل. قال ابن العربي: وأجمع علماء الأمة على أن لا عدة على المرأة إذا يدخل بها زوجها لهذه الآية.

والنكاح: هو العقد بين الرجل والمرأة لتمون زوجها بواسطة وليها. وهو حقيقة في العقد لأن أصل النكاح حقيقة هو الضم والإلصاق فشبه عقد الزواج بالالتصاق والضم بما فيه من اعتبار انضمام الرجل والمرأة فصارا كشيئين متصلين. وهذا كما سمي كلاهما زوجا ولا يعرف في كلام العرب إطلاق النكاح على غير معنى العقد دون معنى الوطء ولذلك يقولون: نكحت المرأة فلانا، أي تزوجته كما يقولون :نكح فلان امرأة. وزعم كثير من مدوني في اللغة ان النكاح

حقيقة في إدخال شئ في أخر فأخذوا منه انه حقيقة في الوطء ودرج على ذلك الأزهري والجوهري والزمخشري، وهو بعيد،وعلى ما بنوه أخطأ المتنبي في استعماله إذ قال :

أنكحت صم حصاها خف يعملـه
تغشمرت بي إليك السهل والجبلا

صفحة : 3374

ولا حجة في كلامه ولذلك تأوله أبو العلاء المعري في معجز أحمد بأنه أراد جمعت بين صم الحصى وخف ليعملا وتعليق الحكم في العدة بالمؤمنات جرى على الغالب لأن نساء المؤمنين يومئذ لم يكن مؤمنات وليس فيهن كتابيات فينسحب هذا الحكم على الكتابية كما شملها حكم الاعتداد إذا وقع مسيسها بطرق القياس.

والمس والمسيس :كناية عن الوطء، كما سمي ملامسة في قوله)أو لامستم النساء(والعدة بكسر العين :هي في الأصل أسم هيئة من العد بفتح العين وهو الحساب فأطلقت العدة على الشيء المعدود، يقال: جاء عدة رجال، وقال تعالى)فعدة من أيام أخر(. وغلب إطلاق هذا اللفظ في لسان الشرع على المدة المحددة لانتظار المرأة زواجا ثانيا لأن انتظارها مدة معدودة الأزمان إما بالتعيين وإما بما يحدث فيها من طهر أو وضع حمل فصار أسم جنس ولذلك دخلت عليه)من(التي تدخل على النكرة المنفية لإفادة العموم،أي فما لكم عليهن من جنس العدة.

والخطاب فيه)لكم(للأزواج اللذين نكحوا المؤمنات وجعلت العدة لهم،أي لأجلهم لأن المقصد منها راجع إلى نفع الأزواج بحفظ أنسابهم ولأنهم يملكون مراجعة الأزواج مادمن في مدة العدة كما أشار إليه قوله تعالى)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(. وقوله)وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا (.ومع ذلك هي حق أوجبه الشرع فلو رام الزوج إسقاط العدة عن المطلقة لم يكن له ذلك لان ما تتضمنه العدة من حفظ النسب مقصد من أصول مقاصد التشريع فلا يسقط بالإسقاط.

ومعنى)تعتدونها(تعدونها عليهن،أي تعدون أيامها عليهن،كما يقال: اعتدت المرأة،إذا قضت أيام عدتها.

فصيغت الافتعال ليست للمطاوعة ولكنها بمعنى الفعل مثل :اضطر.ومحاولة حمل صيغة المطاوعة على معروف معناها تكلف.

ويشبه هذا من راجع المعتدة في مدة عدتها ثم طلقها قبل ان يمسها فأن المراجعة تشبه النكاح وليست عينه إذ لا تفتقر إلى إيجاب وقبول. وقد اختلف الفقهاء في اعتدادها من ذلك الطلاق

فقال مالك والشافعي في أحد قوليه وجمهور الفقهاء: إنها تنشئ عدة مستقبلة من طلقها ولا تبنى على عدتها التي كانت فيها لأن الزوج نقض تلك العدة بالمراجعة ولعل مالك نظر إلى أن المسيس بعد المراجعة قد يخفى أمره بخلاف البناء بالزوجة في النكاح فلعله أنما أوجب استئناف العدة لهذه التهمة احتياطا للأنساب. وقال عطاء بن أبي رباح والشافعي في أحد قوليه وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي والحسن وأبو قلابة وقتادة والزهري: تبني على عدتها الأولى التي راجعها فيها لأن طلاقه بعد المراجعة دون أن يمسها بمنزلة إرداف طلاق ثان على المرأة وهي في عدتها فأن الطلاق المردف لا اعتداد له بخصوصه. ونسب القرطبي إلى داود الظاهري انه قال: المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقها قبل ان يمسها أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلة لأنها مطلقة قبل الدخول بها أه. وهو غريب وكلام ابن حزم في المحلى صريح في إنها تبتدئ العدة فلعله من قول ابن حزم وليس مذهب داود،وكيف لو راجعها بعد يوم أو يومين من تطليقها فبماذا تعرف براءة رحمها.

وفاء التفريع في قوله)فمتعوهن(لأن حكم التمتيع مقرر من سورة البقرة في قوله)ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره(الخ. والمتعة:عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلقها. وقد تقدم قوله تعالى)لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين(فلذلك جيء بالأمر بالتمتيع مفرعا على الطلاق قبل المسيس.

وقد جعل الله التمتيع جبرا لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق وتقدم فى سورة البقرة أن المتعة حق للمطلقة سواء سمى لها صداق أم لم يسم بحكم آية سورة الأحزاب لأن الله أمر بالتمتيع للمطلقة قبل البناء مطلقا فكان عمومها في الأحوال كعمومها في الذوات،وليست آية البقرة بمعارضة لهذه الآية إذ ليس فيها تقييد بشرط يقتضي تخصيص المتعة بالتي لم يسم لها صداق لأنها نازلة في رفع الحرج عن الطلاق قبل البناء وقبل تسمية الصداق ثم أمرت بالمتعة لتينك المطلقتين فالجمع بين الآيتين ممكن.

والسراح الجميل:هو الخلي عن الأذى والإضرار ومنع الحقوق.

)يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك التي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات خالتك التي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين(نداء رابع خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في شأن خاص به هو بيان ما أحل له من الزوجات والسراري وما يزيد عليه وما لا يزيد مما بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل،ومما بعضه يتساوى فيه النبي عليه الصلاة والسلام مع الأمة وبعضه خاص به أكرمه الله بخصوصيته مما هو توسعه عليه،أو مما روعي في تخصيصه به علو درجته.

ولعل المناسبة لورودها عقب الآيات التي قبلها أنه لما خاض المنافقون في تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبناه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية من يحل للنبي تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون. ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله)وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي(الآية، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعا لتكون جامعه للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردد والاحتمال.

فأما تقرير ما هو مشروع فذلك من قوله تعالى)إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن(إلى قوله)وبنات خالاتك(، وأما تشريع ما لم يكن مشروعا فذلك من قوله)اللاتي هاجرن معك(إلى قوله)ولا أن تبدل بهن من أزواج(.

فقوله تعالى)إنا أحللنا لك أزواجك(خبر مراد به التشريع. ودخول حرف)إن(عليه لا ينافي إرادة التشريع إذ موقع)إن(هنا مجرد الاهتمام،ولاهتمام يناسب كلا من قصد الإخبار وقصد الإنشاء،ولذلك عطفت على مفعول)أحللنا(معطو فات قيدت بأوصاف لم يكن شرعها معلوما من قبل وذلك في قوله)وبنات عمك(وما عطف عليه باعتبار تقييدهن بوصف)اللاتي هاجرن معك(،وفي قوله)وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها(باعتبار تقيدها بوصف الإيمان وتقييدها ب)إن وهبت نفسها للنبي وأراد النبي أن يستنكحها(. هذا تفسير الآية على ما درج عليه المفسرون على اختلاف قليل بين أقوالهم.

وعندي: أن الآية امتنان وتذكير بنعمة على النبي صلى الله عليه وسلم. وتأخذ من الامتنان الإباحة ويؤخذ من ظاهر قوله)لا يحل لك النساء من بعد(الاقتصار على اللاتي في عصمته منهن وقت نزول الآية ولتكون هذه الآية تمهيدا لقوله تعالى)لا يحل لك النساء من بعد(الخ.

وسيجيء ما لنا في معنى قوله)من بعد(وما لنا في موقع قوله) إن أراد النبي أن يستنكحها(.
ومعنى)أحللنا لك(الإباحة له، ولذلك جاءت مقابلته بقوله عقب تعداد المحللات له)لا يحل لك النساء من بعد(.
وإضافة أزواج إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم تفيد أنهن الأزواج اللاتي في عصمته فيكون الكلام إخبارا لتقرير تشريع سابق ومسوقا مساق الامتنان،ثم هو تمهيد لما سيتلوه من التشريع الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم من قوله)اللاتي هاجرن معك(إلى قوله)لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج(. وهذا هو الوجه عندي في تفسير هذه الآية.
وحكى أبن الفرس عن الضحاك وابن زيد أن المعنى بقوله) أزواجك اللاتي آتيت أجورهن(أن الله احل أن يتزوج كل امرأة يصدقها مهرها فأباح له كل النساء،وهذا بعيد ن مقتضى إضافة أزواج إلي ضميره. وعن التعبير ب)آتيت أجورهن(بصيغة المضي. وأختلف أهل التأويل في محمل هذا الوجه مع قوله تعالى في آخر الآية)لا يحل لك النساء من بعد(.
)واللاتي آتيت أجورهن(صفه ل)أزواجك(، أي وهن النسوة اللاتي تزوجتهن على حكم النكاح الذي يعم الأمة فالماضي في قوله)آتيت أجورهن(مستعمل في حقيقته. وهؤلاء فيهن من هن من قراباته وهن القرشيات منهن:عائشة، وحفصة، وسودة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وفيهن من لسن كذلك وهن جويرية من بني المصطفى، وميمونة بنت الحارث من بني هلال، وزينب أم المساكين من بني هلال، وكانت يومئذ متوفاة، وصفية بنت حيي الإسرائيلية.
وعطف على هؤلاء نسوة أخر وهن ثلاث أصناف:

صفحة : 3376

الصنف الأول ما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه، أي مما أعطاه الله من الفيء وهو ما ناله المسلمون من العدو بغير قتال ولكن تركه العدو، أو مما أعطي للنبي صلى الله عليه وسلم مثل مارية القبطية أم أبنه إبراهيم فقد أفاءها الله عليه إذ وهبها إليه المقوقس صاحب مصر وإنما وهبها إليه هدية لمكان نبوته فكانت بمنزلة الفيء لأنها ما لوحظ فيها إلا قصد المسألة من جهة الجوار إذ لم تكون له مع الرسول صلى الله عليه وسلم سابق صحبة ولا معرفة والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتيسر غير مارية القطبية. وقيل أيضا: إنه تسرى جارية أخرى وهبت له زوجه زينب ابنة جحش ولم يثبت. وقيل أيضا: إنه تسرى ريحانة من سبي

قريضة اصطفاها لنفسه ولا تشملها هذه الآية لأنها ليست من الفيء ولكن من المغنم إلا أن يراد ب)مما أفاء الله عليك(المعنى الأعم للفيء وهو ما يشمل الغنيمة. وهذا الحكم يشركه فيه كثيرا من الأمة من كل من أعطاه أميره شيئا من القيء، كما قال تعالى)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(فمن أعطاه الأمير من هؤلاء الأصناف أمة من الفيء حلت له.

وقوله)مما أفاء الله عليك(وصف لما ملكت يمينك وهو هنا وصف كاشف لأن المراد به مارية القطبية، أو هي وريحانة إن ثبت أنه تسراها.

الصنف الثاني نساء من قريب قراباته صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه أو جهة أمه مؤمنات مهاجرات. وأغنى قوله)هاجرن معك(عن وصف الإيمان لأن الهجرة لا تكون إلا بعد الإيمان، فأباح الله للنبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من يشاء من نساء هذا الصنف بعقد النكاح المعروف فليس له أن يتزوج في المستقبل امرأة من غير هذا الصنف المشروط بشرط القرابة بالعمومة أو الخؤولة وشرط الهجرة. وعندي :أن الوصفين ببنات عمه وعماته وبنات خاله وخالاته، وبأنهن هاجرن معه غير مقصود بهما الاحتراز عمن لسن كذلك ولكنه وصف كاشف مسوق للتنويه بشأنهن.

وخص هؤلاء النسوة من عموم المنع تكريما لشأن القرابة والهجرة التي هي بمنزلة القرابة لقوله تعالى)والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا(. وحكم الهجرة انقضى بفتح مكة. وهذا الحكم يتجاذبه الخصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم والتعميم، لأمته الذين تكون لهم قرابة بالمرأة كهذه القرابة تزوج أمثالها، والمرأة التي لم تستوف هذا الوصف لا يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام تزوجها،وهو الذي درج عليه الجمهور،ويؤيده خبر روي عن أم هانئ بنت أبي طالب. وقال أبو يوسف: يجوز لرجال أمته نكاح أمثالها. وباعتبار عدم تقيد نساء الرسول صلى الله عليه وسلم بعدد يكون هذا الطلاق خاصا به دون أمته إذ لا يجوز لغيره تزوج أكثر من أربع.

وبنات عم النبي صلى الله عليه وسلم هن بنات أخوة أبيه مثل: بنات العباس وبنات أبي طالب وبنات أبي لهب. وأما بنات حمزة فإنهن بنات أخ من الرضاعة لا يحللن له وبنات عماته هن بنات عبد المطلب مثل زينب بنت جحش التي هي بنت أميمة بنت عبد المطلب.

وبنات خاله هن بنات عبد مناف بن زهره وهن أخوال النبي صلى الله عليه وسلم عبد يغوث ابن وهب أخو آمنة ولم يذكروا أن له

بنات، كما أني لم أقف على ذكر خالة لرسول الله فيما رأيت من كتب الأنساب والسير. وقد ذكر في الإصابة فريعة بنت وهب وذكروا هالة بنت وهب الزهرية إلا أنها لكونها زوجة عبد المطلب وابنتها صفية عمة رسول الله فقد دخلت من قبل في بنات عمه.

وإنما أفرد لفظ)عم(وجمع لفظ)عمات(لأن العم في استعمال كلام العرب يطلق على أخي الأب ويطلق على أخي الجد وأخي جد الأب وهكذا فهم يقولون: هؤلاء بنو عم أو بنات عم، إذا كانوا لعم واحد أو لعدة أعمام، ويفهم المراد من القرائن. قال الراجز انشده الأخفش :

ما برئت من ريبة وذم في حربنا إلا بنات العم وقال رؤبة بن العجاج :

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيرا معدما قالت وإن فأما لفظ)العمة(فإنه لا يراد به الجنس في كلامهم، فإذا قالوا: هؤلاء بنو عمة، أرادوا أنهم بنو عمة معنية، فجيء في الآية)عماتك(من قوله)بنات خالك(وجمع الخالة في قوله) وبنات خالاتك(.

صفحة : 3377

وقالت قوم: المراد ببنات العم وبنات العمات: نساء قريش، والمراد ببنات الخال: النساء الزهريات، وهو اختلاف نظري محض لا ينبني عليه عمل لأن النبي قد عرفت أزواجه.

وقوله)اللاتي هاجرن معك(صفه عائده إلى)بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك(كشأن الصفة الواردة بعد مفردات وهو شرط تشريع لم يكن مشروطا من قبل.

والمعية في قوله)اللاتي هاجرن معك(معية المقارنة في الوصف المأخوذ في فعل)هاجرن(فليس يلزم أن يكن قد خرجن مصاحبات له في طريقه إلى الهجرة.

الصنف الثالث: امرأة تهب نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم أي تجعل نفسها هبة له دون مهر، وكذلك كان النساء قبل الإسلام يفعلن مع عظماء العرب، فأباح الله للنبي أن يتخذها زوجه له بدون مهر إذا شاء النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فهذه حقيقة لفظ) وهبت(، فالمراد من الهبة: تزويج نفسها بدون عوض، أي بدون مهر، وليست هذه من الهبة التي تستعمل في صيغ النكاح إذا قارنها ذكر صداق لأن ذلك اللفظ مجاز في النكاح بقرينة ذكر الصداق ويصح اخذ النكاح به عندنا وعند الحنفية خلافا للشافعي.

فقوله)وامرأة(عطف على)أزواجك(. والتقدير: وأحللنا لك امرأة مؤمنة.
والتنكير في)امرأة(للنوعية. والمعنى: ونعلمك أنا أحللنا لك امرأة مؤمنة بقيد أن تهب نفسها لك وأن تريد أن تتزوجها فقوله) للنبي(في الموضعين إظهار في مقام الإضمار. والمعنى: إن وهبت نفسها لك وأردت أن تنكحها. وهذا تخصيص من عموم قوله)وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك(فإذا وهبت امرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وأراد نكاحها جاز له ذلك بدون ذينك الشرطين ولأجل هذا وصفت) امرأة(ب)مؤمنة(ليعلم عدك اشتراط عدا الإيمان. وقد عدة زينب خزيمة الهلالية وكانت تدعى بالجاهلية أم المساكين اللاتي وهبنا أنفسهن ولم تلبث عنده زينب هذه إلا قليلا فتوفيت وكان تزوجها سنة ثلاث من الهجرة فليست مما شملته الآية. ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج غيرها ممن وهبت نفسها إليه وهن: أم شريك بنت جابر الدوسية واسمها عزية، وخولة بنت حكيم عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسها فقالت عائشة: أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها للرجل، وامرأة أخرى عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم. روى ثابت البناني عن أنس قال جاءت امرأة إلى رسول الله فعرضت عليه نفسها فقالت :يا رسول الله ألك حاجة بي؟ فقالت ابنة أنس وهي تسمع إلى رواية أبيها ما أقل حياءها واسأوتاه واسواتاه. فقال أنس:هي خير منك رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها . وعن سهل بن سعد أن امرأة عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجبها. فقال رجل: يا رسول الله زوجنيها، إلى أن قال له، ملكناكها بما معك من القرآن فهذا الصنف حكمه خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ذلك أنه نكاح مخالف لسنة النكاح لأنة بدون مهر وبدون ولي.
وقد ورد أن النسوة اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم أربع هن: مميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية الملقبة أم المساكين، وأم شريك بنت جابر الأسدية أو العامرية، و خولة بنت حكيم بنت الأوقص السلمية. فأما الأوليان فتزوجهما النبي صلى الله عليه وسلم وهما من أمهات المؤمنين.

صفحة : 3378

ومعنى)وهبت نفسها للنبي(أنها ملكته نفسها تمليكا شبيها بملك اليمين ولهذا عطفت على)ما ملكت يمينك(وأردف بقوله)خلصتا

لك من دون المؤمنين(أي خاصة لك أن تتخذها زوجه بتلك الهبة، أي دون مهر وليس لبقية المؤمنين ذلك. ولهذا لما وقع في حديث سهل بن سعد المتقدم أن امرأة وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وعلم الرجل الحاضر أن النبي عليه الصلاة والسلام لا حاجة له بها سئل النبي عليه الصلاة والسلام أن يزوجه إياها علما منه بأن تلك الهبة لا مهر معها ولم يكن للرجل ما يصدقها إياه، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك فقال له: ما عندك ؟ قال: ما عندي شيء. قال: اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد فذهب ثم رجع فقال: لا والله ولا خاتم من حديد، ولمن هذا إزاري فلها نصفه. قال سهل: ولم يكن له رداء فقال النبي: وما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وأن لبسته لم يكن عليك منه شيء ثم قال له ماذا معك من القرآن؟ فقال: معي سورة كذا وسورة كذا لسور يعددها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ملكناكها بما معك من القرآن.

وفي قوله)إن وهبت نفسها للنبي(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إن وهبت نفسها لك. والغرض من هذا الظهار ما في لفظ النبي من تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة.

وقوله)إن أراد النبي أن يستنكحها(جملة معترضة بين جملة)إن وهبت(وبين)خالصة(وليس مسوقا للتقييد إذ لا حاجة إلى ذكر إرادة نكاحها فإن هذا معلوم من معنى الإباحة،وإنما جيء بهذا الشرط لدفع توهم أن يكون قبوله هبتها نفسها له واجبا عليه كما كان عرف أهل الجاهلية.و جوابه محذوف دل عليه ما قبله،والتقدير: إن أراد أن يستنكحها فهي حلال له،فهذا شرط مستقل و ليس شرطا في الشرط الذي قبله.

والعدول عن الإضمار في قوله)إن أراد النبي(بأن يقال: إن أراد أن يستنكحها لما في إظهار لفظ النبي من التفخيم و التكريم.

وفائدة الاحتراز بهذا الشرط الثاني إبطال عادة العرب في الجاهلية وهي أنهم كانوا إذا وهبت المرأة نفسها للرجل تعين عليه نكاحها و لم يجز له ردها فابطل الله هذا الالتزام بتخيير النبي عليه الصلاة والسلام في قبول هبة المرأة نفسها له وعدمه وليرفع التعيير عن المرأة الواهبة بأن الرد مأذون به.

والسين والتاء في)يستنكحها(ليستا للطلب بل هما لتأكيد الفعل كقول النابغة:

وهم قتلوا الطائى بالحجر عنوة أبا جابر فاستنكحوا أم جابـر أي بنو حن قتلوا أبا جابر الطائى فصارت

أم جابر المزوجة بأبي جابر زوجة بني حن، أي زوجة رجل منهم. وهي مثل السين والتاء في قوله)فاستجاب لهم ربهم(.
فتبين من جعل جملة)إن أراد النبي أن يستنكحها(معترضة أن هذه الآية لا يصح التمثيل بها لمسألة اعتراض الشرط على الشرط كما وقع في رسالة الشيخ تقي الدين السبكي المجعولة لاعتراض الشرط على الشرط وتبعه السيوطي من الفن السابع من كتاب الأشباه والنظائر النحوية، ويلوح من كلام صاحب الكشاف استشعار عدم صلاحية الآية لاعتبار الشرط في الشرط فأخذ يتكلف لتصوير ذلك.
وانتصب)خالصة(على الحال من)امرأة(، أي خالصة لك تلك المرأة، أي هذا الصنف من النساء. والخلوص معنى به عدم المشاركة، أي مشاركة بقية الأمة في هذا الحكم إذ مادة الخلوص تجمع معاني التجرد من المخالطة. فقوله)من دون المؤمنين(لبيان حال من ضمير الخطاب في قولة)لك(ما في الخلوص من الأجمال في نسبته. وقد دل وصف)امرأة(بأنها)مؤمنة(أن المرأة غير المؤمنة لا تحل للنبي علية الصلاة والسلام بهبة نفسها. ودل ذلك بدلالة لحن الخطاب أنة لا يحل للنبي صلى الله عليه وسلم تزوج الكتابيات بلة المشركات، وحكى إمام الحرمين في ذلك خلافا. قال أبن العربي: والصحيح عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميز علينا، فأن ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحضه فيه أكثر وإذا كان لا تحل له من لم تهاجر لنقصانها فضل الهجرة فأخرى أن لا تحل له الكتابية الحرة.
)قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم(جملة معترضة بين جملة)من دون المؤمنين(وبين قولة)لكيلا يكون عليك حرج(أو هي حال سببي من المؤمنين، أي حال كونهم قد علمنا ما نفرض عليهم.

صفحة : 3379

والمعنى: أن المؤمنين مستمر ما شرع لهم من قبل في أحكام الزواج وما ملكت أيمانهم، فلا يشملهم ما عين لك من الأحكام الخاصة المشروعة فيما تقدم آنفا، أي قد علمنا أن ما فرضناه عليهم في ذلك هو اللائق بحال عموم الأمة دون ما فرضناه لك خاصة.
)وما فرضنا عليهم(كوصل وصلته، وتعدية)فرضنا(بحرف) على(المقتضي للتكليف والإيجاب للإشارة إلى أن من شرائع

أزواجهم وما ملكت أيمانهم ما يودون أن يخفف عنك كن عدد الزوجات وإيجاب المهور والنفقات، فإذا سمعوا ما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من التوسعة في تلك الأحكام ودوا أن يلحقوا به في ذلك فسجل الله عليهم أنهم باقون على ما سبق شرعة لهم في ذلك. والإخبار بأن الله قد علم ذلك كناية عن بقاء تلك الإحكام لأن معناه أنا لم نفعل عن ذلك، أي لك نبطله بل عن علم خصصنا نبينا بما خصصناه به في ذلك الشأن، فلا يشمل ما أحللناه له بقية المؤمنين.

وظرفية)في(مجازية لأن المظروف هو الأحكام الشرعية لا ذوات الأزواج وذوات ما ملكته الأيمان.

)لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما[50](تعليل لما شرعه الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة من التوسعة بالازدياد من عدد الأزواج وتزو ج الواهبات أنفسهن دون مهر، وجعل قبول هبتها موكولا لأرادته، وبما أبقى له من مساواته أمته فيما عدى ذلك منت الإباحة فلم يضيق عليه، وهذا تعليم وامتنان.

والحرج: الضيق.والمراد هنا أدنى الحرج ما في التكليف من بعض الحرج الذي لا تخلوا عنه التكاليف، وأما الحرج القوي فمنفي عنه وعن أمته. ومراتب الحرج متفاوتة، ومناط ما ينفى عن الأمة منها وما لا ينفى، وتقديرات أحوال انتفاء بعضها للضرورة هو ميزان التكليف الشرعي فالله أعلم بمراتبها واعلم بمقدار تحرج عباده وذلك مبين في مسائل العزيمة والرخصة من علم الأصول، وقد حرر ملاكه شهاب الدين القرافي في الفرق الرابع عشر من كتابه أنواء البروق. وقد أشبعنا القول في تحقيق ذلك في كتابنا المسمى مقاصد الشريعة الإسلامية.

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سلك في الأخذ بهذه التوسعات التي رفع الله بها قدره مسلك الكمال من عباده وهو أكملهم فلم ينتفع لنفسه بشيء منها فكان عبدا شكورا كما قال في حديث استغفاره ربه في اليوم استغفارا كثيرا.

والتذييل بجملة)وكان الله غفورا رحيما(تذييل لما شرعه من الأحكام للنبي صلى الله عليه وسلم لا للجملة المتعرضة، أي أن ما أردناه من نفي الحرج عنك هو من متعلقات صفتي الغفران والرحمة اللتين هما من تعلقات الإرادة والعلم فهما ناشئان عن صفات الذات، فلذلك جعل اتصاف الله بهما أمرا متمكنا بما دل عليه فعل)كان(المشي إلى السابقية والرسوخ كما علمته في مواضع كثيرة.

)ترجي من تشاء منهن وتأوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك(.
استئناف بياني ناشئ عن قولة)إنا أحللنا لك أزواجك(إلى قوله) لكي لا يكون عليك حرج(فإنه يثير في النفس تطلبا لبيان مدى هذا التحليل. والجملة خبر مستعمل في إنشاء تحليل الإرجاء والإيواء لمن يشاء النبي صلى الله عليه وسلم.
والإرجاء حقيقته: التأخير إلى وقت مستقبل. يقال: أرجأت الأمر وأرجيته مهموزا ومخففا، إذا أخرته.
وفعله ينصرف إلى الأحوال لا الذوات فإذا عدي فعله إلى أسم ذات تعيين انصرافه إلى وصف من الأوصاف المناسبة والتي تراد منها، فإذا قلت:أرجأت غريمي، كان المراد: أنك أخرت قضاء دينه إلى وقت يأتي.
والإيواء: حقيقة جعل الشيء آويا، أي راجعا إلى مكانه. يقال: آوى ،إذا رجع حيث فارق، وهو هنا مجاز في مطلق الاستقرار سواء كان بعد إبعاد أم بدونه، وسواء كان بعد سيق استقرار بالمكان أم لم يكن.
ومقابلة الإرجاء بالإيواء تقتضي أن الإرجاء مراد منه ضد الإيواء أو أن الإيواء ضد الإرجاء والإيواء صريحهما وكنايتهما.
فضمير)منهن(عائد إلى النساء المذكورات ممن هن في عصمته ومن أحل الله له نكاحهن غيرهن من بنات عمه وعماته وخله وخالاته، والواهبات أنفسهن فتلك أربعة أصناف:

صفحة : 3380

الصنف الأول: وهن اللآء في عصمة النبي عليه الصلاة والسلام فهن متصلن به فإرجاء هذا الصنف يتصرف إلى تأخير الاستماع إلى وقت مستقبل يريده والإيواء ضده. فيتعين أن يكون الإرجاء منصرفا إلى القسم فوسع الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أباح له أن يسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن فصار حق المبيت حقا له لا لهن بخلاف بقية المسلمين،و على هذا جرى قول مجاهد وقتادة وأبي رزين قاله الطبري.
وقد كانت إحدى نساء النبي صلى الله عليه وسلم أسقطت عنه حقها في المبيت وهي سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة وكان ذلك قبل نزول هذه الآية ولما نزلت هذه الآية صار النبي عليه الصلاة و السلام مخيرا في القسم لأزواجه.وهذا قول الجمهور، قال أبو بكر بن العربي: وهو الذي ينبغي أن يعول عليه.وهذا تخيير للنبي

صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يأخذ لنفسه به تكرما منه على أزواجه. قال الزهري. ما علمنا أن رسول الله أرجأ أحدا من أزواجه بل آواهن كلهن. قال أبو بكر بن العربي: وهو المعنى المراد. وقال أبو رزين العقيلي أرجأ ميمونة وسودة وجويرية وأم حبيبة وصفية، فكان يقسم لهن ما شاء، أي دون مساواة لبقية أزواجه. وضعفه ابن العربي.

وفسر الإرجاء بمعنى التطليق، والإيواء بمعنى الإبقاء في العصمة، فيكون إذنا له بتطليق من يشاء تطليقها وإطلاق الإرجاء على التطليق غريب.

و قد ذكروا أقوالا أخر و أخبارا في سبب النزول لم تصح أسانيدها فهي آراء لا يوثق بها. ويشمل الإرجاء الصنف الثاني وهن ما ملكت يمينه وهو حكم أصلي إذ لا يجب للإماء عدل في المعاشرة ولا في المبيت.

ويشمل الإرجاء الصنف الثالث وهن:بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته،فالإرجاء تأخير تزوج من يحل منهن، والإيواء العقد على إحداهن،والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج واحدة بعد نزول هذه الآية،وذلك إرجاء العمل بالإذن فيهن إلى غير أجل معين.

وكذلك إرجاء الصنف الرابع اللآء وهبن أنفسهن، سواء كان ذلك واقعا بعد نزول الآية أم كان بعضه بعد نزولها فإرجاؤهن عدم قبول نكاح الواهبة، عبر عنه الإرجاء إبقاء على أملها أن يقبلها في المستقبل، وإيوائهن قبول هبتهن.

قرأ نافع وحمزة و الكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف ترجي بالياء التحتية في آخره مخفف)ترجئ(المهموز. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب) ترجئ(بالهمز في آخره. وقال الزجاج: الهمز أجود و أكثر. والمعنى واحد.

واتفق الرواة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستعمل مع أزواجه ما أبيح له أخذا منه بأفضل الأخلاق، فكان يعدل في القسم بين نسائه إلا أن سودة وهبت يومها لعائشة طلبا لمسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فهذا لبيان أن هذا التخيير لا يوجب استمرار ما أخذ به من الطرفين المخير بينهما، أي لا يكون عمله بالعزل لازم الدوام بمنزلة الظهار والإيلاء، بل أذن الله أن يرجع إلى من يعزلها منهن،فصرح هنا الإرجاء شامل للعزل.

ففي الكلام جملة مقدرة دل عليها قوله)ابتغيت(إذ هو يقتضي أنه ابتغى إبطال عزلها فمفعول)ابتغيت(محذوف دل عليه قوله)وتؤوي

إليك من تشاء(كما هو مقتضى المقابلة بقوله)ترجي من تشاء (، فإن العزل والإرجاء مؤداهما واحد.
والمعني: فإن عزلت بالإرجاء إحداهن فليس العزل بواجب استمراره بل لك أن تعيدها إن ابتغيت العود إليها،أي فليس هذا كتخيير الرجل زوجه فتختار نفسها المقتضي أنها تبين منه. و متعلق الجناح محذوف دل عليه قوله)ابتغيت(أي ابتغيت إيوائها فلا جناح عليك من إيوائها.
و)من(يجوز أن تكون شرطية وجملة)فلا جناح عليك(جواب الشرط.و يجوز أن تكون موصولة مبتدأ فإن الموصول يعامل معاملة الشرط في كلامهم بكثرة إذا قصد منه العموم فلذلك يقترن خبر الموصول العام بالفاء كثيرا كقوله تعالى)فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه(،و عليه فجملة)فلا جناح عليك(خبر المبتدأ اقتران بالفاء لمعاملة الموصول معاملة الشرط ومفعول)عزلت(محذوف عائد إلى)من(أي التي ابتغيتها ممن عزلتهن وهو من حذف العائد المنصوب.

صفحة : 3381

)ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن و يرضين بما آتيتهن كلهن ولله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما[51](الإشارة إلى شيء مما تقدم و هو أقربه،فيجوز أن تكون الإشارة إلى معنى التفويض المستفاد من قوله)ترجي من تشاء منهن و تؤوي إليك من تشاء(، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الابتغاء المتضمن له فعل) ابتغيت(أي فلا جناح عليك في ابتغائهن بعد عزلهن ذلك أدنى لأن تقرأ أعينهن.والابتغاء: الرغبة والطلب، والمراد هنا ابتغاء معاشرة من عزلهن.
فعلى الأول يكون المعنى أن في هذا التفويض جعل الحق في اختيار أحد الأمرين بيد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبقى حقا لهن فإذا عين لإحداهن حالة من الحالين رضيته به لأنه يجعل الله تعالى على حكم قوله)ولا كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمرا أن كون لهم الخيرة من أمرهم(فقرت أعين جميعهن بما عينت لكل واحدة لأن الذي يعلم أنه لاحق له في شيء كان راضيا بما أوتي منه، وإن علم أن له حقا حسب إنما يؤتاه أقل من حقه وبالغ في استيفائه. وهذا التفسير مروي عن قتاده وتبعه الزمخشري وأبن العربي والقرطبي وابن عطية، وهذا يلائم قوله) ويرضين(ولا يلائم قوله)أن تقر أعينهن(لأن قرة العين إنما تكون بالأمر المحبوب، وقوله)ولا يحزن(لأن الحزن من الأمر المكدر ليس

باختياري كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فلا تلمني فيما لا أملك .

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: ذلك الابتغاء بعد العزل أقرب لأن تقر أعين اللاتي كنت عزلتهن. ففي هذا الوجه ترغيب للنبي صلى الله عليه وسلم في اختيار عدم عزلهن عن القسم وهو المناسب لقوله)أن تقر أعينهن ولا يحزن(كما علمت آنفا، ولقوله) ويرضين...(، ولما فيما ذكر من الحسنات الوافرة التي يرغب النبي صلى الله عليه وسلم في تحصيلها لا محالة وهي إدخال المسرة على المسلم وحصول الرضا بين المسلمين مما يعزز الاخوة الإسلامية المرغوب فيها. ونقل قريب من هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد واختاره أبو علي الجبائي وهو الأرجح لأن قرة العين لا تحصل على مضض ولأن الحط في الحق يوجب الكدر. ويؤده أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ إلا به ولم يحفظ عنه أنه آثر إحدى أزواجه بليلى سوى ليلة سودة التي وهبتها لعائشه أستمر ذلك إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد جاء في الصحيح أنه كان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به كل يوم على بيوت أزواجه وكان مبدأ شكواه في بيت ميمونة إلى أن جاءت نوبه ليلة عائشة فأذن له أزواجه أن يمرض في بيتها رفقا به.

وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال حين قسم لهن اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا املك ولعل ذلك كان قبل نزول التفويض إليه بهذه الآية.

وفي قولة)ويرضين بما آتيتهن كلهن(إشارة إلى أن المراد الرضا الذي يتساوين فيه وإلا لم يكن للتأكيد ب)كلهن(نكتة زائدة فالجمع بين ضميرهن في قوله)كلهن(يومئ إلى رضا متساو بينهن.

وضميرا)أعينهن ولا يحزن عائده إلى)من(في قوله)ممن عزلت(. وذكر)ولا يحزن(بعد ذكر)أن تقر أعينهن(مع ما في قرة العين من تضمن معنى انتفاء الحزن بالإيماء إلى ترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في ابتغاء بقاء جميع نسائه في مواصلته لأن في عزل بعضهن حزنا للمعزولات وهو بالمؤمنين رؤوف لا يحب أن يحزن أحدا.

و)كلهن(توكيد لضمير)يرضين(أو يتنازعه الضمائر كلها.

والإيتاء: الإعطاء، وغلب على إعطاء الخير إذا لم يذكر مفعوله الثاني أو ذكر غير معين كقوله)فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين(، فإذا ذكر مفعوله الثاني فالغالب أنه ليس بسوء. ولا أره يستعمل في إعطاء السوء فلا تقول: آتاه سجنا وآتاه ضربا، إلا في مقام التهكم أو المشاكلة، فما هنا من القبيل الأول، ولهذا يبعد تفسيره

بأنهن ترضين بما أذن الله فيما لرسوله من عزلهن وإرجائهن. وتوجيهه في الكشاف تكلف.
والتذييل بقوله)والله يعلم ما في قلوبكم وما كان الله عليما حليما(كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير ففيه ترغيب للنبي صلى الله عليه وسلم في الإحسان أزواجه وإمائه والمتعرضات للتزوج به، وتحذير لهن من إضمار عدم الرضا بما يلقينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 3382

وفي إجراء صفتي)عليما حكيما(على اسم الجلالة إيماء إلى ذلك فمناسبة صفة العلم لقوله)والله يعلم ما في قلوبكم(ظاهرة و مناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود ترغيب الرسولصلى الله عليه وسلمفي أليق الأحوال بصفة الحليم لأن همه صلى الله عليه وسلم التخليق بخلق الله تعالى و قد أجرى الله عليه صفات من صفاته مثل رؤوف رحيم ومثل شاهد. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا أختار أيسرهما ما لم يكن إثما. ولهذا لم يأخذ رسول الله بهذا التخير في النساء اللاتي كن في معاشرته وأخذ به في الواهبات أنفسهن مع الإحسان إليهن بالقول والبذل فأن الله كتب الإحسان على كل شيء. وأخذ به في ترك التزوج من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته لأن ذلك لا حرج فيه عليهن.
)لا يحل لك النساء من بعد' ولا أن تبدل بهن من أزوج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا[52]
(موقع هذه الآية في المصحف عقب التي قبلها يدل على أنها كذلك نزلت وأن الكلام متصل بعضه ببعض ومنتظم هذا النظم البديع، على أن حذف ما أضيفت إليه)بعد(ينادي على أنه حذف معلوم دل عليه الكلام السابق فتأخرها في النزول عن الآيات التي قبلها وكونها متصلة بها وتتمة لها مما لا ينبغي أن يتردد فيه، فتقدير المضاف إليه المحذوف لا يخلو: إما أن يؤخذ من ذكر الأصناف قبلة، أي من بعد الأصناف المذكورة بقوله)إنا أحللنا لك أزواجك(الخ. وإما أن يكون مما يقتضيه الكلام من الزمان، أي من بعد هذا الوقت، والأول الراجح.
و)بعد(يجوز أن يكون بمعنى)غير(كقوله تعالى)فمن يهديه من بعد الله(وهو استعمال كثير في اللغة، وعليه فلا ناسخ لهذه الآية من القرآن ولا هي ناسخة لغيرها، ومما يؤيد هذا المعنى التعبير

بلفظ الأزواج في قوله)ولا أن تبدل بهن من أزواج(أي غيرهن وعلى هذا المحمل حمل الآية ابن عباس فقد روى الترمذي عنه قال نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات فقال)لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك(فأحل الله المملوكات المؤمنات)وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي(. ومثل هذا مروي عن أبي بن كعب وعكرمة والضحاك. ويجوز أن يكون)بعد(مراد به الشيء المتأخر عن غيره وذلك حقيقة معنى البعدية فيتعين تقدير لفظ يدل على شيء سابق.

وبناء)بعد(على الضم يقتضي تقدير كضاف إليه محذوف يدل عليه الكلام السابق على ما درج عليه ابن مالك في الخلاصة وحققه ابن هشام في شرحه على قطر الندى، فيجوز أن يكون التقدير: من بعد من ذكرن على الوجهين في معنى البعدية فيقدر: من غير من ذكرن، أو يقدر من بعد من ذكرن،فتنشأ احتمالات أن يكون المراد أصناف من ذكرن أو أعداد من ذكرن)وكن تسعا(، أو من اخترتهن.

ويجوز أن يقدر المضاف إليه وقتا، أي بعد اليوم أو الساعة، أي الوقت الذي نزلت فيه الآية فيكون نسخا لقوله)إنا أحللنا لك أزواجك(إلى قوله)خالصة لك(.

وأما ما رواه الترمذي عن عائشة أنها قالت ما مات رسول الله حتى أحل الله له النساء . وقال حديث حسن. وهو مقتض أن هذه الآية منسوخة فهو يقتضي أن ناسخها من السنة لا من القرآن لأن قولها: ما مات، يؤذن بأن ذلك كان آخر حياته فلا تكون هذه الآية التي نزلت مع سورتها قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين ناسخه للإباحة التي عنتها عائشة فالإباحة إباحة تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى الطحاوي مثل حديث عائشة عن أم سلمة.

والنساء: إذ أطلق في مثل هذا المقام غلب في معنى الأزواج، أي الحرائر دون الإماء كما قال النابغة:

حذارا على أن لا تنال مقادتي ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا أي لا تحل لك الأزواج من بعد من ذكرن.

وقوله)ولا أن تبدل بهن(أصلة:تتبدل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا،يقال: بدل وتبدل، ومادة البل تقتضي شيئين:يعطي أحدهما عوضا عن أخذ الآخر فالتبديل يتعدى إلى الشيء المأخوذ بنفسه وإلى الشيء المعطى بالباء أو بحرف)من(،وتقدم عند قوله تعالى) ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل(في سورة البقرة.

والمعنى: أن من حصلت في عصمتك من الأصناف المذكورة لا يحل لك أن تطلقها، فكني بالتبديل عن الطلاق لأنه لازمه في العرف الغالب لأن المرء لا يطلق إلا وهو يعتاض عن المطلقة امرأة أخرى، وهذه الكناية متعينة هنا لأنه لو أريد صريح التبدل لخالف آخر الآية أولها وسابقتها فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أحلت له الزيادة على النساء اللاتي عنده إذا كانت المزيدة من الأصناف الثلاثة السابقة وحرم عليه ما عداهن، فإذا كانت المستبدلة إحدى نساء من الأصناف الثلاثة لم يستقم أن يحرم علية استبدال واحدة منهن بعينها لأن تحريم ذلك ينافي إباحة الأصناف الثلاثة لم يستقم أن يحرم عليه استبدال واحدة منهن بعينها لأن تحريم ذلك ينافي إباحة الأصناف ولا قائل بالنسخ في الآيتين، وإذا كانت المستبدلة من غير الأصناف الثلاثة كان تحريمها عاما في سائر الأحوال فلا محصول لتحريمها في خصوص حال إبدالها في غيرها فتمحض أن يكون الاستبدال مكنى به عن الطلاق وملاحظا فيه نية الاستبدال.

فالمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أبيحت له الزيادة على النساء اللاتي حصلن في عصمته أو يحصلن من الأصناف الثلاثة ولم يبح له تعويض قديمة بحادثة.

والمعنى: ولا أن تبدل بامرأة حصلت في عصمتك أو ستحصل امرأة غيرها.

فالباء داخلة على المفارقة.

و)من(مزيدة على المفعول الثاني ل)تبدل(لقصد إفادة العموم.

والتقدير: ولا أن تبدل بهن أزواجا آخر، فأختص هذا الكلام بالأزواج من الأصناف الثلاثة وبقيت السراري خارجة بقولة)إلا ما ملكت يمينك(. وأما التي تهب نفسها فهي إن أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينكحها فقد انتظمت في سلك الزواج، فشملها حكمهن، وإن لم يرد أن ينكحها فقد بقيت أجنبية لا تدخل في تلك الأصناف.

وقرأ الجمهور)لا يحل(بياء تحتية على اعتبار التذكير لأن فاعله جمع غير صحيح فيجوز فيه اعتبار الأصل. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بفوقية على اعتبار التأنيث بتأويل الجماعة وهما وجهان في الجمع غير السالم.

وجملة)لو أعجبك حسنهن(في موضع الحال والواو واوه، وهي حال من ضمير)تبدل(. و)لو(للشرط المقطوع بانتفائه وهي للفرض والتقدير. وتسمى وصلية،فتدل على انتفاء ما هو دون المشروط بالأولى، وقد تقدم في قوله تعالى)ولو أفتدى به(في آل عمران.

والمعنى: لا يحل لك النساء من بعد بزيادة على نسائك وبتعويض إحداهن بجديدة في كل حلة حتى في حالة إعجاب حسنهن إياك.
وفي هذا إيذان بأن الله لما أباح لرسوله الأصناف الثلاثة أراد اللطف له وأن لا يناكد رغبته إذا أعجبته امرأة لكنه حدد له أصنافا معينة وفيهن غناء.
وقد عبرة عن هذا المعنى عائشة رضي الله عنها بعبارة شيقة إذ قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.وأكدت هذه المبالغة بالتذييل من قوله)وكان الله على كل شيء رقيبا(أي علما بجري كل شيء على نحو ما حدده أو على خلافه، فهو يجازي على حسب ذلك. وهذا وعد النبي صلى الله عليه وسلم بثواب عظيم على ما حدد له من هذا الحكم.
والاستثناء في قوله)إلا ما ملكت يمينك(منقطع.والمعنى:لكن ما ملكت يمينك حلال في كل حال. والمقصود من هذا الاستدراك دفع توهم أن يكون المراد من لفظ)النساء(في قوله)لا يحل لك النساء(ما يرادف لفظ الإناث دون استعماله العرفي بمعنى الأزواج كما تقدم.
)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق(

صفحة : 3384

لما بين الله في الآيات السابقة آداب النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه فقاه في هذه الآية بآداب الأمة معهن، و صدر بالإشارة إلى قصة هي سبب نزول هذه الآية.وهي ما في صحيح البخاري و غيره عن أنس بن مالك قال:لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ابنة جحش صنع طعاما بخبز ولحم ودعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ليدخل فإذا القوم جلوس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخرج ثم يرجع فانطلق إلى حجرة عائشة...فتقرى حجر نسائه كلهن يسلم عليهن ويسلمن عليه ويدعون له، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي(إلى قوله)من وراء حجاب(.

وفي حديث آخر في الصحيح عن أنس أيضا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: يا رسول الله يدخل عليك البر و الفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. وليس بين الخبرين تعارض لجواز أن يكون قول عمر كان قبل البناء بزينب بقليل ثم عقبته قصة وليمة زينب فنزلت الآية بإثرها.

وابتدئ شرع الحجاب بالنهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا لطعام دعاهم إليه لأن النبي عليه الصلاة و السلام له مجلس يجلس في المسجد فمن كان له مهم عنده يأتيه هنالك.

وليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييدا لإباحة دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخلها إلا المدعو إلى طعام و لكنه مثال للدعوة و تخصيص بالذكر كما جرى في القضية التي هي سبب النزول فيلحق به كل دعوة تكون من النبي صلى الله عليه وسلم وكل إذن منه بالدخول إلى بيته لغير قصد أن يطعم معه كما كان يقع ذلك كثيرا. ومن ذلك قصة أبي هريرة حين استقرأ من عمر آية من القرآن وهو يطمع أن يدعوه عمر إلى الغداء ففتح عليه الآية فإذا رسول الله قائم على رأس أبي هريرة وقد عرف ما به فانطلق به إلى بيته و أمر له بعس من لبن ثم ثان ثم ثالث، وإنما ذكر الطعام إدماجا لتبيين آدابه، ولذلك ابتدئ بقوله)غير ناظرين إناه(مع إنه لم يقع مثله في قصة سبب النزول.

وقرأ الجمهور)بيوت(بكسر الباء. وقرأه أبو عمرو وورش عن نافع وحفص عن عاصم وأبو جعفر بضم الباء، وقد تقدم في سورة النساء وغيرها.

و)إناه(بكسر الهمزة و بالقصر: إما مصدر أنى الشيء إذا حان، يقال: أنى يأني قال تعالى)ألم يأن للذين آمنوا أن قلوبهم لذكر الله(.و مقلوبه: آن. وهو بمعناه. والمعنى :غير منتظرين حضور الطعام،أي غير سابقين إلى البيوت و قبل تهيئته.

والاستثناء في)إلا أن يؤذن لكم(استثناء من عموم الأحوال التي يقتضيها الدخول المنهي عنه،أي إلا حال أن يؤذن لكم.

وضمن)يؤذن(معنى تدعون فعدي ب)إلى(فكأنه قيل: إلا أن تدعوا إلى طعام فيؤذن لكم لأن الطفيلي قد يؤذن له إذا استأذن وهو غير مدعو فهي حالة غير مقصودة من الكلام.

فالكلام متضمن شرطين هما:الدعوة، والإذن،فإن الدعوة قد تتقدم على الإذن وقد يقترنان كما في حديث أنس بن مالك.

و)غير ناظرين(حال من ضمير)لكم(فهو قيد في متعلق المستثنى فيكون قيدا في قيد فصارت القيود المشروطة ثلاثة.

و)ناظرين(اسم فاعل من نظر بمعنى انتظر،كقوله تعالى)فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم(الآية.

ومعنى ذلك: لا تحضروا البيوت للطعام قبل تهيئة الطعام للتناول فتقعدوا تنتظرون نضجه. وعن ابن عباس نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي فيدخلون قبل أن يدرك الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون اه.

وقد يقتضي أن ذلك تكرر قبل قضية النفر الذين وليمة البناء بزينب فتكون تلك القضية خاتمة القضايا،فكني بالانتظار عن مبادرة الحضور قبل إبان الأكل.ونكتة هذه الكناية تشويه السبق بالحضور بجعله نهما وجشعا وإن كانوا قد يحضرون لغير ذلك،وبهذا تعلم أن ليس النهي متوجها إلى صريح الانتظار.

صفحة : 3385

وموقع الاستدراك لرفع توهم أن التأخر عن إبان الطعام أفضل فأرشد الناس إلى أن تأخر الحضور عن إبان الطعام لا ينبغي بل التأخر ليس من الأدب لأنه يجعل صاحب الطعام في انتظار،وكذلك البقاء بعد انقضاء الطعام فإنه تجاوز لحد الدعوة لأن الدعوة لحضور شيء تقتضي مفارقة المكان عند انتهائه لأن تقييد الدعوة بالغرض المخصوص يتضمن تحديدها بانتهاء ما دعي لأجله، وكذلك الشأن في كل دخول لغرض من مشاورة أو محادثة أو سمر أو نحو ذلك وكل ذلك يتحدد بالعرف وما لا يثقل على صاحب المحل، فإن كان محل لا يختص به أحد كدار الشورى والنادي فلا تحديد فيه.

و)طعمتم(معناه أكلتم، يقال: طعم فلان فهو طاعم، إذا أكل.

والانتشار: افتعال من النشر، وهو إبداء ما كان مطويا، أطلق على الخروج مجازا وتقدم في قوله)وجعل النهار نشورا(في سورة الفرقان.

والواو في)ولا مستأنسين(عطف على)ناظرين(وما بينهما من الاستدراك وما تفرع عليه اعتراض بين المتعاطفين. وزيادة حرف النفي قبل)مستأنسين(لتأكيد النفي كما هو الغالب في العطف على المنفي وفي تصدير المنفي نحو قوله)فلا وربك لا يؤمنون(الآية وقوله)لا يسخر قوم من قوم(ثم قوله)ولا نساء من نساء(.

والاستئناس: طلب الأنس مع الغير. واللام في)لحديث(للعلة، أي ولا مستأنسين لأجل حديث يجري بينكم.

والحديث: الخبر عن أمر حدث، فهو في الأصل صفة حذف موصوفها ثم غلبت على معنى الموصوف فصار بمعنى الإخبار عن أمر حدث، وتوسع فيه فصار الإخبار عن شيء ولو كان أمرا قد

مضى. ومنه سمي ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا كما يسمى خبرا، ثم توسع فيه فصار يطلق على كلام يجري بين الجلساء في جد أو فكاهة، و منه قولهم: حديث خرافة، وقول كثير:
أخذنا باكتراث الأحاديث تبيينا ... البيت واستئناس الحديث:تسمعه والعناية بالإصغاء،قال النابغة :
كأن رحلي وقد زال النهار بنا يوم
الجليل على مستأنس وحد أي كأني راكب ثورا وحشيا منفردا تسمع صوت الصائد فأسرع الهروب.
وإضافة)بيوت النبي(على معنى لام الملك لأن تلك البيوت ملك له ملكها بالعطية من الذين كانت ساحة المسجد ملكا لهم من الأنصار، و بالفيء لقبور المشركين التي كانت ثمة، فإن المدينة فتحت بكلمة الإسلام فأصبحت دارا للمسلمين. ومصير تلك البيوت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مصير تركته كلها فإنه لا يورث وما تركته ينتفع منه أزواجه وآله بكفايتهم حياتهم ثم يرجع ذلك للمسلمين كما قضى به عمر بين علي والعباس فيما كان للنبي صلى الله عليه وسلم من فدك ونخل بني النضير، فكان لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم حق السكنى في بيوتهن بعده حتى توفاهن الله من عند آخرتهن، فلذلك أدخلها الخلفاء في المسجد حين توسعته في زمن الوليد ابن عبد الملك وأمير المدينة يومئذ عمر بن عبد العزيز. ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة ولم يعط ورثتهن شيئا ولا سألوه.وإضافتها إلى ضميرهن في قوله)ما يتلى في بيوتكن(على معنى لام الاختصاص لا لام الملك.
قال حماد بن زيد و إسماعيل بن أبي حكيم: هذه الآية أدب أدب الله به الثقلاء. وقال ابن أبي عائشة: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم.
ومعنى الثقل فيه هو إدخال أحد القلق والغم على غيره من جراء عمل لفائدة العامل أو لعدم الشعور بما يلحق غيره من الحرج من جراء ذلك العمل. وهو من مساوي الخلق لأنه إن كان من عمد كان ضرا بالناس وهو منهي عنه لأنه من الأذى وهو ذريعة للتباغض عند نفاذ صبر المضرور فإن النفوس متفاوتة في مقدار تحمل الأذى،ولأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه فعليه إذا أحس بان قولة أو فعله يدخل الغم على غيره أن يكف عن ذلك ولو كان يجتني منه منفعة لنفسه إذ لا يضر بأحد لينتفع غيره إلا أن يكون لمن يأتي بالعمل حق على الآخر فإن له طلبه مع أن مأمور بحسن التقاضي، وإن كان إدخاله الغم على غيره عن غباوة وقلة تفطن له فإن مذموم في ذاته وهو يصل إلى حد يكون الشعور به بديهيا.

وللحكماء والشعراء أقوال كثيرة في الثقلاء طفحت بها كتب أدب الأخلاق ومعاملة الناس النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق أشد بعدا عن الأدب لأن للنبيء صلى الله عليه وسلم أوقاتا لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة ويجب أن لا يشغل أحد أوقاته إلا بأذنه،ولذلك قال تعالى)إلا أن يأذن لكم(.

والأمر في قوله)فأدخلوا(للندب لأن إجابة الدعوة إلى الوليمة سنة،وتقييد النهي بقوله)غير ناظرين إناه(للتنزيه لأن الحضور قبل تهيؤ الطعام غير مقتضى للدعوة ولا يتضمنه الإذن فهو تطفل.

والأمر في قوله)فانتشروا(للوجوب لأن دخول المنزل بغير إذن حرام، وأنما جاز بمقتضى الدعوة للأكل فهو إذن مقيد المعنى بالغرض المأذون لأجله فإذا انقضى السبب المبيح للدخول عاد تحريم الدخول إلى أصله، إلا أنه نظري قد يغفل عنه لأن أصله مأذون فيه والمأذون فيه شرعا لا يتقيد بالسلامة إلا إذا تجاوز الحد المعروف تجاوزا بينا. وعطف)ولا مستأنسين لحديث(راجع إلى هذا الأمر بقوله)فانتشروا(فلذلك ذكر عقبه فإن استدامة المكث في معنى الدخول، فذكر بإثارة وحصل تفنن في الكلام.

وفي هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف وليس ملكا للمدعوين ولا للأضياف لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة ولم يملكوه فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه.

وجملة)إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم(استئناف ابتدائي للتحذير ودفع الاغترار بسكوت النبي صلى الله عليه وسلم أن يحسبوه رضي بما فعلوا. فمناط التحذير قوله)ذلكم كان يؤذي النبي(فإن أذى النبي صلى الله عليه وسلم مقرر في نفوسهم أنه عمل مذموم لأن النبي عليه الصلاة و السلام أعز خلق في نفوس المؤمنين وذلك يقتضي التحرز مما يؤذيه أدنى أذى. ومناط دفع الاغترار قوله)فيستحيي منكم(فإن السكوت قد يظنه الناس رضى وإذنا وربما تطرق إلى أذهان بعضهم أن جلوسهم لو كان محظورا لما سكت عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأرشد الله إلى أن السكوت الناشئ عن سبب هو سكوت لا دلالة له على الرضى وأنه إنما سكت حياء من مباشرتهم بالإخراج فهو استحياء خاص من عمل خاص. وإنما كان ذلك مؤذيا النبي صلى الله عليه وسلم لأن فيه ما يحول بينه وبين التفرغ لشؤون النبوة من تلقي الوحي أو العبادة أو تدبير أمر الأمة أو التأخر عن الجلوس في مجلسه لنفع المسلمين

ولشؤون ذاته وبينه و أهله.واقتران الخبر بحرف)إن(للاهتمام به. ولك أن تجعله من تنزيل غير المتردد لأن حال النفر الذين أطالوا الجلوس والحديث في بيت النبي عليه الصلاة والسلام وعدم شعورهم بكراهيته ذلك منهم حين دخل البيت فلما وجدهم خرج، فغفلوا عما في خروج النبي صلى الله عليه وسلم من البيت من إشارة إلى كراهيته بقاءهم. تلك حالة من يظن ذلك مأذونا فيه فخوطبوا بهذا الخطاب تشديدا في التحذير واستفاقة من التغرير.
وإقحام فعل)كان(لإفادة تحقيق الخبر.
وصيغ)يؤذي(بصيغة المضارع دون اسم الفاعل لقصد إفادة أذى متكرر،والتكرير كناية عن الشدة.
والأذى : ما يكدر مفعوله ويسيء من قول أو فعل. وتقدم في قوله تعالى)لن يضروكم ألا أذى(في آل عمران، وهو مراتب متفاوتة في أنواعه.
والتفريع في قوله)فيستحيي منكم(تفريع على مقدر دلت عليه القصة.
والتقدير: فيهم بإخراجكم فيستحيي منكم إذ ليس الاستحياء مفرعا على الإيذاء ولا هو من لوازمه.
ودخول)من(المتعلقة ب)يستحيي(على ضمير المخاطبين على تقدير مضاف،أي يستحيي من إعلامكم بأنه يؤذيه.
وتعدية المشتقات من مادة الحياء إلى الذوات شائع يساوي الحقيقة لأن الاستحياء يختلف باختلاف الذوات،فقولك: أردت أن أفعل كذا فاستحيت من فلان، يجوز أن تكون الحقيقة هي التعليق بذات فلان وأن تكون هي التعليق بالأحوال الملابسة له التي هي سبب الاستحياء لأجل ملابستها له. ولك أن تقول: استحييت أن أفعل كذا بمرأى فلان. وعلى التقدير الأول تكون)من(للتعليل، وعلى التقدير الثاني تكون)من(للابتداء. وظاهر كلام الكشاف يقتضي أن: استحييت من فلان مجاز أو توسع، وأن: استحييت من فعل كذا لأجل فلان هو الحقيقة. وظاهر كلام صاحب الكشف عكس ذلك والأمر هين.
وصيغ فعل)يستحيي(بصيغة المضارع لأنه مفرع على)يؤذي النبي(ليدل على ما دل عليه المفرع هو عليه.

صفحة : 3387

وفي هذه الآية دليل على أن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على الفعل الواقع بحضرته إذا كان تعديا على حق لذاته لا يدل سكوته فيه على جواز الفعل لأن له أن يسامح في حقه، ولكن

يؤخذ الحظر أو الإباحة في مثله من أدلة أخرى مثل قوله تعالى هنا)إن ذلكم كان يؤذي النبي(ولذلك جزم علماؤنا بأن من آذى النبي صلى الله عليه وسلم بالصراحة أو الالتزام يعزر على ذلك بحسب مرتبة الأذى والقصد إليه بعد توقيفه على الخفي منه وعدم التوبة مما تقبل في مثله التوبة منه. ولم يجعلوا في إعراض النبي عليه الصلاة والسلام عن مؤاخذة من آذاه في حياته دليلا على مشروعية تسامح الأمة في ذلك لأنه كان له أن يعفو عن حقه لقوله تعالى) فاعف عنهم(وقوله)ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك(. فهذا ملاك الجمع بين الإيذاء والاستحياء والحق في هذه الآية،تولى الله تعالى الذب عن حق رسوله وكفاه مؤونة المضض الداعي إليه حياؤه. وقد حقق هذا المعنى وما يحف به القاضي أبو الفضل عياض في تضاعيف القسم الرابع من كتابه الشفاء.

فإن قلت ورد في الحديث عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من البيت ليقوم الثلاثة الذين قعدوا يتحدثون،فلماذا لم يأمرهم بالخروج بدلا من خروجه هو. قلت: لأن خروجه غير صريح في كراهيته جلوسهم لأنه يحتمل أن يكون لغرض آخر، ويحتمل أن يكون لقصد انفضاض المجلس فكان من واجب الألمعية أن يخطر ببالهم أحد الاحتمالين فيتحفزوا للخروج فليس خروجه عنهم بمناف لوصف حيائه صلى الله عليه وسلم.

وجملة)والله لا يستحيي من الحق(معطوفة على جملة)فيستحيي منكم(والمعنى: أن ذلك سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا كان يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار ترجيحا منه للعفو عن حقه على المؤاخذة به فإن الله لا يستحيي من الحق لأن أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه)والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(.

وصيغة الجملة المعطوفة على بناء الجملة الاسمية مخالفة للمعطوفة هي عليها فلم يقل: ولا يستحيي الله من الحق،للدلالة على أن هذا الوصف ثابت دائم لله تعالى لأن الحق من صفاته،فانتفاء ما يمنع تبليغه هو أيضا من صفاته لأن كل صفة يجب اتصاف الله بها فإن ضدها يستحيل عليه تعالى.

والتعريف في)الحق(تعريف الجنس المراد منه الاستغراق مثل التعريف في)الحمد لله(. والمعنى: والله لا يستحيي من جميع أفراد جنس الحق.

والحق: ضد الباطل.فمنه حق الله وحق الإسلام،وحق الأمة جمعاء في مصالحها وإقامة آدابها،وحق كل فرد من أفراد الأمة فيما هو من منافعه ودفع الضر عنه.

ويشتمل حق النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وأوقاته، وبهذا العموم في الحق صارت الجملة بمنزلة التذييل.
و)من(في قوله)من الحق(ليست مثل)من(التي في قوله) فيستحيي منكم(لأن)من(هذه متعنية لكونها للتعليل إذ الحق لا يستحيي من ذاته فمعنى)إن الله لا يستحيي من الحق(أنه لا يستحيي لبيانه وإعلانه.
وقد أفاد قوله)والله لا يستحيي من الحق(أن من واجبات دين الله على الأمة أن لا يستحيي أحد من الحق الإسلامي في إقامته، وفي معرفته إذا حل به ما يقتضي معرفته،وفي إبلاغه وهو تعليمه،وفي الأخذ به،إلا فيما يرجع إلى الحقوق الخاصة التي يرغب أصحابها في إسقاطها أو التسامح فيها مما لا يغمص حقا راجعا إلى غيره لأن الناس مأمورون بالتخلق بصفات الله تعالى اللائقة بأمثاهم بقدر الإمكان.
وهذا المعنى فهمته أم سليم وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على فهمها، فقد جاء في الحديث الصحيح: عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله: نعم إذا رأت الماء . فهي لم تستح في السؤال عن الحق المتعلق بها والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستح في إخبارها بذلك. ولعلها لم تجد من يسأل لها أو لم تر لزاما أن تستنيب عنها من يسأل لها عن حكم يخص ذاتها. وقد رأى علي ابن أبي طالب الجمع بين طلب الحق وبين الاستحياء، ففي الموطأ عن المقداد بن الأسود أن علي بن أبي طالب أمره أن يسأل له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل إذا دنا من أهله فخرج منه المذي ماذا عليه؟ قال علي: فإن ابنة رسول الله وأنا أستحيي أن أسأله الحديث.

صفحة : 3388

على أن بين قضية أم سليم وقضية علي تفاوتا من جهات في مقتضى الاستحياء لا تخفى على المتبصر.
واعلم أن في ورود يؤذي هنا ما يبطل المثال الذي أورده ابن الأثير في كتاب المثل السائر شاهدا على أن الكلمة قد تروق السامع في كلام ثم تكون هي بعينها مكروهة للسامع. وجاء بكلمة) يؤذي(في هذه الآية، ونظيرها تؤذي في قول المتنبي:

تلذ له المرأة وهي تؤذي وزعم أن وجودها في البيت يحط من قدر المعنى الشريف الذي تضمنه البيت وأحال في الجزم بذلك على الطبع السليم، ولا أحسب هذا الحكم إلا غضبا من ابن الأثير لا تسوغه صناعة ولا يشهد به ذوق، ولقد صرف أئمة الأدب همهم إلى بحث شعر المتنبي ونقده فلم يعد عليه أحد منهم هذا منتقدا، مع اعتراف ابن الأثير بأن معنى البيت شريف فلم يبقى له إلا أن يزعم أن كراهة هذا اللفظ فيه راجعة إلى أمر لفظي من الفصاحة، وليس في البيت شيء من الإخلال بالفصاحة وكأنه أراد أن يقفي على قدم الشيخ عبد القاهر فيما ذكر في الفصل الذي جعله ثانيا من كتاب دلائل الإعجاز فإن ما انتقده الشيخ في ذلك الفصل من مواقع بعض الكلمات لا يخلو من رجوع نقده إياه إلى أصول الفصاحة أو أصول تناسب معاني الكلمات بعضها مع بعض في نظم الكلام، وشتان ما بين الصنعتين.

)وإذا سألتموهن متعا فسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن(عطف على جملة)لا تدخلوا بيوت النبي(فهي زيادة بيان للنهي عن دخول البيوت النبوية وتحديد لمقدار الضرورة التي تدعو إلى دخولها أو الوقوف بأبوابها.

وهذه الآية هي شارعة حكم حجاب أمهات المؤمنين، وقد قيل: إنها نزلت في ذي القعدة سنة خمسة.

وضمير)سألتموهن(عائد إلى الأزواج المفهوم من ذكر البيوت في قوله)بيوت النبي(فإن للبيوت رباتهن وزوج الرج هي ربة البيت،قال مرة بن محكان التميمي:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة

ضمي إليك رجال الحي واغربا وقد كانوا لا يبنى الرجل بيتا إلا إذا أراد التزوج. وفي حديث ابن عمر: كنت عزبا أبيت في المسجد. ومن أجل ذلك سمو الزفاف بناء. فلا جرم كانت المرأة والبيت متلازمين فدلت البيوت على الأزواج بالالتزام . ونظير هذا قولة تعالى) وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين(فإن ذكر الفرش يستلزم أن للفراش امرأة، فلما ذكر البيوت هنا تبادر أن للبيوت ربات.

والمتاع: ما يحتاج إلى الانتفاع به مثل عارية الأواني ونحوها، ومثل سؤال العفاة ويلحق بذلك ما هو أولى بالحكم من سؤال عن الدين أو عن القرآن، وقد كانوا يسألون عائشة عن مسائل الدين.

والحجاب : الستر المرخى على باب البيت.

وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبي صلى الله عليه وسلم الشارعة إلى المسجد.

وقد ورد ما يبين ذلك في حديث الوفاة حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وهم في الصلاة فكشف الستر ثم أرخى الستر.

و)من وراء حجاب(متعلق)فاسألوهن(فهو قيد في السائل والمسؤول المتعلق ضميراهما بالفعل الذي تعلق به المجرور.

و)من(ابتدائية. والوراء: مكان الخلف وهو مكان نسبي باعتبار المتجه إلى جهة،فوراء الحجاب بالنسبة للمتجهين إليه فالمسؤولية مستقبلة حجابها والسائل من وراء حجابها والعكس.

والإشارة ب)ذلكم(إلى المذكور، أي السؤال المقيد بكونه من وراء حجاب.

واسم التفضيل في قوله)أطهر(مستعمل للزيادة دون التفضيل.

والمعنى: ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهن فإن قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم منها بما يكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية بقطع أضعف أسبابها وما يقرب أمهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهن صلى الله عليه وسلم فإن الطيبات للطيبين بقطع الخواطر الشيطانية بقطع دابرها ولو بالفرض.

وأيضا فأن الناس أوهاما وظنونا سوأى تتفاوت مراتب نفوس الناس فيها صرامة فيها صرامة، ووهنا، ووفاقا وضعفا، كما وقع في قضية الإفك المتقدمة في سورة النور فكان شرع حجاب أمهات المؤمنين قاطعا لكل تقول وإرجاف أو بغير عمد.

صفحة : 3389

ووراء هذه الحكم كلها حكمه أخرى سامية وهي زيادة تقرير أمومتهن للمؤمنين في قلوب المؤمنين التي هي أمومة جعلية شرعية. بحيث أن ذلك المعنى الجعلي الروحي وهو كونهن فلانة أو فلانة فيصبحن غير متصورات إلا بعنوان الأمومة فلا يزال ذلك المعنى الروحي ينمي في النفوس،ولا تزال الصورة الحسية تتضاءل من القوة المدركة حتى يصبح معنى أمهات المؤمنين معنى قريبا في النفوس من حقائق المجردات كالملائكة، وهذه حكمة من حكم الحجاب الذي سنة الناس لملوكهم في القدم ليكون ذلك أدخل لطاعتهم في نفوس الرعية. وبهذه الآية مع الآية التي تتقدمها من

قوله)يا نساء النبي لستن كأحد في النساء(تحقق معنا الحجاب لأمهات المؤمنين المركب من ملازمتهن بيوتهن وعدم ظهور شيء من ذواتهن حتى الوجه والكفين، وهو حجاب خاص بهن لا يجب على غيرهن، وكان المسلمون يقتدون بأمهات المؤمنين ورعا وهم متفاوتون في ذلك على حسب العادات، ولمت أنشد النميري عند الحجاج قوله:

يخمرن أطراف البنان من التقى
ويخرجن جنح الليل معتجرات قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة.

ودل قوله)لقلوبكم ولقلوبهن(أن الأمر متوجه لرجال الأمة ولنساء النبي صلى الله عليه وسلم على السواء. وقد ألحق بأزواج النبي عليه السلام ببنته فاطمة فلذلك لما خرجوا بجنازتها جعلوا عليها قبة حتى دفنت، وكذلك قبة على زينب بنت جحش في خلافة عمر بن الخطاب.

)وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزوجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما[53](لما جيء في بيان النهي عن المكث في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يؤذيه أتبع بالنهي عن أذك النبي صلى الله عليه وسلم نهيا عاما، فالخطاب في)لكم(للمؤمنين المفتتح بخطابهم آية)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم(الآية.

والواو عاطف جملة على جملة أو هي واو الاعتراض بين جملة) وإذا سألتموهن متاعا(وجملة)لا جناح عليهن في آبائهن(.

ودلت جملة)ما كان لكم(على الحظر المؤكد لأن)ما كان لكم(نفي للاستحقاق الذي دلت عليه اللام، وإقحام فعل)كان(لتأكيد انتفاء الإذن.

وتضمنت هذه الآية حكمين: أحدهما : تحريم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأذى: قول بقال له، أو فعل يعامل به، من شأنه أن يغضبه أو يسوء لذاته.

والأذى تقدم في أول هذه الآيات آنفا. والمعنى : أن أذى النبي صلى الله عليه وسلم محظور على المؤمنين. وانظر الباب الثالث من القسم الثاني من كتاب الشفاء لعياض.

والحكم الثاني: تحريم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بقوله)ولا أن تنكحوا أزواجه من بعجه أبدا(وهو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله)وأزواجه أمهاتهم(.

وقد حكيت أقوال في سبب نزول هذه الآية: منها أن رجلا قال: لو مات محمد تزوجت عائشة، أي قال بمسمع ممن نقله عنه فقيل هذا الرجل من المنافقين وهذا هو المضنون بقائل ذلك. وقيل هو

من المؤمنين، أي خطر ذلك في نفسه قاله القرطبي. وذكروا رواية عن ابن عباس وعن مقاتل أنه طلحة بن عبيد الله.

صفحة : 3390

وقال ابن عباس: كانت هفوة منه وتاب وكفر بالحج ماشيا وبإعتاق رقاب كثيرة وحمل في سبيل الله على عشرة أفراس أو أبعرة. وقال ابن عطية: هذا عندي لا يصح على طلحة والله عاصمه من ذلك، أي أن حمل على ظاهر صدور القول منه فأما أن كان خطر له ذلك في نفسه فذلك خاطر شيطاني أراد تطهير قلبه فيه بالكفارات التي أعطاها إن صح ذلك. وأقول لا شك أنه من موضوعات الذين يطعنون في طلحة ابن عبيد الله. وهذه الأخبار واهية الأسانيد ودلائل الوضع واضحة فأن طلحة إن كان قال ذلك بلسانه لم يكن ليخفي على الناس فكيف يتفرد بروايته من أنفرد. وان كان خطر ذلك في نفسه ولم يتكلم به فمن ذا الذي أطلع على ما في قلبه، وليس بمتعين أن يكون لنزول هذه الآية سبب. فإن كانة لها سبب فلا شك أنه قول بعض المنافقين لما يؤذن به قوله تعالى عقب هذه الآيات)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض(الآية. وإنما شرعت الآية أن حكم أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حكم دائم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من بعده ولذلك اقتصر هنا على التصريح بأنه حكم ثابت من بعد، لأن ثبوت ذلك في حياته قد علم من قوله) وأزواجه أمهاتهم(.

وإضافة البعدية إلى ضمير ذات النبي عليه الصلاة والسلام تعين أن المراد بعد حياته كما هو الشائع في استعمال مثل هذه الإضافة فليس المراد بعد عصمته من نحو الطلاق لأن النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه غير محتمل شرعا لقوله)ولا أن تبدل بهن من أزواج(.

وأكد ظرف)بعد(بإدخال)من(الزائدة عليه، ثم أكد عمومه بظرف)أبدا(ليعلم أن ذلك لا يتطرقه النسخ ثم زيد ذلك تأكيدا وتحذيرا بقوله)إن ذلكم كان عند الله عظيما(،فهو استئناف مؤكد لمضمون جملة)وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله(. والإشارة إلى ما ذكر من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم وتزوج أزواجه، أي ذلكم المذكور. والعظيم هنا في الإثم والجريمة بقرينة المقام.

وتقييد العظيم بكونه عند الله للتهويل والتخويف لأنه عظيم في الشناعة. وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي صلى الله

عليه وسلم إثما عظيما عند الله، أن الله جعل نساء النبي عليه الصلاة والسلام أمهات للمؤمنين فاقتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرء أمه، وذلك إثم عظيم.
وأعلم أنه لم يتبين هل التحريم الذي في الآية يختص بالنساء اللاتي بنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو هو يعم كل امرأة عقد عليها مثل الكندية التي استعادة منه فقال لها: الحقي بأهلك ، فتزوجها الأشعث بن قيس في زمن عمر بن الخطاب ومثل قتيلة بنت قيس الكلبية التي زوجها أخوها الأشعث بن قيس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حملها معه إلى حضرموت فتوفي رسول الله قبل قفولهما فتزوجها عكرمة بن أبي جهل وأن أبا بكر هم بعقابه فقال له عمر: إن رسول الله لم يدخل بها .
والمرويات في هذا الباب ضعيفة. والذي عندي أن البناء والعقد كانا يكونان مقترنين وأن ما يسبق البناء مما يسمونه تزويجا فإنما هو مراكنة ووعد ويدل لذلك ما في الصحيح أن رسول الله لما أحضرت إليه الكندية ودخل عليها رسول الله فقال لها: هبي لي نفسك أي ليعلم أنها رضيت بما عقد لها وليها فقالت: ما كان لملكة أن تهب نفسها لسوقة أعوذ بالله منك. فقال لها: لقد استعذت بمعاذ. فذلك ليس بطلاق ولكنه رجوع عن التزوج بها دال على أن العقد لم يقع وأن قول عمر لأبي بكر أو قول من قال لعمر: إن رسول الله لم يدخل بها هو كناية عن العقد.
وعن الشافعي تحريم تزوج من عقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم. إمام الحرمين والرافعي أن التحريم قاصر على التي دخل بها. على أنه يظهر أن الإضافة في قوله)أزواجه(بمعنى لام العهد، أي الأزواج اللائي في شأنهن هذه الآيات من قوله)لا يحل لك النساء من بعد(فهن اللاء ثبت لهن حكم الأمهات.
وبعد فإن البحث في هذه المسألة تفقه لا يبنى عليه عمل.
)إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما[54](

صفحة : 3391

كلام جامع تحريضا وتحذيرا ومنبئ عن وعيد، فإن ما قبله قد حوى أمرا ونهيا، وإذ كان الامتثال متفاوتا في الظاهر والباطن وبخاصة في النوايا والمضمرات كان المقام مناسبا لتنبيههم بأن الله مطلع على كل حال من أحوالهم في ذلك وعلى كل شيء،فالمراد من شيئا الأول شيء مما يبدونه أو يخفونه وهو يعم كل ما يبدو وما يخفى لأن النكرة في سياق الشرط تعم.والجملة تذييل لما اشتملت عليه من العموم في قوله)بكل شيء(. وإظهار لفظ شيء

هنا دون إضمار لأن الإضمار لا يستقيم لأن الشيء المذكور ثانيا هو غير المذكور أولا، إذ المراد بالثاني جميع الموجودات والمراد بالأول خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة،فالله عليم بكل كائن ومن جملة ذلك ما يبدونه ويخفونه من أحوالهم.

)لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولاما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا[55](تخصيص من عموم الأمر بالحجاب الذي اقتضاه قوله)فاسألوهن من وراء حجاب(. وإنما رفع الجناح عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها على أنهن مأمورات بالحجاب كما أمر رجال المسلمين بذلك معهن فكان المعنى: لا جناح عليهن ولا عليكم، كما أن معنى)فاسألوهن من وراء حجاب(أنهن أيضا يجبن من وراء حجاب كما تقدمت الإشارة إلية بقوله)ذلكن أطهر لقلوبكم وقلوهن(.

والظرفية المفادة من حف)في(مجازية شائعة في مثله، يقال: لا جناح عليك في كذا، فهو كالحقيقة فلا تلاحظ فيه الاستعارة، والمجرور مقدر فيه مضاف تقديره: في رؤية آبائهن إياهن، وإنما رجح جانبهن هنا لأنه في معنى الإذن، لأن الرجال مأمورون بالاستئذان كما أقتضته آية سورة النور والإذن يصدر منهن فلذلك رجح هنا جانبهن فأضيف الحكم إليهن.

والنساء أسم جمع: امرأة لا مفرد له من لفظه في كلامهم، وهن الإناث البالغات أو المراهقات.

والمراد ب)نسائهن(جميع النساء، فإضافته إلى ضمير الأزواج اعتبار بالغالب لأن الغالب أن تكون النساء اللاتي يدخلن إلى أمهات المؤمنين نساء اعتدن أن يدخلن عليهن، والمراد جميع النساء.

ولم يذكر من أصناف الأقرباء والأعمام ولا الأخوال لأن ذكر أبناء الإخوان وأبناء الأخوات يقتضي اتحاد الحكم،من أنه لما رفع الحرج عنهن في الأعمام والأخوال كذلك،وأما قرابة الرضاعة فمعلومة من السنة فأريد الاختصار هنا إذ المقصود التنبيه على تحقيق الحجاب ليفضي إلى قوله)واتقين الله(.

والتفت من الغيبة إلى خطابهن)واتقين الله(لتشريف نساء النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه الخطاب الإلهي إليهن.

والشهيد: الشاهد مبالغة في الفعل.

)إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلما[56](أعقبت أحكام معاملة أزواج النبي عليه الصلاة والسلام بالثناء عليه وتشريف مقامه إيماء إلى أن تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبي عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أن لأزواجه من ذلك التشريف حظا عظيما.

ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه التي علمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه كما سيأتي قريبا، وليجعل ذلك تمهيدا لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بالثناء والدعاء والتعظيم، وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالا لصلاة أشرف المخلوقات على الرسول لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك،والتأكيد للاهتمام. ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر،وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم،والصلاة من الله والملائكة تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)هو الذي يصلي عليكم وملائكته(لأن عظمة مقام النبي يقتضي عظمة الصلاة عليه.

وجملة)يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه(هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيدا لأن الله لما حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا

صفحة : 3392

أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا، عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربهم فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة)يا أيها الذين آمنوا(بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد. وجئ في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم إسوة بصلاة الله وملائكته.

والأمر بالصلاة عليه معناه:إيجاد الصلاة،وهي الدعاء،فالأمر يؤول إلى إيجاد أقوال فيها دعاء وهو مجمل في الكيفية.

والصلاة: ذكر بخير، وأقوال تجلب الخير، فلا جرم كان الدعاء هو أشهر مسميات الصلاة،فصلاة الله: كلامه الذي يقدر به خيرا لرسوله صلى الله عليه وسلم لأن حقيقة الدعاء في جانب الله معطل لأن الله هو الذي يدعوه الناس،وصلاة الملائكة والناس : استغفار ودعاء بالرحمات.

وظاهر الأمر أن الواجب كل كلام فيه دعاء للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن الصحابة لما نزلت هذه الآية سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن كيفية هذه الصلاة قالوا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك ؟ يعنون أنهم علموا السلام عليه من صيغة بث السلام بين المسلمين وفي التشهد فالسلام بين المسلمين صيغته: السلام عليكم. والسلام في التشهد السلام عليك

أيها النبي ورحمة الله وبركاته أو السلام على النبي ورحمته الله وبركاته فقال رسول الله: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد . هذه رواية مالك في الموطأ عن أبي حميد الساعدي.

وروي أيضا عن أبي مسعود الأنصاري بلفظ وعلى آل محمد عن أزواجه وذريته في الموضعين وبزيادة في العالمين ، قبل إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم . وهما أصح ما روي كما قال أبو بكر بن العربي. وهناك روايات خمس أخرى متقاربة المعنى وفي بعضها زيادة وقد استقصاها ابن العربي في أحكام القرآن. ومرجع صيغها إلى توجه إلى الله بأن يفيض خيرات على رسوله صلى الله عليه وسلم لأن معنى الصلاة الدعاء، ودعاء المؤمنين ليتوجب إلا إلى الله.

وظاهر صيغة الأمر مع قرينة السياق يقتضي وجوب أن يصلي المؤمن على النبي صلى الله عليه وسلم،إلا أنه كان مجملا في العدد فمحمله محمل الأمر المجمل أن يفيد المرة لأنها ضرورية لإيقاع الفعل ولمقتضى الأمر. ولذلك اتفق فقهاء الأمة على أن واجبا على كل مؤمن أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مرة في العمر فجعلوا وقتها العمر كالحج.وقد اختلفوا فيما زاد على ذلك في حكمه ومقداره، ولا خلاف في استحباب الإكثار من الصلاة عليه وخاصة عند وجود أسبابها.قال الشافعي وإسحاق ومحمد بن المواز من المالكية واختاره أبو بكر بن العربي من المالكية:إن الصلاة عليه فرض في الصلاة فمن تركها بطلت صلاته. قال إسحاق: ولو كان ناسيا.

وظاهر حكاياتهم عن الشافعي أن تركها إنما يبطل الصلاة إذا كان عمدا وكأنهم جعلوا ذلك بيانا للإجمال الذي في الأمر من جهة الوقت والعدد، فجعلوا الوقت هو إيقاع الصلاة للمقارنة بين الصلاة والتسليم وراد في التشهد، فتكون الصلاة معه على نحو ما استدل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من قوله: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإذا كان هذا مأخذهم فهو ضعيف لأن الآية لم ترد في مقام أحكام الصلاة، وإلا فليس له أن يبين مجملا بلا دليل.

وقال جمهور العلماء: هي في الصلاة مستحبة وهي في التشهد الأخير وهو الذي جرى عليه الشافعية أيضا. قال الخطابي: ولا أعلم للشافعي فيها قدوة وهو مخالف لعمل السلف قبله،وقد شنع عليه في هذه المسألة جدا.وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم والذي اختاره الشافعي ليس فيه الصلاة على النبي كذلك كل من روى التشهد عن رسول الله. قال ابن عمر: كان أبو

بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان في الكتاب، وعلمه أيضا على المنبر عمر، وليس في شيء من ذلك ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. قلت: فمن قال إنها سنة في الصلاة فإنما أراد المستحب.
وأما حديث لا صلاة لمن لم يصل علي فقد ضعفه أهل الحديث كلهم.

صفحة : 3393

ومن أسباب الصلاة عليه أن يصلي عليه من جرى ذكره عنده، وكذلك في افتتاح الكتب والرسائل، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد،وفي التشهد الأخير.
وفي التوطئة للأمر بالصلاة على النبي بذكر الفعل المضارع في) يصلون(إشارة إلى الترغيب في الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تأسيا بصلاة الله وملائكته.
واعلم أنا لم نقف على أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون على النبي كلما ذكر اسمه ولا أن يكتبوا الصلاة عليه إذا كتبوا اسمه ولم نقف على تعيين مبدأ كتابة ذلك بين المسلمين.
والذي يبدوا أنهم كانوا يصلون على النبي إذا تذكروا بعض شؤونه كما كانوا يترحمون على الميت إذا ذكروا بعض محاسنه. وفي السيرة الحلبية لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترى عمر من الدهش ما هو معلوم وتكلم أبو بكر بما هو معلوم قال عمر إنا لله وإنا إليه راجعون صلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله وروى البخاري في باب: متى يحل المعتمر: عن أسماء بنت أبي بكر أنها كانت تقول كلما مرت بالحجون صلى الله على رسوله محمد وسلم لقد نزلنا معه ههنا ونحن يومئذ خفاف إلى آخره.
وفي باب ما يقول عند دخول المسجد من جامع الترمذي حديث فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة الكبرى قالت: كان رسول الله إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد وسلم وقال: رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك قال الترمذي: حديث حسن وليس إسناده بمتصل.

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن الأثير في التاريخ الكامل في حوادث سنة خمس وأربعين ومائة :أن عبد الله بن مصعب بن ثابت رثى محمدا النفس الزكية بأبيات منها:

والله لو شهد النبي محـمـد صلى

الإله على النبي وسلما ثم أحدثت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أوائل الكتب في زمن هارون الرشيد ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل في سنة إحدى وثمانين ومائة، وذكره عياض في الشفاء، ولم يذكرا صيغة التصلية. وفي المخصص لابن سيده في ذكر الخف والنعل: إن أبا محلم بعث إلى حذاء بنعل ليحذوها وقال له ثم سن شفرتك وسن رأس الإزميل ثم سم باسم الله وصل على محمد ثم أنحها إلى أخره.

ولا شك أن إتباع اسم النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه في كتب الحديث والتفسير وغيرها كان موجودا في القرن الرابع وقد وقفت على قطعة عتيقة من تفسير يحيى بن سلام البصري مؤرخ نسخها سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة فإذا فيها الصلاة على النبي عقب ذكره اسمه.

وأحسب أن الذين سنوا ذلك هم أهل الحديث قال النووي في مقدمة شرحه على صحيح مسلم يستحب لكاتب الحديث إذا مر ذكر الله أن يكتب عز وجل،أو تعالى،أو سبحانه وتعالى، أو تبارك وتعالى، أو جل ذكره، أو تبارك اسمه، أو جلت عظمته، أو ما أشبه ذلك، وكذلك يكتب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكاملها لا رامزا إليها ولا مقتصرا على بعضها، ويكتب ذلك وإن لم يكن مكتوبا في الأصل الذي ينقل منه فإن هذا ليس رواية وإنما هو دعاء. وينبغي للقارئ أن يقرأ كل ما ذكرناه وإن لم يكن مذكورا في الأصل الذي يقرأ منه ولا يسأم من تكرر ذلك، ومن أغفل ذلك حرم خيرا عظيما اه.

وقوله)وسلموا تسليما(القول فيه كالقول في)صلوا عليه(حكما ومكانا وصفه فإن صفته حددت بقول النبي صلى الله عليه وسلم والسلام كما قد علمتم فإن المعلوم هو صيغته التي في التشهد السلام عليك أيها النبي ورحمه الله وبركاته وكان ابن عمر يقول فيه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم السلام على النبي ورحمه الله وبركاته والجمهور أبقوا لفظه على اللفظ الذي كان في حياة النبي عليه الصلاة والسلام رعيا لما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه حي يبلغه تسليم أمته عليه.

ومن أجل هذا المعنى أبقيت له صيغة التسليم على الأحياء وهي الصيغة التي يتقدم فيها لفظ التسليم على المتعلق به لأن التسليم على الأموات يكون بتقديم المجرور على لفظ السلام. وقد قال

رسول الله للذي سلم فقال: عليك السلام يا رسول الله فقال له إن عليك السلام تحية الموتى، فقل: السلام عليك .

صفحة : 3394

والتسليم مشهور في التحية بالسلام، والسلام فيه بمعنى الأمان والسلامة وجعل تحية في الأولين عند اللقاء مبادأة بالتأمين من الاعتداء والثار ونحو ذلك إذ كانوا إذ اتقوا أجدا توجسوا خيفة أن يكون مضمرا شرا لملاقيه،فكلاهما يدفع ذلك الخوف بالإخبار بأنه ملق على ملاقيه سلامة وأمنا.ثم شاع ذلك حتى صار هذا اللفظ دالا على الكرامة والتلطف، قال النابغة:

أتاركة تدللها قـطـام وضنا بالتحية

والسلام ولذلك كان قوله تعالى)وسلموا(غير مجمل ولا محتاج إلى بيان فلم يسأل عنه الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: هذا السلام قد عرفناه، وقال لهم: والسلام كما قد علمتم، أي كما قد علمتم من صيغة السلام بين المسلمين ومن ألفاظ التشهيد في الصلاة.

وإذا قد كانت صيغة السلام معروفة كان المأمور به هو ما يماثل تلك الصيغة أعني أن نقول: السلام على النبي أو عليه السلام، وأن ليس ذلك بتوجه إلى الله تعالى بأن يسلم على النبي بخلاف التصلية لما علمت مما اقتضى ذلك فيها.

والآية تضمنت الأمر بشيئين: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه، ولم تقتض جمعهما في كلام واحد وهما مفرقان في كلمات التشهد فالمسلم مخير بين أن يقرن بين الصلاة والتسليم بأن يقول: صلى الله على محمد والسلام عليه، أو أن يقول: اللهم صل على محمد والسلام على محمد، فيأتي في جانب التصلية بصيغة طلب ذلك من الله،وفي جانب التسليم بصيغة إنشاء السلام بمنزلة التحية له، وبين أن يفرد الصلاة ويفرد التسليم وهو ظاهر الحديث الذي رواه عياض في الشفاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقت جبريل فقال لي: أبشرك أن الله يقول: من سلم عليك سلمت عليه ومن صلى عليك صليت عليه. وعن النووي أنه قال بكراهة إفراد الصلاة والتسليم، وقال ابن حجر: لعله أراد خلاف الأولى. وفي الاعتذار والمعتذر عنه نظر إذ لا دليل على ذلك.

وأما أن يقال: اللهم سلم على محمد، فليس بوارد فيه مسند صحيح ولا حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عنه إلا بصيغة إنشاء السلام مثل ما في التحية، ولكنهم تسامحوا في حالة

الاقتران بين التصلية والتسليم فقالوا: صلى الله عليه وسلم، لقصد الاختصار فيما نرى. وقد استمر عليه عمل الناس من أهل العلم والفضل وفي حديث أسماء بنت أبي بكر المتقدم أنها قالت صلى الله على محمد وسلم .

ومعنى تسليم الله عليه إكرامه وتعظيمه فإن السلام كناية عن ذلك.

وقد استحسن أئمة السلف أن يجعل الدعاء بالصلاة مخصوصا بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وعن مالك: لا يصلى على غير نبينا من الأنبياء. يريد أن تلك هي السنة، وروي مثله عن ابن عباس، وروي عن عمر بن عبد العزيز: أن الصلاة خاصة بالنبيين كلهم.

وأما التسليم في الغيبة فمقصور عليه وعلى الأنبياء والملائكة لا يشركهم فيه غيرهم من عباد الله الصالحين لقوله تعالى)سلام على نوح في العالمين(، وقوله)سلام على آل ياسين(،)سلام على موسى وهارون(،)سلام على إبراهيم(.

وانه يجوز إتباع آلهم وأصحابهم وصالحي المؤمنين إياهم في ذلك دون استقلال.هذا الذي استقر عليه اصطلاح أهل السنة ولم يقصدوا بذلك تحريما ولكنه اصطلاح وتمييز لمراتب رجال الدين، كما قصروا الرضى على الأصحاب وأئمة الدين، وقصروا كلمات الإجلال نحو :تبارك وتعالى،وجل جلاله،على الخالق دون الأنبياء والرسل.

وأما الشيعة فإنهم يذكرون التسليم على علي وفاطمة وآلهما، وهو مخالف لعمل السلف فلا ينبغي اتباعهم فيه لأنهم قصدوا به الغض من الخلفاء والصحابة.

وانتصب)تسليما(على أنه مصدر مؤكد ل)سلموا(وإنما لم يؤكد الأمر بالصلاة عليه بمصدر فيقال: صلوا عليه صلاة، لأن الصلاة غلب إطلاقها على معنى الاسم دون المصدر، وقياس المصدر التصلية ولم يستعمل في الكلام لأنه اشتهر في الإحراق، قال تعالى)وتصليه جحيم(، على أن الأمر بالصلاة عليه قد حصل تأكيده بالمعنى لا بالتأكيد الاصطلاحي فإن التمهيد له بقوله)إن الله وملائكته يصلون على النبي(مشير إلى التحريض على الاقتداء بشأن الله وملائكته.

)إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا[57](

صفحة : 3395

لما أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وتكريمه وحذرهم مما قد يخفي على بعضهم من خفي

الأذى في جانبه بقوله)أن ذلكم كان يؤذي النبي(وقوله)وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله(الآية، وعلمهم كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله)ولا مستأنسين لحديث(وقوله)ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما(وقوله)إن الله وملائكته يصلون على النبي(الآية، وعلم أنهم قد امتثلوا أو تعلموا أردف ذلك بوعيد قوم أتسمو بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام فأعلم الله المؤمنين بأن أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة ليعلم المؤمنين أن أولئك ليس من الإيمان في شئ في شيء وأنهم منافقون لأن مثل هذا الوعيد لا يعهد إلا للكافرين.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأنه يخطر الأذى كثير ممن يسمع الآيات السابقة أن يتساءلوا عن حال قوم قد علم منهم قلة التحرز من أذى الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يليق بتوقيره.

وجئ باسم الموصول للدلالة على أنهم عرفوا بأن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم من أحوالهم المختصة بهم، ولدلالة الصلة على أن أذى النبي صلى الله عليه وسلم هو علة لعنهم وعذابهم.

واللعن: الإبعاد عن الرحمة وتحقير الملعون. في الدنيا محقرون عند المسلمين ومحرومون من لطف الله وعنايته وهم في الآخرة محقرون بالإهانة في الحشر وفي الدخول في النار.

والعذاب المهين: هو عذاب جهنم في الآخرة وهو مهين لأنه عذاب مشيب بتحقير وخزي.

والقرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أن أذى الرسول صلى الله عليه وسلم يغضب الله تعالى فكأنه أذى لله.

وفعل)يؤذون(معدى إلى أسم الله على معنى المجاز المرسل في اجتلاب غضب الله وتعديته إلى الرسول حقيقة. فاستعمل)يؤذون(في معنييه المجازي والحقيقي.

ومعنى هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم من آذاني فقد آذى الله وأذى الرسول عليه الصلاة والسلام يحصل بالإنكار عليه فيما يفعله،وبالكيد له، وبأذى أهله مثل المتكلمين في الإفك، والطاعنين أعماه، كالطعن في إمارة زيد وأسامة،والطعن في أخذه صفية لنفسه. وعن ابن عباس أنها نزلت في الذين طعنوا في اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي لنفسه .

)والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتنا وإثما مبينا[58](ألحقت حرمة المؤمنين بحرمة الرسول صلى الله عليه وسلم تنويها بشأنهم، وذكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا من الاستطراد

معترض بين أحكام حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وآداب أزواجه وبناته المؤمنات.
وعطف)المؤمنات(على)المؤمنين(للتصريح بمساواة الحكم وأن كان ذلك معلوما من الشريعة، لوزع المؤذين عن أذى المؤمنات لأنهن جانب ضعيف بخلاف الرجال فقد يزعهم عنهم اتقاء غضبهم وثأرهم لأنفسهم.
والمراد بالأذى: أذى القول بقرينه قوله)فقد احتملوا بهتانا(لأن البهتان من أنواع الأقوال وذلك تحقير لأقوالهم، وأتبع ذلك التحقير بأنه أثم مبين. والمراد بالمبين العظيم القوي، أي جرما من أشد الجرم، وهو وعيد بالعقاب عليه.
وضمير)اكتسبوا(عائد إلى المؤمنين والمؤمنات على سبيل التغليب،والمجرور في موضع الحال. وهذا الحال لزيادة تشنيع ذلك الأذى بأنه ظلم وكذب.
وليس المراد بالحال تقييد الحكم حتى يكون مفهومه جواز أذى المؤمنين والمؤمنات بما اكتسبوا، بعمل أي أن يسبوا بعمل ذميم اكتسبوه لأن الجزاء على ذلك ليس موكولا لعموم الناس ولكنه موكول إلي ولاة لأمور كما قال تعالى)واللذان يأتيانها منكم فآذوهما(. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وقال هي أن تذكر أخاك بما يكره. فقيل: وإن كان حقا. قال: إن كان غير حق فذلك البهتان فأما تغيير المنكر فلا يصحبه أذى.
وما صدق الموصول في قوله)ما اكتسبوا(سيئا، أي بغير ما اكتسبوا من سيئ. ومعنى)احتملوا(كلفوا أنفسهم حملا، وذلك تمثيل للبهتان بحمل ثقيل على صاحبه، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى) ومن يكسب خطيئة أو أثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا(في سورة النساء.

صفحة : 3396

)يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما[59](أتبع النهي عن أذى المؤمنات بأن أمرن باتقاء أسباب الأذى لأن من شأن المطالب السعي في تذليل وسائلها كما قال تعالى)ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها(وقال أبو الأسود:
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس وهذا يرجع إلى قاعدة التعاون على إقامة المصالح وإماتة المفاسد. وفي الحديث رحم الله والدا أعان

ولده على بره . وهذا الحديث ضعيف السند لكنه صحيح المعنى لأن بر الوالدين مطلوب،فالإعانة عليه إعانة على وجود المعروف والخير.

وابتدئ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته لأنهن أكمل النساء،فذكرهن من ذكر بع أفراد العام للاهتمام به.

والنساء: اسم جمع للمرأة لا مفرد له من فضله، وقد تقد آنفا عند قوله تعالى)ولا نسائهن(. فليس المراد بالنساء هنا أزواج المؤمنين بل المراد الإناث المؤمنات، وإضافته إلى المؤمنين على معنى) من(أي النساء من المؤمنين.

والجلابيب: جمع جلباب وهو ثوب أصغر من الرداء وأكبر من الخمار والقناع، تضعه المرأة على رأسها فيتدلى جانباه على عذاريها وينسدل سائره على كتفيها وظهرها، تلبسه عند الخروج والسفر.

وهيئات ليس الجلابيب مختلفة باختلاف أحوال النساء تبينها العادات. والمقصود هو ما دل عليه قوله تعالى)ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين(.

والإدناء: التقريب، وهو كناية عن اللبس والوضع،أي يضعن عليهن جلابيبهن، وقال بشار:

ليلة تلبس البياض من الشهر وأخرى تدني جلابيب سودا فقابل ب)تدنى(تلبس فالإدناء هنا اللبس.

وكان لبس الجلباب من شعار الحرائر فكانت الإماء لا يلبسن الجلابيب.

وكانت الحرائر يلبسن الجلابيب عند الخروج إلى الزيارات ونحوها فكن لا يلبسنها في الليل وعند الخروج إلى المناصع، وما كن يخرجن إليها إلا ليلا فأمرن بلبس الجلابيب في كل الخروج ليعرف أنهن حرائر فلا يتعرض إليهن شباب الدعار يحسبهن إماء أو يتعرض إليهن المنافقون استخفافا بهن بالأقوال التي تخجلهن فيتأذين من ذلك وربما يسببن الذين يؤذونهن فيحصل أذى من الجانبين. فهذا من سد الذريعة.

والإشارة)بذلك(إلى الإدناء المفهوم من)يدنين(، أي ذلك اللباس أقرب إلى يعرف أنهن حرائر بشعار الحرائر فيتجنب الرجال إيذاءهن فيسلموا وتسلمن.

وكان عمر بن الخطاب مدة خلافته يمنع الإماء من التقنع كي لا يلتبسن بالجرائر ويضرب من تتقنع منهن بالدرة ثم زال ذلك بعده،فذلك قول كثير: هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المحاجر لا يقرأن بالسور والتذليل بقوله)وكان الله غفورا رحيما(صفح عما سبق من أذى الحرائر قبل تنبيه الناس إلى هذا الأدب الإسلامي، والتذييل يقتضي إنهاء الغرض.

)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا[60] ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتلا[61](انتقال من زجر قوم عرفوا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمؤمنات، ومن توعدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا بشرعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك للعلم بأن لا ينفع في أولئك وعيد الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث،وأولئك هم المنافقون الذين أبتدئ التعريض بهم من قوله تعالى)وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله(إلى قوله)عظيما(،ثم من قوله)إن الذين يؤذون الله ورسوله(إلى قوله)ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين(.

وصرح هنا بما كني عنه في الآيات السالفة إذ عبر عنه بالمنافقين فعلم أن الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لف لفهم.

و)الذين في قلوبهم مرض(قد ذكرناهم في أول السورة وهم المنطوون على النفاق أو التردد في الإيمان.

والمرجفون: في المدينة هم المنافقون، فالأوصاف الثلاثة لشيء واحد قاله أبو رزين.

وجملة)لئن لم ينته(استئناف ابتدائي. وحذف مفعول)ينته(لظهوره، أي لم ينتهوا عن أذى الرسول والمؤمنين.

صفحة : 3397

والإرجاف: إشاعة الأخبار. وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس ليطمئن السامعون لها مرة بعد مره بأنها صادقه لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل.

فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ومعنى الإرجاف هنا: أنهم يرجفون بما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمسلمات، ويتحدثون عن سرايا المسلمين فيقولون:هزموا أو أسرع فيهم القتل أو نحو ذلك لإيقاع الشك في نفوس الناس والخوف وسوء ضن بعضهم ببعض. وهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض واتباعهم وهم الذين قال الله فيهم)وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به(في سورة النساء. فهذه الأوصاف لأصناف من الناس. كان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين لأن قوله عقبه)لنغرينك بهم(لا يساعد أن فيهم مؤمنين.

واللام في)لئن(موطئة للقسم، فالكلام بعدها قسم محذوف. والتقدير:والله لئن لم ينته.
وللام في)لنغرينك(لام جواب القسم، وجواب القسم دليل على جواب الشرط.
والإغراء: الحث والتحريض على فعل. ويتعدى فعله بحرف)على(والباء، والأكثر أن تعديته ب)على(تفيد حثا على الفعل مطلقا في حد ذاته وأن تعديته بالباء تفيد حثا على الإيقاع بشخص لأن الباء للملابسة. فالمغرى علية ملابس لذات المجرور بالباء،أي واقعا عليها. فلا يقال:أغريته به، إذا حرضه على إحسان إليه.
فالمعنى: لنغرينك بعقوبتهم، أي بأن تغري المسلمين بهم كما دل عليه قوله)أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا(فإذا حل ذلك بهم انجلوا عن المدينة فائزين بأنفسهم وأموالهم وأهليهم.
واختير عطف جملة)لا يجاورونك(ب)ثم(دون الفاء للدلالة على تراخي انتفاء المجاورة عن الإغراء بهم تراخي رتبة لأن الخروج من الأوطان أشد على النفوس مما يلحقها من ضر في الأبدان كما قال تعالى)وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل(أي وفتنة الإخراج من بلدهم أشد عليهم من القتل.
واستثناء)إلا قليلا(لتأكيد نفي المجاورة وأنه ليس على طريقة المبالغة أي لا يبقون معك في المدينة إلا مدة قليلة، وهي ما بين نزول الآية والإيقاع بهم.و)قليلا(صفة لمحذوف دل عليه)يجاورون(أي جوارا قليلا، وقلته باعتبار مدة زمنه. وجعله صاحب الكشاف صفه لزمن محذوف فإن وقوع ضميرهم في حيز النفي يقتضي إفرادهم، وعموم الأشخاص يقتضي عموم أزمانها فيكون منصوبا على الوصف لاسم الزمان وليس هو ظرفا.
و)ملعونين(حال مما تضمنه)قليلا(من معنى الجوار. فالجوار مصدر يتحمل ضمير صاحبه لأن أصل المصدر أن يضاف إلى فاعله، والتقدير: إلا جوارهم ملعونين. وجعل صاحب الكشاف)
ملعونين(مستثنى من أحوال بأن يكون حرف الاستثناء دخل على الظرف والحال كما في قوله تعالى)إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه(. وبون ما بين هذا وبين ما نظره به لأن ذلك مشتمل على ما يصلح مجيء الحال منه.والوجه هنا هو ما سلكناه في تقدير نظمه.
واللعن: الإبعاد والطرد.وتقدم قوله تعالى)وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين(في سورة الحجر،وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنب في المدينة، أي يعاملهم المسلمون بتجنبهم عن مخالطتهم ويبتعدون هم من المؤمنين اتقاء ووجلا فتضمن أن يكونوا متوارين مختفين

خوفا من بطش المؤمنين بهم حيث أغراهم النبيصلى الله عليه وسلم، ففي قوله)ملعونين(إيجاز بديع.
وقوله)أيما ثقفوا(ظرف مضاف إلى جملة وهو متعلق ب)ملعونين(لأن)ملعونين(حال منهم بعد صفتهم بأنهم في المدينة، فأفاد عموم أمكنة المدينة. وأينما : اسم زمان متضمن معنى الشرط. والثقف: الظفر والعثور على العدو بدون قصد. وقد مهد لهذا الفعل قوله)ملعونين(كما تقدم.
ومعنى)أخذوا(أمسكوا. والأخذ : الإمساك والقبض، أي أسروا، والمراد: أخذت أموالهم إذ أغرى الله النبي صلى الله عليه وسلم بهم.
والتقتيل: قوة القتل. والقوة هنا بمعنى الكثرة لأن الشيء الكثير قوي في أصناف نوعه وأيضا هو شديد في كونه سريعا لا إمهال لهم فيه.

صفحة : 3398

و)تقتيلا(مصدر مؤكد لعامله،أي قتلوا قتلا شديدا شاملا. فالتأكيد هنا تأكيد لتسلط القتل على جميع الأفراد المدلولة لضمير)قتلوا(، لرفع احتمال المجاز في عموم القتل،فالمعنى: قتلوا قتلا شديدا لا يفلت منه أحد.
وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا ولا أنهم خرج منهم أحد.
وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعة منها لأن إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردا صالحا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده . ولهذا شرعت استتابة المرتد قبل قتله ثلاثة أيام تعرض عليه فيها التوبة، وشرعت دعوة الكفار الذين يغزوهم المسلمون إلى دين الإسلام قبل شروع في غزوهم فإن أسلموا وإلا عرض عليهم الدخول في ذمة المسلمين لأن في دخولهم الذمة انتفاعا للمسلمين بجزيتهم والاعتضاد بهم.
وأما قتل القاتل عمدا فشرع فيه مجاراة لقطع الأحقاد من قلوب أولياء القتيل لئلا يقتل بغض الأمة بعضا، إذا لا دواء لتلك العلة إلا القصاص. ولذلك رغب الشرع في العفو وفي قبوله. ومن أجل ذلك قال مالك في آية جزاء الدين يحاربون الله ورسوله: إن)أو(فيها للتنويع لا للتخير فقال: يكون الجزاء بقدر جرم المحارب وكثرة

مقامه في فساده. وكان النفي من الأرض آخر أصناف الجزاء لأن فيه استبقاءه رجاء توبته وصلاح حاله.

)سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[56] (انتصب)سنة الله(على أنه مفعول مطلق نائب عن فعله. والتقدير: سن الله إغراءك بهم سنته في أعداء الأنبياء السالفين وفي الكفار المشركين الذين قتلوا وأخذوا في غزوة بدر وغيرها.

و)الذين خلوا(الذين مضوا وتقدموا. والأظهر أن المراد بهم من سبقوا من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم الذين أذنه الله بقتلهم مثل الذين قتلوا من يهود قريضة. وهذا أظهر لأن ما أصاب أولئك أوقع في الموعظة إذ كان هذان الفريقان على ذكر من المنافقين وقد شهدوا بعضهم وبلغهم خبر بعض.

ويحتمل أيضا أن يشمل)الذين خلوا(الأمم السالفة الذين غضب الله عليهم لأذاهم رسلهم فاستأصلهم الله تعالى مثل قوم فرعون وأضرابهم.

وذيل بجملة)ولن تجد لستة الله تبديلا(لزيادة تحقيق أن العذاب حائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عما هم فيه وأن الله لا يخالف سنته لأنها مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقاتها إلا على سنن واحد.

والمعنى: لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلا. وبهذا العموم الذي أفاده وقوع النكرة في سياق النفي تأهلت الجملة لأن تكون تذييلا.

)يسئلك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا[63](لما كان تهديد المنافقين بعذاب الدنيا يذكر بالخوض في عذاب الآخرة :خوض المكذبين الساخرين، وخوض المؤمنين الخائفين، وأهل الكتاب، اتبع ذلك بهذا.

فالجملة معترضة بين جملة)ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا(وبين جملة)إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا(لتكون تمهيدا لجملة) إن الله لعن الكافرين(.

وتكرر في القرآن ذكر سؤال الناس عن الساعة, والسائلون أصناف: منهم المكذبون بها وهم أكثر السائلين وسؤالهم تهكم واستدلال بإبطائها على عدم وجودها في أنظارهم السقيمة قال تعالى)والذين آمنوا مشفقين منها لا يؤمنون بها(.

وصنف مؤمنون يسألون عنها محبة لمعرفة المغيبات، وهؤلاء نهوا عن الاشتغال بذلك كما في الحديث: أن رجلا سأل رسول الله: متى الساعة ? فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ماذا أعددت لها ? فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم سوى

أنى أحب الله ورسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت .
وصنف يسأل اختيار للنبي صلى الله عليه وسلم لعله يجيب بما يخالف ما في علمهم فيجعلونه حجه بينهم على انتفاء نبوءته ويلعنونه في دهمائهم ليقتلعوا من نفوسهم ما عسى أن يخالطها من النظر في صدق الدعوة المحمدية. وهؤلاء اليهود نظير سؤالهم عن أهل الكهف وعن الروح.

صفحة : 3399

ف)الناس(هنا يعم جميع الناس وهو عموم عرفي، أي جميع الناس الذين من شأنهم الاشتغال بالسؤال عنها إذ كثير من الناس يسأل عن ذلك.وأهل هذه الأصناف الأربعة موجودين بالمدينة حين نزول هذه الآية.
وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في قوله تعالى)يسألونك عن الساعة أيان مرساها(في سورة الأعراف.
والخطاب في قوله)وما يدريك(للرسول صلى الله عليه وسلم.
و)ما(استفهام ما صدقها شيء.
و)يدريك(من أداره، إذا أعلمه. والمعنى: أي شيء يجعل لك دارية.
و)لعل الساعة تكون قريبا(مستأنفة لإنشاء رجاء.
و)لعل(معلفة فعل الإدراء عن العمل، أي في المفعول الثاني والثالث وأما المفعول الأول فهو كاف الخطاب.
والمعنى: أي شيء يدريك الساعة بعيدة أو قريبة لعلها تكون بعيدا، ففي الكلام إحتباك.
والأظهر أن)قريبا(خبر)تكون(وأن فعل الكون ناقص وجيء بالخبر غير مقترن بعلامة التأنيث مع أنه متحمل لضمير المؤنث لفظا)فأن أسم الفاعل كالفعل في اقترانه بعلامة التأنيث إن كان متحملا لضمير مؤنث لفظي(فقيل إنما لم يقترن بعلاقة التأنيث لأن ضمير الساعة جرى عليها بعد تأويلها بالشيء أو اليوم. والذي أختاره جمع من المحققين مثل أبي عبيدة والزجاج وابن عطية أن)قريبا(في مثل هذه الآية ليس خبر عن فعل الكون ولكنه ظرف له وهم يعنون أن فعل الكون تام وأن)قريبا(ظرف زمان لوقوعه. والتقدير :تقع في زمان قريب، فيلزم لفظ)قريب(الإفراد والتذكير على نية زمان أو وقت،وقد يكون ظرف زمان كما ورد في ضده وهو لفظ) بعيد(في قوله:

وإن تمس ابنة السهمي منا بعيدا لا
تكلمنا كـلامـا وقد أشار إلى جواز الوجهين في الكشاف. وهذان الوجهان وإن تأتيا هنا لا يتأتيان في نحو قوله تعالى)إن رحمة الله قريب من المحسنين(.
ويقترن)قريب(و)بعيد(بعلامة التأنيث ونحوها من العلامات الفرعية عند إرادة التوصيف. وكل هذه اعتبارات من توسعهم في الكلام.وتقدم قوله تعالى)إن رحمة الله قريبة من المحسنين(وفي الأعراف فضمه إلى ما هنا.
)إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا[64] خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا[65](.
هذا حظ الكافرين من وعيد الساعة، وهذه لعنة الآخرة قفيت بها لعنة الدنيا في قوله)ملعونين(، ولذلك عطف عليها)وأعد لهم سعيرا(فكانت لعنة الدنيا مقترنة بالأخذ والتقتيل ولعنة الآخرة مقترنة بالسعير.
والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن جملة)ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا(إلى قوله)ولن تجد لسنة الله تبديلا(تثير في نفوس السامعين السؤل عن الاقتصار على لعنهم وتقتيلهم في الدنيا،وهل ذلك منتهى ما عوقبوا به أو لهم نم ورائه عذاب؟ فكان قوله)إن الله لعن الكافرين(الخ جوابا عن ذلك.
وحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو منظور به إلى السامعين من الكافرين.
والتعريف في)الكافرين(يحتمل أن يكون للعهد، أي الكافرين الذين كانوا شاقوا النبي صلى الله عليه وسلم وآذوه وأرجفوا في المدينة وهم المنافقون ومن ناصرهم من المشركين في وقعة الأحزاب ومن اليهود.ويحتمل أن يكون التعريف للاستغراق,أي كل كافر.
وعلى الوجهين فصيغة المضي في فعل)لعن(مستعملة في تحقيق الوقوع،شبه المحقق حصوله بالفعل الذي حصل فأستعير له صيغة الماضي مثل)أتى أمر الله(لأن اللعن إنما يقع في الآخرة وهو مستقبل.وأما حالهم في الدنيا فمثل أحوال المخلوقات يتمتعون برحمة الله في الدنيا من حياة ورزق وملاذ كما هو صريح الآيات والأخبار النبوية قال تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(.
وقد يكون في ظاهر الآية متمسك للشيخ أبي الحسن الأشعري لقوله بانتفاء نعمة الله عن الكافرين خلافا للماتريدي والقاضي أبي بكر الباقلاني والمعتزله ولكنه متمسك ضعيف لأن التحقيق أن الخلاف بينه وبينهم خلاف لفظي يرجع إلى أن حقيقة النعمة ترجع إلى ما لا يعقب.

والسعير: النار الشديدة الإيقاد. وهو فعيل بمعنى مفعول، أي مسعورة.
وأعيد الضمير على السعير في قوله)خالدين فيها(مؤنثا لأن) سعيرا(من صفات النار والنار مؤنثة في الاستعمال.

صفحة : 3400

وجملة)لا يجدون وليا ولا نصيرا(حال من ضمير)خالدين(أي خالدين في حالة انتفاء الولي والنصير عنهم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.
)يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا[66]( )يوم(ظرف يجوز أن يتعلق ب)لا يجدون(أي إن وجدوا أولياء ونصراء في الدنيا من يهود قريضة وخيبر في يوم الأحزاب فيوم تقلب وجوههم في النار لا يجدون وليا يرثى لهم ولا نصيرا يخلصهم. وتكون جملة)يقولون(حلا من ضمير)يقولون(.
ويجوز أن يتعلق الظرف بفعل)يقولون(حلا من ضمير)لا يجدون(.
ويجوز أن ينتصب بفعل محذوف تقديره: أذكر على طريقة نظائره من ظروف كثيرة واردة في القرآن،وتكون جملة)يقولون(حالا من الضمير في)وجوههم(.
والتقليب: شدة القلب. والقلب: تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.
والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشوى لينضج على سواء،ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.
وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد لأن مقر الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والمنافس كقوله تعالى)فمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة(.
وحرف)يا(في قوله)يا ليتنا(للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم مثل)يا حسرتنا(. والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات،وكذلك نحو)يا حسرتنا(أي أن الحسرة غير مجدية.
وقد علموا يومئذ أن ما كان يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله

تعالى فتمنوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.
والألف في آخر قوله)الرسولا(لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة فإنها بنيت على فاصلة الألف وهي ألف الإطلاق إجراء للفواصل مجرى القوافي التي تلحقها ألف الإطلاق.وقد تقدم ذلك في قوله تعالى)وتظنون بالله الظنونا(في هذه السورة، وتقدمت وجوه القراءات في إثباتها في الوصل أو حذفها.
)وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا [67] ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا]68](عطف على جملة) يقولون(فهي حال. وجيء بها في صيغة الماضي لأن هذا القول كان متقدما على قولهم)يا ليتنا أطعنا الله(، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤساهم إلى جهنم، قال تعالى)حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون(. فدل على أن ذلك قبل أن يمسهم العذاب بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب ويطلق إليهم حر النار.
والابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرع والابتهال.
والسادة: جمع سيد. قال أبو علي: وزنة فعلة، أي كملة لكن على غير قياس لأن صيغة فعلة تطرد في جمع فاعل لا في جمع فيعل، فقلبت الواو ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها. وأما السادات فهو جمع الجمع بزيادة ألف وتاء بزنة جمع المؤنث السالم. والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك.
وقرأ الجمهور)سادتنا(. وقرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بألف بعد الدال وبكسر التاء لأنه جمع بألف وتاء مزيدتين على بناء مفرده. وهو جمع الجمع الذي هو سادة.
والكبراء : جمع كبير وهو عظيم العشيرة،وهم دون السادة فإن كبيرا يطلق على رأس العائلة فيقول المرء لأبيه: كبيري، ولذلك قوبل قولهم)يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا(بقولهم)أطعنا سادتنا وكبراءنا(.
وجملة)إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا(خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبراءهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة)ربنا آتهم ضعفين من العذاب(.
ومقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا)إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا(.

وجملة)لا يجدون وليا ولا نصيرا(حال من ضمير)خالدين(أي خالدين في حالة انتفاء الولي والنصير عنهم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

)يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا[66]( )يوم(ظرف يجوز أن يتعلق ب)لا يجدون(أي إن وجدوا أولياء ونصراء في الدنيا من يهود قريضة وخيبر في يوم الأحزاب فيوم تقلب وجوههم في النار لا يجدون وليا يرثى لهم ولا نصيرا يخلصهم. وتكون جملة)يقولون(حلا من ضمير)يقولون(.

ويجوز أن يتعلق الظرف بفعل)يقولون(حلا من ضمير)لا يجدون(.

ويجوز أن ينتصب بفعل محذوف تقديره: أذكر على طريقة نظائره من ظروف كثيرة واردة في القرآن،وتكون جملة)يقولون(حالا من الضمير في)وجوههم(.

والتقليب: شدة القلب. والقلب: تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.

والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشوى لينضج على سواء،ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد لأن مقر الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والمنافس كقوله تعالى)فمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة(.

وحرف)يا(في قوله)يا ليتنا(للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم مثل)يا حسرتنا(. والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات،وكذلك نحو)يا حسرتنا(أي أن الحسرة غير مجدية.

وقد علموا يومئذ أن ما كان يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله تعالى فتمنوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.

والألف في آخر قوله)الرسولا(لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة فإنها بنيت على فاصلة الألف وهي ألف الإطلاق إجراء للفواصل مجرى القوافي التي تلحقها ألف الإطلاق.وقد تقدم ذلك

في قوله تعالى)وتظنون بالله الظنونا(في هذه السورة، وتقدمت وجوه القراءات في إثباتها في الوصل أو حذفها.
)وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا [67] ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا]68[(عطف على جملة) يقولون(فهي حال. وجيء بها في صيغة الماضي لأن هذا القول كان متقدما على قولهم)يا ليتنا أطعنا الله(، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤساهم إلى جهنم، قال تعالى)حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون(. فدل على أن ذلك قبل أن يمسهم العذاب بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب ويطلق إليهم حر النار.
والابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرع والابتهال.
والسادة: جمع سيد. قال أبو علي: وزنة فعلة، أي كملة لكن على غير قياس لأن صيغة فعلة تطرد في جمع فاعل لا في جمع فيعل، فقلبت الواو ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها. وأما السادات فهو جمع الجمع بزيادة ألف وتاء بزنة جمع المؤنث السالم. والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك.
وقرأ الجمهور)سادتنا(. وقرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بألف بعد الدال وبكسر التاء لأنه جمع بألف وتاء مزيدتين على بناء مفرده. وهو جمع الجمع الذي هو سادة.
والكبراء : جمع كبير وهو عظيم العشيرة،وهم دون السادة فإن كبيرا يطلق على رأس العائلة فيقول المرء لأبيه: كبيري، ولذلك قوبل قولهم)يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا(بقولهم)أطعنا سادتنا وكبراءنا(.
وجملة)إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا(خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبراءهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة)ربنا آتهم ضعفين من العذاب(.
ومقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا)إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا(.

فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم، وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه،ويغرون

بمسعول كلامه،ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنبوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه وحرارة أوامه، عادوا عليه باللائمة وهم الأحقاء بملامه.

وحرف التوكيد لمجرد الاهتمام لا لرد إنكار،وتقديم قولهم)إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا(اهتمام بما فيه من تعليل لمضمون قولهم)فأضلونا السبيلا(لأن كبراءهم ما تأتي لهم إضلالهم إلا بتسبب طاعتهم العمياء إياهم واشتغالهم بطاعتهم عن النظر والاستدلال فيما يدعونهم إليه من فساد ووخامة مغبة، وبتسبب وضعهم أقوال سادتهم وكبراءهم موضع الترجيح على ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وانتصب)السبيلا(على نزع الخافض لأن أضل لا يتعدى بالهمزة إلا إلى مفعول واحد قال تعالى)لقد أضلني عن الذكر(. وظاهر الكشاف أنه يتعدى إلى مفعولين، فيكون)ضل(المجرد يتعدى إلى مفعول واحد. تقول: ضللت الطريق، و)أضل(بالهمزة إلى مفعولين. وقاله ابن عطية.

والقول في ألف)السبيلا(كالقول في ألف)الرسولا(.

وإعادة النداء في قولهم)ربنا آتهم ضعفين من العذاب(تأكيد للضراعة والابتهال وتمهيدا لقبول سؤلهم حتى إذا قبل سؤلهم طمعوا في التخلص من العذاب الذي ألقوه على كاهل كبرائهم.

والضعف بكسر الضاد: العدد المماثل للمعدود،فالأربعة ضعف الاثنين.ولما كان العذاب معنى من المعاني لا ذاتا كان معنى تكرير العدد فيه مجازا في القوة والشدة.

وتثنية)ضعفين(مستعملة في مطلق التكرير كناية عن شدة العذاب كقوله تعالى)ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير(فإن البصر لا يخسأ في نظرتين، ولذلك كان قوله هنا)آتهم ضعفين من العذاب(مساويا لقوله)فآتهم عذابا ضعفا من النار(في سورة الأعراف. وهذا تعريض بإلقاء تبعة الضلال عليهم،وأن العذاب الذي أعد لهم يسلط على أولئك الذين أضلوهم.

ووصف اللعن بالكثرة كما وصف العذاب بالضعفين إشارة إلى أن الكبراء استحقوا عذابا لكفرهم وعذابا لتسببهم في كفر أتباعهم.

فالمراد بالكثير الشديد القوي، فعبر عنه بالكثير لمشاكلة معنى التثنية في قوله)ضعفين(المراد به الكثرة.

وقد ذكر في الأعراف جوابهم من قبل الجلالة بقوله)قال لكل ضعف(يعني أن الكبراء استحقوا مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم وأن أتباعهم أيضا استحقوا العذاب لضلالهم ولتسويد سادتهم وطاعتهم العمياء إياهم.

)يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها[69](لما تقضى وعيد الذين يؤذون

الرسول عليه الصلاة والسلام بالتكذيب ونحوه من الأذى المنبعث عن كفرهم من المشركين والمنافقين من قوله)إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة(حذر المؤمنين مما يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم بتنزيههم عن أن يكونوا مثل قوم نسبوا إلى رسولهم ما هو أذى له وهم لا يعبأون بما في ذلك من إغضابه الذي فيه غضب الله تعالى. ولما كان كثير من الأذى قد يحصل عن غفلة أصحابه عما يوجه فيصدر عنهم من الأقوال ما تجيش به خواطرهم قبل التدبر فيما يحف بذلك من الاحتمالات التي تقلعه وتنفيه ودون التأمل فيما يترتب عليه من الواجبات.وكذلك يصدر عنهم من الأعمال ما فيه ورطة لهم قبل التأمل في مغبة عملهم،نبه الله المؤمنين كي لا يقعوا في مثل تلك العنجهية لأن مدارك العقلاء في التنبيه إلى معاني الأشياء وملازماتها متفاوتة المقادير، فكانت حرية بالإيقاظ والتحذير. وفائدة التشبيه تشويه الحالة المشبهة لأن المؤمنين قد تقرر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن كقوله)وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(الآية.

صفحة : 3402

والذين آذوا موسى هم طوائف من قومه ولم يكن قصدهم أذاه ولكنهم أهملوا واجب كمال الأدب والرعاية مع أعظم الناس بينهم. وقد حكى الله عنهم ذلك إجمالا وتفصيلا بقوله)وإذ قال موسى لقومه(الآية فلم يكن هذا الأذى من قبيل التكذيب لأجل قوله)وقد تعلمون أني رسول الله إليكم(والاستفهام في قوله)لم تؤذونني(إنكاري . فكان توجيه الخطاب للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يراعى فيه المشابهة بين الحالين في حصول الإذابة.

فالذين آذوا موسى قالوا مرة)فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون(فآذوه بالعصيان وبضرب من التهكم. وقالوا مرة)أتتخذنا هزؤا(فنسبوه إلى الطيش والسخرية ولذلك قال لهم)أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين(. وفي التوراة في الإصحاح الرابع عشر من الخروج وقالوا لموسى فإذا بنا حتى أخرجتنا من مصر فإنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . وفي الإصحاح السادس عشر وقالوا لموسى وهارون إنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع . وفي الحديث إن

موسى كان رجلا حيا ستيرا فقال فريق من قومه: ما نراه يستتر إلا من عاهة فيه. فقال قوم: به برص وقال قوم: هو آدر ونحو هذا، وكان قريبا من هذا قول المنافقين: إن محمدا تزوج مطلقة ابنة زيد بن حارثة.

وقد دلت هذه الآية على وجوب توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتجنب ما يؤذيه وتلك سنة الصحابة والمسلمين وقد عرضت فلتات من بعض أصحابه الذين لم يبلغوا قبلها كمال التخلق بالقرآن مثل الذي قال له لما حكم بينه وبين الزبير في ماء شراح الحرة: أن كان ابن عمتك يا رسول الله. ومثل التميمي خرفوص الذي قال في قسمة مغانم حنين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

واعلم أن محل التشبيه هو قوله)كالذين آذوا موسى(دون ما فرع عليه من قوله)فبرأه الله مما قالوا(وإنما ذلك إدماج وانتهاز للمقام بذكر براءة موسى مما قالوا، ولا اتصال له بوجه التشبيه لأن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يؤذ إيذاء يقتضي ظهور براءته مما أوذي به.

ومعنى)برأه (أظهر براءته عيانا لأن موسى كان بريئا مما قالوه من قبل أن يؤذوه بأقوالهم فليس وجود البراءة منه متفرعة على أقوالهم ولكن الله أظهرها عقب أقوالهم فإن الله أظهر براءته من التغرير بهم إذ أمرهم بدخول أريحا فثبت قلوبهم وافتتحوها وأظهر براءته من الاستهزاء بهم إذ أظهر معجزته حين ذبحوا البقرة التي أمرهم بذبحها فتبين من قتل النفس التي ادارأوا فيها.

وأظهر سلامته من البرص والأدرة حين بدا لهم عريانا لما انتقل الحجر الذي عليه ثيابه. ومعنى)برأه مما قالوا(برأه من مضمون قولهم لا من نفس قولهم لأن قولهم قد حصل وأوذي به وهذا كما سموا السبة القالة. ونظيره قوله تعالى)ونرثه ما يقول(، أي ما دل عليه مقاله وهو قوله)لأوتين مالا وولدا(أي نرثه ماله وولده.

وجملة)وكان عند الله وجيها(في آخر الكلام ومفيدة سبب عناية الله بتبرئته.

والوجيه صفة، أي ذو الوجاهة. وهي الجاه وحسن القبول عند الناس. يقال: وجه الرجل، بضم الجيم، وجاهة فهو وجيه. وهذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الوجه الذي للإنسان، فمعنى كونه وجيها عند الله أنه مرضي عنه مقبول له مستجاب الدعوة.

وقد تقدم قوله تعالى)وجيها في الدنيا والآخرة(في سورة آل عمران، فضمه إلى هنا. وذكر فعل)كان(دال على تمكن وجاهته عند الله تعالى.

وهذا تسفيه للذين آذوه بأنهم آذوه بما هو مبرأ منه،وتوجيه لتنزيه الله إياه بأنه مستأهل لتلك التبرئة لأنه وجيه عند الله وليس بخامل.
)يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا[70] يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما[71](بعد أن نهى الله المسلمين عما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وربأ بهم عن أن يكونوا مثل الذين آذوا رسولهم وجه إليهم بعد ذلك نداء بأن يتسموا بالتقوى وسداد القول لأن فائدة النهي عن المناكر التلبس بالمحامد، والتقوى جماع الخير في العمل والقول. والقول السديد مبث الفضائل.

صفحة : 3403

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه. ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به. ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون، وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شعب التقوى كما هو من شعب الإيمان.
والقول: الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه.
والسديد: الذي يوافق السداد.والسداد:الصواب والحق ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها، فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي بحبه: إني أحبك.
والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر. وفي الحديث وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ، وفي الحديث الآخر: رحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم ، وفي الحديث الآخر: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .
ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء. فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد. وفي الحديث: نضر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه. ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح. ومن القول السديد

الأذان والإقامة قال تعالى)إليه يصعد الكلم الطيب(في سورة فاطر. فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعا. والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. وهو نشر على عكس اللف، فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأن أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد الناس إلى الصلاح أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.

وغفران الذنوب جزاء على التقوى لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر وغفر لهم الكبائر بالتوبة،والتحول عن المعاصي بعد الهم بها ضرب من مغفرتها.

ثم إن ضميري جمع المخاطب لما كانا عائدين على الذين آمنوا كانا عامين لكل المؤمنين في عموم الأزمان سواء كانت الأعمال أعمال القائلين قولا سديدا أو أعمال غيرهم من المؤمنين الذين يسمعون أقوالهم فإنهم لا يخلون من فريق يتأثر بذلك القول فيعملون بما يقتضيه على تفاوت بين العاملين، وبحسب ذلك التفاوت يتفاوت صلاح أعمال القائلين قولا سديدا والعاملين به من سامعيه،وكذلك أعمال الذي قال القول السديد في وقت سماعه قول غيره. وفي الحديث: فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فظهر أن إصلاح الأعمال متفاوت وكيفما كان فإن صلاح المعمول من آثار سداد القول،وكذلك التقوى تكون سببا لمغفرة ذنوب المتقي ومغفرة ذنوب غيره لأن من التقوى الانكفاف عن مشاركة أهل المعاصي في معاصيهم فيحصل بذلك انكفاف كثير منهم عن معاصيهم تأسيا أو حياء فتتعطل بعض المعاصي،وذلك ضرب من الغفران فإن اقتدى فاهتدى فالأمر أجدر.

وذكر)لكم(مع فعلي)يصلح(و)يغفر(للدلالة على العناية بالمتقين أصحاب القول السديد كما في قوله تعالى)ألم نشرح لك صدرك(.

وجملة)ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما(عطف على جملة)يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم(أي وتفوزوا فوزا عظيما إذا أطعتم الله بامتثال أمره. وإنما صيغت الجملة في صيغة الشرط وجوابه لإفادة العموم في المطيعين وأنواع الطاعات فصارت الجملة بهذين العمومين في قوة التذييل. وهذا نسج من نظم الكلام وهو إفادة غرضين بجملة واحدة.

)إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا[72](

استئناف ابتدائي أفاد الأنباء على سنة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه وبخاصة الإنسان ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربهم ومعاملات بعضهم مع بعض بمقدار جريهم على هذه السنة ورعيهم تطبيقا فيكون عرضهم أعمالهم على معيارها مشعرا لهم بمصيرهم ومبينا سبب تفضيل بعضهم على بعض واصطفاء بعضهم من بين بعض.

وموقع هذه الآية عقب ما قبلها وفي آخر هذه السورة يقتضي أن لمضمونها ارتباطا بمضمون ما قبلها،ويصلح عونا لاكتشاف دقيق معناها وإزالة ستور الرمز عن المراد منها،ولو بتقليل الاحتمال،والمصير إلى المآل.

والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله لغرابة شأنه منزلة ما قد ينكره السامع.

وافتتاح الآية بمادة العرض، وصوغها في صيغة المضي، وجعل متعلقها السماوات والأرض والجبال والإنسان يومئ إلى أن متعلق هذا العرض كان في صعيد واحد فيقتضي أنه عرض أزلي في مبدأ التكوين عند تعلق القدرة الربانية بإيجاد الموجودات الأرضية وإيداعها فصولها المقومة لمواهبها وخصائصها ومميزاتها الملائمة لوفائها بما خلقت لأجله كما حمل قوله)وإذ أخذ ربك من بين آدم من ظهور ذرياتهم(الآية.

واختتام الآية بالعلة من قوله)ليعذب الله المنافقين والمنافقات(إلى نهاية السورة يقتضي أن للأمانة المذكورة في هذه الآية مزيد اختصاص بالعبرة في أحوال المنافقين والمشركين من بين نوع الإنسان في رعي الأمانة وإضاعتها.

فحقيق بنا أن نقول: إن هذا العرض كان في مبدأ تكوين العالم ونوع الإنسان لأنه لما ذكرت فيه السماوات والأرض والجبال مع الإنسان علم أن المراد بالإنسان نوعه لأنه لو أريد بعض أفراده ولو في أول النشأة لما كان في تحمل ذلك الفرد الأمانة،بتعذيب المنافقين والمشركين،ولما كان في تحمل بعض أفراده دون بعض الأمانة حكمة مناسبة لتصرفات الله تعالى.

فتعريف الإنسان تعريف الجنس،أي نوع الإنسان.

والعرض: حقيقته إحضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله ومنه عرض الحوض على الناقة، أي عرضه عليها أن تشرب منه، وعرض المجندين على الأمير لقبول من تأهل منهم. وفي حديث ابن عمر : عرضت على رسول الله وأنا ابن أربع عشرة فردني وعرضت عليه

وأنا ابن خمس عشرة فأجازني . وتقدم عند قوله تعالى)أولئك يعرضون على ربهم(في سورة هود، وقوله)وعرضوا على ربك صفا(في سورة الكهف.
فقوله)عرضنا(هنا استعارة تمثيلية لوضع شيء في شيء لأنه أهل له دون بقية الأشياء،وعدم وضعه في بقية الأشياء لعدم تأهلها لذلك الشيء، فشبهت حالة صرف تحميل الأمانة عن السماوات والأرض والجبال ووضعها في الإنسان بحالة من يعرض شيئا على أناس فيرفضه بعضهم ويقبله واحد منهم على طريقة التمثيلية، أو تمثيل لتعلق علم الله تعالى بعدم صلاحية السماوات والأرض والجبال لإناطة ما عبر عنه بالأمانة بها وصلاحية الإنسان لذلك، فشهبت حالة تعلق علم الله بمخالفة قابلية السماوات والأرض والجبال بحمل الأمانة لقابلية الإنسان ذلك بعرض شيء على أشياء لاستظهار مقدار صلاحية أحد تلك الأشياء للتلبس بالشيء المعروض عليها.
وفائدة هذا التمثيل تعظيم أمر هذه الأمانة إذ بلغت أن لا يطيق تحملها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات.
فتخصيص)السماوات والأرض(بالذكر من بين الموجودات لأنهما أعظم المعروف للناس من الموجودات، وعطف)الجبال(على) الأرض(وهي منها لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها إذ الأبصار لا ترى الكرة الأرضية كما قال تعالى)لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله(.
وقرينة الاستعارة حالية وهي عدم صحة تعلق العرض والإباء بالسماوات والأرض والجبال لانتفاء إدراكها فأنى لها أن تختار وترفض وكذلك الإنسان باعتبار كون المراد كمه جنسه وماهيته لأن الماهية لا تفاوض ولا تختار كما يقال :الطبيعة عمياء،أي لا اختيار لها،أي للجبلة وإنما تصدر منها آثارا قسرا.

صفحة : 3405

ولذلك فأفعال)عرضنا، وأبين، ويحملنها، وأشفقن منها، وحملها(أجزاء للمركب التمثيلي. وهذه الأجزاء صالحة لأن يكون كل منها استعارة مفردة بأن يشبه إيداع الأمانة في الإنسان وصرفها عن غيره بالعرض، ويشبه عدم مصحح مواهي السماوات والأرض والجبال لإيداع الأمانة فيها بالإباء، ويشبه الإيداع بالتحميل والحمل،ويشبه عدم التلاؤم بين مواهي السماوات والأرض والجبال بالعجز عن قبول تلك الكائنات إياها وهو المعبر عنه بالإشفاق،ويشبه

التلاؤم ومصحح القبول لإيداع وصف الأمانة في الإنسان بالحمل للثقل.

ومثل هذه الاستعارات كثير في الكلام البليغ. وصلوحية المركب التمثيلي للانحلال بأجزائه إلى استعارات معدود من كمال بلاغة ذلك التمثيل.

وقد عدت هذه الآية من مشكلات القرآن وتردد المفسرون في تأويلها ترددا دل على الحيرة في تقويم معناها.ومرجع ذلك إلى تقويم معنى العرض على السماوات والأرض والجبال، وإلى معرفة معنى الأمانة، ومعرفة معنى الإباء والإشفاق.

فأما العرض فقد استبانت معانيه بما علمت من طريقة التمثيل.

وأما الأمانة فهي ما يؤتمن عليه ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف، وقد اختلف فيها المفسرون على عشرين قولا وبعضها متداخل في بعض ولنبتدئ بالإلمام بها ثم نعطف إلى تمحيصها وبيانها.

فقيل: الأمانة الطاعة، وقيل: الصلاة، وقيل: مجموع الصلاة والصوم والاغتسال، وقيل: جميع الفرائض، وقيل الانقياد إلى الدين، وقيل: حفظ الفرج، وقيل: الأمانة التوحيد، أو دلائل الوحدانية، أو تجليات الله بأسمائه، وقيل: ما يؤتمن عليه ومنه الوفاء بالعهد، ومنه انتفاء الغش بالعمل، وقيل: الأمانة العقل، وقيل: الخلافة، أي خلافة الله في الأرض التي أودعها الإنسان كما قال تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(الآية.

وهذه الأقوال ترجع إلى أصناف: صنف الطاعات والشرائع، وصنف العقائد، وصنف ضد الخيانة، وصنف العقل، وصنف خلافة الأرض.

ويجب أن يطرح منها صنف الشرائع لأنها ليست لازمة لفطرة الإنسان فطالما خلت أمم عن التكليف بالشرائع وهم أهل الفتر فتسقط ستة أقوال وهي ما في الصنف الأول.

ويبقى سائر الأصناف لأنها مرتكزة في طبع الإنسان وفطرته؛ فيجوز أن تكون الأمانة أمانة الإيمان، أي توحيد الله، وهي العهد الذي أخذه الله على جنس بني آدم وهو الذي في قوله تعالى)وإذ أخذ ربك من بني أدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا(وتقدم في سورة الأعراف. فالمعنى: أن الله أودع في نفوس الناس دلائل الوحدانية فهي ملازمة للفكر البشري فكأنها عهد الله لهم به وكأنه أمانة ائتمنهم عليها لأنه أودعها في الجبلة ملازمة لها، وهذه الأمانة لم تودع في السماوات والأرض والجبال لأن هذه الأمانة من قبيل المعارف والمعارف من العلم الذي لا يتصف به إلا من قامت به صفة الحياة لأنها مصححة الإدراك لمن قامت به، ويناسب هذا المحمل قوله)ليعذب الله

المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات(، فإن هذين الفريقين خالون من الإيمان بوحدانية الله.
ويجوز أن تكون الأمانة هي العقل وتسميته أمانة تعظيم لشأنه ولأن الأشياء النفسية تودع عند من يحتفظ بها.
والمعنى: أن الحكمة اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة لأن خلقته ملائمة لأن يكون عاقلا فإن العقل يبعث على التغير والانتقال من حال إلى حال ومن مكان إلى غيره، فلو جعل ذلك في سماء من السماوات أو في الأرض أو في جبل من الجبال أو جميعها لكان سببا في اضطراب العوالم واندكاكها. وأقرب الموجودات التي تحمل العقل أنواع الحيوان ما عدا الإنسان فلو أودع فيها العقل لما سمحت هيئات أجسامها بمطاوعة ما يأمرها العقل به.فلنفرض أن العقل يسول للفرس أن لا ينتظر علفه أو سومه وأن يخرج إلى حناط يشتري منه علفا، فإنه لا يستطيع في الإفهام ثم لا يتمكن من تسليم العوض بيده إلى فرس غيره. وكذلك إذا كانت معاملته مع أحد من نوع الإنسان.
ومناسبة قوله)ليعذب الله المنافقين(الآية لهذا المحمل نظير مناسبته للمحمل الأول.

صفحة : 3406

ويجوز أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه،وذلك أن الإنسان مدني بالطبع مخالط لبني جنسه فهو لا يخلو عن ائتمان أو أمانة فكان الإنسان متحملا لصفة الأمانة بفطرته والناس متفاوتون في الوفاء لما ائتمنوا عليه كما في الحديث إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة أي إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة،فكان في جملة الاختلالات المنذرة بدنو الساعة مثل تكوير الشمس وانكدار النجوم ودك الجبال.
والذي بين هذا المعنى قول حذيفة: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الأخر،حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال :إن في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل: ما أعقله وما

أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان أي من أمانة لأن الإيمان من الأمانة لأنه عهد الله.

ومعنى عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال يندرج في معنى تفسير الأمانة بالعقل، لأن الأمانة بهذا المعنى من الأخلاق التي يجمعها العقل ويصرفها، وحينئذ فتخصيصها بالذكر للتنبيه على أهميتها في أخلاق العقل.

والقول في حمل معنى الأمانة على خلافة الله تعالى في الأرض مثل القول في العقل لأن تلك الخلافة ما هيأ الإنسان لها إلا العقل كما أشار إليه قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(ثم قوله)وعلم آدم الأسماء كلها(فالخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها، واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها.

وبقية الأمور التي فسر بها بعض المفسرون الأمانة يعتبر تفسيرها من قبيل ذكر الأمثلة الجزئية للمعاني الكلية.

والمتبادر من هذه المحامل أن يكون المراد بالأمانة حقيقتها المعلومة وهي الحفاظ على ما عهد به ورعيه والحذار من الإخلال به سهوا أو تقصيرا فيسمى تفريطا وإضاعة،أو عمدا فيسمى خيانة وخيسا لأن هذا المحمل هو المناسب لورود هذه الآية في ختام السورة التي ابتدئت بوصف خيانة المنافقين واليهود و إخلالهم بالعهود وتلونهم مع النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى)ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار(وقال)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه(. وهذا المحمل يتضمن أيضا أقرب المحامل بعده وهو أن يكون هي العقل لأن قبول الأخلاق فرع منه.

وجملة)إنه كان ظلوما جهولا(محلها اعتراض بين جملة)وحملها الإنسان(والمتعلق بفعلها وهو)ليعذب الله المنافقين(الخ. ومعناها استئناف بياني لأن السامع خبر أن الإنسان تحمل الأمانة يترقب معرفة ما كان من حسن قيام الإنسان بما حمله وتحمله وليست الجملة تعليلية لأن تحمل الأمانة لم يكن باختيار الإنسان فكيف يعلل بأن حمله الأمانة من أجل ظلمه وجهله.

فمعنى)كان ظلوما جهولا(أنه قصر في الوفاء بحق ما تحمله تقصيرا: بعضه من غمد وهو المعبر منه بوصف ظلوم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولا،فظلوم مبالغة في الظلم وكذلك جهول مبالغة في الجهل.

والظلم: الاعتداء على حق الغير وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة، وهو حق الوفاء بالأمانة.

والجهل: انتفاء العلم بما يتعين علمه، والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيها تحمل به، فقوله)إنه كان ظلوما

جهولا(مؤذن بكلام محذوف يدل هو عليه إذ التقدير: وحملها الإنسان فلم يف بها إنه كان ظلوما جهولا، فكأنه قيل: فكان ظلوما جهولا، أي ظلوما، أي في عدم الوفاء بالأمانة لأنه إجحاف بصاحب الحق في الأمانة أيا كان، وجهولا في عدم تقدير قدر إضاعة الأمانة من المؤاخذة المتفاوتة المراتب في التبعة بها،ولولا هذا التقدير لم يلتئم الكلام لأن الإنسان لم يحمل الأمانة باختياره بل فطر على تحملها.
ويجوز أن يراد ظلوما جهولا في فطرته، أي في طبع الظلم،والجهل فهو معرض لهما ما لم يعصمه وازع الدين، فكان من ظلمه وجهله أن أضاع كثير من الناس الأمانة التي حملها.

صفحة : 3407

ولك أن تجعل ضمير أنه عائدا على الإنسان وتجعل عمومه مخصوصا بالإنسان الكافر تخصيصا بالعقل لظهور أن الظلوم الجهول هو الكافر.
أو تجعل في ضمير)أنه(استخداما بأن يعود إلى الإنسان مرادا به الكافر وقد أطلق لفظ الإنسان في مواضع كثيرة من القرآن مرادا به الكافر كما في قوله تعالى)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(الآية وقوله)يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم(الآيات.
وفي ذكر فعل)كان(إشارة إلى أن ظلمه وجهله وصفان متأصلان فيه لأنهما الغالبان على أفراده الملازمان لها كثرة أو قلة.
فصيغتا المبالغة منظور فيهما إلى الكثرة والشدة في أكثر أفراد النوع الإنساني والحكم الذي يسلط على الأنواع والأجناس والقبائل يراعى فيه الغالب وخاصة في مقام التحذير والترهيب.وهذا الإجمال يبينه قوله عقبه)ليعذب الله المنافقين(إلى قوله)ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات(فقد جاء تفصيله بذكر فريقين: أحدهما: مضيع للأمانة والآخرة مراع لها.
ولذلك أثنى الله على الذين وفوا بالعهود والأمانات فقال في هذه السورة)وكان عهد الله مسئولا(وقال فيها)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا عليه(وقال)واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد(وقال في ضد ذلك)وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه(إلى قوله)أولئك هم الخاسرون(.
)ليعذب الله المنفقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما[73](متعلق بقوله)وحملها الإنسان(لأن المنافقين والمشركين والمؤمنين من أصناف الإنسان. وهذه اللام للتعليل المجازي المسماة لام العاقبة.

وقد تقدم القول فيها غير مرة إحداها قوله تعالى)إنما نملي لهم ليزدادوا إثما(في آل عمران.
والشاهد الشائع فيها هو قوله تعالى)فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(وعادة النحاة وعلماء البيان يقولون: إنها في معنى فاء التفريع: وإذ قد كان هذا عاقبة لحمل الإنسان الأمانة وكان فيما تعلق به لام التعليل إجمال تعين أن هذا يفيد بيانا لما أجمل في قوله)إنه كان ظلوما جهولا(كما قدمناه آنفا، أي فكان الإنسان فريقين: فريقا ظالما جاهلا، وفريقا راشد عالما.
والمعنى: فعذب الله المنافقين والمشركين على عدم الوفاء بالأمانة التي تحملوها في أصل الفطرة وبحسب الشريعة، وتاب على المؤمنين فغفر من ذنوبهم لأنهم وفوا بالأمانة التي تحملوها. وهذا مثل قوله فيما مر)ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم(أي كما تاب كلى المؤمنين بأن يندموا على ما فرط من نفاقهم فيخلصوا الإيمان فيتوب الله عليهم وقد تحقق ذلك في كثير منهم.
وإظهار اسم الجلالة في قوله)ويتوب الله(وكان الظاهر إضماره لزيادة العناية بتلك التوبة لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية.
وذكر المنافقات والمشركات والمؤمنات مع المنافقين والمشركين والمؤمنين في حين الاستغناء عن ذلك بصيغة الجمع التي شاع في كلام العرب شموله للنساء نحو قولهم: حل ببني فلان مرض يريدون وبنسائهم.
فذكر النساء في الآية إشارة إلى أن لهن شأنا كان في حوادث غزوة الخندق من إعانة لرجالهن على كيد المسلمين وبعكس ذلك حال نساء المسلمين.
وجملة)وكان الله غفورا رحيما(بشارة للمؤمنين والمؤمنات بأن الله عاملهم بالغفران وما تقتضيه صفة الرحمة.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة سبأ
هذا اسمها الذي اشتهرت به في كتب السنة وكتب التفسير وبين القراءة ولم أقف على تسميتها في عصر النبوة. ووجه تسميتها به أنها ذكرت فيها أهل سبأ.

وهي مكية وحكي اتفاق أهل التفسير عليه. وعن مقاتل أن أية) ويرى الذين أوتوا العلم(إلى قوله)العزيز الحميد(نزلت بالمدينة. ولعله بناء على تأويلهم أهل العلم إنما يراد بهم أهل الكتاب الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام. والحق أن الذين أوتوا العلم هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وعزي ذلك إلى ابن عباس أو هم أمة محمد، قاله قتادة، أي لأنهم أوتوا بالقرآن علما كثيرا قال تعالى)بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم(، على أنه لا مانع من التزام أنهم علماء أهل الكتاب قبل أن يؤمنوا لأن المقصود الاحتجاج بما هو مستقر في نفوسهم الذي أنبأ عنه إسلام طائفة منهم كما نبينه عند قوله تعالى)ويرى الذين أوتوا العلم(الخ.

ولابن الحصار أن سورة سبا مدنية لما رواه الترمذي: عن فروة بن مسيك العطيفي المرادي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال: وأنزل في سبأ ما أنزل. فقال رجل: يا رسول الله: وما سبأ؟ الحديث. قال ابن الحصار: هاجر فروة سنة تسع بعد فتح الطائف. وقال ابن الحصار: يحتمل أن يكون قوله)وأنزل(حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرة فروة، أي أن سائلا سأل عنه لما قرأه أو سمعه من هذه السورة أو من سورة النمل.

وهي السورة الثامنة والخمسون في عداد السور، نزلت بعد سورة لقمان سورة الزمر كما في المروي عن جابر بن زيد واعتمد عليه الجعبري كما في الإتقان، وقد تقدم في سورة الإسراء أن قوله تعالى فيها)وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(إلى قوله)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(إنهم عنوا قوله تعالى في هذه السورة)إن تشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء(فاقتضى أن سورة سبأ نزلت قبل سورة الإسراء وهو خلاف ترتيب جابر بن زيد الذي يعد الإسراء متممة الخمسين.

وليس يتعين أن يكون قولهم)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(معنيا به هذه الآية لجواز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم هددهم بذلك في موعظة أخرى.

وعدد آيها أربع وخمسون في عد الجمهور،وخمس وخمسون في عد أهل الشام.

أغراض هذه السورة

من أغراض هذه السورة إبطال قواعد الشرك وأعظمها إشراكهم آلهة مع الله وإنكار البعث فابتدئ بدليل على انفراده تعالى بالإلهية عن أصنامهم ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعبادها.

ثم موضوع البعث، وعن مقاتل: أن سبب نزولها أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى)ليعذب الله المنافقين والمنافقات(الآية الأخيرة من سورة الأحزاب قال لأصحابه: كأن محمدا يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا، فأنزل الله تعالى) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة(الآية.

وعليه فما قبل الآية المذكورة من قوله)الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض(إلى قوله)وهو الرحيم الغفور(تمهيد للمقصود من قوله)وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة(.

واثبات إحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض فما يخبر به فهو واقع ومن ذلك إثبات البعث والجزاء.

وإثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، وصدق ما جاء به القرآن وأن القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب.

وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين من قبل. وعرض بأن جعلهم لله شركاء كفران لنعمة الخالق فضرب لهم المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسخرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان، وبمن كفروا بالله فسلط عليه الأزراء في الدنيا وأعد لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ، وحذروا من الشيطان، وذكروا بأن ما هم فيه من قرة العين يقربهم إلى الله، وأنذروا بما سيلقون يم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة وعدم النصير وخلود في العذاب،وبشر المؤمنون بالنعيم المقيم.

)الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير[1](

صفحة : 3409

افتتحت السورة ب)الحمد لله(للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل تفرده بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له والإخبار باختصاصه به. فجملة)الحمد لله(هنا يجوز كونها إخبارا بأن جنس الحمد مستحق لله تعالى فتكون اللام في قوله)لله(لام الملك. ويجوز أن تكون إنشاء ثناء على الله على وجه تعليم الناس أن يخصوه بالحمد فتكون اللام للتبيين لأن معنى الكلام: أحمد الله.

وقد تقدم الكلام على)الحمد لله(في سورة الفاتحة، وتقدم الكلام على تعقيبه باسم الموصول في أول سورة الأنعام وأول سورة الكهف.

وهذه إحدى سور خمس مفتتحة ب)الحمد لله(وهن كلها مكية وقد وضعت في ترتيب القرآن في أوله ووسطه، والربع الأخير، فكانت

أرباع القرآن مفتتحة بالحمد لله كان ذلك بتوفيق من الله أو توقيف.

واقتضاء صلة الموصول أن ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى يجعل هذه الصلة صالحة لتكون علة لإنشاء الثناء عليه لأن ملكه لما في السماوات وما في الأرض ملك حقيقي لأن سببه إيجاد تلك المملوكات وذلك الإيجاد عمل جميل يستحق صاحبه الحمد، وأيضا هو يتضمن نعما جمة. وهي أيضا يقتضي حمد المنعم، لأن الحمد يكون للفضائل والفواضل، فما في السماوات فإن منه مهابط أنوار حقيقية ومعنوية، فيها هدى حسي ونفساني، واليه معارج للنفوس في مراتب الكمالات التي بها استقامة السير، وإزالة الغير، ونزول الغيوث بالمطر. وما في الأرض منه مسارح أنظار المتفكرين، ومنابت أرزاق المرتزقين، وميادين نفوس السائرين.

وفي هذه الصلة تعريض بكفران المشركين الذين حمدوا أشياء ليس لها في هذه العوالم أدنى تأثير ولا لها بما تحتوي عليه أدنى شعور، ونسوا حمد مالكها وسائر ما في السماوات والأرض.

وجملة)وله الحمد في الآخرة(عطف على الصلة، أي والذي له الحمد في الآخرة، وهذا إنباء بأنه مالك الأمر كله في الآخرة.

وفي هذا التحميد براعة استهلال الغرض من السورة. وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي لا حمد في الآخرة إلا له، فلا تتوجه النفوس إلى حمد غيره لأن الناس يومئذ في عالم الحق فلا تلتبس عليهم الصور.

واعلم أن)الحمد لله(وإن اقتضت قصر الحمد عليه تعالى قصرا مجازيا للمبالغة كما تقدم في سورت الفاتحة بناء على أن حمد غير الله للاعتداد بأن نعمة الله جرت على يديه، فلما شاع ذلك في جملة)الحمد لله(وأريد إفادة أن الحمد لله مقصور عليه تعالى في الآخرة حقيقة غيرت صيغة الحمد المألوفة إلى صيغة)له الحمد(لهذا الاعتبار، وهذا نظير معنى قوله تعالى)لمن الملك اليوم لله الواحد القهار(، فالمعنى: أن قصر الحمد عليه في الآخرة أحق لأن التصرفات يومئذ مقصورة عليه لا يلتبس فيها تصرف غيره بتصرفه.

ولما نيط حمده في الدنيا والآخرة بما اقتضى مرجع التصرفات إليه في الدارين أعقب ذلك بصفتي)الحكيم الخبير(، لأن الذي أوجد أحوال النشأتين هو العظيم الحكمة الخبير بدقائق الأشياء وأسرارها. فالحكمة: إتقان التصرف بالإيجاد وضده،والخبرة تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها.

والقرن بين الصفتين هنا لأن كل واحدة تدل على معنى أصلي ومعنى لزومي، وهما مختلفان، فالمعنى الأصلي للحكيم أنه متقن التصرف والصنع لأن الحكيم مشتق من الإحكام وهو الإتقان، وهو

يستلزم العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والخبير هو العليم بدقائق الأشياء وظواهرها بالأولى بحيث لا يفوته شيء منها،وهو يستلزم التمكن من تصريفها، ففي التتميم بهذين الوصفين إيماء إلى أن المقصود من الجملة قبله استحماق الذين اقبلوا في شؤونهم على آلهة باطلة.
)يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور[2](بيان لجملة)وهو الحكيم الخبير(لأن العلم بما ذكر هنا هو العلم بذواتها وخصائصها وأسبابها وعللها وذلك عين الحكمة والخبرة، فإن العلم يقتضي العمل، وإتقان العمل بالعلم..

صفحة : 3410

وخص بالذكر في متعلق العلم ما يلج وما يخرج من الأرض دون ما يدب على سطحها، وما ينزل وما يعرج إلى السماء دون ما يجول في أرجائها لأن ما ذكر لا يخلو عن أن يكون دابا وجائلا فيهما والذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم ما يدب عليها وما يزحف فوقها، والذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج يعلم ما في الأجواء والفضاء من الكائنات المرئية وغيرها ويعلم سير الكواكب ونظامها.
والولوج: الدخول والسلوك مثل ولوج المطر في أعماق الأرض وولوج الزريعة. والذي يخرج من الأرض، النبات والمعادن والدواب المستكنة في بيوتها ومغاراتها، وشمل ذلك من يقبرون في الأرض وأحوالهم، والذي ينزل من السماء: المطر والثلج والرياح، والذي يعرج فيها ما يتصاعد في طبقات الجو من الرطوبات البحرية ومن العواطف الترابية، ومن العناصر التي تتبخر في الطبقات الجوية فوق الأرض، وما يسبح في الفضاء وما يطير في الهواء وعروج الأرواح عند مفارقة الأجساد قال تعالى)تعرج الملائكة والروح إليه(.
واعلم أن كلمتي)يلج(و)يخرج(أوضح ما يعبر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض، وأن كلمتي)ينزل(و)يعرج(أوضح ما يعبر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء، من كلمات اللغة التي تدل على المعاني الموضوعة للدلالة عليها دلالة مطابقية على الحقيقة دون المجاز ودون الكناية، ولذلك لم يعطف السماء على الأرض في الآية فلم يقل: يعلم ما يلج في الأرض والسماء، وما يخرج منهما، ولم يكتفي بإحدى الجملتين عن الأخرى. وقد لاح لي أن هذه الآية ينبغي

أن تجعل من الإنشاء مثل ما اصطلح على تسميته بصراحة اللفظ. ولذلك ألحقها بكتابي أصول الإنشاء والخطابة بعد تفرق نسخه بالطبع، وسيأتي نظير هذه في أول سورة الحديد.

ولما كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمال الناس وأحوالهم من عقائد وسير ومما يعرج في السماء العمل الصالح والكلم الطيب أتبع ذلك بقوله)وهو الرحيم الغفور(أي الواسع الرحمة والواسع المغفرة. وهذا إجمال قصد منه حث الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما فإن من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله وسعى إليها. وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه.

)وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم(كما ذكر ما يلج في الأرض وما يخرج منها مشعرا بحال الموتى عند ولوجهم القبور وعند نشرهم منها كما قال تعالى)ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا(وقال)يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير(، وكان ذكر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها موميا إلى عروج الأرواح عند مفاقرة الأجساد ونزول الأرواح لترد إلى الأجساد التي تعاد يوم القيامة، فكان ذلك مع ما تقدم من قوله)وله الحمد في الآخرة(مناسبة للتخلص إلى ذكر إنكار المشركين الحشر لأن إبطال زعمهم من أهم مقاصد هذه السورة، فكان التخلص بقوله) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة(، فالواو اعتراضية للاستطراد وهي في الأصل واو عطف الجملة المعترضة على ما قبلها من الكلام.

ولما لم تفد إلا التشريك في الذكر دون الحكم دعوها بالواو الاعتراضية وليست هنا للعطف لعدم التناسب بين الجملتين وإنما جاءت المناسبة من أجزاء الجملة الأولى فكانت الثانية استطرادا واعتراضا، وتقدم آنفا ما قيل: إن هذه المقالة كانت سبب نزول السورة.

وتعريف المسند إليه بالموصولية لأن هذا الموصول صار كالعلم بالغبة على المشركين في اصطلاح القرآن وتعرف المسلمين.

والساعة: علم بالغلبة في القرآن على يوم القيامة وساعة الحشر.

وعبر عن انتفاء وقوعها بانتفاء إتيانها على طريق الكناية لأنها لو كانت واقعة لأتت، لأن وقوعها هو إتيانها.

وضمير المتكلم المشارك مراد به جميع الناس.

ولقد لقن الله نبيه صلى الله عليه وسلم الجواب عن قول الكافرين بالإبطال المؤكد على عادة إرشاد القرآن في انتهاز الفرص لتبليغ العقائد.

و)بلى(حرف جواب مختص بإبطال النفي فهو حرف إيجاب لما نفاه كلام قبله وهو نظير بل أو مركب من بل وألف زائدة، أو هي ألف تأنيث لمجرد تأنيث الكلمة مثل زيادة تاء التأنيث في ثمة وربة، لكن)بلى(حرف يختص بإيجاب النفي فلا يكون عاطفا و بل يجاب به الإثبات والنفي وهو عاطف، وتقدم الكلام على بلى عند قوله تعالى)بلى من كسب سيئة(في سورة البقرة.

وأكد ما اقتضاه)بلى(من إثبات إتيان الساعة بالقسم على ذلك للدلالة على ثقة المتكلم بأنها آتية وليس ذلك لإقناع المخاطبين وهو تأكيد يروع السامعين المكذبين.

وعدي إتيانها إلى ضمير المخاطبين من بين جميع الناس دون:لتأتينا، ودون أن يجرد عن التعدية لمفعول، لأن المراد إتيان الساعة الذي يكون عنده عقابهم كما يقال: وأتاكم العدو، وأتاك أتاك اللاحقون، فتعلقه بضمير المخاطبين قرينة على أنه كناية عن إتيان مكروه فيه عذاب.

وفعل)أتى(يرد كثيرا في معنى حلول المكروه مثل)أتى أمر الله(و)فأتهم العذاب(و)يوم يأتي بعض آيات ربك(، وقول النابغة:

فلتأتينك قصائد وليدفعـن جيشا إليك

قوادم الأكوار وقوله:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ومن هذا ينتقلون إلى تعدية فعل) أتى(بحرف على فيقولون: أتى على كذا، إذا استأصله. ويكثر في غير ذلك استعمال فعل جاء ، وقد يكون للمكروه نحو)وجاءهم الموج من كل مكان(.

)عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتب مبين[3]( )عالم الغيب(خبر ثان عن ضمير الجلالة في قوله)وهو الحكيم الخبير(في قراءة من قرأه بالرفع، وصفة ل)ربي(المقسم به في قراءة من قرأه بالجر وقد اقتضت ذكره مناسبة تحقيق إتيان الساعة فإن وقتها وأحوالها من الأمور المغيبة في علم الناس.

وفي هذه الصفة إتمام لتبين سعة علمه تعالى فبعد أن ذكرت إحاطة علمه بالكائنات ظاهرها وخفيها جليلها ودقيقها في سورة البقرة أتبع بإحاطة علمه بما سيكون أنه يكون ومتى يكون.

والغيب تقدم في قوله)الذين يؤمنون بالغيب(على معان ذكرت هنالك.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب)عالم الغيب(بصيغة اسم الفاعل، وبرفع)عالم(على القطع. وقرأه ابن كثير

وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح عن يعقوب بصيغة اسم الفاعل أيضا ومجرورا على الصفة لاسم الجلالة في قوله)وربي(.
وقرأ حمزة الكسائي)علام(بصيغة المبالغة وبالجر على النعت. وقد تكرر في القرآن إتباع ذكر الساعة بذكر انفراده تعالى بعلمها لأن الكافرين بها جعلوا من عدم العلم بها دليلا سفسطائيا على أنها ليست بواقعة ولذلك سماها القرآن الواقعة في قوله)إذ وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة(.
والعزوب: الخفاء. ومادته تحوم حول معاني البعد عن النظر وفي مضارعه ضم العين وكسرها. قرأ الجمهور بكسر الزاي، وقرأه الكسائي بكسر الزاي ومعنى)لا يعزب عنه(: لا يعزب عن علمه. وقد تقدم في سورة يونس)وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء(.
وتقدم مثقال الحبة في سورة الأنبياء)وإن كان مثقال حبة من خردل(.
وأشار بقوله)مثقال ذرة(إلى تقريب معنى إمكان الحشر لأن الكافرين أحالوه بعلة أن الأجساد تصير رفاتا وترابا فلا تمكن إعادتها فنبهوا إلى أن علم الله محيط بأجزائها.

صفحة : 3412

ومواقع تلك الأجزاء في السماوات وفي الأرض وعلمه بها تفصيلا يستلزم القدرة في على تسخيرها للتجمع والتحاق كل منها بعديله حتى تلتئم الأجسام من الذرات التي كانت مركبة منها في آخر لحظات حياتها التي عقبها الموت وتوقف الجسد بسبب الموت عن اكتساب أجزاء جديدة. فإذا عدت الأرض على أجزاء ذلك الجسد ومزقته كل ممزق كان الله عالم بكل جزء فإن الكائنات لا تضمحل ذراتها فتمكن إعادة أجسام جديدة تنبثق من ذرات الأجسام الأولى وتنفخ فيها أرواحها. فالله قادر على تسخيرها للاجتماع بقوى يحدثها الله تعالى لجمع المتفرقات أو تسخير ملائكة لجمعها من أقاصي الجهات في الأرض والجو أو السماء على حسب تفرقها، أو تكون ذرات منها صالحة لأن تتفتق عن أجسام كما تتفتق الحبة عن عرق الشجرة، أو بخلق جاذبية خاصة بجذب تلك الذرات بعضها إلى بعض ثم يصور منها جسدها، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى)وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه(ثم تنمو تلك الأجسام سريعا فتصبح في صور أصولها التي كانت في الحياة الدنيا.

وانظر قوله تعالى)يوم يدع الداعي إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجكن من الأجداث كأنهم جراد منتشر(في سورة القارعة فإن الفراش وهو فراخ الجراد تنشأ من البيض مثل الدود ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تصير جرادا وتطير. ولهذا سمك الله ذلك البعث نشأة لأن فيه إنشاء جديدا وخلقا معادا وهو تصوير تلك الأجزاء بالصورة التي كانت ملتئمة بها حين الموت ثم إرجاع روح كل جسد إليه بعد تصويره بما سمي بالنفخ فقال) وان عليه النشأة الأخرى(وقال) أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ولقد خلقنا الإنسان(الآية. أي فذلك يشبه خلق آدم من تراب الأرض وتسويته ونفخ الروح فيه وذلك بيان مقنع للمتأمل لو نصبو أنفسهم للتأمل.

وأشار بقوله)ولا أصغر من ذلك ولا أكبر(إلى ما لا يعلمه إلا الله من العناصر والقوى الدقيقة أجزاؤها الجليلة آثارها، وتسييرها بما يشمل الأرواح التي تحل في الأجسام والقوى التي تودعها فيها.

)ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم[4] والذين سعوا في آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم[5](لام التعليل تتعلق بفعل)لتأتينكم(دون تقييد الإتيان بخصوص المخاطبين بل المراد ما شملهم وغيرهم لأن جزاء الذين آمنوا لا علاقة له بالمخاطبين فكأنه قيل: لتأتين الساعة ليجزي الذين آمنوا ويجزي الذين سعوا في لآياتنا معجزين، وهم المخاطبون، وضمير) يجزي(عائد إلى)عالم الغيب(.

والمعنى: أن الحكمة في إيجاد الساعة للبعث والحشر هي جزاء الصالحين على صلاح اعتقادهم وأعمالهم، أي جزاء صالحا مماثلا، وجزاء المفسدين جزاء سيئا، وعلم نوع الجزاء من وصف الفريقين من أصحابه.

والإتيان باسم الإشارة لكل فريق للتنبيه على أن المشار إلية جدير بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما قبل أسم الإشارة من الأوصاف.

فجملة)أولئك لهم مغفرة(ابتدائية معترضة بين المتعاطفين.

وجملة)أولئك لهم عذاب من رجز(ابتدائية أيضا.

وقوله)والذين سعوا(عطف على)الذين آمنوا(وتقدير الكلام. ليجزى الذين آمنوا والذين سعوا بما يليق بكل فريق.

والمعنى: أن عالم الإنسان يحتوي على صالحين متفاوت صلاحهم، وفاسدين متفاوت فسادهم، وقد انتفع الناس بصلاح الصالحين واستضروا بفساد المفسدين وربما عطل هؤلاء منافع أولئك وهذب أولئك من إفساد هؤلاء وانقضى كل فريق بما عمل لم يلق المحسن جزاء على إحسانه ولا المفسد جزاء إفساده، فكانت حكمة خالق الناس مقتضية إعلامهم بما أراد منهم وتكليفهم أن يسعوا في

الأرض صلاحا، ومقتضية ادخار جزاء الفريقين كليهما، فكان من مقتضاها إحضار الفريقين للجزاء على أعمالهم. وإذ قد شوهد أن لم يحصل في هذه الحياة عامنا أنت بعد هذه الحياة حياة أبدية يقارنها الجزاء العادل، لأن ذلك هو اللائق بحكمة مرشد الحكماء تعالى، فهذا مما يدل عليه العقل السليم وقد أعلمنا خالق الخلق على ذلك بلسان رسوله ورسله صلى الله عليه وسلم فتوافق العقل والنقل، وبطل الدجل والدخل.

صفحة : 3413

وجعل جزاء الذين آمنوا مغفرة، أي تجاوزوا عن آثامهم، ورزقا كريما وهو ما يرزقون من النعيم على اختلاف درجاتهم في النعيم وابتداء مدته فإنهم آيلون إلى المغفرة والرزق الكريم.
ووصف بالكريم، أي النفيس في نوعه كما تقدم عند قوله تعالى) كتاب كريم(في سورة النمل.
وقوبل)الذين آمنوا وعملوا الصالحات(ب)الذين سعوا في آياته(لأن السعي في آيات الله يساوي معنى كفروا بها وبذلك يشمل عمل السيئات وهو سيئة من السيئات، ألا ترى أنه عبر عنهم بعد ذلك بقوله)وقال الذين كفروا هل ندلكم عل رجل(الخ.
ومعنى)سعوا في آياتنا(اجتهدوا بالصد عنها ومحاولة إبطالها: فالسعي مستعار للجد في فعل ما، وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى)والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم(في سورة الحج. وآيات الله هنا: القرآن كما يدل عليه قوله بعد)الذي أنزل إليك كن ربك هو الحق(.
و)معاجزين(مبالغة في معجزين، وهو تمثيل: شبهت حالهم في مكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بحال من يمشي مشيا سريعا ليسبق غيه ويعجزه. العذاب: عذاب جهنم. والرجز: أسوأ العذاب وتقدم في قوله تعالى)فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون(في سورة البقرة. و)من(بيانيه فإن العذاب نفسه رجز.
وقرأ الجمهور)معاجزين(بصيغة المفاعلة تمثيل لحالا لحل ضنهم النجاة والانفلات من تعذيب الله إياهم بإنكارهم البعث والرسالة بحال من يسابق غيره ويعاجزه، أي يحاول عجزه عن لحاقه.
وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده)معجزين(بصيغة اسم الفاعل عن عجز بتشديد الجيم، ومعناه: مثبطين الناس عن اتباع آيات الله أو معجزين من آمن بآيات الله بالطعن والجدال.

وقرأ الجمهور)أليم(بالجر صفة ل)رجز(. وقرأه ابن كثير وحفص ويعقوب بالرفع صفة ل)عذاب(، وهما سواء في المعنى.
)ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد[6](عطف على)ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات(وهو مقابل جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمراد بالذين سعوا في الآيات الذين كفروا، عدل عن جعل اسم الموصول)كفروا(لتصلح الجملة أن تكون تمهيدا لإبطال قول المشركين في الرسول صلى الله عليه وسلم)افترى على الله كذبا أم به جنة(، لأن قولهم ذلك كناية عن بطلان ما جاءهم به من القرآن في زعمهم فكان جديرا بأن يمهد لإبطاله بشهادة أهل العلم بأن ما جاء به الرسول هو الحق دون غيره من باطل أهل الشرك الجاهلين، فعطف هذه الجملة من عطف الأغراض، وهذه طريقة في إبطال شبه أهل الضلالة والملاحدة بأن يقدم قبل ذكر الشبه ما يقابلها من إبطالها وربما سلك أهل الجدل طريقه أخرى هي تقديم الشبه ثم الكرور عليها بالإبطال وهي طريقة عضد الدين في كتاب)المواقف(وقد كان بعض أشياخنا يحكي انتقاد كثير من أهل العلم طريقته فلذلك خالفها التفتزاني في كتاب)المقاصد(.
والحق أن الطريقتين جادتان وقد سلكتا في القرآن.
ويجوز أن تكون جملة)ويرى الذين أوتوا العلم(عطفا على جملة) والذين سعوا في آياتنا معاجزين(فبعد أن أوردت جملة والذين سعوا(لمقابلة جملة)والذين سعوا(لمقابلة جملة)ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات(الخ اعتبرت مقصودا من جهة أخرى فكانت بحاجة إلى رد مضمونها بجملة)ويرى الذين أوتوا العلم(للإشارة إلى أن الذين سعوا في الآيات أهل جهالة فيكون ذكرها بعدها تعقيبا للشبهة بما يبطلها وهي الطريقة الأخرى.
والرؤية علمية. واختير فعل الرؤية هنا دون)ويعلم(للتنبيه على أنه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي علمها ضروري، ومفعولا) يرى( )الذي أنزل( )والحق(. وضمير)هو(فصل يفيد حصر الحق في القرآن حصرا إضافيا، أي لا ما يقوله المشركون مما يعرضون به القرآن، ويجوز أيضا أن يفيد قصرا حقيقيا ادعائيا، أي قصر الحقية المحض عليه لأن غيره من الكتب خلط حقها بباطل.

صفحة : 3414

و)الذين أوتوا العلم(فسره بعض المفسرين بأنهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيكون هذا إخبارا عما في قلوبهم كما

في قوله تعالى في شأن الرهبان)وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق(، فهذا تحد للمشركين وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وليس احتجاج بسكوتهم على إبطاله في أوائل الإسلام قبل أن يدعوهم النبي صلى الله عليه وسلم ويحتج عليهم ببشائر رسلهم وأنبيائهم به فعاند أكثرهم حينئذ تبعا لعامتهم.

وبهذا تتبين أن إرادة علماء أهل الكتاب من هذه الآية لا يقتضي أن تكون نازلة بالمدينة حتى يتوهم الذين توهموا أن هذه الآية مستثناة من مكيات السورة كما تقدم.

والأظهر أن المراد من)الذين أوتوا العلم(من آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن. وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فضا غليظا حتى إذا أسلم رق قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وأول مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام. وهذا ما أعرب عنه قول بي خراش الهذلي خالطا فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بـقـائل

سوى العدل شيئا فاستراح العواذل فإنهم كانوا إذا لقوا النبي صلى الله عليه وسلم أشرقت عليهم أنوار النبوة فملأتهم حكمة وتقوى. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها . وبفضل ذلك ساسوا الأمة وافتتحوا الممالك وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذميمهم ومعاهدهم وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة. وعلى هذا المحمل حمل)الذين أوتوا العلم(في سورة الحج ويؤيده قوله تعالى)وقال الذين أوتوا العلم والإيمان(في سورة الروم.

وجملة)ويهدي إلى صراط العزيز الحميد(في موضع المعطوف على المفعول الثاني ل)يرى(. والمعنى: يرك الذين أتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هاديا إلى العزيز الحميد، وهو من عطف الفعل على الاسم الذي فيه مادة الاشتقاق وهو)الحق(فإن المصدر في قوة الفعل لأنه إما مشتق أو هو أصل الاشتقاق. والعدول عن الوصف إلى صيغة المضارع لإشعارها بتجدد الهداية وتكررها. وإيثار وصفي)العزيز الحميد(هنا دون بقية الأسماء الحسنى إيماء إلى أن بقية المؤمنين حين يؤمنون بأن القرآن هو الحق والهداية استشعروا من الإيمان أنه صراط يبلغ به إلى العزة قال تعالى)ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين(، ويبلغ إلى الحمد، أي الخصال الموجبة للحمد، وهي الكمالات من الفضائل والفواضل.

)وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد[7] افترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد[8](انتقال إلى قولة أخرى من شناعة أهل الشرك معطوفة على)وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة(. وهذا القول قائم مقام الاستدلال على القول الأول لأن قولهم)لا تأتينا الساعة(دعوى وقولهم)هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(مستند تلك الدعوى، ولذلك حكي بمثل الأسلوب الذي حكيت به الدعوى في المسند والمسند إليه.

وأدمجوا في الاستدلال التعجيب من الذي يأتي بتقيض دليلهم، ثم إرداف ذلك التعجيب بالطعن في المتعجب به.

والمخاطب بقولهم)هل ندلكم(غير مذكور لأن المقصود في الآية الاعتبار بشناعة القول ولا غرض يتعلق بالمقول لهم. فيجوز أن يكون قولهم هذا تقاولا بينهم، أو يقوله بعضهم لبعض، أو يقول كبراؤهم لعامتهم ودهمائهم. ويجوز أن يكون قول كفار مكة للواردين عليهم في الموسم. وهذا الذي يؤذن به فعل)ندلكم(من أنه خطاب لمن يبلغهم قول النبي صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام مستعمل في العرض مثل قوله تعالى)فقل هل لك إلى أن تزكى(، وهو عرض مكنى به من التعجيب، أي هل ندلكم على أعجوبة من رجل ينبئكم بهذا النبأ المحال.

صفحة : 3415

والمعنى: تسمعون منه ما سمعناه منه فتعرفوا عذرنا في مناصبته العداء. وقد كان المشركون هيأوا ما يكون جوابا للذين يردون عليهم في الموسم من قبائل العرب يتساءلون عن خبر هذا الذي ظهر فيهم يدعى أنه رسول من الله إلى الناس، وعن الوحي الذي يبلغه عن الله كما ورد في خبر الوليد بن المغيرة إذ قال لقريش: إنه قد حضر هذا الموسم وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به.قال: بل أنتم قولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن؟ قال لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا يسجعه. قالوا فنقول مجنون؟ قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخلجه ولا وسوسته، قالوا فنقول شاعر؟ قال: لقد عرفنا الشعر كله فما هو بالشعر،

فقلوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا شمس؟ قال: إن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزجه وبين المرء وعشيرته.

فلعل المشركين كانوا يستقبلون الواردين على مكة بهاته المقالة) هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(طمعا منهم بأنها تصرف الناس عن النظر في الدعوة تلبسا باستحالة هذا الخلق الجديد.

ويرجح ذلك إتمامها بالاستفهام)افترى على الله كذبا أم به جنة(.

ثم إن كان التقاول بين المشركين بعضهم لبعض، فالتعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ب)رجل(منكر من كونه معروفا بينهم وعن أهل بلدهم، قصدوا من تنكيره أنه لا يعرف تجاهلا منهم. قال السكاكي كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما .

وإن كان قول المشركين موجها إلى الواردين مكة في الموسم، كان التعبير ب)رجل(جرا على مقتضى الظاهر لأن الواردين لا يعرف النبي صلى الله عليه وسلم ولا دعوته فيكون كقول أبي ذر)قبل إسلامه(لأخيه اذهب فاستعلم لنا خبر هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ومعنى)ندلكم(نعرفكم ونرشدكم. وأصل الدلالة الإرشاد إلى الطريق الموصل إلى مكان مطلوب. وغالب استعمال هذا الفعل أن يكون إرشاد من يطلب معرفة، وبذلك فالآية تقتضي أن هذا القول يقولونه للذين يسألونهم عن خبر رجل ظهر بينهم يدعي النبوة فيقولون: هل ندلكم على رجل يزعم كذا، أي ليس بنبي بل مفتر أو مجنون، فمورد الاستفهام هو ما تضمنه قولهم)إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة(، أي هل تريدون أن ندلكم على من هذه صفته، أي وليس من صفته أنه نبي بل هو: إما كاذب أو غير عاقل.

والإنباء: الإخبار عن أمر عظيم، وعظمة هذا القول عندهم عظمة إقدام قائله على ادعاء وقوع ما يرونه محال الوقوع.

وجملة)إنكم لفي خلق جديد(هي المنبأ به.ولما كان الإنباء في معنى القول لأنه إخبار صح أن يقع بعده ما هو من قول المنبأ. فالتقدير من جهة المعنى: يقول إنكم لفي خلق جديد، ولذلك اجتلبت)إن(المكسورة الهمزة دون المفتوحة لمراعاة حكاية القول.

وهذه حكاية ما نبأ به لأن المنبئ إنما نبأ بأن الناس يصيرون في خلق جديد.

وأما شبه الجملة وهو قوله)إذا مزتم كل ممزق(فليس مما نبأ به الرجل وإنما هو اعتراض في كلام الحاكين تنبيها على استحالة ما يقوله هذا الرجل على أنه لازم لإثبات الخلق الجديد لكل الأموات.

وليس)إذا(بمفيد شرطا للخلق الجديد لأنه ليس يلزم للخلق الجديد أن يتقدمه البلى، ولكن المراد أنه يكون البلى حائلا دون الخلق الجديد المنبأ به.
وتقديم هذا الاعتراض للاهتمام به ليتقرر في أذهان السامعين لأنه مناط الإحالة في زعمهم، فإن إعادة الحياة للأموات تكون بعد انعدام أجزاء الأجساد، وتكون بعد تفريقها تفرقا قريبا من العدم، وتكون بعد تفرق ما، وتكون مع بقاء الأجساد على حالها بقاء متفاوتا في الصلابة والرطوبة، وهم أنكروا إعادة الحياة في سائر الأحوال ولكنهم خصوا في كلامهم الإعادة بعد التمزق كل ممزق، أي بعد اضمحلال الأجساد أو تفرقها الشديد، لقوة استحالة إرجاع الحياة إليها بعدئذ.
والتمزيق: تفكيك الأجزاء المتلاصقة بعضها عن بعض بحيث تصير قطعا متباعدة.

صفحة : 3416

والممزق: مصدر ميمي لمزقه مثل المسرح للتسريح.
و)كل(على الوجهين مستعملة في معنى الكثرة كقوله تعالى)ولو جاءتهم كل آية(وقول النابغة:
بها كل ذيال... وقد تقدم غير مرة.
والخلق الجديد:الحديث العهد بالوجود،أي في خلق غير الخلق الأول الذي أبلاه الزمان، فجديد فعيل من جد بمعنى قطع. فأصل معنى جديد مقطوع وأصله وصف للثوب الذي ينسجه الناسج فإذا أتمه قطعه من المنوال. أريد به أنه بحدثان قطعه فصار كناية عن عدم لبسه، ثم شاع ذلك فصار الجديد وصفا بمعنى الحديث العهد، وتنوسي معنى المفعولية منه فصار وصفا بمعنى الفاعلية، فيقال: جد الثوب بالرقع،بمعنى: كان حديث عهد بنسج. ويشبه أن يكون جد اللازم مطاوعا ل جده المتعدي كما كان جبر العظم مطاوعا ل جبر كما في قول العجاج:
قد جبر الدين إلا له فجبر وبهذا يحق الجمع بين قول البصريين الذين اعتبروا جديدا فعيلا بمعنى فاعل، وقول الكوفيين بأنه فعيل بمعنى مفعول، وعلى هذين الاعتبارين يجوز أن يقال: ملحفه جديد كما قال)إن رحمة الله قريب(.
ووصف الخلق الجديد باعتبار أن المصدر بمنزلة اسم الجنس يكون قديما فهو إذن بمعنى الحاصل بالمصدر، ويكون جديدا فهو بمنزلة اسم الفاعل فوصف بالجديد ليتمحض لأحد احتماليه، والظرفية من

قوله)في خلق جديد(مجازية في قوة التلبس بالخلق الجديد تلبسا كتلبس المظروف بالظرف.
وجملة)أفترى على الله كذبا أم به جنة(في موضع صفة ثانية ل)رجل(أتوا بها استفهامية لتشريك المخاطبين معهم في ترديد الرجل بين هذين الحالين.
وحذفت همزة فعل)افترى(لأنها همزة وصل فسقطت لأن همزة الاستفهام وصلت بالفعل فسقطت همزة الوصل في الدرج.
وجعلوا حال الرسول صلى الله عليه وسلم دائرا بين الكذب والجنون بناء على أنه إن كان ما قاله من البعث قاله عن عمد وسلامة عقل فهو في زعمهم مفتر لأنهم يزعمون ان ذلك لا يطابق الواقع لأنه محال في نظرهم القاصر،وإن كان قاله بلسانه لإملاء عقل مختل فهو مجنون وكلام المجنون لا يوصف بالافتراء. وإنما رددوا حاله بين الأمرين بناء على أنه أخبر عن تلقي وحي من الله فلم يبق محتملا لقسم ثالث وهو أن يكون متوهما أو غالطا كما لا يخفى.
وقد استدل الجاحظ بهذه الآية لرأيه في أن الكلام يصفه العرب بالصدق إن كان مطابقا للواقع مع اتقاد المتكلم لذلك، وبالكذب أن كان غير مطابق للواقع ولا للاعتقاد، وما سوى هذين الصنفين لا يوصف بصدق ولا كذب بل هو واسطة بينهما وهو الذي يخالف الواقع ويوافق اعتقاد المتكلم أو يخالف الاعتقاد الواقع أو يخالفهما معا أو لم يكن لصاحبه اعتقاد ومن هذا الصنف الأخير كلام المجنون.
ولا يصح أن تكون هذه الآية دليلا له لأنها حكت كلام المشركين في مقام تمويههم وضلالهم أو تضليلهم فهو من السفسفطة، ثم إن الافتراء أخص من الكذب لأن الافتراء كان من عمد فمقابلته بالجنون لا تقتضي أن كلام المجنون ليس من الكذب بل إنه ليس من الافتراء.
والافتراء: الاختلاق وإيجاد خبر لا مخبر له. وقد تقدم عند قوله تعالى)ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب(في سورة العقود.
وقد رد الله عليهم استدلالهم بما أشار إلى أنهم ضالون أو مضلون، وواهمون أو موهمون فأبطل قولهم بحذافره بحرف الإضراب، ثم بجملة)الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد(. فقابل ما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفين: أنهم في العذاب وذلك مقابل قولهم)افترى على الله كذبا(لأن الذي يكذب على الله يسلط الله عليه عذابه، وأنهم في الضلال البعيد، وذلك مقابل قولهم)به جنة(.

وعدل عن أن يقال: بل أنتم في العذاب والضلال إلى)الذين لا يؤمنون بالآخرة(إدماجا لتهديدهم.
والضلال: خطأ الطريق الموصل إلى المقصود. والبعيد وصف به الضلال باعتبار كونه وصفا لطريق الضال، فإسناد وصفه إلى الضلال مجازي لأنه صفة مكان الضلال وهو الطريق الذي حاد عن المكان المقصود، لأن الضال كلما توغل مسافة في الطريق المضلول فيه ازداد بعدا عن المقصود فاشتد ضلاله وعسر خلاصه، وهو مع ذلك ترشيح للإسناد المجازي.
وقوله)في العذاب(إدماج يصف به حالهم في الآخرة مع وصف حالهم في الدنيا.
والظرفية بمعنى الإعداد لهم فحصل في حرف الظرفية مجازان إذ جعل العذاب.

صفحة : 3417

والضلال لتلازمهما كأنهما حاصلان معا، فهذا من استعمال الموضوع للواقع فيما ليس بواقع تنبيها على تحقيق وقوعه.
)أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب[9](الفاء لتفريع ما بعدها على قوله)بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب(الخ لأن رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأملوا حق التأمل.
والاستفهام للتعجب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي من المخلوقات العظيمة الدالة على أن الذي قدر على خلق تلك المخلوقات من عدم هو قادر على تجديد خلق الإنسان بعد العدم.
والرؤية البصرية بقرينة تعليق)إلى(. فمعنى الاستفهام عن انتفائها منهم انتفاء آثارها من الاستدلال بأحوال الكائنات السماوية والأرضية على إمكان البعث، فشبه وجود الرؤية بعدمها واستعير له حرف النفي. والمقصود: حثهم على التأمل والتدبر ليتداركوا علمهم بما أهملوه. وهذا كقوله)أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون(.
والمراد ب)ما بين أيديهم(ما يستقبله كل أحد منهم من الكائنات السماوية والأرضية، وب)ما خلفهم(ما هو وراء كل أحد منها فإنهم لو شاءوا لنظروا إليه بأن يلتفتوا إلى ما وراءهم، وذلك مثل أن

ينظروا النصف الشمالي من الكرة السماوية في الليل ثم ينظروا النصف الجنوبي منها فيروا كواكب ساطعة بعضها طالع من مشرقه وبعضها وبعضها هاو إلى مغربه وقمرا مختلف الأشكال باختلاف الأيام، وفي النهار بأن ينظروا إلى الشمس بازغة وآفلة،وما يقارن ذلك من إسفار وأصيل وشفق. وكذلك النظر إلى جبال الأرض وبحارها وأوديتها وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه.

و)من(في قوله)من السماء والأرض(تبعيضية.

والسماء والأرض أطلقتتا على محوياتهما كما أطلقت القرية على أهلها في قوله)واسأل القرية(.

وجملة)إن نشأ نخسف بهم الأرض(اعتراض بالتهديد فمناسبة التعجيب الإنكاري بما يذكرهم بقدرة صانع تلك المصنوعات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيره والذين ضيقوا واسع قدرته وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وما يخطر في عقولهم ذكر الأمم التي أصابها عقاب بشيء من الكائنات الأرضية كالخسف أو السماوية كإسقاط كسف من الأجرام السماوية مثل ما أصاب قارون من الخسف وما أصاب أهل الأيكة من سقوط الكسف.

وقرأ الكسائي وحده نخسبهم بإدغام الفاء في الباء، قال أبو علي: وذلك لا يجوز لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم الفاء في الباء، وإن كانت الباء تدغم في الفاء كقولك: اضرب فلانا، وهذا كما تدغم الباء في الميم كقولك: اضرب مالكا، ولا تدغم الميم في الباء كقولك: اضمم بكرا، لأن الباء انحطت عن الميم بفقد الغثة التي في الميم، وهذا رد للرواية بالقياس وهو غصب.

والكسف بكسر الكاف وسكون السين في قراءة الجمهور، وهو القطعة من الشيء. وقد تقدم في قوله تعالى)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(في سورة الإسراء.

وقرأ الجمهور)نخسف(و)نسقط(بنون العظمة. وقرأها حمزة والكسائي وخلف بياء الغائب على الالتفات من مقام التكلم إلى مقام الغيبة، ومعاد الضميرين معروف من سياق الكلام.

وجملة)إن في ذلك لآية لكل عبد منيب(تعليل للتعجيب الإنكاري باعتبار ما يتضمنه من الحث على التأمل والتدبر كما تقدم آنفا، فموقع حرف التوكيد هنا لمجرد التعليل، كقول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير ولك أن تجعل الجملة تذييلا. والمشار إليه هو ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي من الكائنات فيهما.

والآية: الدليل. والتعريف للجنس،فالمفرد المعرف مساو للجمع، أي لآيات كثيرة والمنيب: الراجع بفكره إلى البحث عما فيه كماله النفساني وحسن مصيره في الآخرة فهو يقدر المواعظ حق قدرها ويتلقاها بالشك في الحالة التي وعظ من أجلها فيعاود النظر حتى يهتدي ولا يرفض نصح الناصحين وإرشاد المرشدين مترديا برداء المتكبرين فهو لا يخلو من النظر في دلائل قدرة الله، ومن أكبر المنيبين المؤمنون مع رسولهم.

)ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد[10] أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير[11](مناسبة الانتقال من الكلام السابق إلى ذكر داود خفية. فقال ابن عطية: ذكر الله نعمته على داود وسليمان احتجاجا على ما منح محمد، أي لا تستعبدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديما.

وقال الزمخشري عند قوله)إن في ذلك لآية لكل عبد منيب(لأن المنيب لا يخلوا من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به اه. فقال الطيبي: فيه إشارة إلى نظام بيان هذه الآية بقوله)ولقد آتينا داود منا فضلا(لأنه كالتخلص منه إليه، لأن من المنيبين المتفكرين في آيات الله قال تعالى)واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب(اه يريد الطيبي أن داود من أشهر المثل في المتيبين بما أشتهر به من انقلاب حاله بعد أن كان راعيا غليظا إلى أن اصطفاه الله نبيا وملكا صالحا مصلحا لأمة عظيمة، فهو مثل المنيبين كما قال تعالى)واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب(وقال)فأستغفر ربه وخر راكعا وأناب(، فلإنابته وتأويبه أنعم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وباركه وبارك نسله.وفي ذكر فضله عبر للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضا بضد ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله، وفي هذا إيماء إلى بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة كما آلت حال داود، وذلك الإيماء أوضح في قوله تعالى)اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب(الآية في سورة ص. وسمي الطيبي هذا الانتقال إلى ذكر داود وسليمان تخلصا، والوجه أن يسميه استطرادا أو اعتراضا وإن كان طويلا، فأن الرجوع إلى ذكر أحوال المشركين بعد ما ذكر من قصة داود وسليمان وسبأ يرشد إلى أن إبطال أحوال أهل الشرك هي المقصود من هذه السورة كما سننبه عليه عند قوله تعالى)ولقد صدق عليهم إبليس ظنه(.

وتقدك التعريف بداود عليه السلام عند قوله تعالى)وآتينا داود زبورا(في سورة النساء وعند قوله)ومن ذرية داود(في سورة الأنعام.

و)من(في قوله)منا(ابتدائية متعلقة ب)آتينا(، أي من لدنا ومن عندنا، وذلك تشريف للفضل الذي أوتيه داود، كقوله تعالى)رزقا من لدنا(. وتنكير)فضلا(لتعظيمه وهو فضل النبوة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمة، وفضل القضاء بالعدل، وفضل الشجاعة في الحرب، وفضل سعة النعمة عليه، وفضل إغنائه عن الناس بما ألهمه من صنع دروع الحديد، وفضل إيتائه الزبور، وإيتائه حسن الصوت، وطول العمر في الصلاح وغير ذلك.

وجملة)يا جبال أوبي معه(مقول قول محذوف، وحذف القول استعمال شائع، وفعل القول المحذوف جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لجملة)آتينا داود منا فضلا(.

هذا الأسلوب الذي نظمت عليه الآية من الفخامة وجلالة الخالق وعظم شأن داود مع وفرة المعاني وإيجاز الألفاظ وإفادة معنى المعية بالواو دون لو ما كانت حرف عطف.

والأمر في)أوبى معه(أمر تكوين وتسخير.

والتأويب: الترجيع، أي ترجيع الصوت، وقيل التأويب بمعنى التسبيح لغة حبشية فهو من المعرب باللغة العبرية، وتقدم ذكر تسبيح الجبال مع داود في سورة الأنبياء.

و)الطير(منصوب بالعطف على المنادى لأن المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفعة والنصب أرجح عند يونس وأبو عمرو وعيسى ابن عمر والجرمي وهو أوجه، وجوز أن يكون)
والطير(مفعولا معه)أوبي(،والتقدير: أوبى معه ومع الطير، فيفيد أن الطير تأوب معه أيضا.

وإلانة الحديد: تسخيره لأصابعه حينما يلوي حلق الدروع ويغمز المزامير.

صفحة : 3419

و)أن(تفسيرية لما في)ألنا له(من معنى: أشعرناه بتسخير الحديد ليقدم على صنعه فمان في)ألنا(معنى: وأوحينا إليه: أن أعمل سابغات.

والحديد: تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلب. وتقدم تقدم عند قوله تعالى)قل كونوا حجارة أو حديدا(في سورة الإسراء.

و)سابغات(صفة لموصوف محذوف لظهوره من المقام إذ شاع وصف الدروع بالسابغات والسوابغ حتى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف.
ومعنى)قدر(اجعله على تقدير والتقدير: جعل الشيء على مقدار مخصوص.
والسرد: صنع درع الحديد، أي تركيب حلقها ومساميرها التي تشد شقق الدرع بعضها ببعض كالخياطة للثوب، والدرع توصف بالمسرودة كما توصف بالسابغة. قال أبو ذويب الهذلي:
وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو
صنع السوابغ تبع ويقال لناسج الدروس: سرد وزاد بالسين والزاي، وقال المعري يصف درعا:
وداود قين السابغات أذالـهـا وتلك
أضاة صانها المرء تبع فلما سخر الله له ما أستصعب على غيره أتبعه بأمره بالشكر بأن يعمل صالحا لأن الشكر يكون بالعمل الذي يرضي المشك والمنعم.
وضمير)اعملوا(لداود وآله كقوله تعالى)وأمر أهلك بالصلاة وأصطبر عليها(أو له وحده على وجه التعظيم.
وقوله)إني بما تعملون بصير(موقع)إن(فيه موقع فاء التسبب كقول بشار:
أن ذاك النجاح في التكير وقد تقدم غير مرة.
والبصير: المطلع العليم، وهو هنا كناية عن الجزاء عن العمل الصالح.
)ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير[12](عطف فضيلة سليمان على فضيلة داود للاعتبار بما أوتيه سليمان من فضل كرامة لأبيه على إنابته ولسليمان على نشأته الصالحة عند أبيه، فالعطف على)لقد آتينا داود منا فضلا(والمناسبة مثل مناسبة ذكر داود فإن سليمان كان موصوفا بالإنابة قال تعالى)ثم أناب(في سورة ض.
و)الريح(عطف على)الحديد(في قوله)وألنا له الحديد(بتقدير فعل يدل عليه)وألنا(. والتقدير: وسخرنا لسليمان الريح على نحو قول الشاعر:
متقلدا سيفا ورمحا أي وحاملا رمحا.
واللام في قوله)لسليمان(لام التقوية أنه لما حذف الفعل لدلالة ما تقدم عليه قرن مفعول الأول بلام التقوية لأن الاحتجاج إلى لام التقوية عند حذف الفعل أشد من الاحتجاج إليها عند تأخير الفعل عن المفعول. و)الريح(مفعول ثان.

ومعنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفائنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحا موسمية تهب شهرا مشرقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهرا مغربه لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين كما قال تعالى)ولسليمان الريح تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها(في سورة الأنبياء.
فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان تشبيها بخروج الماشية للرعي في الصباح وهو وقت خروجها، أو تشبيها بغدو الناس في الصباح.
وأطلق الرواح على الرجوع من النهمة التي يخرج لها كقول أبي ربيعة.

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة

غد أم رائح فمؤخر لأن عرفهم أن رواح الماشية يكون في المساء فهو مشتق من راح إذا رجع إلى مقره.
وقرأ الجمهور)ولسليمان الريح(بلفظ إفراد)الريح(وبنصب) الريح(على أنه معطوف على)الحديد(في قوله)وألنا له الحديد(.
وقرأ أبو بكر عن عاصم برفع)الريح(على أنه من عطف الجمل، و)الريح(مبتدأ و)لسليمان(خبر مقدم. وقرأه أبو جعفر)الرياح(بصيغة الجمع منصوبا.
و)القطر(بكسر القاف وسكون الطاء النحاس المذاب. وتقدم في قوله تعالى)قال آتوني أفرغ عليه قطرا(في سورة الكهف.
والإسالة: جعل الشيء سائلا، أي منبطحا في الأرض كمسيل الوادي.

صفحة : 3420

و)عين القطر(ليست عينا حقيقية ولكنها مستعارة لمصب ما يصهر في مصانعه من النحاس حتى يكون النحاس المذاب سائلا خارجا من فساقي ونحوها من الأنابيب كما يخرج الماء من العين لشدة أصهار النحاس وتوالي إصهاره فلا يزال يسيل ليصنع له آنية وأسلحة ودرقا، وما ذلك إلا بإذابة وإصهار خارقين للمعتاد بقوة إلهية، شبه الإصهار بالكهرباء أو بالأسنة النارية الزرقاء، وذلك ما لم يؤته ملك من ملوك زمانه.
ويجوز أن يكون السيلان مستعارا لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار كقول كثير:

وسألت بأعناق المطي الأباطح ويكون)أسلنا(أيضا ترشيحا لاستعارة اسم العين لمعنى مذاب القطر، ووجه الشبه الكثرة.
وقوله)ومن الجن من يعمل بين يديه(يجوز أن يكون عطفا على جملة)وأسلنا له عين القطر(فقوله)من يعمل بين يديه(مبتدأ وقوله)بإذن ربه(خبر. و)من(في قوله)من الجن(بيان لإبهام) من(قدم على المبيت للاهتمام به لغرابته، وهو في موضع الحال. ولك أن تجعل)من يعمل(عطفا على)الريح(في قوله)ولسليمان الريح(أي سخرنا له من يعمل بين يديه من الجن، وتجعل جملة) وأسلنا له عين القطر(معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.
ومعنى)يعمل بين يديه(يخدمه ويطيعه. يقال: أنا بين يديك، أي مطيع.
ولا يقضي هذا أن يكون عملته الجن وحدهم بل يقتضي أن منهم عملة وفي آية النمل)من الجن ولإنس والطير(.
والزيغ: تجاوز الحد والطريق. والمعنى: من يعص أمرنا الجاري على لسان سليمان.
وذكر الجن في جند سليمان عليه السلام تقدم في سورة النمل.
و)عذاب السعير(: عذاب النار تشبيه أي عذاب كعذاب جهنم وأما عذاب جهنم فإنما يكون حقيقة يوم الحساب.
)يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور[13]
(و)يعملون له ما يشاء(جملة مبين لجملة)يعمل بين يديه(.
و)من محاريب(بيان ل)ما يشاء(.
والمحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنه يرمي شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين. وقد سموا قصور غمدان في اليمن محاريب غمدان. وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية. ثم أطلق المحراب على الذي يختلي فيه للعبادة فهوا بمنزلة المسجد الخاص قال تعالى)فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب(وتقدم في سورة آل عمران. وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة قال تعالى) وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب(في سورة ص.
وأما إطلاق المحراب على الموضع من المسجد الذي يقف فيه الإمام الذي يؤم الناس، يجعل مثل كوة غير نافذة واصلة إلى ارض المسجد في حائط القبلة يقف الأمام تحته، فتسميه ذلك محرابا تسمية حديثة ولم أقف على تعيين الزمن الذي ابتدئ فيه إطلاق اسم المحراب على هذا الموقف. واتخاذ المحاريب في المساجد حدث في المائة الثانية ، والمظنون أنه حدث في أولها قي حياة أنس بن مالك لأنه روي عنه أنه تنزه عن الجلوس في المحاريب

وكانوا يسمونه الطاق أو الطاقة وربما سموه المذبح، ولم أر أنهم سموه أيامئذ محرابا، وإنما كانوا يسمون بالمحراب موضع ذبح القربان في الكنيسة قال عمر بن أبي ربيعة:

دمية عند راهـب قـسـيس صوروها

في مذابح المحراب والمذبح والمحراب مقتبسة من اليهود لما لا يخفى من تفرع النصرانية عن دين اليهودية.

وما حكي عن أنس بن مالك إن صح فإنما يعني بيت للصلاة خاص.

ورأيت إطلاق المحراب على الطاقة التي في المسجد في كلام الفراء، أي في منتصف القرن الثاني، نقل الجوهري عنه أنه قال: المحاريب صدور المجالس ومنه سمي محراب المسجد، لأن المحراب لم يبق حينئذ مطلقا على مكان العبادة.

ومن الغلط أن جعلوا في المسجد النبوي في الموضع الذي يقرب النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيه صورة محراب منفصل يسمونه محراب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو علامة على تحري موقفه.

صفحة : 3421

والذي يظهر أن المسلمين ابتدأوا فجعلوا طاقات صغيرة دلالة على القبلة لئلا يضل الداخل إلى المسجد يريد الصلاة فإن ذلك يقع كثيرا، ثم وسعوها شيئا فشيئا حتى صيروها في صوره نصف دهليز صغير في جدار القبلة يسع موقف الإمام، وأحسب أن أول وضعه كان عند بناء المسجد الأموي في دمشق ثم أن الخليفة الوليد ابن عبد الملك أمر في جعله في المسجد النبوي حين وسعه وأعاد بناءه وذلك في مدة أمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة حسبما ذكر السمهودي في كتاب خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى .

والتماثيل جمع تمثال بكسر التاء، ووزنه تفعال لأن التاء مزيدة وهو أحد أسماء معدودة جاءت على وزن تفعال بكسر التاء، وأما قياس هذا الباب وأكثره فهو بفتح التاء. والأسماء التي جاءت على هذا الوزن منها مصادر ومنها أسماء، فأما المصادر فأكثرها بفتح التاء إلا مصدرين: تبيان وتلقاء بمعنى اللقاء. وأما الأسماء فورد منه على الكسر نحو من أربعة عشر اسما منها:تمثال، أحصاها ابن دريد، وزاد ابن العربي في أحكام القرآن عن شيخه الخطيب التبريزي تسعة فصارت خمسة وعشرين. والتمثال هو الصورة الممثلة، أي المجسمة مثل شيء من الأجسام فكان النحاتون يعملون لسليمان صورا

مختلفة كصور موهومة للملائكة وللحيوان مثل الأسود فقد كان كرسي سليمان محفوفا بتماثيل أسود أربعة عشر كما وصف في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول. وكان قد جعل في الهيكل جابية عظيمة من نحاس مصقول مرفوعة على اثنتي عشرة صورة ثور من نحاس.

ولم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة وقد حرمها الإسلام لأن الإسلام أمعن في قطع دابر الإشراك من نفوس العرب وغيرهم. وكان معظم الأصنام تماثيل فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريما لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك. واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الروح إذا كانت مستكملة الأعضاء التي لا يعيش ذو الروح بدونها وعلى كراهة ما عدا ذلك مثل التماثيل المنصفة ومثل الصور التي على الجدران وعلى الأوراق والرقم في الثوب ولا ما يجلس عليه ويداس. وحكم صنعها يتبع اتخاذها. ووقعت الرخصة في اتخاذ صور تلعب بها البنات لفائدة اعتيادهن العمل بأمور البيت.

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء. وقدرت الجفنة في التوارة بأنها تسع أربعين بثا)بالمثلثة(ولم نعرف مقدار البث عندهم ولا شك أنه مكيال. وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي. وهي جمع: جابية وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع قال الأعشى:

نفي الذم عن رهط المحلق جفنة

كجابية الشيخ العراقي تفهـق أي الجفنة في سعتها كجابية الرجل العراقي، وأهل العراق أهل كروم وغروس فكانوا يجمعون الماء للسقي.

وكانت الجفان المذكورة في الهيكل المعروف عندنا ببيت المقدس لأجل وضع الماء ليغسلوا فيها ما يقربونه من المحرقات كما في الإصحاح الرابع منسفر الأيام الثاني.

وكتب في المصحف كالجواب بدون ياء بعد الموحدة. وقرأه الجمهور بدون ياء في حالي الوصل والوقف. وقرأه ابن كثير بإثبات الياء في الحالين. وقرأ ورش عن نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في حال الوصل وبحذفها في حال الوقف.

والقدرو: جمع قدر وهي إناء يوضع فيه الطعام ليطبخ من لحم وزيت وأدهان وتوابل. قال النابغة في النعمان بن الحارث الجلاحي:

له بفناء البيت سوداء فخـمة تلقم أوصال الجزور العراعر

بقية قدر من قدور تـورثـت لآل
الجلاح كابرا بعد كابـر أي تسع قوائم البعير إذا وضعت فيه لتطبخ مرقا ونحوه.
وهذه القدور هي التي يطبخ فيها لجند سليمان ولسدنة الهيكل ولخدمه وأتباعه وقد ورد ذكر القدور إجمالا في الفقرة السادسة عشرة من الإصحاح الرابع من سفر الأيام الثاني.
والراسيات: الثابتات في الأرض التي لا تنزل من فوق أثافيها لتداول الطبخ فيها صباح مساء.
وجملة)اعملوا آل داود شكرا(مقول قول محذوف، أي قلنا: اعملوا يا آل داود، ومفعول)اعملوا(محذوف دل عليه قوله)شكرا(.
وتقديره: اعملوا صالحا، كما تقدم آنفا، عملا لشكر الله تعالى، فانتصب)شكرا(على المفعول لأجله. والخطاب لسليمان وآله.

صفحة : 3422

وذيل بقوله)وقليل من عبادي الشكور(فهو من تمام المقول، وفيه حث على الاهتمام بالعمل الصالح. ويجوز أن يكون هذا التذييل كلاما جديدا جاء في القرآن، أي قلنا ذلك لآل داود فعمل منهم قليل ولم يعمل كثير وكان سليمان من أول الفئة القليلة.
والشكور: الكثير الشكر. وإذ كان العمل شكرا أفاد أن العاملين قليل.
)فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين[14](تفريع على قوله)ومن الجن من يعمل بين يديه(إلى قوله)وقدور راسيات(أي دام عملهم له حتى مات)فلما قضينا عليه الموت(إلى آخره. ولا شك أن ذلك لم يطل وقته لأن مثله في عظمة ملكه لا بد أن يفتقده أتباعه، فجملة)ما دلهم على موته(الخ جواب)لما قضينا عليه الموت(.
وضمير)دلهم(يعود إلى معلوم من المقام، أي أهل بلاطة.
والدلالة: الإشعار بأمر خفي. وتقدم ذلك عند قوله تعالى)وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل(في الآية السابقة.
و)دابة الأرض(هي الأرضة بفتحات ثلاث وهي السرفة بضم السين وسكون الراء وفتح الفاء لا محالة وهاء تأنيث: سوس ينخر الخشب. فالمراد من الأرض مصدر أرضت السرفة الخشب من باب ضرب، وقد سخر الله لمنساة سليمان كثيرا من السرف فتعجل لها النخر.

وجملة)فلما خر(مفرعة على جملة)ما دلهم على موته(. وجملة) تبينت الجن(جواب)لما خر(. والمنساة بكسر الميم وفتحها وبهمزة بعد السن، وتخفف الهمزة فتصير ألفا هي العصا العظيمة، قيل هي كلمة من لغة الحبشة.

وقرأ نافع وأبو عمرو بألف بعد السين. وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وهشام عن ابن عامر. بهمزة مفتوحة بعد السين. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر بهمزة ساكنة بعد السين تخفيفا وهو تخفيف نادر.

وقرأ الجمهور)تبينت الجن(بفتح الفوقية والموحدة والتحتية. وقرأه رويس عن يعقوب بضم الفوقية والموحدة وكسر التحتية بالبناء للمفعول، أي تبين الناس الجن. و)أن لو كانوا يعلمون(بدل اشتمال من الجن على كلتا القراءتين.

وقوله)تبينت الجن(إسناد مبهم فصله قوله)أن كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين(ف)أن(مصدرية والمصدر المنسبك منها بدل من)الجن(بدل اشتمال، أي تبينت أمرهم أنهم لا يعلمون الغيب، أي تبين عدم علمهم الغيب، ودليل المحذوف هو جملة الشرط والجواب.

و)العذاب المهين(: المذل، أي المؤلم المتعب فإنهم لو علموا الغيب لكان علمهم بالحاصل أزليا وهذا إبطال لاعتقاد العامة يومئذ وما يعتقده المشركون أن الجن يعلمون الغيب فلذلك كان المشركون يستعلمون المغيبات من الكهان، ويزعمون أن لكل كاهن جنيا يأتيه بأخبار الغيب،ويسمونه رئيا إذ لو كانوا يعلمون الغيب لكان أن يعلموا وفاة سليمان أهون عليهم.

)لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور[15](جر خبر سليمان عليه السلام إلى ذكر سبأ لما بين ملك سليمان وبين مملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة بلقيس ، ولأن في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان إذ كان هذان مثلا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وكان أولئك مثلا لسلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشركين إذ كانوا في بحبوحة من النعمة فلما جاءهم رسول من المنعم عليهم يذكرهم بربهم ويوقظهم بأنهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذبوه وأعرضوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المنعم المتفرد بالإلهية.

وقال ابن عطية عند الكلام على قوله تعالى)ولقد آتينا داود منا فضلا(لما فرغ التمثيل لمحمد صلى الله عليه وسلم رجع التمثيل لهم أي المشركين أي حالهم بسبأ وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو اه. فهذه القصة تمثيل أمة بأمة، وبلاد بأخرى، وذلك من قياس وعبره. وهي فائدة تدوين التاريخ وتقلبات الأمم كما قال تعالى)ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون(فسوق هذه القصة تعريض بأشباه سبأ. والمعنى: لقد كان لسبأ في حال مساكنهم ونظام بلادهم آية.

والآية هنا: الأمارة والدلالة بتبدل الأحوال وتقلب الأزمان، فهي آية على تصرف الله ونعمته عليهم فلم يهتدوا بتلك الآية فأشركوا به وقد كان في إنعامه عليهم ما هو دليل على وجوده ثم على وحدانيته.

والتأكيد بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين بالتعريض بهذه القصة منزلة من يتردد في ذلك لعدم اتعاظهم بحال قوم من أهل بلادهم، وتجريد)كان(من تأنيث الفعل لأن اسمها غير حقيقي للتأنيث ولوقوع الفصل المجرور.

واللام في)لسبأ(متعلق ب)آية(. والمساكن: البلاد التي يسكنونها بقرينة قوله)جنتان عن يمين وشمال(والمساكن: ديار السكنى. وتقدم الكلام على سبأ عند قوله)وجئتك من سبأ(في سورة النمل.

واسم سبأ يطلق على الأمة كما هنا وعلى بلادهم كما في آية النمل وتقدم تفصيله.

وقرأ الجمهور)في مساكنهم(بصيغة جمع مسكن. وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف بلفظ المفرد)في مسكنهم(إلا أن حمزة وحفصا فتحا الكاف، والكسائي وخلف كسرا الكاف وهو خارج عن القياس لأنه مضارع غير مكسور العين فحق اسم المكان منه فتح العين. وشذ نحو قولهم: مسجد لبيت الصلاة.

و)جنتان(بدل من)آية(باعتبار تكملته بما اتصل به من المتعلق والقول المقدر و)جنتان(تشبيه بليغ، أي في مساكنهم شبيه جنتين في أنه مغترس أشجارا ذات ثمر متصل بعضه ببعض مثل ما يعرف من حال الجنات، وتثنية جنتين باعتبار أن ما على يمين السائر كجنة، وما على يساره كجنة. وقيل كان لكل رجل في مسكنه، أي داره جنتان جنة عن يمين المسكن وجنة عن شماله فكانوا يتفؤون ظلالهما في الصباح والمساء ويجتنبون ثمارها من نخيل وأعناب وغيرها، فيكون معنى التركيب على التوزيع، أي: لكل مسكن جنتان، كقولهم: ركب القوم دوابهم، وهذا مناسب لقوله)في مساكنهم(دون

أن يقول في بلادهم، أو ديارهم، ويجوز أن يكون المراد أن مدينتهم وهي مأرب كانت محفوفة على يمينها وشمالها بغابة من الجنات يصطافون فيها ويستثمرونها مثل غوطة دمشق، وهذا يناسب قوله بعد)وبدلناهم بجنتيهم جنتين(لأن ظاهره أن المبدل به جنتان اثنتان، إلا أن تجعله على التوزيع من مقابلة المتعدد بالمتعدد.

والمعنى: أنهم كانوا أهل جنات مغروسة أشجارا مثمرة وأعنابا.

وكانت مدينتهم مأرب بهمزة ساكنة بعد الميم وهي بين صنعاء وحضرموت، قبل كان السائر في طرائقها لو وضع على رأسه مكتلا لوجده قد ملئ ثمارا مما يسقط من الأشجار التي يسير تحتها. ولعل في هذا القول شيئا من المبالغة إلا أنها تؤذن بوفرة. وكان ذلك بسبب تدبير ألهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في مأرب.

وجملة)كلوا من رزق ربكم(مقول قول إما من دلالة لسان الحال كما في قوله:

امتلأ الحوض وقال قطني وإما أبلغوه على ألسنة أنبياء بعثوا منهم قيل بعث فيهم اثنا عشر نبيا، أي مثل تبع أسعد، فقد نقل أنه كان نبيا كما أشار إليه قوله تعالى)وقوم تبع(أو غيره، قال تعالى)منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك(، أو من غيرهم مما قاله سليمان بلقيس أو مما قاله الصالحون من رسل سليمان إلى سبأ، وفي جعل)جنتان(في نظم الكلام بدلا عن آية كناية عن طيب تربة بلادهم. قيل كانوا يزرعون ثلاث مرات في كل عام.

صفحة : 3424

والطيبة: الحسنة في جنسها الملائمة لمزاولها ومستثمرها قال تعالى)وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف(وقال)فلنحيينه حياة طيبة(وقال)والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه(وقال)رب هب لي من لدنك ذرية طيبة(. وفي حديث أبي طلحة في صدقته بحائط بئر حاء : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . والطيب ضد الخبيث قال تعالى)ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب(وقال)ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث(.

واشتقاقه من الطيب بكسر الطاء بوزن فعل وهو الشيء الذي تعبق منه رائحة لذيذة.

وجملة)بلدة طيبة(من تمام القول وهي مستأنفة في الكلام المقول، أي بلدة لكم طيبة، وتنكير)بلدة(للتعظيم. و)بلدة(مبتدأ و)طيبة(نعت ل)بلدة(، وخبره محذوف تقديره: لكم، وعدل عن إضافة)بلدة(إلى ضميرهم لتمون الجملة خفيفة على اللسان فتكون بمنزلة المثل.

وجملة)ورب غفور(عطف على جملة)بلدة طيبة(.

وتنكير)رب(للتعظيم. وهو مبتدأ محذوف الخبر على وزان)بلدة طيبة(، والتقدير: ورب لكم، أي ربكم غفور.

والعدول عن إضافة)رب(لضمير المخاطبين إلى تنكير)رب(وتقدير لام الاختصاص لقصد تشريفهم بهذا الاختصاص وتكون جملة على وزان التي قبلها طابا للتخفيف ولتحصل المزاوجة بين الفقرتين فتسيرا مسير المثل.

ومعنى)غفور(: متجاوز عنكم، أي عن كفرهم الذي كانوا عليه قبل إيمان بلقيس بدين سليمان عليه السلام، ولا يعلم مقدار مدة بقائهم على الإيمان.

)فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل[16](تفريع على قوله واشكروا له وقع اعتراضا بين أجزاء القصة التي بقيتها قوله)وجعلنا بينهم وبين القرى(الخ. وهو اعتراض بالفاء مثل قوله تعالى)ذلكم فذوقوه وان للكافين عذاب النار(وتقدم في سورة الأنفال.

والإعراض يقتضي سبق دعوة رسول أو نبي، والمعنى: أعرضوا عن الاستجابة لدعوة التوحيد بالعودة إلى عبادة الشمس بعد أن اقلعوا في زمن سليمان وبلقيس فلعل بلقيس كانت حولتهم من عبادة الشمس فقط فقد كانت الأمم تتبع أديان ملوكهم وقد قيل إن بلقيس لم تعمر بعد زيارة سليمان إلا بضع سنين. والإرسال: الطلاق وهو ضد الحبس، وتعديته بحرف)على(موذنة بأنه إرسال نقمة فإن سيل العرم كان محبوسا بالسد في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جناتهم، فلما كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد قدر الله لهم عقابا بأن قدر أسباب انهدام السد فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم خطرا وإتلافا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلاف نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم.

و)العرم(يجوز أن يكون وصفا العرامة وهي الشدة والكثرة فتكون إضافة)السيل(إلى)العرم(من إضافة الموصوف إلى الصفة. ويجوز أن يكون)العرم(اسما للسيل الذين كان ينصب في السد فتكون الإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم، أي السيل العرم.

وكانت للسيول والأدوية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويدل على هذا المعنى قول الأعشى:

ومأرب عفى عليها العرم وقيل:)العرم(اسم جمع عرمة بوزن شجرة، وقيل لا واحد له من لفظه وهو ما بني ليمسك الماء لغة يمنية وحبشية. وهي المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة بوزن مفعلة التي هي أسم الآلة مشتق من سنيت بمعنى سقيت،ومنه سميت الساقية سانية وهي الدلو المستقى به والإضافة على هذين أصلية.

والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزونا بالسد.

صفحة : 3425

وكان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب)ومأرب من كور اليمن(وكان أعظم السداد في بدلا اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرقة وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتى به السيول في وقت نزول الأمطار في الصيف والخريف فكانوا يعمدون إلى ممرات السيول من بين الجبال فيبنون في ممر الماء سورا من صخور يبنونها بناء محكما يصبون في الشقوق التي بين الصخور القار حتى تلتئم فينحبس الماء الذي يسقط هنالك حتى إذا امتلأ الخزان جعلوا بجانبيه جوابي عظيمة يصب فيها الماء يفيض من أعلى السد فيقيمون من ذلك ما يستطيعون من توفير الماء المختزن.

وكان سد مأرب الذي يحفظ فيه)سيل العرم(شرع في بنائه سبأ أول ملوك هذه الأمة ولم يتمه فأتمه ابنه حمير. وأما ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه إذ لعل بلقيس بنت حوله خزانات أخرى فرعيه أو رممت بناءه ترمبما أطلق عليه اسم البناء، فقد كانوا يتعهدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كل سنة حتى تبقى تجاه قوة السيول الساقطة فيها.

وكانوا يجعلون للسد منافذ مغلقة يزيلون عنها السكر إذ أرادوا إرسال الماء إلى الجهات المتفرقة التي تسقى منه إذ جعلوا جناتهم حول السد مجتمعة. وكان يصب في سد مأرب سبعون واديا.

وجعلوا هذا السد بين جبلين يعرف كلاهما بالبلق فهما البلق الأيمن والبلق الأيسر.

وأعظم الأودية التي كانت تصب فيه اسمه)إذنه(فقالوا: أن الأودية كانت تأتي إلى سبأ من الشجر وأودية اليمن.

وهذا السد حائط طوله من الشق إلى الغرب ثمانمائة ذراعا وارتفاعه بضع عشرة ذراعا وعرضه مائة وخمسون ذراعا.

وقد شاهد الحسن الهمداني ووصفه في كتابه المسمى بالإكليل وهو من أهل أوائل القرن الرابع بما سمعت حاصلة. ووصفه الرحالة)أرنو(الفرنسي سنة 1883 والرحالة غلازر الفرنسي.

ولا يعرف وقت انهدام هذا السد ولا أسباب ذلك. والظاهر إن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخليه بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأما ما يذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات.

وفي العرم قال النابغة الجعدي:

من سبإ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما والتبديل: تعويض شيء بآخر وهو يتعدى إلى المأخوذ بنفسه وإلى المبذول بالباء وهي باء العوض كما تقدم في قوله تعالى)ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب(في سورة النساء.

فالمعنى:أعطيناهم أشجار خمط وأثل وسدر عوض عن جنتيهم، أي صارت بلادهم شعراء قاحلة ليس فيها إلا شجر العضاة والبادية، وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم فقاسوا العطش وفقدان الثمار حتى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار فلما كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طوي ذكر ما قبلها واقتصر على) وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط(إلى آخره.

وإطلاق اسم الجنتين على هذه المنابت مشاكلة للتهكم كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فجعلنا قـراكـم قبيل الصبح مرادة طحونا وقوله تعالى)فبشرهم بعذاب أليم(.

وقد وصف الأعشى هذه الحالة بدءا ونهاية بقوله:

وفي ذاك للمؤنسي عبـرة ومأرب عفى عليه العرم

رخام بنته لهـم حـمـير إذا جـاء مـوره لـم يرم

فأروى الزروع وأعنى بها على سعة ماؤهم إذا قسم

فعاشوا بذلك في غـبـطة فحاربهم جارف منهـزم

فطار القيول وقـيلاتـهـا ببهماء فيها سراب يطـم

فطاروا سراعا وما يقدرون منه
لشرب صبي فـطـم والخمط: شجر الأراك. ويطلق الخمط على الشيء المر. والأثل: شجر عظيم من شجر العظاه يشبه الطرفاء. والسدر:شجر من العضاة أيضا له شوك يشبه شجر العناب. وكلها تنبت في الفيافي.
والسدر: أكثرها ضلا وأنفعها لأنه يغسل بورقه مع الماء فينظف وفيه رائحة حسنة ولذلك وصف هنا بالقليل لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه، وزيد تقليله قلة يذكر كلمة)شيء(المؤذنة في ذاته بالقلة، يقال شيء من كذا، إذا كان قليلا.
وفي القرآن)وما أغنى عنكم من الله شيئا(.

صفحة : 3426

والأكل يضم الهمزة وسكون الكاف ويضم الكاف : المأكول. قرأ نافع وابن كثير بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه باقي العشرة بضم الكاف وقرأ الجمهور)أكل(بالتنوين مجرورا فإذا كان) خمط(مرادا به الشجر المسمى بالخمط، فلا يجوز أن يكون)خمط(صفة ل)أكل(لأن الخمط شجر، ولا أن يكون بدلا من)أكل(كذلك، ولا عطف بيان كما قدره أبو علي لأن عطف البيان كالبدل المطابق، فتعيين أن يكون)خمط(هنا صفة يقال: شيء خامط إذا كان مرا.
وقرأه أبو عمرو ويعقوب)أكل(بالإ ضافة إلى)خمط(، فالخمط إذن مراد به شجر الأراك،وأكله ثمره وهو البرير وهو مر الطعم.
ومعنى)ذواتي أكل(صاحبتي أكل ف)ذوات(جمع)ذات(التي بمعنى صاحبه، وهي مؤنث)ذو(بمعنى صاحب، وأصل ذات ذواة بهاء التأنيث مثل ذوات ووزنها فعله بفتحتين ولامها واور، فأصلها ذووه فلما تحركت الواو إثر فتحة قلبت ألفا ثم خففوها في حال الإفراد بحذف العين فقالوا: ذات فوزنها فلت أو فله. وقال الجوهري:أصل التاء في ذات هاء مثل نواة لأنك إذا وقفت عليها في الواحد قلت: ذاه بالهاء، ولكنهم لما وصلوا بما بعدها بالإضافة صارت تاء ويدل لكون أصلها هاء أنه إذا صغر يقال ذويه بهاء التأنيث اه. ولم يبين أئمة اللغة وجه هذا الإبدال ولعله لكون الكلمة بنيت على حرف واحد وألف هي مدة الفتحة فكان النطق بالهاء بعدهما ثقيلا في حال الوقف، ثم لما ثنوها ردوها إلى أصلها لأن التثنية ترد الأشياء إلى أصولها فقالوا: ذواتا كذا، وحذفت النون للزوم إضافته، وأصله: ذويات. فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ووزنه فعلتان

وصار وزنه بعد القلب فعاتان وإذا جمعوها عادوا إلى الحذف فقالوا ذوات كذا بمعنى صاحبات،وأصله ذويات فقلب الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فأصل وزن ذواتى فعلات ثم صار وزنه بعد القلب فعات، وهو مما ألحق بجمع المؤنث السالم لأن تاءه في المفرد أصلها هاء، وأما تاؤه في الجمع فهي تاء صارت عوضا عن الهاء التي في المفرد على سنة الجمع بألف وتاء.

)ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجزى إلا الكفور[17](استئناف بياني ناشئ عن قوله)فأرسلنا عليهم سيل العرم(فهو من تمام الاعتراض.

واسم الإشارة يجوز أن يكون في محل نصب نائبا عن المفعول المطلق المبين لنوع الجزاء،وهو من البيان بطريق الإشارة،أي جزيناهم الجزاء المشار إليه وهو ما تقدم من التبديل بجنتيهم جنتين أخريين. وتقديمه على عامله للاهتمام بشدة ذلك الجزاء. واستحضاره باسم الإشارة لما فيه من عظمة هوله.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله)فأرسلنا عليهم سيل العرم(إلى قوله)من سدر قليل(ويكون جملة)جزيناهم(خبر المبتدأ والرابط ضمير محذوف تقديره: جزيناهموه.

والباء في)بما كفروا(للسببية و)ما(مصدرية، أي بسبب كفرهم.

وكفر هو الكفر بالله، أي إنكار إلهيته لأنهم عبدة الشمس.

والاستفهام في)وهل يجازى(إنكاري في معنى النفي كما دل عليه الاستثناء.

والكفور: الشديد الكفر لأنهم كانوا لا يعرفون اللهو يعبدون الشمس فهم أسوأ حالا من أهل الشرك.

والمعنى: ما يجازى ذلك الجزاء إلا الكفور لأن ذلك الجزاء عظيم في نوعه، أي نوع العقوبات فإن العقوبة من جنس الجزاء. والمثوبة من جنس الجزاء فلما قيل)ذلك جزيناهم بما كفروا(تعين أن المراد: وهل يجازى مثل جزائهم إلا الكفور، فلا يتوهم أن هذا يقتضي أن غير الكفور لا يجازى على فعله، ولا أن الثواب لا يسمى جزاء ولا أن العاصي المؤمن لا يجازى على معصيته، لأن تلك التوهمات كلها مندفعة بما في اسم الإشارة من بيان نوع الجزاء، فإن الاستئصال ونحوه لا يجري على المؤمنين.

وقرأ الجمهور)يجازى(بياء الغائب والبناء للمجهول ورفع)الكفور(.

وقرأ حمزة والكسائي بنون العظمة والبناء للفاعل ونصب)الكفور(.

)وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين[18](تكملة القصة بذكر نعمة

بعد نعمة فإن ما تقدم لنعمة الرخاء والبهجة وطيب الإقامة، وما هنا لنعمة الأمن وتيسير الأسفار وعمران بلادهم.

صفحة : 3427

والمراد بالقرى التي بوركت قرى بلاد الشام فكانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلاد الشامية قوافل للتجارة وبيع الطعام سلكوا طريق تهامة ثم الحجاز ثم مشارف الشام ثم بلاد الشام، فكانوا كلما ساروا مرحلة وجدوا قرية أو بلدا أو دارا للاستراحة واستراحوا وتزودوا. فكانوا من أجل ذلك لا يحملون معهم أزوادا إذا خرجوا من مأرب.

وهذه القرى الظاهرة يحتمل أنها تكونت من عمل الناس القاطنين حفافي الطريق السابلة بين مأرب وجلق قصد استجلاب الانتفاع بنزول القوافل بينهم وابتياع الأزواد منهم وإيصال ما تحتاجه تلك القرى من السلع والثمار وهذه طبيعة العمران.

ويحتمل أن سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كل مرحلة من مراحل أسفارهم واستنبطوا فيها الآبار والمصانع وأوكلوا بها من يحفظها ويكون لائذا بهم عند نزولهم. فيكون ذلك من جملة ما وطد لهم ملوكهم من أسباب الحضارة والأمن على القوافل وقد تكون إقامة هاته المنازل مجلبة لمن يقطنون حولها ممن يرغب في المعاملة مع القافلة عند مرورها.

وعلى الاحتمالين فإسناد جعل تلك القرى إلى الله تعالى لأنه الملهم الناس والملوك أو لأنه الذي خلق لهم تربة طيبة تتوفر محاصيلها على حاجة السكان فتسمح لهم بتطلب ترويجها في بلاد أخرى.

ووصف)ظاهرة(أنها متقاربة بحيث يظهر بعضها لبعض ويتراءى بعضها من بعض. وقيل: الظاهرة التي تظهر للسائر من بعد بأن كانت القرى مبنية على الآكام والظراب يشاهدها المسافر فلا يضل طريقها. وقال ابن عطية الذي يظهر لي أن معنى)ظاهرة(أنها خارجة عن المدن فهي في ظواهر المدن ومنه قولهم: نزلنا بظاهر المدينة الفلانية، أي خارجا عنها. فقوله)ظاهرة(كتسمية الناس إياها بالبادية وبالضاحية، ومنه قول الشاعر وأنشده أهل اللغة:

فلو شهدتني من قريش عصـابة

قريش البطح لا قريش الظواهر وفي حديث الاستسقاء: وجاء أهل الظواهر يشتكون الغرق اه. وهو تفسير جميل. ويكون في قوله)

ظاهرة(على ذلك كناية عن وفرة المدن حتى أن القرى كلها ظاهرة منها.
ومعنى تقدير السير في القرى أن أبعادها على تقدير وتعادل بحيث لا يتجاوز مقدار مرحلة. فكان الغادي يقبل في قرية والرائح يبيت في قرية. فالمعنى قدرنا مسافات السير في القرى، أي في أبعادها. ويتعلق قوله)فيها(بفعل)قدرنا(لا بالسير لأن التقدير في القرى وأبعادها لا في السير إذ تقدير السير تبع لتقدير الأبعاد.
وجملة)سيروا فيها ليالي(مقول قول محذوف. وجملة القول بيان لجملة)قدرنا(أو بدل اشتمال منها.
وهذا القول هو قول التكوين وهو جعلها يسيرون)فيها(عائد إلى القرى، والظرفية المستفادة من حرف الظرف تخييل المكنية، شبهت القرى لشدة تقاربها بالظرف وحذف المشبه به ورمز إليه بحرف الظرفية. والمعنى: سيروا بينها.
وكانوا يسيرون غدوا وعشيا فيسيرون الصباح ثم تعترضهم قرية فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون المساء فتعرضهم قرية يبيتون بها. فمعنى قوله)سيروا فيها ليالي وأيام(سيروا كيف شئتم. وتقديم الليالي على الأيام بها في مقام الامتنان لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع.
)فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلنهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[19](الفاء من قوله)فقالوا ربنا(لتعقيب قولهم هذا أثر إتمام النعمة عليهم باقتراب المدن وتيسير الأسفار، والتعقيب في كل شيء بحسبه فلما تمت النعمة بطروها فحلت بهم أسباب سلبها عنهم.
ومن أكبر أسباب زوال النعمة كفرانها. قال الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

صفحة : 3428

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جوابا عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك فهم يعظونهم بأن الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية فهم يجيبون بهذا القول إفحاما لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش:)اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم(، قبل هذا لا)فأعرضوا فإن الإعراض يقتضي دعوة لشيء(ويفيد هذا

المعنى قوه) وظلموا أنفسهم(عقب حكاية قولهم لفأنه أما معطوف على جملة)فقالوا(، أي فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك فإن ظلم النفس أطلق كثيرا على الإشراك في القرآن وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق.

ويجوز أن تكون جملة)وظلموا أنفسهم(في موضع الحال، والواو واو الحال، أي قالوا ذلك وقد ظلموا أنفسهم بالشرك فكان قولهم مقارنا للإشراك.

وعلى الاعتبارين فإن العقاب إنما كان مسببا بسببين كما هو صريح قوله)فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين(إلى قوله)إلا الكفور(.

فالمسبب على الكفر هو استئصالهم وهو مدلول قوله)فجعلناهم أحاديث(كما ستعرفه، والمسبب على كفران نعمة تقارب البلاد هو تمزيقهم كل ممزق ، أي تفريقهم، فنظم الكلام جاء على طريقة اللف والنشر المشوش.

ودرج المفسرون على أنهم دعوا الله بذلك، ويعكر عليه أنهم لم يكونوا مقرين بالله فيما يظهر فإن درجنا على أنهم عرفوا الله ودعوه بهذا الدعاء لأنهم لم يقدروا نعمته العظيمة قدرها فسألوا الله أن تزول تلك القرى العامرة ليسيروا في الفيافي ويحملوا الأزواد من الميرة والشراب.

ثم يحتمل أن يكون أصحاب هذه المقالة ممن كانوا أدركوا حالة تباعد الأسفار في بلادهم قبل أن تؤول إلى تلك الحضارة أو ممن كانوا يسمعون أحوال الأسفار الماضية في بلادهم أو أسفار الأمم البادية فتروق لهم تلك الأحوال، وهذا من كفر النعمة الناشئ عن فساد الذوق في إدراك المنافع وأضدادها. ومباعدة بصيغة المفاعلة القائمة مقام همزة التعدية والتضعيف. فالمعنى: ربنا ابعد بين أسفارنا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب .

وقرأه الجمهور)باعد(. وقرأ ابن كثير وابن عمرو)بعد(بفتح الباء وتشديد العين. وقرأه يعقوب وحده)ربنا(بالرفع و)باعد(بفتح العين وفتح الدال بصيغة الماضي على إن الجملة خبر المبتدأ. والمعنى: أنهم تذمروا من ذلك العمران واستقلوه وطلبوا أن تزداد البلاد قربا وذلك من بطر النعمة بطلب ما يتعذر حينئذ.

والتركيب يعطي معنى)أجعل البعد بين أسفارنا(. ولما كانت) بين(تقتضي أشياء تعين أن المعنى: باعد بين السفر والسفر من أسفارنا. ومعنى ذلك إبعاد المراحل لأن كل مرحلة تعتبر سفرا، أي باعد بين مراحل أسفارنا.

ومعنى)فجعلناهم أحاديث(جعلنا أولئك الذين كانوا في الجنات وفي بحبوحة العيش أحاديث،أي لم يبق منهم أحد فصار وجودهم في الأخبار والقصص وأبادهم الله حين تفرقوا بعد سيل العرم فكان ذلك مسرعا فيهم بالفناء بالتغرب في الأرض والفاقة وتسلط العوادي عليهم في الطرقات كما ستعمله.وفعل الجعل يقتضي تغييرا ولما علق بذواتهم انقلبت من ذوات مشاهدة إلى كونها أخبارا مسموعة. والمعنى: انهم هلكوا وتحدث الناس بهم. وهذا نظير قولهم: دخلوا في خبر كان، وإلا فإن الحديث لا يخلوا منها أحد ولا جماعة. وقد يكون في المدح كقوله:

هاذي قبورهم وتلك قصورهم

وحديثهم مستـودع الأوراق أو أريد: فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة، أي فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدث به الناس فيكون أحاديث موصوفا بصفة مقدرة دل عليها السياق مثل قوله تعالى) يأخذ كل سفينة غصبا(، أي كل سفينة صالحة بقرينة قوله)فأردت أن أعيبها(.

والتمزيق: تقطيع الثوب قطعا، استعير هنا للتفريق تشبيها لتفريق جامعة القوم شذر مذر بتمزيق الثوب قطعا.

و)كل(منصوب على المفعولية المطلقة لأنه بمعنى الممزق كله، فاكتسب معنى المفعولية المطلقة من إضافته إلى المصدر.

ومعنى)كل(كثيرة التمزيق لأن كلا ترد كثيرا بمعنى الكثير لا بمعنى الجميع، قال تعالى)ولو جاءتهم كل آية(وقال النابغة:

بها كل ذيال

صفحة : 3429

وأشارت الآية إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبا إذ حملهم خراب السد وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقا ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا، أو أيادي سبا، بتخفيف همزة سبا لتخفيف المثل. وفي لسان العرب في مادة يدي قال المعري: لم يهمزوا سبا لأنهم جعلوه مع ما قبله بمنزلة الشيء الواحد. هكذا ولعله التباس أو تحريف، وإنما ذكر المعري عدم إظهار الفتحة على ياء أيادي أو أيدي كما هو مقتضى التعليل لأن التعليل يقتضي التزام فتح همزة سبا كشأن المركب المزجي.قال في لسان العرب: وبعضهم ينونه إذا خففه، قال ذو الرمة:

فيا لك من دار تفرق أهلهـا أيادي

سبا عنها وطال انتقالها والأكثر عدم تنوينه قال كثير:

أيادي سبا يا عز ما كنت بعدكم فلم يحل بالعينين بعدك منظر والأيادي والأيدي فيه جمع يد. واليد بمعنى الطريق.

والمعنى: أنهم ذهبوا في مذاهب شتى يسلكون منها إلى أقطار عدة كقوله تعالى)كنا طرائق قددا(. وقيل: الأيادي جمع يد بمعنى النعمة لان سبا تلفت أموالهم. وكانت سبا قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشرة أفخاذ وهم: الأزد، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة،وعاملة، وهم خزاعة، وغسان، ولخم، وجذام.

فلما فارقوا مواطنهم فالستة الأولون تفرقوا في اليمن ولأربعة الأخيرون خرجوا إلى جهات قاصية فلحقت الأزد بعمان، ولحقت خزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج بيثرب، ولعلهم معدودون في لخم، ولقت غسان ببصرى والغوير من بلاد الشام، ولحقت لخم بالعراق.

وقد ذكر أهل القصص لهذا التفرق سببا هو أشبه بالخرافات فأعرضت عن ذكره، وهو موجود في كتب السير والتواريخ. وعندي أن ذلك من خذلان من الله تعالى سلبهم التفكير في العواقب فاستخفف الشيطان أحلامهم فجزعوا من انقلاب حالهم ولم يتدرعوا بالصبر حين سلبت عنهم النعمة ولم يجأروا إلى الله بالتوبة فبعثهم الجزع والطغيان والعناد وسوء التدبير من رؤسائهم على أن فارقوا أوطانهم عوضا من أن يلموا شعثهم ويرقعوا خرقهم فتشتتوا في الأرض، ولا يخفى ما يلاقون من ذلك من نصب وجوع ونقص من الأنفس والحمولة والأزواد والحلول في ديار أقوام لا يرثون لحالهم ولا يسمحون لهم بمقاسمة أموالهم فيمونون بينهم عافين.

وجملة)إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور(تذييل فلذلك قطعت، وافتتاحها بأداة التوكيد للاهتمام بالخير. والمشار إليه بذلك هو ما تقدم من قوله)لقد كان لسبإ في مساكنه آية(.

ويظهر أن هذا التذييل تنهية للقصة وأن ما بعد هذه الجملة متعلق بالغرض الأول المتعلق بأقوال المشركين والمنتقل منه إلى العبرة بداود وسليمان والممثل لحال المشركين فيه بحال أهل سب.

وجمع)الآيات(لأن في تلك القصة عدة آيات وعبر فحلة مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه. وفيه آية على أنه الواحد بالتصرف، وفي إرسال سير العرم عليه آية على انفراده وحده بالتصرف، وعلى أنه المنتقم وعل أنه واحد، فلذلك عاقبهم على الشرك،وفي انعكاس حالهم من الرفاهة إلى الشظف آية على تقلب الأحوال وتغير العالم وآية على صفات الأحوال لله تعالى من خلق ورزق وإحياء وإماتة، وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حال في الخير والشر. وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قراهم إلى

بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات، وآية من الأمن أساس العمران. وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط المفضي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في الأرض آية على ما يلجئ الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره كما يقول المثل: الحمى أرضعتني إليك.

والجمع بين)صبار(و)شكور(في الوصف لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصب على المكاره، والشمر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فيطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لا قوة في ذلك من المتآلف والمذلات.

صفحة : 3430

فالصبار يعتبر من تلك الأحوال فيعلم أن الصبر علك المكاره خير من الجزع ويرتكب أخف الضرين، ولا يستخفه الجزع فيلقي بنفسه إلى الأخطار ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أعطى من النعم فيزداد شكرا لله تعالى ولا يبطر النعمة ولا يطغى فيعاقب بسلبها كما سلبت عنهم، ومن وراء ذلك أن يحركهم الله التوفيق. وأن يقذف بهم الخذلان في بنيات الطريق.

وفي الآية دلالة واضحة على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان لتيسير تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده كما قال تعالى)وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا(وقال) وآمنهم من خوف(، فلذلك قال هنا)وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليال وأياما آمنين(.

وعلى أن الإجحاف في إيفاء النعمة حقها من الشكر يعرض بها للزوال وانقلا بالأحوال قال تعالى)ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون(.

من أجل ذلك كله كان حقا على ولاة أمور الأمة أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد وحراسة السبل وتسير الأسفار وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها وصغيرها بمختلف الوسائل وكان ذلك من

ما أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين وما يبذل فيه أهل الخير من الموسرين أموالهم عونا على ذلك وذلك من رحمة أهل الأرض المشمولة لقول النبي صلى الله عليه وسلم ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

وكان حقا على أهل العلم والدين أن يرشدوا الأئمة والأمة إلى طريق الخير وأن ينبهوا على معالم ذلك الطريق ومسالكه بالتفصيل دون الأجمال، فقد افتقرت الأمة إلى العمل وسئمت الأقوال.

)ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين[20] وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفظ[21](الأظهر أن هذا عطف على قوله)وقالوا الذين كفروا هل ندلكم على رجل(الآية وأن ما بينها من الأخبار المسوقة للاعتبار كما تقدم واقع موقع الاستطراد والاعتراض فيكون ضمير)عليهم(عائدا إلى)الذين كفروا(من قوله)وقال الذين كفروا هل ندلكم(الخ. والذي درج عليه المفسرون أن ضمير)عليهم(عائد إلى سبأ المتحدث عنهم. ولكن لا مفر من أن قوله تعالى بعد ذلك)قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله(الآيات هو عود إلى محاجة المشركين المنتقل منها بذكر قصة داود وسليمان وأهل سبأ. وصلوحية الآية للمحملين ناشئة من موقعها وهذا من بلاغة القرآن المستفاده من ترتيب مواقع الآية.

فالمقصود تنبيه المؤمنين إلى مكائد الشيطان وسوء عاقبة أتباعه ليحذروه ويستيقظوا لكيده فلا يقعوا في شرك وسوسته.

فالمعنى: أن الشطان سول للمشركين أو سول للممثل بهم حال المشركين الإشراك بالمنعم وحسن لهم ضد النعمة حتى تمنوه وتوسم فيهم الانخداع له فألقى إليهم وسوسته وكره إليهم نصائح الصالحين منهم فصدق توسمه فيهم أنهم يأخذون بدعوته فقبلوها واعرضوا عن خلافها فاتبعوه.

ففي قوله)صدق عليهم إبليس ظنه(إيجاز حذف لأن صدق الضن المفرع عنه أتباعهم يقتضي. أنه دعاهم إلى شيء ظانا استجابة دعوته إياهم(.

وقرأ الجمهور)صدق(بتخفف الدال ف)إبليس(فاعل و)ظنه(منصوب على نزع الخافض، أي في ظنه. و)عليهم(متعلق ب)صدق(لتضمينه معنى أوقع أو ألقى، أي أوقع عليهم ظنه فصدق فيه. والصدق بمعنى الإصابة في الظن لأن الإصابة مطابقة للواقع فهي من قبيل الصدق. قال أبو الغول الطهوي من شعراء الحماسة:

فدت نفسي وما ملكت يميني

فوارس صدقت فيهم ظنوني وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف) صدق(بتشديد الدال بمعنى حقق ظنه عليهم حين انخدعوا لوسوسته

فهو لما وسوس لهم ظن أنهم يطيعونه فجد في الوسوسة حتى استهواهم فحقق ظنه عليهم.
وفي على إيماء إلى أن عمل إبليس كان من جنس التغلب والاستعلاء عليهم.

صفحة : 3431

وقوله)فاتبعوه(تفريع وتعقيب على فعل)صدق عليهم إبليس ظنه(أي تحقق ظنه حين انفعلوا لفعل وسوسته فبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران.
و)إلا فريقا(استثناء من ضمير الرفع في)فاتبعوه(وهو استثناء متصل إن كان ضمير)اتبعوه(عائدا على المشركين وأما إن كان عائدا على أهل سبا فيحتمل الاتصال إن كان فيهم مؤمنين وإلا فهو استثناء منقطع، أي لم يعصه في ذلك إلا فريق من المؤمنين وهم الذين آمنوا من أهل مكة، أو الذين آمنوا من أهل سبأ. فلعل فيهم طائفة مؤمنين ممن نجوا قبل إرسال سيل العرم.
والفريق: الطائفة مطلقا،واستثناؤها من ضمير الجماعة يؤذن بأنهم قليل بالنسبة للبقية وإلا فإن الفريق يصدق بالجماعة الكثيرة كما في قوله تعالى)فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة(.
والتعريف في)المؤمنين(للاستغراق و)من(تبعيضية، أي إلا فريقا هم بعض جماعات المؤمنين في الأزمان والبلدان.
وقوله)وما كان عليهم من سلطان(أي ما كان للشيطان من سلطان على الذين اتبعوه.
وفعل كان في النفي مع)من(التي تفيد الاستغراق في النفي يفيد انتفاء السلطان، أي الملك والتصريف للشيطان، أي ليست له قدرة ذاتية هو مستقل بها يتصرف بها في العالم كيف يشاء لأن تلك القدرة خاصة بالله تعالى.
والاستثناء في قوله)ألا لنعلم(استثناء من علل. فيفيد أن تأثير وسوسته فيهم كان بتمكين من الله،أي لكن جعلنا الشيطان سببا يتوجه إلى عقولهم وإرادتهم فتخامرها وسوسته فيتأثر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء وهؤلاء من قوة الانفعال والممانعة على حسب السنن التي أودعها الله في المخلوقات.
ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم سلطان، وحذف المستثنى ودل عليه علته والتقدير: إلا سلطانا لنعلم من يؤمن بالآخرة. فيدل على أنه سلطان مجعول له بجعل الله بقرينة أن تعليله مسند إلى ضمير الجلالة.

وانظر ما قلناه عند قوله تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(في سورة الحجر وضمه إلى ما قلناه هنا.

واقتصر من علل تمكين الشيطان من السلطان على تمييز من يؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها لمراعاة أحوال الذين سبقت إليهم الموعظة بأهل سبا وهم كفار قريش لأن جحودهم قرين للشرك ومساو له فإنهم لو آمنوا بالآخرة لآمنوا بربها وهو الرب الواحد الذي لا شريك وإلا فإن علل جعل الشيطان للوسوسة كثيرة مرجعها إلى تمييز الكفار من المؤمنين،والمتقين من المعرضين. وكني ب)نعلم(عن إظهار التمييز بين الحالين لأن الظهور يلازم العلم في العرف. قال قبيصة الطائي من رجال حرب ذي قار:

وأقبلت والخطي يخطر بيننـا لأعلم

من جبانها من شجاعها أراد ليتميز الجبان من الشجاع فيعلمه الناس فأن غرضه الأهم إظهار شجاعة نفسه لثقته بها لا اختبار شجاعة أقرانه وإلا لكان مترددا في إقدامه. فالمعنى: ليظهر من يؤمن بالآخرة ويتميز عمن هو منها في شك فيعلمه من يعلمه ويتعلق علمنا به تعلقا جزئيا عند حصوله يترتب عليه الجزاء فقد ذكرنا فيما تقدم أن لا محيص من اعتبار تعلق تنجيزي لعلم الله. ورأيت في الرسالة الخاقانية اعبد الحكيم السلكوتي أن بعض العلماء أثبت ذلك التعلق ولم يعين قائله. وخولف في النظم بين الصلتين فجاءت جملة)من يؤمن بالآخرة(فعلية،وجاءت جملة)هو منها في شك(اسمية لأن الإيمان بالآخرة طارئ على كفرهم السابق ومتجدد ومتزايد آنا فآنا، فكان مقتضى الحال إيراد الفعل في صلة أصحابه. وأما شكهم في الآخرة فبخلاف ذلك هو أمر متأصل فيهم فاجتلبت لأصحابه الجملة الاسمية.

وجيء بحرف الظرفية للدلالة على إحاطة الشك بنفوسهم ويتعلق قوله)منها(بقوله ب)شك(. وجملة)وربك على كل شيء حفيظ(تذييل. والحفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العلم والقدرة إذ بمجموعها تتقوم ماهية الحفظ ولذلك يتبع الحفظ بالعلم كثيرا كقوله تعالى)أني حفيظ عليهم(. وصيغة فعيل تدل على قوة الفعل وأفاد عموم)كل شيء(أنه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات فتنزل هذا التذييل منزلة الاحتراس عن غير المعنى الكنائي من قوله)لتعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك(، أي ليظهر ذلك لكل أحد فتقوم الحجة لهم وعليهم.

)قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير[22] ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير[23](كانت قصة سبأ قد ضربت مثلا وعبرة للمشركين من قريش وكان في أحوالهم مثيل لأحوال المشركين في أمن بلادهم وتيسير أرزاقهم وتأمين سبلهم في أسفارهم مما أشار إليه قوله تعالى)أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء(وقوله)للإيلاف قريش(إلى أخر السورة، ثم فيما قابلوا به نعمة الله بالشراك به وكفران نعمته وإفحامهم دعاة الخير الملهمين من لدنه إلى دعوتهم، فلما تقضى خبرهم لينتقل منه إلى تطبيق العبرة على من قصد اعتبارهم انتقالا مناسبته بينة وهو أيضا عود إلى إبطال أقوال المشركين، وسيق لهم من الكلام ما هو فيه توقيف على أخطائهم، وأيضا فلما جرى من استهواء الشيطان أهل سبا فاتبعوه وكان الشيطان مصدر الضلال وعنصر الإشراك أعقب ذكره بذكر فروعه وأولياءه.

وافتتح الكلام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما هو متتابع في بقية هذه الآيات المتتابعة بكلمة)قل(فأمر بالقول تجديدا لمعنى التبليغ الذي هو مهمة كل القرآن.

والأمر في قوله)ادعوا(مستعمل في التخطئة والتوبيخ، أي استمروا على دعائكم.

و)الذين زعمتم من دون الله(معناه زعمتموهم أربابا، فحذف مفعولا الزعم: أما الأول فحذف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل قصدا لتخفيف الصلة بمتعلقاتها، وأما الثاني فحذفه لدلالة صفته عليه وهي)من دون الله(.

و)من دون الله(صفة لمحذوف تقديره: زعمتم أولياء.

ومعنى)من دون الله(أنهم مبتدءون من جانب غير جانب الله، أي زعمتموهم آلهة مبتدئين إياهم من ناحية غير الله لأنهم حين يعبدونهم قد شغلوا بعبادتهم ففرطوا في عبادة الله المستحق للعبادة وتجاوزوا حق إلهيته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة.

وجملة)لا يملكون(مبينه لما في جملة)ادعوا الذين زعمتم(من التخطئة(وقد نفي عنهم ملك أحقر الأشياء وهو ما يساوي ذرة من السماء والأرض.

والذرة: بيضة النمل التي تبدوا حبيبة صغيرة بيضاء، وتقدم عند قوله تعالى)وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة(في سورة يونس. والمراد بالسماوات ولأرض جوهرها وعينهما ل ما تشملان عليه من

المجودات لأن جوهرهما لا يدعي المشركون فيه ملكا لآلهتهم، فالمثقال: إما آلة الثقل فهو اسم للصنوج التي يوزن بها فأطلق على العديل مجازا مرسلا، وإما مصدر ميمي سمي به الشيء الذي به التثقيل ثم أطلق على العديل مجازا، وتقدم المثقال عند قوله) ون كان مثقال حبة من خردل(في سورة الأنبياء.

ومثقال الذرة: ما يعدل الذرة فيثقل به الميزان، أي لا يملكون شيئا من السماوات ولا في الأرض. وإعادة حرف النفي تأكيد له للاهتمام به.

وقد نفي أن يكون لآلهتهم ملك مستقل، وأتبع بنفي أن يكون لهم الشرك في شيء من السماء والأرض، أي شرك مع الله كما هو السياق فلم يذكر متعلق الشرك إيجازا لأنه محل الوفاق.

ثم نفى أن يكون منهم ظهير، أي معين لله تعالى. وتقدم الظهير في قوله تعالى)ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا(في سورة الإسراء. وهنا تعين التصريح المتعلق ردا على المشركين إذ زعموا أن آلهتهم تقرب إليه وتبعد عنه، ثم أتبع ذلك بنفي أن يكون شفيع عند الله يضطره إلى قبول الشفاعة فيمن يشفع له لتعظيم أو حياء. وقد صرح بالمتعلق هنا أيضا ردا على قول المشركين)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(فنفيت شفاعتهم في عموم نفي كل شفاعة نافعة عند الله إلا شفاعة من أذن الله أن يشفع. وفي هذا إبطال شفاعة أصنامهم لأنهم زعموا لهم شفاعة لازمة من صفات آلهتهم لأن أوصاف الإله يجب أن تكون ذاتية فلما نفى الله كل شفاعة لم يأذن فيها للشافع انتفت الشفاعة المزعومة لأصنامهم. وبهذا يندفع ما يتوهم من أن قوله)إلا لمن أذن له(لا يبطل شفاعة الأصنام فأفهم.

وجاء نظم قوله)ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له(نظما بديعا من وفرة المعنى، فإن النفع يجيء بمعنى حصول المقصود من العمل ونجاحه كقول النابغة:

ولا حلفي على البراءة نافع ومنه قوله تعالى)لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل(، ويجيء بمعنى المساعد الملائم وهو ضد الضار وهو أكثر إطلاقه. ومنه: دواء نافع، ونفعني فلان. فالنفع بالمعنى الأول في الآية يفيد القبول من الشافع لشفاعته، وبالمعنى الثاني يفيد انتفاع المشروع له بالشفاعة، أي أصول النفع له بانقشاع ضر المؤاخذة بذنب كقوله تعالى)فما تنفعهم شفاعة

الشافعين(. فلما عبر في هذه الآية بلفظ الشفاعة الصالح لأن يعتبر مضافا إلى الفاعل أو إلى المفعول أحتمل النفع أن يكون نفع الفاعل، أي قبول شفاعته، ونفع المفعول، أي قبول شفاعة من شفع فيه.

وتعدية فعل الشفاعة باللام دون)في(ودون تعديته بنفسه زاد صلوحيته للمعنيين لأن الشفاعة تقتضي شافعا ومشفوعا فيه فكان بذلك أوفر معنى.

فالاستثناء في قوله)إلا لمن أذن له(استثناء من جنس الشفاعة المنفي بقرينة وجود اللام وليس استثناء متعلق)تنفع(لأن الفعل لا يعدى إلى مفعوله باللام إلا إذا تأخر الفعل عنه فضعف عن العمل بسبب التأخير فلذلك احتملت اللام أن تكون داخلة على الشافع، وأن)من(المجرورة باللام صادقة على الشافع، أي لا تقبل شفاعة إلا شفاعة كائنة لمن أذن الله له، أي أذن له بأن يشفع فاللام للملك فقولك: الكرم لزيد، أي هو كريم فيكون في معنى قوله) مالكم من دونه من ولي ولا شفيع(. وأن تكون اللام داخلة على المشفوع فيه، و)من(صادقة على مشفوع فيه، أي إلا شفاعة لمشفوع أذن الله الشافعين أن يشفعوا له أي لأجله فاللام للعلة كقولك: قمت لزيد، فهو كقوله تعالى)ولا يشفعون إلا لمن أرتضى(.

وإنما جيء بنظم هذه الآية على غير ما نظمت عليه غيرها لأن المقصود هنا إبطال رجاؤهم أن تشفع لهم آلهتهم عند الله فينتفعوا بشفاعتها، لأن أول الآية توبيخ وتعجيز لهم في دعوتهم الآلهة المزعومة فاقتضت إبطال الدعوة والمدعو.

وقد جمعة الآية نفي جميع أصناف التصرف عن آلهة المشركين كما جمعت نفي أصناف الآلهة المعبودة عند العرب، لأن من العرب صابئة يعبدون الكواكب وهي في زعمهم مستقرة في السماوات تدبر أمور أهل الأرض فابطل هذا الزعم قوله)لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض(، فأما في السماوات فباعترافهم أن الكواكب لا تتصرف في السماوات وإنما تصرفهم في الأرض وأما في الأرض فبقوله)ولا في الأرض(. ومن العرب عبدة أصنام يزعمون أن الأصنام شركاء لله في الإلهيه فنفي ذلك بقوله)وما لهم فيهما من شرك وما له منه من ظهير(، ومنهم من يزعم أن الأصنام جعلها الله شفعاء لأهل الأرض فنفي ذلك بقوله)ولا تنفع الشفاعة عنده(الآية.

وقرأ الجمهور)أذن(بفتح الهمزة وفيه ضمير يعود إلى أسم الجلالة مثل ضمائر الغيبة التي قبله. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بضم الهمزة على البناء للنائب. والمجرور من قوله)له(في موضع نائب الفاعل.

وقوله)حتى إذا فزع عن قلوبهم( )حتى(ابتدائية وهي تفيد ارتباط ما بعدها بما قبلها لا محالة فالضمائر التي في الجملة الواقعة بعد)حتى(عائدة على ما يصلح لها في الجمل التي قبلها. وقد أفادت) حتى(الغاية بأصل وضعها وهي هنا غاية لما أفهمه قوله)إلا لمن أذن له(من أن هنالك إذنا يصدر من جانب القدس يأذن الله به ناسا من الأخيار بأن يشفعوا كما جاء تفصيل بعض هذه الشفاعة في الأحاديث الصحيحة وأن الذين يرجون أن يشفع فيهم ينتظرون ممن هو أهل لأن يشفع وهم في فزع من الإشفاق أن لا يؤذن بالشفاعة فيهم، فإذا أذن الله لمن شاء أن يشفع زال الفزع عن قلوبهم واستبشروا إذ أنه فزع عن قلوب الذين قبله الشفاعة فيهم، أي وأيس المحرمون من قبول الشفاعة فيهم. وهذا من الحذف المسمى بالاكتفاء اكتفاء بذكر الشيء عن ذكره نظيره أو ضد، وحسنه هنا أنه اقتصار على ما يسر المؤمنين الذين لم يتخذوا من دون الله أولياء.

وقد طويت جمل من وراء)حتى(، والتقدير: إلا لمن أذن له ويومئذ يبقى الناس مرتقبين الأذن لمن يشفع، فزعين من أن لا يؤذن لأحد زمنا ينتهي بوقت زوال الفزع عن قلوبهم حين يؤذن للشافعين بأن يشفعوا، وهو إيجاز حذف.

و)إذا(ظرف للمستقبل وهو مضاف إلى جملة)فزع عن قلوبهم(متعلق ب)قالوا(.

و)فزع(قرأه الجمهور بضم الفاء وكسر الزاي مشددة، وهو مضاعف فزع.

صفحة : 3434

والتضعيف فيه للإزالة مثل: قشر العود، ومرض المريض إذا باشر علاجه، وبني للمجهول لتعظيم ذلك التفزيع بأنه صادر من جانب عظيم، ففيه جانب الأذن فيه، وجانب المبلغ له وهو الملك.

والتفزيع يحصل لهم بانكشاف إجمالي يلهمونه فيعلمون بأن الله أذن بالشفاعة ثم يتطلبون التفصيل بقولهم)ماذا قال ربكم(ليعلموا من أذن له ممن لم يؤذن له، وهذا كما يوكرر النظر ويعاود المطالعة من ينتظر القبول، أو هم تساءلون عن ذلك من شدة الخشية فإنهم إذا فزع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقيق بما استبشروا به فيجابون أنه قال الحق.

فضمير)قالوا ماذا قال ربكم(عائد على بعض مدلول قوله)لمن أذن له(. وهم الذين أذن للشفعاء لقبول شفاعتهم منهم وهم

يوجهون هذا الاستفهام إلى الملائكة الحافين، وضمير)قالوا الحق(عائد إلى المسؤولين وهم الملائكة.
ويظهر أن كلمة)الحق(وقعت حكاية لمقول الله بوصف يجمع متنوع أقوال الله تعالى حينئذ من قبول شفاعة في بعض المشفوع فيهم ومن حرمان لغيرهم كما يقال:ماذا قال القاضي للخصم؟ فيقال: قال الفصل. فهذا حكاية لمقول الله بالمعنى.
وانتصاب)الحق(على أنه مفعول)قالوا(يتضمن معنى الملام، أي قال الكلام الحق، كقوله:
وقصية تأتي الملوك غريبة قد قلتها
ليقال من ذا قالها هذا هو المعنى الذي يقتضيه نظم الآية ويلتئم مع معانيها. وقد ذهبت في تفسيرها أقوال كثير من المفسرين طرائق قداد، وتفرقوا بددا بددا.
و)ذا(من قوله)ماذا(إشارة عوملت معاملة الموصول لأن أصل: ماذا قال: ما هذا الذي قال، فلما كثر استعمالها بدون ذكر اسم الموصول قيل إن)ذا(بعد الاستفهام تصير اسم موصول، وقد يذكر الموصول بعدها كقوله تعالى)من ذا الذي يشفع عنده(.
وقرأ أبن عامر ويعقوب)فزع(بفتح الفاء وفتح الزاي مشددة بصيغة البناء للفاعل، أي فزع الله عن قلوبهم.
وقد ورد في أحاديث الشفاعة عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن الله يقول لآدم: أخرج بعث النار من ذريتك وفي حديث أنس في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المحشر كلهم)ليدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار(. وفيه أن الأنبياء أبوا أن يشفعوا وأن أهل المحشر أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه استأذن ربه في ذلك فقال له سل تعطي وأشفع تشفع ، وفي حديث أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب فيجعل فيه ضخضاح من نار يبلغ كعبيه تغلي منه أم دماغه .
وجملة)وهو العلي الكبير(تتم جواب المجيبين، عطفوا تعظيم الله بذكر صفتين من صفات جلاله وهما صفة)العلي(وصفة)الكبير(.
والعلو: علو الشأن الشامل لمنتهى الكمال في العلم.
والكبر: العظمة المعنوية، وهي منتهى القدرة والعدل والحكمة وتخصيص هاتين الصفتين لمناسبة مقام الجواب، أي قد قضى بالحق لكل أحد بما يستحقه فإنه يخفي عليه حال أحد ولا يعوقه عن إيصاله إلى حقه عائق ولا يجوز دونه حائل.
وتقدم ذكر هاتين الصفتين في قوله)وأن الله هو العلي الكبير(في سورة الحج. واعلم أنه ورد في صفة تلقى الملائكة الوحي يسأل الذي يبلغه إليه بمثل هذا الكلام كما في حديث أبي هريرة في صحيح البخاري وغيره: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم

قال إذا قضي الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير اه. فمعنى قوله في الحديث: قضى صدر منه أمر التكوين الذي تتولى الملائكة تنفيذه، وقوله في الحديث في السماء يتعلق ب قضى بمعنى أوصل قضاءه إلى السماء حيث مقر الملائكة، وقوله خضعانا لقوله أي خوفا وخشية، وقوله فزع عن قلوبهم أي أزيل الخوف عن نفوسهم.

وفي حديث ابن عباس من الترمذي إذا قضي ربنا أمرا سبح له حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم قال ثم أهل كل سماء الحديث. وذلك لا يقتضي أنه المراد في آية سورة سبأ وإنما هذه صفة تلتقي الملائكة أمر الله في الدنيا والآخرة فكانت أقوالهم على سنة واحدة.

صفحة : 3435

وليس تخريج البخاري والترمذي هذا الحديث في الكلام على تفسير سورة سبأ مرادا به أنه وارد في ذلك، وإنما يريد أن من صور معناه ما ذكر في سورة سبأ.وهذا يغنيك عن الالتجاء إلى تكلفات تعسفوها في تفسير هذه الآية وتعلقها بما قبلها.

)قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى في ضلال مبين[24](انتقال من دمغ المشركين بضعف آلهتهم وانتفاء جدواها عليهم في الدنيا والآخرة إلى إلزامهم بطلان عبادتها بأنها لا تستحق العبادة لأن مستحق العبادة هو الذي يرزق عبادة فإن العبادة شكر ولا يستحق الشكر إلا المنعم، وهذا احتجاج بالدليل النظري بأن الله هو الرزاق يستلزم انفراده بإلهيته إذ لا يجوز أن ينفرد ببعض صفات الإلهية ويشارك في بعض آخر فإن الإلهية حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض.

وأعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول فإن أصل الأمر بالقول في مقام التصدي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام.

و)من(استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله)قل الله(لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب كما في قوله تعالى)قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار(إلى قوله)فسيقولون الله(في سورة يونس. وتقدم نظير صدر الآية في سورة العد.

وعطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم في شرك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى وحالة ضلال لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بين موافقة الحق وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدونهما. ولذلك جيء بحرف)أو(المفيد للترديد المنتزع من الشك.

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن أشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللف.

فأنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى ولآخرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا أيضا من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه أيضا تجاهل العارف فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات.

وجيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكن تكثيلا لحال المهتدي بحال متصرف في فرسه يركضه حيث شاء متمكن من شيء بلغ به مقصده. وهي حالة مماثلة لحال المهتدي على بصيرة فهو يسترجع مناهج الحق في كل صوب. متسع النظر، منشرح الصدر: ففيه تمثيلية مكنية وتبعية.

وجيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبيس بالوصف تمثيلا لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلازمه. وفيه أيضا تمثيلية تبعية، وهذا ينظر إلى قوله تعالى)فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا(.

فحصا في لآية أربع استعارات وثلاثة محسنات من البديع وأسلوب بياني، وحجة قائمة، وهذا إعجاز بديع.

ووصف الضلال بالمبين دون وصف الهدى بالمبين لأن حقيقة الهدى مقول عليها بالتواطئ وهو معنى قول أصحابنا الأشاعرة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص في ذاته وإنما زيادته بكثرة الطاعات، وأما الكفر فيكون بإنكار بعض المعتقدات وبإنكار جميعها وكل ذلك يصدق عليه

الكفر. ولذلك قيل كفر دون كفر: فوصف كفرهم بأنه أشد الكفر، فإن المبين هو الواضح في جنسه البالغ غاية حده.
)قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون[25](أعيد الأمر بأن يقول لهم مقالا آخر إعادة لزيادة الاهتمام كما تقد آنفا واستدعاء لأسماء المخاطبين بالإصغاء إليه.

صفحة : 3436

ولما كان هذا القول يتضمن بيانا للقول الذي قبله فصلت جملة الأمر بالقول عن أختها إذ لا يعطف البيان على المبين بحرف النسق، فإنه لما ردد أمر الفريقين بين أن يكون أحدهما هلى هدى ولآخر في ضلال وكان الضلال يأتي بالإجرام اتسع بالمحاجة فقيل لهم: إذا نحن أجرمنا فأنتم غير مؤاخذين بجرمنا وإذا عملتم عملا فنحن غير مؤاخذين به، أي أن كل فريق مؤاخذ وحده بعمله فالأجدى بكلا الفريقين أن ينظر كل في أعماله وأعمال ضده ليعلم أي الفريقين أحق بالفوز والنجاة عند الله.
وأيضا فصلت لتكون هذه الجملة مستقلة بنفسها ليخصها السامع بالتأمل في مدلولها فيجوز أن تعتبر استئنافا ابتدائيا، وهي مع ذلك اعتراض بين أثناء الاحتجاج.
فمعنى)لا تسألون، ولا نسأل(أن كل فريق له خصوصيته.
والسؤال: كناية عن أثره وهو الثواب على العمل الصالح والجزاء على الإجرام بمثله كما هو في قول كعب بن زهير:
وقيل إنك منسوب ومسؤول أراد ومؤاخذ بما سبق منك لقوله قبله:
لذاك أهيب عندي إذ أكمله وإسناد الإجرام إلى جانب المتكلم ومن معه مبني على زعم المخاطبين، وقال تعالى)وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون(كان المشركون يؤنبون المؤمنين بأنهم خاطئون في تجنب عبادة أصنام قومهم.
وهذه نكتة صوغه في صيغة الماضي لأن متحقق على زعم المشركين. وصيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنهم ينتظرون منهم عملا تعريضا بأنهم يأتون عملا غير ما عملوه، أي يؤمنون بالله بعد كفرهم.
وهذا ضرب من المشاركة والموادعة ليخلوا بأنفسهم فينظروا في أمرهم ولا يلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض ومحاسبة أنفسهم وأسندوا العمل على إطلاقه في جانب المخاطبين لأن النظر والتدبر بعد ذلك يكشف عن كنه كلا العملين.

وليس لهذه الآية تعلق بمشاركة القتال فلا تجعل منسوخة بآيات القتال.

)قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم[26] (إعادة فعل)قل(لما عرفت في الجملة التي قبلها من زيادة الاهتمام بهذه المحاجات لتكون كل مجادلة مستقلة غير غير معطوفة فتكون هذه الجملة استئنافا ابتدائيا.

وأيضا فهي بمنزلة البيان للتي قبلها لأن نفي سؤال كل فريق عن عمل غيره يقتضي أن هنالك سؤالا عن عمل نفسه فبين بأن الذي يسأل الناس عن أعمالهم هو الله تعالى، وأنه الذي يفصل بين الفريقين بالحق حين يجمعهم يوم القيامة الذي هم منكروه فما ظنك بحالهم يوم تحقق ما أنكروه.

وهنا تدرج الجدل من الإيماء إلى الإشارة القريبة من التصريح لما في إثبات يوم الحساب والسؤال من المصارحة بأنه الضالون. ويسمى هذا التدرج عند أهل الجدل بالترقي.

والفتح الحكم والفصل بالحق، كقوله تعالى)ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين(وهو مأخوذ من فتح الكوة لإظهار ما خلفها.

وجملة)وهو الفتاح العليم(تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته ولإحاطة العلم، وبذلك كان تذيلا لجملة)يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق(المتضمنة حكما جزئيا فذيل بوصف كلي، وإنما اتبع) الفتاح(ب)العليم(للدلالة على أن حكمه عدل محض لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.

)قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم[27](أعيد الأمر بالقول رابع مرة لمزيد الاهتمام وهو رجوع إلى مهيع الاحتجاج على بطلان الشرك فهو كالنتيجة لجملة)قل من يرزقكم من السماوات ولأرض(.

والأمر في قوله)أروني(مستعمل في التعجيز، وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله)قل من يرزقكم(إلى إبطال ذلك بدليل البداهة، وقد سلك من طرق الجدل أن يكون الاستفسار، والمصطلح عليه عند أهل الجل أن يكونه الاستفسار مقدما على طرائق المناظرة وإنما أخر هنا لأن كان مفضيا إلى إبطال دعوى الخصم بحذافرها فأريد تأخيره لئلا يفوت افتضاح الخصم بالأدلة السابقة تبسيطا لبساط المجادلة حتى يكون كل دليل مناديا على غلط الخصوم وباطلهم. وافتضاح الخطأ من مقاصد المناظر الذي قامت حجته.

والإراءة هنا من الرؤية البصرية فيتعدى إلى مفعولين: أحدهما بالأصالة، والثاني بهمزة التعدية.
والمقصود: أروني شخوصهم لنبصر هل عليها ما يناسب صفة الإلهية، أي أن كل من يشاهد الأصنام بادئ مرة يتبين له أنها خلية عن صفات الإلهية إذ يرى حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه لأن انتفاء الإلهية عن الأصنام بديهي ولا يحتاج إلى أكثر من رؤية حالها كقول البحتري:
أن يرى مبصر ويسمع واع والتعبير عن المرئي بطريق الموصلية لتنبيه المخاطبين على خطئهم في جعلهم إياهم شركاء لله تعالى في الربوبية على نحو قول عبدة بن الطيب:
إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا وفي جعل الصلة)ألحقتم(إيماء إلى أن تلك الأصنام لم تكن موصوفة بالإلهية وصفا ذاتيا حقا ولكن المشركين ألحقوها بالله تعالى، فتلك خلعة خلعها عليهم أصحاب الأهواء.
وتلك حالة تخالف صفة الإلهية لأن الإلهية صفة ذاتية قديمة، وهذا الإلحاق اخترعه لهم عمرو بن لحي ولم يكن عند العرب من قبل، وضمير)به(عائد إلى أسم الجلالة من جملة)قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله(.
وانتصب)شركاء(على الحال من اسم الموصول. والمعنى: شركاء له.
ولما أعرض عن الخوض في آثار هذه الإراءة علم أنهم مفتضحون عند تلك الإراءة فقدرت حاصلة، وأعقب طلب تحصيلها بإثبات أثرها وهو الردع عن اعتقاد إلهيتها، وإبطالها عنهم بإثباتها لله تعالى وحده فلذلك جمع بين حرفي الردع والإبطال ثم الانتقال إلى تعيين الإله الحق على طريقة قوله)كلا بل لا تكرمون اليتيم(.
وضمير)هو الله(ضمير الشأن. والجملة بعده تفسير لمعنى الشأن و)العزيز الحكيم(خبران، أي بل الشأن المهم الله العزيز الحكيم لا آلهتكم، ففي الجملة قصر العزة والحكم على الله تعالى كناية عن قصر الإلهية عليه تعالى قصر إفراد.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الإله المفهوم من قوله)الذين ألحقتم به شركاء(وهو مبتدأ والجملة بعده خبر. ويجوز أن يكون عائدا إلى المستحضر في الذهن وهو الله. وتفسيره قوله)

الله(فاسم الجلالة عطف بيان. و)العزيز الحكيم(خبران عن الضمير. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول يظهر في اختلاف مدلول الضمير المنفصل واختلاف موقع اسم الجلالة بعده، واختلاف موقع الجملة بعد ذلك.

والعزة: الاستغناء عن الغير. والحكيم: وصف من الحكمة وهي منتهى العلم، أو من الإحكام وهو إتقان الصنع، شاع في الأمرين. وهذا إثبات لافتقار أصنامهم وانتفاء العلم عنها. وهذا قول إبراهيم عليه السلام)يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا(.

)وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون[28](انتقال من إبطال ضلال المشركين في أمر الربوبية إلى إبطال ضلالهم في شأن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وغير أسلوب الكلام من الأمر بمحاجة المشركين إلى الإخبار برسالة النبي صلى الله عليه وسلم تشريفا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض.

وفي هذه الآية إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات عمومها على منكريها من اليهود.

فإن)كافة(من ألفاظ العموم ووقعت هنا حالا من)الناس(مستثنى من عموم الأحوال وهي حال مقدمة على صاحبها المجرور بالحرف، وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة(في سورة البقرة، وعند قوله)وقاتلوا المشركين كافة(في سورة براءة. وذكرنا أن التحقيق: أن)كافة(يوصف به العاقل وغيره وأنه تعتوره وجوه الإعراب كما هو مختار الزمخشري وشهد له القرآن والاستعمال خلافا لابن هشام في مغني اللبيب، وأن ما شدد به التنكير على الزمخشري تهويل وتضييق في الجواز. والتقدير في هذه الآية: وما أرسلناك للناس إلا كافة. وقدم الحال على صاحبه للاهتمام بها لأنها تجمع الذين كفروا برسالته كلهم.

وتقديم الحال على المجرور جائز على رأي المحققين من أهل العربية وإن أباه الزمخشري هنا وجعله بمنزلة تقديم المجرور على حرف الجر فجعل)كافة(نعتا لمحذوف، أي إرساله كافة، أي عامة. وقد رد عليه ابن مالك في التسهيل وقال: قد جوزه في هذه الآية أبو علي الفارسي وابن كيسان. وقلت: وجوزه ابن عطية والرضي. وجعل الزجاج)كافة(هنا حالا من الكاف في)أرسلناك(وفسره

بمعنى جامع للناس في الإنذار والإبلاغ، وتبعه أبو البقاء. قال الزمخشري: وحق التاء على هذا التفسير أن تكون للمبالغة كتاء العلامة والراوية وكذلك تقديم المستثنى للغرض أيضا.

وقد اشترك الزجاج والزمخشري هنا في إخراج)كافة(عن معنى الوصف بإفادة الشمول الذي هو شمول جزئي في غرض معين إلى معنى الجمع الكلي المستفاد من وراء ذلك. وهذا كمن يعمد إلى كل فيقول: إنك كل الناس، أي جامع للناس، أو يعمد إلى على الدالة على الاستعلاء الجزئي فيستعملها بمعنى الاستعلاء الكلي فيقول: إياك وعلى، يريد إياك والاستعلاء.

والبشير النذير تقدم في قوله تعالى)إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا(في البقرة.

وأفاد تركيب)وما أرسلناك إلا كافة للناس(قصر حالة عموم الرسالة على كاف الخطاب في قوله)أرسلناك(وهو قصر إضافي، أي دون تخصيص إرسالك بأهل مكة أو بالعرب أو بمن يجيئك يطلب الإيمان والإرشاد كما قال عبد الله بن أبي بن سلول للنبي صلى الله عليه وسلم حين جاء مجلسا هو فيه وقرأ عليهم القرآن فقال ابن أبي: لا أحسن مما تقول أيها المرء ولكن اقعد في رحلك فمن جاء فاقرأ عليه ، ويقتضي ذلك إثبات رسالته بدلالة الاقتضاء إذ لا يصدق ذلك القصر إلا إذا ثبت أصل رسالته فاقتضى ذلك الرد على المنكرين كلهم سواء من أنكر رسالته من أصلها ومن أنكر عمومها وزعم تخصيصها.

وموقع الاستدراك بقوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(رفع ما يتوهم من اغترار المغترين بكثرة عدد المنكرين رسالته بأن كثرتهم تغر المتأمل لأنهم لا يعلمون.

ومفعول)يعلمون(محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي لا يعلمون ما بشرت به المؤمنين وما أنذرت به الكافرين، أي يحسبون البشارة والنذارة غير صادقتين.

ويجوز أن يكون فعل)يعلمون(منزل منزلة اللام مقصودا منه نفي صفة العلم عنهم على حد قوله تعالى)قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون(أي ولكن أكثر الناس جاهلون قدر البشارة والنذارة.

)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[29] قل لكم ميعاد يوم لا تستئخرون عنه ساعة ولا تستقدمون[30](كان من أعظم ما أنكروه مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم القيامة والبعث ولذلك عقب إبطال قولهم في إنكار الرسالة بإبطال قولهم في إنكار البعث، والجملة معطوفة على خبر لكن . والتقدير:ولكن أكثر الناس لا يعلمون حق البشارة والنذارة ويتهكمون فيسألون عن وقت

هذا الوعد الذي هو مظهر البشارة والنذارة. ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والواو للاستئناف.
وضمير)يقولون(عائد إلى المحاجين من المشركين الذين صدرت عنهم هذه المقالة.وصيغة المضارع في)يقولون(تفيد التعجيب من مقالتهم كقوله تعالى)يجادلنا في قوم لوط(مع إفادتها تكرر ذلك القول منهم وتجدده.
وجملة)قل لكم ميعاد يوم(إلى آخرها مسوقة مساق الجواب عن مقالتهم ولذلك فصلت ولم تعطف، على طريقة حكاية المحاورات في القرآن، وهذا الجواب جرى على طريقة الأسلوب الحكيم، أي أن الأهم للعقلاء أن تتوجه هممهم إلى تحقق وقوع الوعد في الوقت الذي عينه الله له وأنه لا يؤخره شيء ولا يقدمه، وحسن هذا الأسلوب أن سؤالهم إنما أرادوا به الكناية عن انتفاء وقوعه.
وفي هذا الجواب تعريض بالتهديد فكان مطابقا للمقصود من الاستفهام، ولذلك زيد في الجواب كلمة لكم إشارة إلى أن هذا الميعاد منصرف إليهم ابتداء.
وضمير جمع المخاطب في قوله)إن كنتم صادقين(إما للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أن معه جماعة يخبرون بهذا الوعد، وإما الخطاب موجه للمسلمين.
واسم الإشارة في هذا الوعد للاستخفاف والتحقير كقول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة
لنفسي إلا قد قضيت قضـاءهـا

صفحة : 3439

وجواب)كنتم صادقين(دل عليه السؤال،أي إن كنتم صادقين فعينوا لنا ميقات هذا الوعد. وهذا كلام صادر عن جهالة لأنه لا يلزم من الصدق في الإخبار بشيء أن يكون المخبر عالما بوقت حصوله ولو في المضي فكيف به في الاستقبال.
وخولف مقتضى الظاهر في الجواب من الإتيان بضمير الوعد الواقع في كلامهم إلى الإتيان باسم ظاهر وهو)ميعاد يوم(لما في هذا الاسم النكرة من الإبهام الذي يوجه نفوس السامعين إلى كل وجه ممكن في محمل ذلك، وهو أن يكون يوم البعث أو يوما آخر يحل فيه عذاب أئمة الكفر وزعماء المشركين وهو يوم بدر ولعل الذين قتلوا يومئذ هم أصحاب هم أصحاب مقالة)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(. وأفاد تنكير)يوم(تهويلا وتعظيما بقرينة المقام.

والميعاد: مصدر ميمي للوعد فإضافته إلى ظرفه بيانية. ويجوز كونه مستعملا في الزمان وإضافته إلى اليوم بيانية لأن الميعاد هو اليوم نفسه.

وجملة)لا تستأخرون عنه ساعة(إما صفة ل)ميعاد(وإما حال من ضمير)لكم(.

والاستئخار والاستقدام مبالغة في التأخر والتقدم مثل: استجاب، فالسين والتاء للمبالغة.

وقدم الاستئخار على الاستقدام إيماء إلى أنه ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنوا تأخره، ويكون)ولا تستقدمون(تتميما لتحققه عند وقته المعين في علم الله.

والساعة: حصة من الزمن، وتنكيرها للتقليل بمعونة المقام.

)وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه(كان المشركون لما فاجأتهم دعوة الإسلام وأخذ أمره في الظهور قد سلكوا طرائق مختلفة لقمع تلك الدعوة، وقد كانوا قبل ظهور الإسلام لاهين عن الخوض فيما سلف من الشرائع فلما قرعت أسمائهم دعوة الإسلام اضطربت أقوالهم: فقالوا)ما أنزل الله على بشر من شيء(، وقالوا غير ذلك، فمن ذلك أنهم لجأوا إلى أهل الكتاب وهم على مقربة منهم بالمدينة وخيبر وقريظة ليتلقوا منهم ملقنات يفحمون بها النبي صلى الله عليه وسلم فكان أهل الكتاب يملون عليهم كلما لقوهم ما عساهم أن يموهوا على الناس عدم صحة الرسالة المحمدية، فمرة يقولون:)لولا أوتي مثل ما أوتي موسى(، ومرة يقولون:)لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه(، وكثيرا ما كانوا يحسبون مساواته للناس في الأحوال البشرية منافية لكونه رسولا إليهم مختارا من عند الله فقالوا)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(، وهم لا يحاجون بذلك عن اعتقاد بصحة رسالة موسى عليه السلام ولكنهم يجعلونه وسيلة لإبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلما دمغتهم حجج القرآن العديدة الناطقة بأن محمدا ما هو بدع من الرسل وأنه جاء بمثل ما جاءت به الرسل فحاجهم بقوله)قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين(الآية. فلما لم يجدوا سبيلا للمكابرة في مساواة حاله بحالة الرسل الأولين وأووا إلى مأوى الشرك الصريح فلجأوا إلى إنكار رسالة الرسل كلهم حتى لا تنهض عليهم الحجة بمساواة أحوال الرسول وأحوال الرسل الأقدمين فكان من مستقر أمرهم أن قالوا)لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه(.

وقد كان القرآن حاجهم بأنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل كما في سورة القصص، أي كفر أمثالهم من عبدة الأصنام وهم قبط مصر بما أوتي موسى وهوا من الاستدلال بقياس المساواة والتمثيل.
فهذا وجه قولهم)ولا بالذي بين يديه(لأنهم لم يكونوا مدعوين لا يؤمنوا بكتاب آخر غير القرآن ولكن جرى ذلك في مجاري الجدال والمناظرة فعدم إيمانهم بالقرآن مشهور معلوم وإنما أرادوا قطع وسائل الإلزام الجدلي.
وهذه الآية انتقال إلى ذكر طعن المشركين في القرآن وهي معطوفة على جملة)ويقولون متى هذا الوعد(.
والاقتصار على حكاية مقالتهم دون تعقيب بما يبطلها إيماء إلى أن بطلانها باد لكل من يسمعها حيث جمعت التكذيب بجميع الكتب والشرائع وهذا بهتان واضح.
وحكاية مقالتهم هذه بصيغة الماضي تؤذن بأنهم أقلعوا عنها.
وجئ بحرف)لن(لتأكيد نفي إيمانهم بالكتب المنزلة على التأبيد تأييسا للنبي والمسلمين من الطمع في إيمانهم به.

صفحة : 3440

واسم الإشارة مشار به إلى حاضر في الأذهان لأن الخوض في القرآن شائع بين الناس من مؤيد ومنكر فكأنه مشاهد. وليس في اسم الإشارة معنى التحقير لأنهم ما كانوا ينبزون القرآن بالنقصان، ألا قول الوليد ابن المغيرة: أن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعدق ، وقول عبد الله بن أبي بعد ذلك لا أحسن مما تقول أيها المرء ، وأن عتبة بن ربيعة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال له هل ترى بما أقول بأسا؟ فقال: لا والدماء .
وكيف وقد تحداهم الإتيان بسورة مثله فلم يفعلوا،ولو كانوا ينبزونه بنقص أو سخف لقالوا: نحن نترفع عن معالجة الإتيان بمثله.
ومعنى)بين يديه(القريب منه سواء كان سابقا كقوله تعالى)إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد(وقول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بين يدي الساعة أم كان جائيا بعده كما حكى الله عن عيسى عليه السلام)ومصدقا لما بين يدي من التوراة(في سورة آل عمران. وليس مرادا هنا لأنه غير مفروض ولا مدعى.
)ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول(أردفت حكايات أقوالهم وكفرانهم بعد استيفاء أصنافها بذكر جزاءهم وتصوير فظاعته بما في قوله)ولو ترى إذ الظالمون(الآية من الإبهام المفيد للتهويل.

والمناسبة ما تقدم من قوله)ويقولون متى هذا الوعد(فإنه بعد أن ألقمهم الحجر بقوله)قل لكم ميعاد يوم(الخ أتبعه بتصوير حالهم فيه.

والخطاب في)ولو ترى(لكل من يصلح لتلقي الخطاب ممن تبلغه هذه الآية، أي ولو يرى الرائي هذا الوقت.

وجواب)لو(محذوف للتهويل وهو حذف شائع. وتقديره: لرأيت أمرا عجبا. و)إذ(ظرف متعلق ب)ترى(أي لو ترى في الزمان الذي يوقف فيه الظالمون بين يدي ربهم.

والظالمون: المشركون، قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(وتقدم قريب منه قوله تعالى)ولو ترى إذ وقفوا على النار(في سورة الأنعام، وقد وقع التصريح بأنه إيقاف جمع بين المشركين والذين دعوهم إلى الإشراك في قوله تعالى)ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون(الآية في سورة يونس.

والإتيان بالجملة التي أضيف إليها الظرف اسمية هنا لإفادة طول وقوفهم بين يدي الله طولا يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعبا وهو ما أشار له حديث أنس وحديث أبي هريرة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المحشر: تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرها فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا الحديث.

وجملة)يرجع بعضهم إلى بعض القول(في موضع الحال من) الظالمون(أو من ضمير)موقوفون(.

وجيء بالمضارع في قوله)يرجع بعضهم إلى بعض القول(لاستحضار الحالة كقوله تعالى)يجادلنا في قوم لوط(.

ورجع القول: الجواب، ورجع البعض إلى البعض: المجاوبة والمحاورة. وهي أن يقول بعضهم كلاما ويجيبه الآخر عنه وهكذا، شبه الجواب عن القول بإرجاع القول كأن المجيب أرجع إلى المتكلم كلامه بعينه إذ كان قد خاطبه بكفائه وعدله قال بشار:

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا أي كأن تجيبه، ومنه حيث تجيبه،ومنه قيل للجواب رد. ورجع الرشق في الرمي: ما ترد عليه من التراشق.

)يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين[31] (هذه الجملة وما ذكر بعدها من الجمل المحكية بأفعال القول بيان لجملة)يرجع بعضهم إلى بعض القول(ليكون البيان كالمبين بها لاستحضار حالة القول لأنها حالة غريبة لما فيها من جرأة المستضعفين على المستكبرين ومن تنبه هؤلاء من غفلتهم عما كان المستكبرون يغرونهم به حتى أوقعهم في هذا المأزق والسين والتاء

في)استضعفوا(للعد والحسبان، أي الذين يغدهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم كذلك ويعلم أنهم يستضعفون أنفسهم بالأولى لأنهم أعلم بما في أنفسهم.
والضعف هنا الضعف المجازي وهو حالة الاحتجاج في المهام إلى من يضطلع بشؤونهم ويذب عنهم ويصرفهم كيف يشاء.

صفحة : 3441

ومن مشمولاته الضعة والضراعة ولذلك قوبل ب)الذين استكبروا(، أي عدوا أنفسهم كبراء وهم ما عدوا أنفسهم كبراء إلا لما يقتضي استكبارهم لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب. ولهذا عبر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم، وقد تقدم في سورة هود.
و)لولا(حرف امتناع لوجود، أي حرف يدل على امتناع جوابه أي أنتفاءه لأجل وجود شرطه فعلم أنها حرف شرط ولكنه اختصروا العبارة، ومعنى: لأجل وجود شرطه، أي حصوله في الوجود، وهو حرف من الحروف الملازمة الدخول على الجملة الاسمية فيلزم إيلاؤه اسما ومبتدأ. وقد كثر حذف خبر ذلك المبتدأ في الكلام غالبا بحيث يبقى من شرطها اسم واحد وذلك اختصار لأن حرف)لولا(يؤذن بتعليق حصول جوابه على وجود شرطه. فلما كان الاسم بعدها في معنى شيء موجود حذفوا الخبر اختصارا. ويعلم من المقام أن التعليق في الحقيقة على حالة خاصة من الأحوال التي يكون عليها الوجود مفهومة من السياق لأنه لا يكون الوجود المجرد لشيء سببا في وجود غيره وإنما يؤخذ أخص أحواله الملازمة لوجوده. وهذا المعنى عبر عنه النحويون بالوجود المطلق وهي عبارة غير متقنة ومرادهم أعلق أحوال الوجود المطلق، أي المجرد لا يصلح لأن يعلق عليه شرط.
وقد جاء في هذه الآية ربط التعليق بضمير)الذين استكبروا(فاقتضى أن جميع أحوال المستكبرين كانت تدندن حول منعهم من الإيماء فكأن وجودهم لا أثر له إلا في ذلك المنع وهو ما دل عليه قولهم فيما بعد)بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله(من فرط إلحادهم عليهم بذلك وتكريره في معظم الأوقات، فكأنه استغرق وجودهم،لأن الوجود كون في أزمنة فكان قولهم هنا)لولا أنتم(مبالغة في شدة حرصهم على كفرهم. وهذا وجه وجيه في الاعتبار البلاغي فمقتضى الحال من هذه الآية هو حذف المشبه.

واعلم أن المراد بقولهم: مؤمنين بالمعنى اللقبي الذي اشتهر به المسلمون فكذلك لا يقدر ل)مؤمنين(متعلق.

)قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين[32](جرد فعل)قال(عن العاطف لأنه جاء على طريقة المجاوبة والشأن فيه حكاية القول بدون عطف كما بيناه غير مرة.

وهمزة الاستفهام مستعملة في الإنكار على قول المستضعفين تبرؤا منهم. وهذا الإنكار بهتان وإنكار للواقع بعثه فيهم خوف إلقاء التبعة عليهم وفرط الغضب والحسرة من انتقاض اتباعهم عليهم وزوال حرمتهم بينهم فلم يتمالكوا أن لا يكذبوهم ويذيلوا بتوريطهم.

وأتى بالمسند إليه قبل المسند الفعلي في سياق الاستفهام الإنكاري الذي هو في قوة النفي ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي على طريقة: ما أنا قلت هذا.

والمعنى: ما صددناكم ولكن صدكم شيء آخر وهو المعطوف ب)بل(التي للإبطال بقوله)بل كنتم مجرمين(، أي ثبت لكم الإجرام من قبل وإجرامكم هو الذي صدكم إذ لم تكونوا على مقاربة الإيمان فنصدكم عن ولكنكم صددتهم وأعرضتم بإجرامكم ولم تقبلوا دعوة الإيمان.

وحاصل المعنى: أن حالنا وحالكم سواء، كل فريق يتحمل تبعة أعماله فإن كلا الفريقين كان معرضا عن الإيمان. وهذا الاستدلال مكابرة منهم وبهتان وسفسطة فإنه كانوا يصدون الدهماء عن الدين ويختلقون لهم المعاذير. وإنما نفوا هنا أن يكونوا محولين لهم عن الإيمان بعد تقلده وليس ذلك هو المدعى.

فموقع السفسطة هو قولهم)بعد إذ جاءكم(لأن المجيء فيه مستعمل في معنى الاقتراب منه والمخالطة له.

و)إذ(في قوله)إذ جاءكم(مجرده عن معنى الظرفية ومحضة لكونها أسم زمان غير ظرف وهو أصل وضعها كما تقدم في قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(في سورة البقرة، ولهذا صحت إضافة)بعد(إليها لأن الإضافة قرينة على تجريد)إذ(من معنى الظرفية إلى مطلق الزمان مثل قولهم: حينئذ ويومئذ. والتقدير: بعد زمن مجيئهم إياكم. و)بل(إضراب إبطال عن الأمر الذي دخل عليه الاستفهام الإنكاري، أي ما صددناكم بل كنتم مجرمين.

والإجرام: الشرك وهو مؤذن بتعمدهم إياه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسول.

)وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا(لم تجر حكاية هذا القول على طريقة حكاية المقاولات التي تحكي بدون عطف على حسن الاستعمال في حكاية المقاولات كما استقريناه من استعمال الكتاب المجيد وقدمناه في قوله)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(الآية، فجيء بحرف العطف في حكاية هذه المقالة مع أن المستضعفين جاوبوا بها قول الذين استكبروا)أنحن صددناكم(الآية لنكتة دقيقة، وهي التنبيه على أن مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم تلقفها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب للوجه الذي ذكرناه هنالك بحيث لو انتظروا تمام كلامهم وأبلغوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم ولمنهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون.

وحكي قولهم هذا بفعل المضي لمزاوجة كلام الذين استكبروا لأن قول الذين استضعفوا هذا بعد أن كان تكملة لقولهم الذي قاطعه المستكبرون، انقلب جوابا عن تبرؤ المستكبرين من أن يكونوا صدوا المستضعفين عن الهدى، فصار لقول المستضعفين موقعان يقتضي أحد الموقعين عطفه بالواو، ويقتضي الموقع الآخر قرنه بحرف)بل(وبزيادة)مكر الليل والنهار(. وأصل الكلام: يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين إذ تؤمروننا بالليل والنهار أن نكفر بالله وأن نكفر بالله الخ. فلما قاطعه المستكبرون بكلامهم أقحم في كلام المستضعفين حرف)بل(إبطالا لقول المستكبرين) بل كنتم مجرمين(. وبذلك أفد تكملة الكلام السابق والجواب عن تبرؤ المستكبرين، ولو لم يعطف بالواو لما أفاد إلا انه جواب عن كلام المستكبرين فقط، وهذا من أبدع الإيجاز.

و)بل(للإضراب الإبطالي أيضا إبطالا لمقتضى القصر في قولهم) أنحن صددناكم عن الهدى(فإنه واقع في حيز نفي لأن الاستفهام الإنكاري له معنى النفي.

و)مكر الليل والنهار(من الإضافة على معنى)في(. وهنالك مضاف إليه ومجرور محذوفان دل عليهما السياق،أي مكركم بنا.

وارتفع)مكر(على الابتداء. والخبر محذوف دل عليه مقابلة هذا الكلام بكلام المستكبرين إذ هو جواب عنه.فالتقدير: بل مكركم صدنا،فيفيد القصر، أي ما صدنا إلا مكركم، وهو نقض تام لقولهم) أنحن صددناكم عن الهدى(وقولهم)بل كنتم مجرمين(.

والمكر: الاحتيال بإظهار الماكر فعل ما ليس بفاعله ليغر المحتال عليه، وتقدم وفي قوله تعالى)ومكروا ومكر الله(في آل عمران.

وإطلاق المكر على تسويلهم لهم البقاء على الشرك، باعتبار أنهم يموهون عليهم ويوهمونهم أشياء كقولهم: إنه دين آباءكم وكيف تؤمنون غضب الآلهة عليكم إذا تركتم دينكم ونحو ذلك. والاحتلال لا يقتضي أن المحتال غير مستحسن الفعل الذي يحتال لتحصيله.

والمعنى: ملازمتهم المكر ليلا ونهارا، وهو كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك بالشرك. و)إذ تأمروننا(ظرف لما في)مكر الليل والنهار(من معنى)صدنا(أي حين تأمروننا أن نكفر بالله.

والأنداد: جمع ند، وهو المماثل، أي نجعل لله أمثالا في الإلهية.

وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غنائهم عنهم واحتقروهم حين علموا كذبهم وبهتانهم.

وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى)إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا(الآيتين في سورة البقرة.

)وأسروا الندامة لما رأوا العذاب(يجوز أن يكون عطفا على جملة)يرجع بعضهم إلى بعض القول(فتكون حلا. ويجوز أن تعطف على جملة)إذ الظالمون موقوفون عند ربهم(.

وضمير الجمع عائد إلى جميع المذكورين قبل وهم الذين استضعفوا والذين استكبروا. والمعنى: أنهم كشف لهم عن العذاب المعد لهم، وذلك عقب المحاورة التي جرت بينهم، فعلموا أن ذلك الترامي الواقع بينهم لم يغن عن أحد من الفريقين شيئا، فحينئذ أيقنوا بالخيبة وندموا على ما فات منهم في الحياة الدنيا وأسروا الندامة في أنفسهم،وكأنهم أسروا الندامة استبقاء للطمع في صرف ذلك عنهم أو اتقاء للفضيحة بين أهل الموقف، وقد أعلنوا بها من بعد كما في قوله تعالى) قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها(في سورة الأنعام، وقوله)لو أن لي كرة فأكون من المحسنين(في سورة الزمر.

صفحة : 3443

وذكر الزمخشري وابن عطية: أن من المفسرين من فسر) أسروا(هنا بمعنى أظهروا، وزعم أن)أسر(مشترك بين ضدين. فأما الزمخشري فسلمه ولم يتعقبه وقد فس الزوزني الإسرار بالمعنيين في قول امرئ القيس:

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا علي

حراصا لو يسرون مقتلي وأما ابن عطية فأنكره، وقال: ولم ثبت قط في اللغة أن)أسر(من الأضداد . قلت: وفيه نظر. وقد هذه

الكلمة في الأضداد كثير من أهل اللغة وأنشد أبو عبيدة قول الفرزدق:

ولما رأى الحجاج جرد سيفه أسر الحروري الذي كان أضمرا وفي كتاب الأضداد لأبي الطيب الحلبي: قال أبو حاتم: ولا أثق بقول أبي عبيدة في القرآن ولا في قول الفرزدق والفرزدق كثير التخليط في شعره. وذكر أبو الطيب عن التوزي أن غير أبي عبيدة أنشد بيت الفرزدق والذي جر على تفسير)أسروا(بمعنى أظهروا هنا هو ما يقتضي إعلانهم بالندامة من قولهم)لولا أنتم لكنا مؤمنين(. وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى) ويوم يعض الظالم على يده يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا(الآية.

والندامة: التحسر من عمل فات تداركه. وقد تقدمت عند قوله تعالى)فأصبح من النادمين(في سورة العقود.

)وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون[33](عطف على جملة)إذ الظالمون موقفون(. والتقدير: ولو ترى إذ جعلنا الأغلال في رقبة المأسور ونحوه ويشد إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل، وتقدم في أول سورة الرعد. وجعل الأغلال في الأعناق شعار على إنهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه. وتقدم عند قوله تعالى)وأولئك الأغلال في أعناقهم(في الرعد. و)الذين كفروا(هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدمة فالإتيان بالاسم الظاهر وكونه موصولا للإيماء إلى أن ذلك جزاء الكفر،ولذلك عقب بجملة)هل يجزون إلا ما كانوا يعملون(مستأنفة استئنافا بيانيا، كأن سائلا استعظم هذا العذاب وهو تعريض بهم.

والاستفهام ب)هل(مستعمل في الإنكار باعتبار ما يعقبه من الاستثناء، فتقدير المعنى: هو جزوا بغير ما كانوا يعملون، والاستثناء مفرغ.

و)ما كانوا يعملون(هو المفعول الثاني لفعل)يجزون(لأن) جزى(يتعدى إلى مفعول ثان بنفسه لأنه من باب أعطى، كما يتعدى إليه بالباب على تضمينه معنى: عوضه.

وجعل جزاؤهم م كانوا يعملون على معنى التشبيه البليغ، أي مثل ما كانوا يعملون، وهذه المماثلة كناية عن المعادلة فيما يجاوزونه بمساواة الجزاء للأعمال التي جوزا عليها حتى كأنه نفسها كقوله تعالى)جزاءا وفاقا(.

وأعلم أن كونه مماثلا في المقدار أمر لا يعلمه إلا مقدر الحقائق والنيات،وأما كونه)وفاقا(في النوع فلأن وضع لأغلال في الأعناق منع من حرية التصرف في أنفسهم لأصنامهم كما قال تعالى)

أتعبدون ما تنحتون(. وما تقبلوه من استعباد زعمائهم وكبرائهم إياهم قال تعالى)وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا(.
ومن غرر المسائل أن الشيخ ابن عرفة لما كان عرض عليه في درس التفسير عند قوله تعالى)إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل(فسأله بعض الحاضرين: هل يستقيم أن نأخذ من هذه الآية ما يؤيد فعل الأمراء أصلحهم الله من الإتيان بالمحاربين ونحوهم مغلولين من أعناقهم مع قول مالك رحمه الله بجواز القياس في العقوبات على فعل الله تعالى)في حدث الفاحشة(فأجابه الشيخ بأن لا دلالة فيها لأن مالكا إنما أجاز القياس على فعل الله في الدنيا، وهذا من تصرفات الله في الآخر فلا بد لجوازه من دليل.
)وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون[34](

صفحة : 3444

اعتراض للانتقال إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما مني به من المشركين من أهل مكة وخاصة ما قابله به سادتهم وكبراؤهم من التأليب عليه بتذكيره أن تلك سنة الرسل من قبله فليس في ذلك غضاضة عليه ولذلك قال في الآية في الزخرف) وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قالوا مترفوها إنا وجدنا آبائنا على أمة(الخ، أي وكذلك التكذيب الذي كذبك أهل هذه القرية. والتعويض بقومه الذي عادوه بتذكيرهم عاقبة أمثالهم من أهل القرى التي كذب أهلها وأغراهم بذلك زعمائهم.
والمترفون: الذين أعطوا الترف،والترف: النعيم وسعة العيش، وهو مبني للمفعول بتقدير: إن الله أترفهم كما في قوله تعالى)وقال الملأ من قومه الذين كفروا و كذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا(في سورة الأنبياء.
وفي بنائه للمفعول تعريض بالتذكير بنعمة الله عليهم لعلهم يشكرونها ويقلعون عن الإشراك به، وبعض أهل اللغة يقول تقديره: أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم.
و)إنا بما أرسلتم(حكاية للقول بالمعنى: أي قالوا مترفو كل قرية لرسولهم: إنا بما أرسلت به كافرون. وهذا من مقابلة الجمع بالجمع التي يراد منها التوزيع على آحاد الجمع.
وقولهم)أرسلتم به(تهكم بقرينة قولهم)كافرون(وهو كقوله تعالى)وقالوا يا أيها الذين نزل عليه الذكر إنك لمجنون(، أو المعنى: إنا بما ادعيتم أنكم أرسلتم به.

)وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين[35] قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون[36]
(قفوا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كنوا به عن إبطال حقيقة الإسلام بدليل سفسطائي فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله تعالى، فضمير)
قالوا(عائد إلى)الذين كفروا(من قوله)وقالوا الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن(الخ. وهذا من تمويه الحقائق بما يحف بها من العوارض فجعلوا ما حف بحالهم في كفرهم من وفرة المال والوالد من حجة على أنهم مظنة العناية عند الله وأن ما عليه هو الحق. وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين بأن حال ضعف المسلمين، وقلة عددهم، وشظف عيشهم حجة على أنهم غير محظوظين عند الله ولم يتفطنوا إلى أن أحوال الدنيا مسببه على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الأولاد. وهذا المبدأ الوهمي السفسطائي خطير في العقائد الضالة التي كانت لأهل الجاهلية والمنتشرة عند غير المسلمين ولا يخلو المسلمون من قريب منها في تصرفاتهم في الدين ومرجعها إلى قياس الغائب على الشاهد وهو قياس يصادف الصواب تارة ويخطئه تارات.
ومن أكبر أخطاء المسلمين في هذا الباب خطأ الجأ إلى القضاء والقدر في أعذارهم وخطأ التخلق بالتوكل في تقصيرهم وتكاسلهم.
فجملة)وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا(عطف على جملة)وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن(الخ. وقولهم)وما نحن بمعذبين(كالنتيجة لقولهم)نحن أكثر أموالا وأولاد(، وإنما جيء فيه بحرف العطف لترجيح جانب الفائدة المستقلة على جانب الاستنساخ الذي يومئ إليه ما تقدمه وهو قولهم)نحن أكثر أموالا وأولاد(فحصل من هذا النظم استدلال لصحة دينهم ولإبطال ما جاء به الإسلام ثم الافتخار بذلك على المسلمين والضعة لجانب المسلمين بإشارة إلى قياس استثنائي على ملازمة موهومة، وكأنهم استدلوا بانتفاء التعذيب على أنهم مقربون عند الله بناء على قياس مساواة مطوي فكأنهم حصروا وسائل القرب عند الله في وفرة الأموال والأولاد. ولولا هذا التأويل لخلا تلك الجملتين عن أهم معنييهما وبه يكون موقع الجواب ب)قل أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(أشد اتصالا بالمعنى، أي قل لهم: إن تبسط الرزق لرأيتموها لا تلاقي أسباب الغي والاهتداء، فربما وسع الله الرزق على العاصي وضيقة على المطيع وربما عكس فلا يغرنهم هذا وذاك فإنكم لا تعلمون.

وهذا ما جعل قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(مصيبا المحز فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعون في مواضعها زينها وشينها.
وقد أفاد هذا أن حالها غير دال على رضي الله عنهم ولا عدمه، وهذا الإبطال هو ما يسمى في علم المناظرة نقضا إجماليا.

صفحة : 3445

وبسط الرزق تسيره وتكثيره استعير له البسط وهو نشر الثوب ونحوه لأن المبسوط تكثر مساحة انتشاره.
وقدر الرزق:عسر التحصيل عليه وقلة حاصله، استعير له القدر، أي التقدير وهو التحديد لأن الشيء القليل يسهل عده وحسابه ولذلك قيل في ضده)يرزق من يشاء بغير حساب(، ومفعول)يقدر(محذوف دل عليه مفعول)يبسط(. وتقدم نظيره في سورة الرعد.
ومفعول)يعلمون(محذوف دل عليه الكلام، أس لا يعلمون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر باعتبار عموم من يشاء من كونه صالحا أو طالا، ومن انتفاء عملهم بذلك أنهم توهموا بسط الرزق علامة على القرب عند الله،وضده علامة على ضد ذلك. وبهذا أخطأ قول أحمد بن الراوندي:
كم عاقل أعيت مـذاهـبـه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا فلو كان عالما نحريرا لما تحير فهمه، وما تزندق من ضيق عطن فكره.
)وما أموالكم ولا أولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون[37](يجوز أن تكون جملة)وما أموالكم(عطفا على جملة)قل أن ربي يبسط الرزق(الخ فيكون كلاما موجها من جانب الله تعالى إلى الذين قالوا)نحن أكثر أموالا وأولادا(فتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى الذين قالوا)نحن أكثر أموالا وأولادا(.
ويجوز أن تكون عطفا على جملة إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء(، فيكون مما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويبلغه عن الله تعالى، ويكون في ضمير)عندنا(التفات، وضمائر الخطاب تكون عائدة إلى الذين قالوا)نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين(وفيها وجه ثالث ننبه عليه قريبا.

وهو ارتقاء من إبطال الملازمة إلى الاستدلال على أنهم ليسوا بمحل الرضي من الله تعالى على طريقة النقض التفصيلي المسمى بالمناقضة أيضا في علم المناظرة.

وهو مقام الانتقال من المنع إلى الاستدلال على إبطال دعوى الخصم،فقد أبطلت الآية أن تكون أموالهم وأولادهم مقرة عند الله تعالى وأنه لا يقرب إلى الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

وجيء بالجملة المنفية في صيغة حصر بتعريف المسند إليه والمسند،لأن هذه الجملة أريد منها نفي قولهم)نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين(أي لا أنتم، فكان كلامهم في قوة حصر التقريب إلى الله في كثرة الأموال والأولاد فنفي ذلك بأسره.

وتكرير)لا(النافية بعد العاطف في)ولا أولادكم(لتأكيد تسلط النفي على كلا المذكورين ليكون كل واحدا مقصودا بنفي كونه مما يقرب إلى الله ومتلفتا إليه.

ولما كانت الأموال والأولاد جمعي تكسير عوملا معاملة المفرد المؤنث فجيء بخبرهما اسم موصول المفرد المؤنث على تأويل جماعة الأموال وجماعة الأولاد ولم يتلفت إلى تغلب الأولاد على الأموال فيخبر عنهما معا)بالذين(ونحوه.

وعدل عن أن يقال: بالتي تقربكم إلينا، إلى)تقربكم عندنا(لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان.

والزلفى: اسم للقرب مثل الرجعي وهو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي تقربكم تقريبا، ونظيره)والله أنبتكم من الأرض نباتا(.

وقوله)إلا من آمن وعمل صالحا(استثناء منقطع. و)إلا(بمعنى) لكن(المخففة النون التي هي للاستدراك وما بعدها كلام مستأنف وذلك من استعمالات الاستثناء المنقطع، فإنه إذا كان ما بعد) إلا(ليس من جنس المستثنى منه كان الاستثناء منقطعا، ثم إن كان ما بعد)إلا(مفردا فإن)إلا(تقدر بمعنى)لكن(أخت)إن(عند أهل الحجاز فينصبون ما بعدها على توهم اسم)لكن(وتقدر بمعنى)لكن(المخففة العاطفة عند بني تميم فيتبع الاسم الذي بعدها إعراب الاسم الذي قبلها وذلك ما أشار إليه سيبويه في باب يختار فيه النصب من أبواب الاستثناء.

فأما إن كان من بعد)إلا(جملة اسمية أو فعلية فإن)إلا(تقدر بمعنى)لكن(المخففة وتجعل الجملة بعد استئنافا، وذلك في قول العرب والله لأفعلن كذا إلا حل ذلك أن أفعل كذا وكذا اه.

قال ابن مالك في شرح التسهيل: وتقرير الإخراج في هذا أن تجعل قولهم: إلا حل ذلك، بمنزلة: لا أرى لهذا العقد مبطلا إلا فعل كذا. وجعل ابن خروف من هذا القبيل قوله تعالى)لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر(على أن يكون)من(مبتدأ و)يعذبه الله(الخبر ودخل الفاء لتضمين المبتدأ معنى الجزاء. وقال ابن مسعود: إن)إلا(في الاستثناء المنقطع يكون ما بعدها كلاما مستأنفا اه.

وعلى هذا فقوله تعالى هنا)إلا من آمن وعمل صالحا(تقديره: لكن من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف، فيكون)من(مبتدأ مضمنا معنى الشرط و)لهم جزاء الضعف(جملة خبر عن المبتدأ وزيدت الفاء في الخبر لتضمين المبتدأ معنى الشرط.

وأسهل من هذا أن نجعل)من(شرطيه وجملة)فأولئك لهم جزاء الضعف(جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية. وهذا تحقيق لمعنى الاستثناء المنقطع وتفسير للآية بدون تكلف ولا تردد في النظم.

ويجوز أن تكون جملة)وما أموالكم ولا أولادكم(الخ اعتراضا بين جملة)قل أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(وجملة)قل أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له(، وتكون ضمائر الخطاب موجهة إلى جميع الناس المخاطبين بالقرآن من مؤمنين وكافرين. وعليه يكون قوله)إلا من آمن وعمل صالحا(الخ مستثنى من ضمير الخطاب، أي ما أموالكم بالتي تقربكم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وجيء باسم الإشارة في الأخبار عن)من آمن(للتنويه بشأنهم والتنبيه على أنهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الأوصاف التي تقدمت اسم الإشارة على ما تقدم في قوله تعالى) أولئك على هدى من ربهم(وغيره. ووزان هذا المعنى وزان قوله)لا يغنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(إلى قوله)لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات(.

والضعف: المضاعف المكرر فيصدق بالمكرر مرة واكثر.وفي الحديث)والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة(وقد أشار إليه قوله تعالى)كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء(.

وإضافة)جزاء(إلى)الضعف(إضافة بيانية، أي الجزاء الذي هو المضاعفة لأعمالهم، أي لما تستحقه كما تقدم. وكني عن التقريب بمضاعفة الجزاء لأن ذلك أمارة كرامة المجزي عند الله، أي أولئك يقربون زلفى فيجزون جزاء الضعف على أعمالهم لا على وفرة أموالهم وأولادهم، فالاستدراك ورد على جميع ما أفاده كلام

المشركين من الدعوى الباطلة والفخر الكاذب لرفع توهم أن الأموال والأولاد لا تقرب إلى الله بحال فإن من أموال المؤمنين صدقات ونفقات، ومن أولادهم أعوانا على البر ومجاهدين وداعين لآبائهم بالمغفرة والرحمة.

والباء في قوله)بما عملوا(تحتمل السببية فتكون دليلا على ما هو المضاعف وهو ما يناسب السبب من الصالحات كقوله تعال)هل جزاء الإحسان إلا الإحسان(، وتحتمل العوض فيكون)ما عملوا(هو المجازى عليه كما تقول: جزيته بألف، فلا تقدير في قوله)جزاء الضعف(.

والغرفات: جمع غرفة. وتقدم في آخر الفرقان وهي البيت المعتلي وهو أجمل منظرا وأشمل مرأى. و)آمنون(خبر ثاني يعني تلقي في نفوسهم الأمن من انقطاع ذلك النعيم.

وقرأ الجمهور)في الغرفات(بصيغة الجمع، وقرأ حمزة)في الغرفة(بالأفراد.

)والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون[38](جرى الكلام عل عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه، فكان هذا بمنزلة الاعتراض بين الثناء على المؤمنين الصالحين وبن إرشادهم إلى الانتفاع بأموالهم للقرب عند الله بجملة)وما أنفقتم من شيء(الخ. والذين يسعون في الآيات هم المشركون بصدهم عن سماع القرآن وبالطعن فيه بالباطل واللغو عند سماعه.

والسعي مستعار للاجتهاد في العمل في قوله تعالى)ثم أدبر يسعى(وإذا عدي ب)في(كان في الغالب مرادا منه الاجتهاد في المضرة فمعنى)يسعون في آياتنا(يجتهدون في إبطالها،

و)معاجزين(مغالبين مطالبين العجز. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى)والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم(في سورة الحج.

ولسم الإشارة للتنبيه على إنهم استحقوا الجحيم لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة مثل)أولئك على هدى من ربهم(و)في العذاب(خبر عن اسم الإشارة.

صفحة : 3447

و)محضرون(هنا كناية عن الملازمة فهو ارتقاء في المعنى الذي دلت عليه أداة الظرفية من إحاطة العذاب بهم وهو خبر ثان عن اسم الإشارة ومتعلقه محذوف دل عليه الظرف وقد تقدم نظيره في قوله تعالى)فأولئك في العذاب محضرون(في سورة الروم.

)قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين[39](أتبع إبطال أن تكون الأموال والأولاد بذاتهما وسيلة قرب لدى الله تعالى ردا على مزاعم المشركين بما يشبه معنى الاستدراك على ذلك الإبطال من إثبات فالانتفاع بالمال للتقرب إلى رضى الله إن استعمل في طلب مرضاة الله تفضيلا لما أشير إليه إجمالا من أن ذلك قد يكون فيه قربى إلى الله بقوله)إلا من آمن وعمل صالحا(كما تقدم.

وقوله) إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له(تقدم نظيره قريبا تأكيدا لذلك وليبنى عليه قوله)وما أنفقتم من شيء(الآية. فالذي تقدم رد على المشركين والمذكور هنا ترغيب للمؤمنين والعبارات واحدة والمقاصد مختلفة. وهذا من وجوه الإعجاز أن يكون الكلام الواحد صالحا لغرضين وأن يتوجه إلى طائفتين.

ولما كان هذا الثاني موجها إلى المؤمنين أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله)من عباده(أي المؤمنين، وضمير)له(عائد إلى من، أي ويقدر لمن يشاء من عباده. ومفعول)يقدر(محذوف دل عليه مفعول)يبسط(.

وكان ما تقدم حديثا أن يبسط الرزق لغير المؤمنين فلم ينعموا بوصف)من عباده(لأن في الإضافة تشريفا للمؤمنين، وفي هذا امتنان على الذين يبسط عليهم الرزق بأن جمع الله لهم فضل الإيمان وفضل سعة الرزق، وتسلية للذين قدر عليهم رزقهم بأنهم نالوا فضل الإيمان وفضل الصبر على ضيق الحياة.

وفي تعليق)له(ب)يقدر(إيماء إلى أن ذلك القدر لا يخلو من فائدة للمقدور عليه رزقه، وهي فائدة الثواب على الرضا من قسم له والسلامة من الحساب عليه يوم القيامة. وفي الحديث ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر بها عنه حتى الشوكة يشاكها .

ولولا هذا الإيماء لقيل: ويقدر عليه، كما قال)ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله(. وأما حال الكافرين فإنهم ينعم على بعضهم برزق يحاسبون عليه أشد الحساب يوم القيامة إذ لم يشكروا رازقهم، ويقدر على بعضهم فلا يناله إلا الشقاء. وهذا توطئة لقوله) وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه(حثا على الإنفاق. والمراد الإنفاق فيما أذن فيه الشرع.

وهذا تعليم للمسلمين بأن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا قال تعالى)ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا(. فأما نعيم الدنيا فهو مسبب عن أحوال دنيوية رتبها الله تعالى ويسرها لمن يسرها في علمه بغيبه، وأما نعيم الآخرة فهو مسبب عن أعمال مبينة في الشريعة وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم

بأنهم منعمون في الآخرة كما أنعم على داود وسليمان وعلى كثير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وكثير من أئمة الدين مثل مالك بن أنس والشافعي والشيخ عبد الله بن أبي زيد وسحنون.
فأما اختيار الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حالة الزهادة في الدنيا فلتحصل له غايات الكمال من التمحض لتلقي الوحي وجميل الخصال ومن مساواة جمهور أصحابه في أحوالهم وقد بسطناه بيانا في رسالة طعام رسول الله عليه السلام. وأعقب ذلك بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله فجعل الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق لأن وعد الله بإخلافه مع تأكيد الوعد يقتضي أنه يحب ذلك من المنافقين.
وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط ويجعل جملة الجواب اسمية وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله)فهو يخلفه(، ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه لينتقل من ذلك إلى الكناية عن كونه مرغوبه تعالى.

صفحة : 3448

و)من شيء(بيان لما في)ما(من العموم، وجملة)وهو خير الرازقين(تذييل للترغيب والوعد بزيادة، لبيان أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق.)خير(بمعنى أخير لأن الرزق الواصل من غيره تعالى إنما هو من فضله أجراه على يد بعض مخلوقاته فإذا كان تيسيره برضى من الله على المرزوق ووعد به كان ذلك أخلق بالبركة والدوام، وظاهر الآية أن إخلاف الرزق يقع في الدنيا وفي الآخرة.
والمراد بالإنفاق: الإنفاق المرغب فيه في الدين كالإنفاق على الفقراء والإنفاق في سبيل الله بنصر الدين. روى مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى: يا بن آدم أنفق أنفق عليك . قال ابن العربي: قد يعوض مثله أو أزيد، وقد يعوض ثوابا، وقد يدخر له وهو كالدعاء في وعد الإجابة اه. قلت:وقد يعوض صحة وقد يعوض تعميرا. ولله في خلقه أسرار.
)ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون[40] قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون[41](عطف على جملة)ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم(الآية استكمالا لتصوير فضاعة حالهم يوم الوعد الذي أنكروه تبعا لما وصف من حال مراجعة المستكبرين منهم

والمستضعفين، فوصف هنا افتضاحهم بتبرؤ الملائكة منهم وشهادتهم عليهم بأنهم يعبدون الجن.
وضمير الغيبة من نحشرهم عائد إلى ما عاد عليه ضمير)وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا(الذي هو عائد إلى)الذين كفروا(من قوله) وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن(. والكلام كله منتظم في أحوال المشركين ,جميع: فعيل بمعنى مفعول، أي مجموع وكثر استعماله وصفا لإفادة شمول أفراد ما أجرى هو عليه من ذوات وأحوال، أي يجمعهم المتكلم قال لبيد:
عريت وكان بها الجميع فأبكروا منها
وغودر نؤيها وثمامـها وتقدم عند قوله تعالى)فيكيدوني جميعا ثم لا ينظرون(في سورة هود. فلفظ)جميعا(يعم أصناف المشركين على اختلاف نحلهم واعتقادهم في شركهم فقط كان مشركو العرب نحلا شتى يأخذ بعضهم من بعض وما كانوا يحققون مذهبا منتظم العقائد والأقوال غير مخلوط بما ينافي بعضه بعضا.
والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات الله، وقولهم)لو شاء الرحمن ما عبدناهم(كما في سورة الزخرف. وكانوا يخلطون بين الملائكة والجن ويجعلون بينهم نسبا فكانوا يقولون: الملائكة بنات الله من سروات الجن. وقد كان حي من خزاعة يقال لهم: بنو مليح، بضم الميم وفتح اللام وسكون التحتية، يعبدون الجن والملائكة. والاقتصادر على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونه ممن أعيد من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى فإن ذلك التقرير من أجل ما جعل الحشر لأجله.
وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل بالتعريض بالمشركين على طرقة المثل إياك أعني واسمعي يا جارة .
والإشارة ب)هؤلاء(إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجن ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين.
وتقديم المفعول على)يعبدون(للاهتمام والرعاية على الفاصلة.
وحكي قول الملائكة بدون عاطف لوقوعه في المحاورة كما تقدم غير مرة ولذلك جيء فيه بصيغة الماضي لأن ذلك هو الغالب في الحكاية.
وجواب الملائكة يتضمن إقرار مع التنزه عن لفظ كونهم معبودين كما يتنزه من يحكي كفر أحد فيقول قال: هو مشرك بالله، وإنما القائل قال: أنا مشرك بالله.
فمورد التنزيه في قول الملائكة)سبحانك(هو أن يكون غير الله مستحقا أن يعبد، مع لازم الفائدة وهو أنهم يعلمون ذلك فلا يضرون بأن يكونوا معبودين.

والولي: الناصر والحليف والصديق مشتق من الولي مصدر ولي بوزن علم وكل من فاعل الولي وفعيلا صالحا لمعنى فاعلا ولمعنى مفعول. فيقع اسم الولي على الموالى بكسر اللام وعلى الموالي بفتحها وقد ورد بالمعنيين في القرآن وكلام العرب كثيرا.

صفحة : 3449

فمعنى)أنت ولينا(لا نوالي غيرك،أي لا نرضى به وليا، والعبادة ولاية بين العابد والمعبود، ورضي المعبود بعبادة عابده إياه ولاية بين المعبود وعابده، فيقول الملائكة)سبحانك(تبرؤ من الرضى بأن يعيدهم المشركون لأن الملائكة لما جعلوا أنفسهم موالين لله فقد كذبوا المشركين الذين زعموا لهم الإلهية، لأن العابد لا يكون معبودا. ولقد تقدم الكلام على لفظ)ولي(عند قوله تعالى)قل أغير الله أتخذ وليا(في سورة الأنعام وفي آخر سورة الرعد.
و)من(زائدة للتوكيد و)دون(اسم لمعنى غير، أي أنت ولينا وهم ليس أولياء لنا ولا نرضى بهم لكفرهم ف)من دونهم(تأكيد لما أفادته جملة)أنت ولينا(من الحصر لتعريف الجزأين.
و)بل(للإضراب الانتقالي انتقالا من التبرؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سولوا لهم عبادة غير الله تعالى، وليس إضراب إبطال لأن المشركين المتحدث عنهم كانوا يعبدون الملائكة، والمعنى بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجن راضين بعبادتهم إياهم. وحاصل المعنى، أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها ولكن الجن سولت لهم عبادة غير الله فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة.
وجملة)أكثرهم(للمشركين وضمير)بهم(للجن والمقام يرد كل ضمير إلى معاده ولو تماثلت الضمائر كما في قول عباس بن مرداس يوم حنين:
عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم
بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا أي أحرز جمع المشركين ما جمعه المسلمون من مغانم.
وقرأ الجمهور)نحشرهم(و)نقول(بنون العظمة. وقرأ حفص عن عاصم بياء الغائب فيهما، والضمير عائد إلى)ربي(من قوله)قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له(.
)فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا(الأظهر أن هذا من خطاب الله تعالى المشركين والجن. والفاء فصيحة ناشئة عن المقاولة السابقة. وهي كلام موجه من جانب الله تعالى إلى الملائكة والمقصود به: التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن لأن

الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا نقصد إفادتهم به. والمعنى: إذ علمتم أنكم عبتم الجن فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا.
ويجوز أن يكون من خطاب الملائكة للفريقين بعد أداء الشهادة عليهم توبيخا لهم وإظهارا للغضب عليهم تحقيقا للتبرؤ منهم، والفاء أيضا فصيحة وهي ظاهرة.
وقدم الظرف على عامله لأن النفع والضر يومئذ قد أختص صغيرهما وكبيرهما بالله تعالى خلاف ما كان في الدنيا من نفع الجن عبادتهم ببعض المنافع الدنيوية ونفع المشركين الجن بخدمة وساوسهم وتنفيذ أغراضهم من الفتنة والإضلال، وكذلك الضر في الدنيا أيضا.
والملك هنا بمعنى: القدرة، أي لا يقدر بعضكم على بعض نصر أو نفع.
وتقدم عند وقوله تعالى)قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم(في سورة العقود.
وقدم النقع في حيز النفي تأييسا لهم لأنهم يرجون أن يشفعوا لهم يومئذ)ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله(.
وعطف نفي الضر على نفع النفع للدلالة على سلب مقدرتهم على أي شيء فإن بعض الكائنات يستطيع أن يضر ولا يستطيع أن ينفع كالعقرب.
)ونقول للذين ظلموا ذوقوأ عذاب الفنار التي كنتم بها تكذبون[42] (عطف على قوله)ثم نقول للملائكة(. وقد وقع الإخبار عن هذا القول بعد الإخبار عن الحوار الذي يجري بين الملائكة وبين المشركين يومئذ إظهار لاستحقاقهم هذا الحكم الشديد، ولكنه كالمعمول لقوله)لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا(.
والذوق مجاز لمطلق الإحساس، واختياره دون الحقيقة لشهرة استعماله.
ووصف النار بالتي كانوا يكذبون بها في صلة الموصول من لإيذان بغلطهم وتنديمهم.
وقد علق التكذيب هنا بنفس النار فجيء باسم الموصول المناسب لها ولم يعلق بالعذاب كما في آية سورة السجدة)وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون(لأن القول المخبر عنه هنا هو قو ل الله تعالى وحكمه وقد أذن بهم إلى جهنم وشاهدوها كما قال تعالى آنفا)وأسروا الندامة لما رأوا العذاب(فإن الذي يرى هو ما به العذاب، وأما القول المحكي في سورة السجدة فهو قول ملائكة العذاب بليل قوله)كما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون(.

وتقديم المجرور للاهتمام والرعاية على الفاصلة.
)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين[43](انتقال من حكاية كفرهم وغرورهم وازدهائهم بأنفسهم وتكذيبهم بأصول الديانة إلى حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، واتبع ذلك بحكاية تكذيبهم الكتاب والدين الذي جاء به فكان كالفذلكة لمل تقدم من كفرهم.
وجملة)إذ تتلى(معطوفة على جملة)يوم نحشرهم جميعا(عطف القصة على القصة. وضمير)عليهم(عائد إلى)الذين كفروا(وهم المشركون من أهل مكة.
وإيراد حكاية تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم مقيدة بالزمن الذي تتلى عليه فيه آيات الله البينات تعجيب من وقاحتهم حيث كذبوه في أجدر الأوقات بأن يصدقوه عندها لأن وقت ظهور حجة صدقة لكل عاقر متبصر.
وللاهتمام بهذا الظرف والتعجيب من متعلقة قدم الظرف على عامله والتشويق إلى الخبر الآتي بعده وأنه من قبل البهتان والكفر البواح.
والمراد بالآيات البينات آيات القرآن، ووصفها بالبيان لأجلل ظهور أنها من عند الله لإعجازها إياهم من معارضتها، ولما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على صدق ما تدعوا إليه، فهي محفوظة بالبيان بألفاظها ومعانيها.
وحذف فاعل التلاوة لظهور أنه الرسول صلى الله عليه وسلم إذ هو تالي آيات الله، فالإشارة في قولهم)ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم(إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واستحضروه بطريقة الإشارة دون الاسم إفادة لحضور مجلس التلاوة وذلك من تمام وقاحتهم فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم القرآن في مجالسهم كما ورد في حديث قراءته على عتبة بن ربيعة سورة فصلت وقراءته على عبد الله بن أبي بن سلول للقرآن بالمدينة في القصة التي تشاجر فيها المسلمون والمشركون.
وابتدأوا بالطعن في التالي لأن الغرض الذي يرمن إليه، وأثبتوا له إرادة صدهم عن دين آبائهم قصد أن يثير بعضهم حمية بعض لأنهم يجعلون آباءهم أهل الرأي فيما ارتأوا والتسديد فيما فعلوا فلا يرون إلا حقا ولا يفعلون إلا صوابا وحكمة، فلا جرم أن يكون مريد الصد

عنها محاولا الباطل وكاذبا في قوله لأن الحق مطابق الواقع فإبطال ما هو حق في زعمهم قول غير مطابق للواقع فهو الكذب.
وفعل)كان(في قولهم)عما كان يعبد آباءكم(إشارة إلى أنهم عنوا أن تلك عبادة قديمة ثابتة. وفي ذلك إلهاب لقلوب قومهم وإيعاز لصدورهم ليتألبو على الرسول صلى الله عليه وسلم ويزادوا تمسكا بدينهم وقد قصروا للرسو عليه السلام على صفة إرادة صدهم قصرا إضافيا، أي إلا رجل صادق فما هو برسول.
وأتبعوا وصف التالي بوصف المتلو بأنه كذب مفترى وإعادة فعل القول إعادة ثابتة للاهتمام بكل قول من القولين الغريبين تشنيعا لهما في نفس السامعين فجملة)وقالوا ما هذا إلا إفك(عطف على جملة)قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم(فالفعلان مشتركان بالظرف.
والإشارة الثانية إلى القرآن الذي تضمنه)تتلى(لتعينه لذلك.
والإفك: الكذب، ووصفه بالمفترى إما أن بتوجه إلى نسبته إلى الله تعالى أو أريد أنه في ذاته إفك وزادوا فجعلوه مخترعا من النبي صلى الله عليه وسلم ليس مسبوقا به.
فكونه إفكا يرجع إلى جميع ما في القرآن، وكونه مفترى يرجعونه إلى ما فيه من قصص الأولين. وهذا القول من بهتانهم لأنهم كثيرا ما يقولون: أساطير الأولين فلي)مفترى(تأكيد ل)إفك(.
ثم حكي تكذيبهم الذي يعم جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من وحي يتلى أو دعوة إلى التوحيد وغيره أو استدلال عليه أو معجزة بقولهم)إن هذا إلا سحر مبين(، فهذا المقال الثالث يشمل ما نقدم وغيره، فحكاية مقالهم هذا تقوم مقام التذييل.
وأظهر للقائلين دون إضمار ما تقدم ما يصح أن يكون معادا للضمير فقيل)وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم(ولم يقل: وقالوا للحق لما جاءهم، للدلالة على أن الكفر هو باعث قولهم هذا.

صفحة : 3451

وأظهر المشار إليه قبل اسم الإشارة في قوله)للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين(لأن لا دليل عليه في الكلام السابق، أي إذ اظهر لهم ما هو حق من إثبات للتوحيد أو إخبار عن الغيب أو البعث قالوا: ما هذا إلا سحر مبين. فالمراد من الحق: ما هو أعم من آيات القرآن لأن السحر له أسلوبان: أحدهما شعوذة الأقوال التي لا تفهم مدلولاتها يختلقها السحرة ليوهموا الناس أن فيها مناجاة مع الجن ليمكنوهن من عمل ما يريدون فيسترهبوهم بذلك،

وثانيهما أفعال لها أسباب خفية مستورة بحيل وخفة أيد تحركها فيوهمون بها الناس أنها من تمكين الجن إياهم التصرف في الخفيات، فذا سمعوا القرآن ألحقوه بالأسلوب الأول وإذا رأوا المعجزات ألحقوها بالأسلوب الثاني كما قالت المرأة التي شاهدة معجزة تكثير الماء في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لقومها أتيت أسحر الناس، أو هو نبي كما زعموه ومعنى)مبين(أنه يظهر منه أنه سحر فتبيينه كنهه من نفسه، يعنون أن من سمعه يعلم انه سحر.

وجملة)وقال الذين كفروا(معطوفة على جملة)وإذا تتلى(.

)وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير[44](الواو للحال، والجملة في موضع الحال من الضمير في قوله) قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آبائكم(الآية، تحميقا لجهالتهم وتعجيبا من حالهم في أمرين.

أحدهما: أنهم لم يدركوا ما ينالهم من المزية بمجيء الحق إليهم إذ هيأهم الله به لأن يكونوا في عداد الأمم ذوي الكتاب، وفي بدء حال يبلغ بهم مبلغ العلم، إذ هم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب من عند الله أو رسول منه، فيكون معنى الآية فكيف رفضوا اتباع الرسول وتلقي القرآن وكان الأجدر بهم الاغتباط بذلك. وهذا المعنى هو المناسب لقوله)يدرسونها(أي لم يمونوا أهل دراسة فكان الشأن أن يسرهم ما جاءهم من الحق.

وثانيهما: أنهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتى يكون تمسكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرطوا فيه يحملهم على التردد في الحق الذي جاءهم وصدق الرسول الذي أتاهم به فيكون لهم في الصد عنهما بعض العذر: فيكون المعنى: التعجيب من رفضهم الحق حين لا مانع يصدهم، فليس معنى جملة)وما آتيناهم من كتب(الخ على العطف ولا على الإخبار لأن مضمون ذلك معلوم لا يتعلق الغرض بالإخبار به. ولكن على الحال إفادة التعجيب والتحميق، وعلى هذا المعنى جرى المفسرون.

والدراسة: القراءة بتمهل وتفهم، وتقدم عند قوله تعالى)وبما كنتم تدرسون(في آل عمران.

وإنما لم يقيد إيتاء الكتب بقيد كما قيد الإرسال بقوله)قلبك(لأن الإيتاء هو التمكين من الشيء وهم لم يتمكنوا من القرآن بخلاف إرسال النذير فهو حاصل سواء تقبلوه أم أعرضوا عنه.

ومن نحا نحو أن يكون معنى الآية بين حالهم وحال أهل الكتاب فذلك منحى واهن لأنه يجر إلى معذرة أهل الكتاب في عضهم بالنواجذ على دينهم، على أنه لم يكن في مدة نزول الوحي بمكة علاقة للدعوة الإسلامية بأهل الكتاب وإنما دعاهم النبي صلى الله

عليه وسلم بالمدينة، وأيضا لا يكون للتقييد ب)قلبك(فائدة خاصة كما علمت. وهنالك تفسيرات أخرى أشد بعدا وأبعد عن القصد جدا.
)وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير[45](هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للذين كذبوه، فموقع التسلية منه قوله)وكذب الذين من قبله(، وموقع التهديد بقية الآية، فالتسلية في أن له أسوة بالرسل السابقين، والتهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذبت رسلها وكيف عاقبهم الله على ذلك وكانوا أشد قوة من قريش وأعظم سطوة منهم وهذا كقوله تعالى)فأهلكنا أشد منهم بطشا(.
ومفعول)كذب(محذوف دل عليه ما بعده، أي كذبوا بالرسل، دل عليه قوله)فكذبوا رسلي(.
وضمير)باغوا(عائد إلى)الذين من قبلهم(، والضمير المنصوب في)آتيناهم(عائد إلى)الذين كفروا(في قوله)وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا سحر مبين(. والمقام يرد على كل ضمير إلى معاده، كما قريبا عند قوله تعالى)أكثرهم بهم مؤمنون(.

صفحة : 3452

والمعشار: العشر، وهو الجزء العاشر مثل المرباع الذي كان يجعل لقائد الكتيبة من غنائم الجيش في الجاهلية.
وذكر احتمالان آخران في معاد الضميرين من قوله)وما بلغوا معشار ما آتيناهم(لا يستقيم معها سياق الآية.
وجملة)وما بلغوا معشار ما آتيناهم(معترضة، والاعتراض بها تمهيد للتهديد وتقريب له بأن عقاب هؤلاء أيسر من عقاب الذين من قبلهم في متعارف الناس مثل قوله تعالى)وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه(.
والفاء في قوله)فكذبوا رسلي(للتفريع على قوله)وكذب الذين من قبلهم(، باعتبار أن المفرع)فكيف كان نكير(، وبذلك كانت جملة)فكذبوا رسلي(تأكيد الجملة)وكذب الذين من قبلهم(ونظيره قوله تعالى)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا(في سورة القمر، ولكون الفاء الثانية في قوله)فكيف كان نكير(تأكيدا لفظيا للفاء في قوله فكذبوا رسلي(. وقوله)فكيف كان نكير(مفرع على قوله)وكذب الذين من قبلهم(.
وكيف استفهام عن الحالة وهو مستعمل في التقرير والتفريع كقول الحجاج للعديل ابن الفرخ)فكيف رأيت الله أمكن منك(، أي أمكنني منك، في قصة هروبه.

فجملتا)فكذبوا رسولي فكيف كان نكير(في قوة جملة واحدة مفرعة على جملة)وكذب الذين من قبلهم(. والتقدير: وكذب الذين من قبلهم فكيف كان نكيري على تكذيبهم الرسل، ولكن لما كانت جملة)وكذب الذين من قبلهم(مقصودا منها تسلية الرسول ابتداء جعلت مقصورة على ذلك اهتماما بذلك الغرض وانتصارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ثم خصت عبرة تسبب التكذيب بالعقاب بجملة تخصها تهويلا للتكذيب وهو من مقامات الإطناب، فصادف أن كان مضمون الجملتين متحدا اتحاد السبب لمسببين أو العلة لمعلولين كعلة السرقة للقطع والغرم. وبني النظم على هذا الأسلوب الشيق تجنبا لثقل إعادة الجملة إعادة ساذجة ففرعت الثانية على الأولى واظهر فيها مفعول)كذب(وبني عليه الاستفهام التقريري التفظيعي، أو فرع للتكذيب الخاص على التكذيب الذي هو سجيتهم العامة على الوجه الثاني في معنى:وكذب الذين من قبلهم كما تقدم، ونظيره قوله تعالى)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وأزدجر(.

والتنكير: اسم للإنكار وهو عد الشيء منكرا،أي مكروها،واستعمل هنا كناية عن الغضب وتسليط العقاب على الآتي بذلك المنكر فهي كناية رمزية.

والمعنى: فكيف كان عقابي لهم على ما جاءوا به مما أنكره، أي كان عقابا عظيما على وفق إنكارنا تكذيبهم.

و)نكير(بكسر الراء وهو مضاف إلى ياء المتكلم، وحذفت الياء للتخفيف مع التنبيه عليها ببقاء الكسرة على آخر الكلمة ولياسب الفاصلة وأختها. وكتب في المصحف بدون ياء وبوقف عليه السكون.

)قل إنما أعظكم بوحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد[46] (افتتح بالأمر بالقول هنا وفي الجمل الأربع بعده للاهتمام بما احتوت عليه. وهذا استئناف للانتقال من حكاية أحوال كفر المشركين وما تخلل ذلك من النقض والاستدلال والتسلية والتهديد ووصف صدودهم ومكابرتهم إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمل في الحقائق ليتضح لهم خطؤهم فيما ارتكبوه من العسف في تلقي دعوة الإسلام وما ألصقوا به وبالداعي إليه، وأرشدوا إلى كيفية النظر في شأنهم والاختلاء بأنفسهم لمحاسبتها على سلوكها، استقصاء لهم في الحجة وإعذارا لهم في المجادلة)ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة(.

ولذلك اجتلبت صيغة الحصر ب)إنما(، أي ما أعظكم إلا بواحدة، طيا لبساط المناظرة وإرسال على الخلاصة من المجادلات الماضية، وتقريبا لشقة الخلاف بيننا وبينكم.

وهو قصر إضافي، أي لا بغيرها من المواعظ المفصلة، أي أن استكثرتم الحجج وضجرتم من الردود والمطاعن فأنا أختصر المجادلة في كلمة واحدة فقط كانوا يتذمرون من القرآن لأبي طالب: أما ينتهي أبن أخيك من شتم آلهتنا وآبائنا. وهذا كما يقول المناظر والجدلي بعد بسط الأدلة فيقول: والخلاصة أو الفذلكة كذا.

صفحة : 3453

وقد ارتكب في هذه الدعوة تقريب مسالك النظر إليهم باختصاره، فوصف بأنه خصلة واحدة لئلا يتجهموا الإقبال على النظر الذي عقدوا نيا تهم على رفضه، فأعلموا بأن ذلك لا يكلفهم جهدا ولا يضيع عليهم زمنا فليتأملوا فيه قليلا ثم يقضوا قضاءهم، والكلام على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يخاطبهم به.

والوعظ: كلام فيه تحذير من مكروه وترغيب في لا ضده. وتقدم عند قوله تعالى)وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظتا وتفصيلا لكل شيء(في سورة الأعراف، وقوله)يعظكم الله(في سورة النور.

و)واحدة(صفة لمحذوف يدل عليه المقام ويفرضه السامع نحو: بخصلة، أو بقضية، أو بكلمة.

ولمقصود من هذا الوصف تقليلها تقريبا للأفهام واختصارا في الاستدلال وإيجاز في نظم الكلام واستنزالا لطائر نفورهم وأعراضهم. وبنيت هذه الواحدة بقول)أن تقوموا لله مثنى وفرادى(إلى آخره، فالمصدر المنسبك من)أن(والفعل في موضع البدل من)واحدة(، أو قل عطف بيان فإن عطف البيان هو البدل المطابق،وإنما أختلف التعبير عنه عند المتقدمين فلا تخض في محاولة الفرق بينهما كالذي خاضوا.

والقيام في قوله)أن تقدموا(مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمل والاجتهاد فيه كقوله تعالى)وأن تقوموا لليتامى بالقسط(.

واللام للتعليل، أي لأجل الله ولذاته، أي جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة، وهذا عكس قوله تعالى)وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم(، أو لأجل معرفة الله والتدبر في صفاته.

وكلمة)مثنى(معدول بها عن قولهم: اثنين اثنين، بتكرير كلمة اثنين تكريرا يفيد معنى ترصيف الأشياء المتعددة بجعل كل ما يعد بعدد اثنين منه مرصفا على نحو عدده.

وكلمة)فرادى(معدول بها عن قولهم: فردا فردا تكريرا يفيد معنى الترصيف كذلك. وكذلك سائر أسماء العدد إلى تسع أو عشر ومنه قوله تعالى)فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع(،وتقدم في سورة النساء.

وانتصب)مثنى وفراد(على الحال من ضمير)تقوموا(أي أن تكونوا في القيام على هذين الحالين فيجوز أن يكون المعنى: أن تقوموا لحق الله وإظهاره على أي حال من اجتماع وانفراد، فيكون) مثنى(كناية عن التعدد وهو من استعمال معنى التثنية في التكرر لأن التثنية أول التكرير فجعل التكرر لازما للتثنية ادعاء كما في قوله تعالى) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير(فإن البصر لا يرجع خاسئا من إعادة نظرة واحدة بل المراد منه تكرير النظر ومنه قولهم: لبيك وسعديك، وقولهم: دواليك.

ويجوز أن يكون المعنى أن تقوموا لحق الله مستعينا أحدكم بصاحب له او منفرد بنفسه فإن من أهل النظر من ينشط إليه بالمدارسة ما لا ينشطه بالخلوة. ومنهم من حاله بعكس هذا، فلهذا أقتصر على)مثنى وفرادا(لأن ما زاد على ذلك لا اضطرار إليه. وقدم)مثنى(لأن الاستعانة أعون على الفهم فيكون المراد دفع عوائق الوصول إلى الحق بالنظر الصحيح الذي لا يغالط فيه صاحب هوى ولا شبهة ولا يخشى فيه الناظر تشنيعا ولا سمعة، فإن الجماهير إذا اجتمعت لم يخلو مجتمعهم من ذي هوى وذي شبهة وذي مكر وذي انتفاع، وهؤلاء بما يلزم نواياهم من الخبث تصحبهم جرأة لا تترك فيهم وازعا عن الباطل ولا صدا عن الاخلاق والتحريف للأقوال بعمد أو خطأ، ولا حياء يهذب من حدتهم في الخصام والأذى، ثم يطيرون بالقالة وأعمال أهل السفالة.

فللسلامة من هذه العوائق والتخلص من تلك البوائق الصادة عن طريق الحق قيل هنا)مثنى وفرادا(فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلى ثاني أثنين فهو إنما يختا ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيا فسلم كلاهما من غش صاحبه.

وحرف)ثم(للتراخي في الرتبة لأن التفكر في أحوال النبي صلى الله عليه وسلم أهم في إصلاح حال المخاطبين المعرضين عن دعوته، بخلاف القيام لله فإنهم لا يأبونه.

والتفكر: تكلف الفكر وهو العلم، وتقدم عند قوله تعالى) أفلا تتفكرون(في الأنعام.

وقوله)ما بصاحبكم من جنة(نفي يعلق فعل)تتفكروا(عن العمل لأجل حرف النفي.

والمعنى: ثم تعلموا نفي الجنون عن صاحبكم، أي تعلموا مضمون هذا.
فجملة)ما بصاحبكم من جنة(معمولة ل)تتفكروا(. ومن وقف على)تتفكروا(لم يتقن التفكر.

صفحة : 3454

والمراد بالصاحب: المخالط مطلقا بالموافقة والمخاصمة، وهو كناية عن التبصر في خلقه كقول الحجاج في خطبته للخوارج ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر واستبطنتم الكفر يعني فلا تخفى علي مقاصدكم. وتقدم في قوله تعالى)أو لم يتفكروا ما بصاحبكم من جنة(في سورة الأعراف.
والتعبير)بصاحبكم(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: ما بي من جنة إذ الكلام جار على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم آنفا.
وفائدته التنبيه على أن حال معلوم لديهم لا يلتبس عليهم لشدة مخالطته بهم مخالطة لا تذر للجهالة مجالا فهم عرفوه ونشأ بينهم حتى جاءهم بالحق فهذا كقوله)فلقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون(.
والاقتصار في التفكر المطلوب على انتفاء الجنة عن النبي صلى الله عليه وسلم هو أن أصل الكفر هو الطعن في نبوءته وهم لما طعنوا فيه قالوا: مجنون، وقالوا:ساحر، وقالوا:كاذب. فابتدئ في إرجاعهم إلى الحق بنفي الجنة عنه حتى إذا أذعنوا إلى انه من العقلاء انصرف النظر إلى أن مثل ما جاء به لا يأتي به إلا عاقل وهم إنما ابتدأوا اختلاقهم بأنه مجنون كما جاء في القرآن قال تعالى)ما أنت بنعمة ربك بمجنون(في السورة الثانية نزولا. وقال) وما صاحبكم بمجنون(في السورة السابعة وذلك هو الذي استمروا قال تعالى)ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون(إذ دعوى الجنون أروج بين أهل مكة لأن الجنون يطرأ على الإنسان دفعة فلم يجدوا تعلة أقرب للقبول من دعوى أنه اعتراه جنون كما قال عد لهود)إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء(، وقالت ثمود لصالح)قد كنت فينا مرجوا قبل هذا(.
فبقيت دعواهم أنه ساحر وانه كاهن وأنه شاعر وأنه كاذب) حاشاه(. فأما السحر والكهانة فسهل نفيهما بنفي خصائصهما، فأما انتفاء السحر فبين لأنه يحتاج إلى معالجة تعلم ومزاولة طويلة والنبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم لا يخفي عليهم أمره،

وأما الشعر فمسحته منفية عن القرآن كما قال الوليد بن المغيرة،فلم يبق في كنانة مطاعنهم إلا زعمهم أنه كاذب على الله، وهذا يزيفه قولهم)بصاحبكم(فإنهم عرفوه برجاحة العقل والصدق والأمانة في شبيبته وكهولته فكيف يصبح بعد ذلك كاذبا كما قال النظر بن الحارث: فلما رأيتم الشيب في صدغيه قلتم شاعر وقلتم كاهن وقلتم مجنون،و والله ما هو بأولئكم. وإذا كان لا يكذب على الناس فكيف يكذب على الله، كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله: هل جربتم عليه كذبا قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. قال: فقد علمت أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله.

ومن أجل هذا التدرج الذي طوي تحت جملة)ما بصاحبكم من جنة(أعقب ذلك بحصر أمره في النذارة بقرب عذاب واقع، أي في النذارة والرسالة الصادقة.

قال في الكشاف: أي مثل هذه الدعوى لا يتصدى لها إلا رجلان: إما مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طولب بالبرهان، وأما عاقل راجح والعقل لا يدعي مثله إلا بعد صحته بالحجة وإلا فما يجدي العاقل دعوى شيء لا بينة عليه وقد علمتم أن محمد صلى الله عليه وسلم ما به من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلا وأرزنهم حلما وأثقبهم ذهنا وآصلهم رأيا وأصدقهم قولا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال فكان مظنة لأن يظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب اه.

فالقصر المستفاد من)إن هو إلا نذير لكم(قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا، أي هو مقصور على صفة النذارة لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها.

ومعنى)بين يدي عذاب(القرب، أي قرب الحصول فيقتضي القبلية، أي قبل عذاب، وقد تقدم آنفا في هذه السورة، والمراد عذاب الآخرة.

)قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد[47](هذا استقصاء لبقايا شبه التكذيب لدحضها سواء منها ما تعلقوا به من نحو قولهم:كاهن وشاعر ومجنون وما لم يدعوه ولكنه قد يخطر ببال واحد منهم أن يزعموا انه يريد بهذه الدعوى نفعا لنفسه يكون أجرا له على التعليم والإرشاد.

وهم لما دعوا أنه ساحر أو أنه شاعر أو أنه كاهن لزم من دعواهم أنه يتعرض لجائزة الشاعر، وحلوان الكاهن، فلما نفيت عنه تلك الخلال لم يبق لهم في الكنانة سهم طعن، إلا أن يزعموا أنه يطلب أجرا على الإرشاد فقيل لهم: ما سألتكم من أجر فهو لكم إن كان بكم ظن انتفاعي منكم بما دعوتكم إليه، فما كان لي من أجر عليه فخذوه. وهذه طريقة بديعة في الكناية التهكمية عن عدم انتفاعه بما يدعوهم إليه بأن يفرض كالواقع ثم يرتب عليه الانكفاف عنه ورد ما فات منه ليفضي بذلك إلى البراءة منه ومن التعرض له، فهي كناية رمزية وأنهم يعلمون أنه لم يسألهم أجرا)قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين(أو أن كنت سألتكم أجرا فلا تعطونيه وإن كنتم أعطيتم شيئا فاستردوه، فكني بهذا الشرط المحقق انتفاؤه عند انتفاء أن يكون طالبا أجرا منهم على حد قوله تعالى)إن كنت قلته فقد علمته(. وهذا ما صرح به عقبه من قوله)إن أجري إلا على الله(، فجيء بالشرط بصيغة الماضي ليدل على انتفاء ذلك في الماضي فيكون انتفاؤه في المستقبل أجدر، على أن وقوعه في سياق الشرط يقضي بانتفاءه في المستقبل أيضا. وهذا جار مجرى التحدي لأنه لو كان لجماعتهم أو آحادهم علم بأنه طلب أجرا منهم لجاروا حين هذا التحدي بمكافحته وطالبوه برده عليهم.

وينتقل من هذا إلى تعيين أن ما دعاهم إليه لا ينتفع به غيرهم بالنجاة من العذاب، وقد تكرر في القرآن التبرؤ من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يريد منهم أجرا أو يتطلب نفعا لأن انتفاء ذلك ما يلاقيه من العناء في الدعوة دليل أنه مأمور بذلك من الله لا يؤيد جزاء منهم.

و)ما(يجوز أن تكون شرطية، و)من أجر(بيانا لإبهام)ما(وجملة) فهو لكم(جواب الشرط. ويجوز أن تكون ما نافية. وتكون)من(لتوكيد عموم النكرة في النفي، وتكون الفاء في قوله)فهو لكم(تفريعا على نفي الأجر، وضمير)هو(عائدا على القرآن المفهوم من المقام ومن تقدم قوله)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات(أي فهذا القرآن لفائدتكم لا لفائدتي لأن قوله)ما سألتكم من أجر(يفيد أن لا فائدة له في هذه الدعوة. ويكون معنى الآية نظير معنى قوله تعالى)قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين(.

والأجر تقدم عنه قوله تعالى)ليجزيك أجر ما سقيت لنا(في سورة القصص.

وجملة)إن أجري إلا على الله(مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال مقدر أن يسأل السامع: كيف لا يكون له على ما قام به أجر،

فأجيب بأن أجره مضمون وعده الله به لأنه إنما يقوم بعمل لمرضاته وامتثال أمره فعليه أجره.
وحرف)على(يقتضي أنه حق الله وذلك بالنظر إلى وعده الصادق، ثم ذيل ذلك باستشهاد الله تعالى على باطنه ونيته التي هي من جملة الكائنات التي الله شهيد عليها، وعليم بخفاياها فهو من باب)قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم(أي وهو شاهد على ذلك كله.
والأجر: عوض نافع عن عمل سواء كان مالا أو غيره.
وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء)أجري(مفتوحة. وقرأها ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي ساكنة، وهما وجهان من وجوه ياء المتكلم في الإضافة.
)قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب[48](لا جرم انتهى الاستدلال والمجادلة أن ينتقل إلى النداء بين ظهرانيهم بظهور الحق فيستغنى عن مجادلتهم.
وأعيد فعل)قل(للاهتمام بالمقول كما أشرنا إليه آنفا.
والتأكيد لتحقيق هذا الخبر.
والتعبير عن اسم الله بلفظ الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة أن الحق في جانبه وأنه تأييد من ربه فإن الرب ينصر مربوبيه ويؤيده. فالمراد بالربوبية هنا ربوبية الولاء والاختصاص لا مطلق الربوبية لأنها تعم الناس كلهم.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوي لأن تقوي الجملة حصل بحرف التأكيد. وهذا الاختصاص باعتبار ما في)يقذف بالحق(من معنى: الناصر لي دونكم فماذا ينفعكم اعتزازكم بأموالكم وأولادكم وقوتكم.
والقذف: إلقاء الشيء من اليد، وأطلق على إظهار الحق قذف على سبيل الاستعارة، شبه إعلان الحق بإلقاء الحجر ونحوه.
والمعنى: أن ربي يقذفكم بالحق.

صفحة : 3456

أو هو إشارة إلى قوله)بل نقذف بالحق على الباطل(وعلى كل فهو تعريض بالتهديد والتخويف من نصر الله المؤمنين على المشركين.
وتخصيص وصف)علام الغيوب(من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايا، وأن القائل يعلم ذلك فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بادعائه باطلا أنه أرسله إليكم، فالإعلام بهذه الصفة هنا يشبه استعمال الخبر في لازم فائدته وهو العلم بالحكم الخبري.

ويجوز أن يكون معنى)يقذف بالحق(يرسل الوحي، أي على من يشاء من عباده كقوله تعالى)يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده(ويكون قوله)علام الغيوب(إشارة إلى أنه أعلم حيث يجعل رسالاته لأن المشركين كانوا يقولون: لولا أنزلت علينا الملائكة دون محمد.

وأرتفع)علام(على أنه خبر مبتدأ محذوف،أي هو علام الغيوب، أو على أنه نعت لاسم)إن(إما مقطوع،وإما لمراعاة محل اسم) إن(حيث إنها استوفت خبرها لأن حكم الصفة حكم عطف النسق عند أكثر النحاة وهو الحق.وقال الفراء:رفع الاسم هذا هو غالب كلام العرب. ومثله بالبدل في قوله تعالى)أن ذلك لحق تخاصم أهل النار(.

وقرأ الجمهور)الغيوب(بضم الغين.وقرأه أبو بكر وحمزة والكسائي بكسر الغين كما جاء الوجهان في باء)بيوت(.

)قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[49](أعيد فعل) قل(للاهتمام بالمقول كما تقدم أنفا.

وجملة)قل جاء الحق(تأكيد لجملة)قل إن ربي يقذف بالحق(فإن الحق قد جاء بنزول القرآن ودعوة الإسلام. وعطف)وما يبدئ الباطل وما يعيد(على)جاء الحق(لأنه إذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حل فيه الحق.

و)يبدئ(مضارع أبدأ بهمزة في أوله وهمزة في أخره والهمزة التي في أوله للزيادة مثل همزة: أجاء، وأسرى. وإسناد الإبداء والإعادة إلى الباطل مجاز عقلي أو استعارة.

ومعنى)ما يبدئ الباطل وما يعيد(الكناية عن اضمحلاله وزواله وهو ما عبر عنه بالزهوق في قوله تعالى)إن الباطل كان زهوقا(في سورة الإسراء(. وذلك أن الموجود الذي تكون له آثار إما أن تكون آثاره مستأنفة أو معادة فإذا لم يكن له إبداء ولا إعادة فهو معدوم وأصله مأخوذ من تصرف الحي فيكون)ما يبدئ وما يعيد(كناية عن الهلاك كما قال عبيد بن الأبرص:

أفقر من أهله عـبـيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد)يعني نفسه(.

ويقولون أيضا: فلان ما يبدئ وما يعيد، أي يتكلم ببادئة ولا عائدة، أي لا يرتجل كلاما ولا يجيب عن كلام غيره. وأكثر ما يستعمل فعل)أبدأ(المهموز أوله مع فعل)أعاد(مزدوجين في إثبات أو نفي، وقد تقدم قوله)أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده(في سورة العنكبوت.

)قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب[50](لما جرى ذكر الحق والباطل وكانوا

يزعمون من مجموع أقوالهم أن النبي عليه الصلاة والسلام غير صادق في دعوى الرسالة من الله كانت أقوالهم تقتضي زعمهم إياه على ضلال وكان الرد عليهم قاطعا بأنه على هدى بقوله)قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد(انتقل هنا إلى متاركة جدالهم وتركهم وشأنهم لقلة جدوى مراجعتهم.

وهذا محضر خاص وطي بساط مجاس واحد، فلا يقتضي أنه يستمر على ترك مجادلتهم لأن الواقع ينافي ذلك فقد نزل القرآن بعد ذلك طويلا مشتملا على دعوتهم وتحذيرهم وإنذارهم.

وصيغة القصر التي في قوله)فإنما أضل على نفسي(لقصر الضلال المفروض، أي على نفسي لا عليكم لأنهم كانوا يحاولون أن يقلع عما دعاهم إليه ولم يقتصروا على صدودهم.

وتعدية)أضل(بحرف)على(تتضمن استعارة مكنية إذ شبه الضلال بجريرة عليه فعداه بالحرف الشائع استعماله في الأشياء المكره عليها غير الملائمة، عكس اللام، وذكر حرف الاستعلاء تخييل للمكنية ولا يقال: ضمن)أضل(معنى أجني، لأن)ضللت(الذي هو فعل الشرط المفروض غير مضمن معنى فعل آخر.

صفحة : 3457

وأما قوله)وإن اهتديت فبما يوحي ألي ربي(فكالاحتراس من أن يكون حاله مقتصرا على فرض كونه مظنة الضلال مع ما فيه من الاعتراف لله بنعمته بأن ما يناله من خير فهو بإرشاد الله لا من نفسه لأنه ما كان يصل لذلك وهو مغمور بأمة جاهلية لولا إرشاد الله إياه كما قال تعالى)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان(.

واختير في جانب الهدى فعل)اهتديت(الذي هو مطاوع)هدى(لما فيه من الإيماء إلى أن له هاديا، وبينه بقوله)فبما يوحي إلي ربي(ليحصل شكره لله إجمالا ثم تفصيلا، وفي قوله)فبما يوحي إلي ربي(إيماء إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحيا من الله وارد إليه.

وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه، من إسناد فعل)أضل(إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم، وهو أغرق في التعلق به، وليس الغرض من ذلك الكلام بيان التسبب ولمن عدم مجاوزة الضلال المفروض إليهم إذ هم يتبعوه فيما تلبس به، ولم يرتكب مثل هذا في جانب فرض اهتداءه لأن اهتداءه كان هو الحاصل في الواقع

وكان شاملا له ولغيره من الذين اتبعوه لأن اهتداءه ملابس لدعوته الناس إلى اتباعه، ولأن الغرض من الشرطين مختلف وإن كان يعلم من المقابلة أن سبب الضلال والاهتداء مختلف من جهة المعنى ولا سيما حين رجح جانب اهتدائه بقوله)فبما يوحي إلي ربي(.

على أن المقابلة بين الشرطين ينقدح بها في ذهن السامع أن الضلال من تسويل النفس ولو حصل لكان جناية من النفس عليه وأن الاهتداء من الله وأنه نفع ساقه إليه بوحيه.

وجملة)إنه سميع قريب(تذييل لما أفادته الجملتان المقولتان قبله من الترديد في نسبة الاهتداء والضلال، أي أن الله يعلم أني على هدى أو ضده ويحصل من ذلك علم مقابلة من أحوال خصومه لأنه سميع لما يقوله الفريقان قريب مما يضمرونه فلا يخفى عليه.

والقريب هنا كناية عن العلم والإحاطة فيه فهو قريب مجازي. وهذا تعريض بالتهديد.

)ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب[51] وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد[52] وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد[53](لما جاءهم التعريض بالتهديد من لازم المتاركة المدول عليها بقوله)فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي ألي ربي(للعلم بأن الضال يستحق العقاب أتبع حالهم حين يحل بهم الفزع من مشاهدة ما هددوا به.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية له أو لكل مخاطب.

وحذف جواب)لو(للتهويل. والتقدير: لرأيت أمرا فظيعا.

ومفعول)ترى(يجوز أن يكون محذوفا، أي لو تراهم، أو ترى عذابهم ويكون)إذ فزعوا(ظرفا ل)ترى(، ويجوز أن يكون)إذ(هو المفعول به وهو مجرد عن الظرفية، أي لو ترى ذلك الزمان، أي ترى ما يشمل عليه.

والفزع: الخوف المفاجئ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . وهذا الفزع عند البعث يشعر بأنهم كانوا غير مهيئين لهذا الوقت أسباب النجاة من هوله.

والأخذ: حقيقته التناول وهو هنا مجاز في الغلب والتمكن بهم كقوله تعالى)فأخذهم أخذة رابية(. والمعنى: أمسكوا وقبض عليهم لملاقاة ما أعد لهم من العقاب.

وجملة)فلا فوت(معترضة بين المتعاطفات. والفوت: التفلت والخلاص من العقاب، قال رويشد الطائي:

إن تذنبوا ثم تأتيني بقيتكـم مما علي

بذنب منكم فوت أي إذ أذنبتم فجاءت جماعة منكم معتذرين فذلك لا يدفع عنكم جزاءكم على ذنبكم.

وفي الكشاف: ولو، وإذ، والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا، وحيل بينهم، كلها للمضي، والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما كان ووجد لتحقيقه اه. ويزداد عليها فعل) وقالوا(.

والمكان القريب: المحشر، أي أخذوا منه إلى النار، فاستغنى بذكر)من(الابتدائية عن ذكر الغاية لأن كل مبدأ له غاية، ومعنى قريب المكان أنه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب.

وليس بين كلمتي)قريب(هنا والذي في قوله)إنه سميع قريب(ما يشبه الإيطاء في الفواصل لاختلاف الكلمتين بالحقيقة والمجاز فصار في الجمع بينهما محسن الجناس التام.

صفحة : 3458

وعطف)وقالوا(على)أخذوا(أي يقولون حينئذ: آمنا به.

وضمير)به(للوعيد أو ليوم البعث أو للنبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن، إذا كان الضمير محكيا من كلامهم لأن جميع ما يصح معادا للضمير مشاهد لهم وللملائكة، فأجمعوا فيما يراد الإيمان به لأنهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجيا لهم من العذاب، وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلى الحق من قوله)قل إن ربي يقذف بالحق(لأن الحق يتضمن ذلك كله.

ثم استطرد الكلام بمناسبة قولهم)آمنا به(إلى إضاعتهم وقت الإيمان بجملة)وأنى لهم التناوش(إلى آخرها.

و)أنى(استفهام عن المكان وهو مستعمل في الإنكار.

و)التناوش(قرأه الجمهور بواو مضمومة بعد الألف وهو التناول السهل أو الخفيف وأكثر وروده في شرب الإبل شربا خفيفا من الحوض ونحوه، قال غيلان بن حريث:

باتت تنوش الحوض نوشا من علا

نوشا به تقطع أجـواز الـفـلا يتحدث عن رحلته، أي تتناول الماء من أعلاه ولا تغوص مشافرها فيه.

وجملة)وأنى لهم التناوش من مكان بعيد(مركب تمثيلي يفيد تشبيه حالهم إذ فرطوا في أسباب النجاة وقت المكنة منها حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويحرضهم ويحذرهم وقد عمرهم الله ما يتذكر فيه من تذكر ثم جاؤوا يطلبون النجاة بعد فوات وقتها بحالهم كحال من يريد تناوشها وهو في مكان بعيد عن مراده الذي يجب تناوله.

وهذا التمثيل قابل لتفريق أجزائه بأن يشبه السعي بما يحصل بسرعة بالتناوش ويشبه فوات المطلوب بالمكان البعيد كالحوض.
وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بالهمز في موقع الواو فقال الزجاج: وهو من إبدال الواو المضمومة همزة لقصد التخفيف في نطق الضمة كقوله تعالى)أقتت(وقولهم: أوجه: جمع وجه. وبحث فيه أبو حيان، وقال الفراء والزجاج أيضا. هو من ناش بالهمز إذ أبطأ وتأخر في عمل. ومنه قول نهشل بين حري النهشلي:
تمنى نئيشا أن يكون أطاعني وقد
حدثت بعد الأمور أمور أي تمنى أخيرا. وفسر المعري في رسالة الغفران نئيشا بمعنى: بعد ما فات. وعلى كلا التفسيرين فالمراد بالتناوش وصف قولهم)آمنا به(بأنه إيمان تأخر وقته أو فات وقته.
وفي الجمع بين)مكان قريب(و)مكان بعيد(محسن الطباق.
وجملة)وقد كفروا به من قبل(في موضع الحال، أي كيف يقولون آمنا به في وقت الفوات والحال أنهم كفروا به من قبل في وقت التمكن فهو كقوله تعالى)وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون(.
و)يقذفون(عطف على)كفروا(فهي حال ثانية. والتقدير: وكانوا يقذفون بالغيب. واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة كقوله تعالى) ويصنع الفلك(.
والقذف: الرمي باليد من بعد. وهو هنا مستعار للقول بدون ترو ولا دليل، أي يتكلمون فيما غاب عن القياس من أمور الآخرة بما لا علم لهم به إذ أحالوا البعث والجزاء وقالوا لشركائهم: هم شفعاؤنا عند الله.
ولك أن تجعل)يقذفون بالغيب من مكان بعيد(تمثيلا مثل ما في قوله)وأنى لهم التناوش من مكان بعيد(، شبهوا بحال من يقذف شيئا وهو غائب عنه لا يراه فهو لا يصيبه البتة.
وحذف مفعول)يقذفون(لدلالة فعل)وقد كفروا به من قبل(عليه، أي يقذفون أشياء من الكفر يرمون بها جزافا.
والغيب: المغيب. والباء للملابسة، والمجرور بها في موضع الحال من ضمير)يقذفون(، أي يقذفون وهم غائبون عن المقذوف من مكان بعيد.
و)مكان بعيد(هنا مستعمل في حقيقته يعني من الدنيا، وهي مكان بعيد عن الآخرة للاستغناء عن استعارته لما لا يشاهد منه بقوله) بالغيب(كما علمت، فتعين للحقيقة لأنها الأصل، وبذلك فليس بين لفظ)بعيد(المذكور هنا والذي في قوله)وأنى لهم التناوش من مكان بعيد(ما يشبه الإيطاء لاختلاف الكلمتين بالمجاز والحقيقة.

)وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب[54](

صفحة : 3459

عطف على الجمل الفعلية نظائر هذه وهي جمل)فزعوا، وأخذوا، وقالوا(أي وحال زجهم في النار بينهم وبين ما يأملونه من النجاة بقولهم)آمنا به(. وما يشتهونه هو النجاة من العذاب أو عودتهم إلى الدنيا،فقد حكي عنهم في آيات أخرى أنهم تمنوه)فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين(،)ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل(.
والتشبيه في قوله)كما فعل بأشياعهم من قبل(تشبيه للحيلولة بحيلولة أخرى وهي الحيلولة بين بعض الأمم وبين الإمهال حين حل بهم عذاب الدنيا، مثل فرعون وقومه إذ قال)آمنت أنه لا آله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين(، وكذلك قوم نوح حين رأوا الطوفان، وما من أمة حل بها عذاب إلا وتمنت الإيمان حينئذ فلم ينفعهم إلا قوم يونس.
والأشياع: المشابهون في النحلة وإن كانوا سالفين. وأصل المشايعة المتابعة في العمل والحلف ونحوه، ثم أطلقت هنا على مطلق المماثلة على سبيل المجاز المرسل بقرينة قوله)من قبل(، أي كما فعل بأمثالهم في الدنيا من قبل، وأما يوم الحشر فإنما يحال بينهم وبين ما يشتهون وكذلك أشياعهم في وقت واحد.
وفائدة هذا التشبيه تذكير الأحياء منهم وهم مشركوا أهل مكة بما حل بالأمم من قبلهم ليوقنوا أن سنة الله واحدة وانهم لا تنفعهم أصنامهم التي زعموها شفعاء عند الله.
وجملة)إنهم كانوا في شك مريب(مسوقة لتعليل الجمل التي قبلها. وفعل بهم جميع ما سمعت لأنهم كانوا في حياتهم في شك من ذلك اليوم وما وصف لهم من أهواله.
وإنما جعلت حالتهم شكا لأنهم كانوا في بعض الأمور شاكين وفي بعضها موقنين، ألا ترى قوله تعالى)قلتم ما ندري ما الساعة إن تظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين(. وإذا كان الشك مفضيا إلى تلك العقوبة فاليقين أولى بذلك، ومآل الشك واليقين بالانتفاء واحد إذ ترتب عليهما عدم الإيمان به وعدم النظر في دليله.
ويجوز أن تكون جملة)إنهم كانوا في شك مريب(مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئة عن سؤال يثيره قوله)وحيل بينهم وبين ما يشتهون(كأن سائلا سأل هل كانوا طامعين في حصول ما تمنوه؟ فأجيب بأنهم كانوا يتمنون ذلك ويشكون في استجابته فلما حيل

بينهم وبينه غشيهم اليأس، واليأس بعد الشك أوقع في الحزن من اليأس المتأصل.
والمريب: الموقع في الريب. والريب: الشك، فوصف الشك به وصف له بما هو مشتق من مادته لإفادة المبالغة كقولهم: شعر شاعر، وليل أليل، أو ليل داج. ومحاولة غير هذا تعسف.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة فاطر
سميت)سورة فاطر(في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب وفي كثير من التفاسير. وسميت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير)سورة الملائكة(لا غير. وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب الإتقان.
فوجه تسميتها)سورة فاطر(أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة ولم يقع في أول سورة أخرى. ووجه تسميته)سورة الملائكة(أنه ذكر في أولها صفة الملائكة ولم يقع في سورة أخرى.
وهي مكية بالاتفاق وحكى الآلوسي عن الطبرسي أن الحسن استثنى آيتين: آية)أن الذين يتلون كتاب الله(الآية، وآية)ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا(الآية، ولم أر هذا لغيره.
وهذه السورة هي الثالثة والأربعون في ترتيب نزول سورة القرآن. نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم.
وقد عدت آيها في عد أهل المدينة والشام ستا وأربعين، وفي عد أهل مكة والكوفة خمسا وأربعين.

أغراض هذه السورة
اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية فافتتحت بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها على تفرده تعلى بالإلهية.
وعلى إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأنه جاء به الرسل من قبله. وإثبات البعث والدار الآخرة.
وتذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئا وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم.
وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه.
وكشف نواياهم في الإعراض عن إتباع الإسلام لأنهم احتفظوا بعزتهم.
وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم.
والثناء على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين.

وتذكيرهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا.
وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم، وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم فإن الله لا يخلف وعده.
والتحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان.
)الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير[1](افتتاحها ب)الحمد لله(مؤذن بأن صفات من عظمة الله ستذكر فيها، وإجراء صفات الأفعال على اسم الجلالة من خلقه السماوات والأرض وافضل ما فيها من الملائكة والمرسلين مؤذن بأن السورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم. وإيذان)الحمد لله(باستحقاق الله إياه دون غيره تقدم في أول سورة الفاتحة.
والفاطر: فاعل الفطر، وهو الخلق، وفيه معنى التكون سريعا لأنه مشتق من الفطر وهو الشق، ومنه)تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن( )إذا السماء انفطرت(. وعن ابن عباس كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض أي: لعدم جريان هذا اللفظ بينهم في زمانه حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها. وأحسب أن وصف الله ب)فاطر السماوات والأرض(مما سبق به القرآن، وقد تقدم عند قوله تعالى)فاطر السماوات والأرض(في سورة الأنعام، وقوله)وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض(في آخر سورة يوسف فضمه إلى ما هنا.
وأما)جاعل(فيطلق بمعنى مكون، وبمعنى مصير، وعلى الاعتبارين يختلف موقع قوله)رسلا(بين أن يكون مفعولا ثانيا ل)جاعل(أي جعل الله من الملائكة، أي ليكونوا رسلا منه تعالى لما يريد أن يفعلوه بقوتهم الذاتية، وبين أن يكون حالا من)الملائكة(، أي يجعل من أحوالهم أن يرسلوا. ولصلاحية للمعنيين أوثرت مادة الجعل دون أن يعطف على معمول)فاطر(.
وتخصيص ذكر الملائكة من بين مخلوقات السماوات والأرض لشرفهم بأنهم سكان السماوات وعظيم خلقهم.
وأجري عليهم صفة أنهم رسل لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة، أي جاعلهم رسلا منه إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد تبليغهم إياه للناس.

وقوله)أولي أجنحة(يجوز أن يكون حالا من)الملائكة(، فتكون الأجنحة ذاتية لهم من مقومات خلقهم، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في)رسلا(فيكون خاصة بحالة مرسوليتهم.

وأجنحة: جمع جناح بفتح الجيم وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإنسان فيحتمل أن إثبات الأجنحة للملائكة في هذه الآية وفي بعض الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة، ويحتمل أنه استعارة للقوة التي يخترقون بها الآفاق السماوية صعودا ونزولا لا يعلم كنهها إلا الله تعالى.

و)مثنى(وأخواته كلمات دالة على معنى التكرير لاسم العدد التي تشتق منه ابتداء من الاثنين بصيغة مثنى ثم الثلاثة والأربعة بصيغة ثلاث ورباع. والأكثر أنهم لا يتجاوزون بهذه الصيغة مادة الأربعة، وقيل يجوز إلى العشرة. والمعنى: اثنين اثنين الخ. وتقدم قوله)أن تقوموا لله مثنى وفرادى(في سورة سبا.

والكلام على)أولي (تقدم.

والمعنى: أنهم ذوو أجنحة بعضها مصففة جناحين جناحين في الصف، وبعضها ثلاثة ثلاثة، وبعضها أربعة أربعة، وذلك قد تتعدد صفوفه فتبلغ أعدادا كثيرة فلا ينافي هذا ما ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح .

ويجوز أن تكون أعداد الأجنحة متغيرة لكل ملك في أوقات متغيرة على حسب المسافات التي يؤمرون باختراقها من السماوات والأرضين. والأظهر أن الأجنحة للملائكة من أحوال التشكل الذي يتشكلون به، وفي رواية الزهري أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح وإن العرش لعلى كاهله .

صفحة : 3461

واعلم أن ماهية الملائكة تتحصل فيما ذكره سعد الدين في كتاب المقاصد إنهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والطاعة، والعلم، والقدرة على الأعمال الشاقة، ومسكنهم السماوات، وقال: هذا ظاهر الكتاب والسنة وهو قول أكثر الأمة اه. ومعنى الأجسام اللطيفة أنها من قبيل الجوهر لا العرض وأنها جواهر مما يسمى عند الحكماء بالمجردات.

وعندي: أن تعريف صاحب المقاصد لحقيقة الملائكة لا يخلو عن تخليط في ترتيب التعريف لأنه خلط في التعريف بين الذاتيات والعرضيات.

والوجه عندي في ترتيب التعريف أن يقال: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض.

وهذا التشكل انكماش وتقبض في ذرات نورايتهم وإعطاء صورة من صور الجسمانيات الكثيفة لذواتهم. دل على تشكلهم قوله تعالى لهم يوم بدر)فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (، وثبت تشكل جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي، وتشكله له ولعمر بن الخطاب في حديث السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة في صورة رجل شديد بياض الثياب سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد أي من أهل المدينة حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه إلى فخذيه الحديث، وقول النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فارقهم الرجل هل تدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب. وثبت حلول جبريل في غار حراء في بدء الوحي، وظهوره للنبي صلى الله عليه وسلم على كرسي بين السماء والأرض بصورته التي رآه فيها غار حراء كما ذلك في حديث نزول سورة المدثر، ورأى كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ناسا لا يعرفونهم على خيل يقاتلون معهم.

وجملة)يزيد في الخلق ما يشاء(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما ذكر من صفات الملائكة يثير تعجب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة، فأجيب بهذا الاستئناف بان مشيئة الله تعالى لا تنحصر ولا توقت. ولكل جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه. فالمراد بالخلق: المخلوقات كلها،أي يزيد الله في بعضها ما ليس في خلق آخر. فيشمل زيادة قوة بعض الملائكة على بعض، وكل زيادة في شيء بين المخلوقات من المحاسن والفضائل من حصافة عقل وجمال صورة وشجاعة وذلقة لسان ولياقة كلام. ويجوز أن تكون جملة يزيد في الخلق ما يشاء صفة ثانية للملائكة، أي أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر، فما في بعض الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى)يزيد في الخلق ما يشاء(. وعليه فالمراد بالخلق

ما خلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على ما لبعض آخر.
وجملة)إن الله على كل شيء قدير(تعليل لجملة)يزيد في الخلق ما يشاء(، وفي هذا تعريض بتسفيه عقول الذين أنكروا الرسالة وقالوا)إن أنتم إلا بشر مثلنا(، فأجيبوا بقول الرسل)إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده (.
)ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم[2](هذا من بقية تصدير السورة ب)الحمد لله فاطر السماوات والأرض(، وهو عطف على) فاطر السماوات والأرض(الخ. والتقدير: وفاتح الرحمة للناس وممسكها عنهم فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه ولا على فتح ما أمسكه.
و)ما(شرطية، أي اسم فيه معنى الشرط. وأصلها اسم موصول ضمن معنى الشرط. فانقلبت صلته إلى جملة شرطية وانقلبت جملة الخبر جوابا واقترنت بالفاء لذلك، فأصل)ما(الشرطية هو الموصولة. ومحل)ما(الابتداء وجواب الشرط أغنى من الخبر.
و)من رحمة(بيان لإبهام)ما(والرابط محذوف لأنه ضمير منصوب.
والفتح: تمثيلية لإعطاء الرحمة إذ هي من النفائس التي تشبه المدخرات المتنافس فيها فكانت حالة إعطاء الله الرحمة شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء،فأشير إلى هذا التمثيل بفعل الفتح، وبيانه بقوله)من رحمة(قرينة الاستعارة التمثيلية.

صفحة : 3462

والإمساك حقيقته: أخذ الشيء باليد مع الشد عليه بها لئلا يسقط أو ينفلت، وهو يتعدى بنفسه،أو هو هنا مجاز عن الحبس والمنع ولذلك قوبل به الفتح.
وأما قولهم: أمسك بكذا،فالباء إما لتوكيد لصوق المفعول بفعله كقوله تعالى)ولا تمسكوا بعصم الكوافر(، وإما لتضمينه معنى الاعتصام كقوله تعالى)فقد استمسك بالعروة الوثقى(.
وقد أوهم الناس في القاموس واللسان والتاج أنه لا يتعدى بنفسه. فقوله هنا)وما يمسك(حذف مفعوله لدلالة قوله)ما يفتح الله للناس من رحمة(عليه والتقدير: وما يمسكه من رحمة، ولم يذكر له بيان استغناء ببيانه من فعل.
والإرسال: ضد الإمساك،وتعدية الإرسال باللام للتقوية لأن العامل هنا فرع في العمل.

و)من بعده(بمعنى: من دونه كقوله تعالى)فمن يهديه من بعد الله( )فبأي حديث بعد الله(، أي فلا مرسل له دون الله،أي لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع والله يحكم لا معقب لحكمه. وتذكير الضمير في قوله)فلا مرسل له(مراعاة للفظ)ما(لأنها لا بيان لها، وتأنيثه في قوله)فلا ممسك لها(لمراعاة بيان)ما(في قوله) من رحمة (لقربه.

وعطف)وهو العزيز الحكيم(تذييل رجح فيه جانب الإخبار فعطف، وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولا لإفادة أنه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها، وأنه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته لأن الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه، فأن نقض ما أبرم ضر من الهوان والمذلة. ولذلك كان من شعار صاحب السؤدد أنه يبرم وينقض قال الأعشى:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض

الأوتار والواتر وضمير)لها(وضمير)له(عائدان إلي)ما(من قوله) ما يفتح الله للناس من رحمة(، روعي في تأنيث أحد الضميرين معنى)ما(فإنه اسم صادق على)رحمة(وقد بين بها، وروعي في تذكير الضمير الآخر لفظ)ما(لأنه لفظ لا علامة تأنيث فيه. وهما اعتباران كثيران في مثله فصيح الكلام، فالمتكلم بالخيار بين أي الاعتبارين شاء. والجمع بينهما في هذه الآية تفنن. وأوثر بالتأنيث ضمير)ما(لأنها مبينة بلفظ مؤنث وهو)من رحمة(.

)يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خلق غير الله يرزقكم من السماء والأرض(لما جرى ذكر رحمة الله التي تعم الناس كلهم أقبل على خطابهم بأن يتذكروا نعمة الله عليهم الخاصة وهي النعمة التي تخص كل واحد بخاصته فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلهم وما هي إلا بعض رحمة الله بمخلوقاته.

والمقصود من تذكر النعمة شكرها وقدرها قدرها. ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي. فالمراد بالذكر هنا التذكر بالقلب وباللسان فهو من عموم المشترك أو من إرادة القدر المشترك فإن الذكر باللسان والذكر بالقلب يستلزم أحدهما الأخر وإلا لكان الأول هذيانا والثاني كتمانا. قال عمر بن الخطاب أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه ، أي وفي كليهما فضل.

ووصفت النعمة ب)عليكم(لأن المقصود من التذكر التذكر الذي يترتب عليه الشكر، وليس المراد مطلق التذكر بمعنى الاعتبار والنظر في بديع فضل الله، فذلك له مقام آخر، على أن قوله)هل من خالق غير الله يرزقكم(قد تضمن الدعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل.

والاستفهام إنكاري في معنى النفي ولذلك اقترن ما بعده ب)من(التي تزاد لتأكيد النفي، واختير الاستفهام ب)هل(دون الهمزة لما في أصل معنى)هل(من الدلالة على التحقيق والتصديق لأنها في الأصل بمعنى)قد(وتفيد تأكيد النفي.
والاهتمام بهذا الاستثناء قدم في الذكر قبل ما هو في قوة المستثنى منه. وجعل صفة ل)خالق(لأن)غير(صالحة للاعتبارين ولذلك جرت القراءات المشهورة على اعتبار)غير(هنا وصفا ل)خالق(، فجمهور القراء قرأوه برفع)غير(على اعتبار محل) خالق(المجرور ب)من(لأن محله رفع بالابتداء. وإنما لم يظهر الرفع للاشتغال بحركة حرف الجر الزائد.وقرأه حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالجر على إتباع اللفظ دون المحل. وهما استعمالان فصيحان في مثله اهتم بالتنبيه عليهما سيبويه في كتابه.

صفحة : 3463

وجملة)يرزقكم(يجوز أن تكون وصفا ثانيا ل)خالق(. ويجوز أن تكون استئنافا بيانيا.
وجعل النفي متوجها إلى القيد وهو جملة الصفة كما هي سنته في الكلام المقيد لأن المقصود التذكير بنعم الله تعالى ليشكروا، ويكون ذلك كناية عن الاستدلال على انتفاء وصف الخالقية عن غيره تعالى لأنه لو كان غيره خالقا لكان رازقا إذ الخلق بدون رزق قصور في الخالقية لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم فيكون خلقه عبثا ينزه عنه الموصوف بالإلهية المقتضية للحكمة فكانت الآية مذكرة بنعمتي الإيجاد والإمداد.
وزيادة)من السماء والأرض(تذكير بتعدد مصادر الأرزاق، فإن منها سماوية كالمطر الذي منه شراب، ومنه طهور، وسبب نبات أشجار وكلا، وكالمن الذي ينزل على شجر خاص من أندية في الجو، وكالضياء من الشمس، والاهتداء بالنجوم في الليل، وكذلك أنواع الطير الذي يصاد، كل ذلك من السماء.
ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار وزيوت وفواكه ومعادن وكلأ وكمأة وأسماك البحار والأنهار.
وفي هذا القيد فائدة أخرى وهي دفع توهم الغفل أن أرزاقا تأتيهم من غير الله من أنواع العطايا التي يعطيها بعضهم بعضا، والمعاوضات التي يعاوضها بعضهم مع بعض فإنها لكثرة تداولها بينهم قد يلهيهم الشغل بها عن التدبر في أصول منابعها فإن أصول موادها من صنع الله تعالى فآل ما يعطاه الناس منها إلى أنه من

الله على نحو ما عرض للذي حاج إبراهيم في ربه إذ قال له إبراهيم)ربي الذي يحيي ويميت. قال: أنا أحي وأميت(فهذا رجل محكوم بقتله ها أنا ذا أعفوا عنه فقد أحييته، وهذا رجل حي ها أنا ذا آمر به فيقتل فأنا أميت. فانتقل إبراهيم إلى أن قال له)فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب(.

)لا إله إلا هو فأنى تؤفكون[3](هذا نتيجة عقب ذكر الدليل إذ رتب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية لأن هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس فجملة)لا إله إلا هو(مستأنفة. وفرع عليه التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية بجملة)فأنى تؤفكون(.

و)أنى(اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان. والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعين هنا وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية تبعا لمن يصرفهم وهم أولياؤهم وكبراؤهم.

و)تؤفكون(مبني للمجهول من أفكه من باب ضربه، إذا صرفه وعدل به، فالمصروف مأفوك. وحذف الفاعل هنا لأن آفكيهم أصناف كثيرون، وتقدم في قوله تعالى)قاتلهم الله أنى يؤفكون(في سورة براءة.

)وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور[4] (عطف على جملة)اذكروا نعمة الله عليكم(أي وإن استمروا على انصرافهم عن قبول دعوتك ولم يشكروا النعمة ببعثك فلا عجب فقد كذب أقوام من قبلهم رسلا من قبل. وهو انتقال من خطاب الناس إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لمناسبة جريان خطاب الناس على لسانه فهو مشاهد لخطابهم، فلا جرم أن يوجه إليه الخطاب بعد توجيهه إليهم إذ المقام واحد كقوله تعالى)يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك(.

وإذ قد أبان لهم الحجة على انفراد الله تعالى بالإلهية حين خاطبهم بذلك نقل الإخبار عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أنكروا قبوله منه فإنه لما استبان صدقه في ذلك بالحجة ناسب أن يعرض إلى الذين كذبوه بمثل عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبله وقد أدمج في خلال ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه إياه بأنه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين.

وجيء في هذا الشرط بحرف)إن(الذي أصله أن يعلق به شرط غير مقطوع بوقوعه تنزيلا لهم بعد ما قدمت إليهم الحجة على وحدانية الله المصدقة لما جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام

فكذبوه فيه، منزلة من أيقن بصدق الرسول فلا يكون فرض استمرارهم على تكذيبه إلا كما يفرض المحال.
وهذا وجه إيثار الشرط هنا بالفعل المضارع الذي في حيز الشرط يتمخض للاستقبال، أي إن حدث منهم تكذيب بعد ما قرع أسمائهم من البراهين الدامغة.

صفحة : 3464

والمذكور جوابا للشرط إنما هو سبب لجواب محذوف إذ التقدير: وإن يكذبوك فلا يحزنك تكذيبهم إذ قد كذبت رسل من قبلك فاستغني بالسبب عن المسبب لدلالته عليه.
وإنما لم يعرف)رسل(وجيء به منكرا لما في التنكير من الدلالة على تعظيم أولئك الرسل زيادة على جانب صفة الرسالة من جانب كثرتهم وتنوع آيات صدقهم ومع ذلك كذبهم أقوامهم.
وعطف على هذه التسلية والتعريض ما هو كالتأكيد لهما والتذكير بعاقبة مضمونها بأن أمر المكذبين قد آل إلى لقائهم جزاء تكذيبهم من لدن الذي ترجع إليه الأمور كلها، فكان أمر أولئك المكذبين وأمر أولئك الرسل في جملة عموم الأمور التي أرجعت إلى الله تعالى إذ لا تخرج أمورهم من نطاق عموم الأمور.
وقد اكتسبت هذه الجملة معنى التذييل بما فيها من العموم.
والأمور: جمع أمر وهو الشأن والحال،أي إلى الله ترجع الأحوال كلها يتصرف فيها كيف شاء، فتكون الآية تهديدا للمكذبين وإنذارا.
)يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور[5](أعيد خطاب الناس أعذارا لهم وإنذارا بتحقيق أن وعد الله الذي وعده من عقابه المكذبين في يوم البعث وهو وعد واقع لا يتخلف وذلك بعد أن قدم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنه لا يستحق العبادة غيره وأنه لا يتصف بالإلهية الحق غيره.
وبعد أن أشار إليهم بأن ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله وهو أكبر ما قرع آذانهم وأحرج شيء لنفوسهم، فإذا تأيد بالدليل البرهاني تمهد السبيل لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به من وعد الله وهو يوم البعث لأنه لما تبين صدقه في الأولى يعلم صدقه في الثانية بحكم قياس والمساواة.
والخطاب للمشركين، أو لهم وللمؤمنين لأن ما تلاه صالح لموعظة الفريقين كل على حسب حاله.

وتأكيد الخبر ب)إن(إما لأن الخطاب للمنكرين، وإما لتغليب فريق المنكرين على المؤمنين لأنهم أحوج إلى تقوية الموعظة.
والوعد مصدر،وهو الإخبار عن فعل المخبر شيئا في المستقبل، والأكثر أن يكون فيما عدا الشر، ويخص الشر منه باسم الوعيد،يعمهما وهو هنا مستعمل في القدر المشترك. وقد تقدم عند قوله تعالى)الشيطان يعدكم الفقر(الآية في سورة البقرة.
وإضافة إلى الاسم الأعظم توطئة لكونه حقا لأن الله لا يأتي منه الباطل.
والحق هنا مقابل الكذب. والمعنى: أن وعد الله صادق. ووصفه بالمصدر مبالغة في حقيته.
والمراد به: الوعد بحلول يوم جزاء بعد انقضاء هذه الحياة كما دل عليه تفريع)فلا تغرنكم الحياة الدنيا(الآية.
والغرور بضم الغين ويقال التغرير: إيهام النفع والصلاح فيما هو ضر وفساد. وتقدم عند قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا(في سورة آل عمران وعند قوله)زخرف القول غرورا(في سورة الأنعام.
والمراد بالحياة:ما تشتمل عليه أحوال الحياة الدنيا من لهو وترف،وانتهائها بالموت والعدم مما يسول الناس أن ليس بعد هذه الحياة أخرى.
وإسناد التغرير إلى الحياة ولو مع تقدير المضاف إسناد مجازي لأن الغار للمرء هو نفسه المنخدعة بأحوال الحياة الدنيا فهو من إسناد الفعل إلى سببه والباعث عليه.
وانهي في الظاهر موجه للناس ولمنهي عنه من أحوال الحياة الدنيا، وليست الحياة الدنيا من فعل الناس فتعين أن المقصود النهي عن لازم ذلك الإسناد وهو الاغترار لمظاهر الحياة.ونظيره كثير في كلام العرب كقولهم: لا أعرفنك تفعل كذا، ولا أرينك ههنا،)ولا يجرمنك شنئان قوم(، وتقدم نظيره في قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(آخر آل عمران.
وكذلك القول في قوله تعالى)ولا يغرنكم بالله الغرور(.
والغرور بفتح الغين: هو الشديد التغرير. والمراد به الشيطان، قال تعالى)فدلاهما بغرور(. وهو بغير الناس بتزيين القبائح لهم تمويها بما يلوح عليها من محاسن تلائم نفوس الناس.

والباء في قوله)بالله(للملابسة وهي داخلة على مضاف مقدر، أي بشأن الله، أي يتطرق إلى نقض هدى الله فإن فعل غر يتعدى إلى مفعول واحد فإذا أريد تعديته إلى بعض متعلقاته عدي إليه بواسطة حرف الجر، فقد يعدى بالباء وهي باء الملابسة كقوله تعالى)يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم(وقوله بسورة الحديد) وغركم بالله الغرور(وذلك إذا أريد بيان من الغرور ملابس له على تقدير مضاف، أي حال من أحواله. وتلك ملابسة الفعل للمفعول في الكلام على الإيجاز. وليست هذه الباء باء السببية.

وقد تضمنت الآية غرورين: غرورا يغتره المرء من تلقاء نفسه ويزين نفسه من المظاهر الفاتنة التي تلوح له في الدنيا ما يتوهمه خيرا ولا ينظر في عواقبه بحيث تخفي مضاره في بادئ الرأي ولا يظن أنه من الشيطان.

وغرورا يتلقاه ممن يغره وهو الشيطان، وكذلك الغرور كله في هذا العالم بعضه يمليه المرء على نفسه وبعضه يتلقاه من شياطين الإنس والجن،فترك تفصيل الغرور الأول الآن اعتناء بالأصل ولأهم، فإن كل غرور يرجع إلى غرور الشيطان. وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى)من كان يريد العزة فالله العزة جميعا(.

)إن الشيطن لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أ صحب السعير[6](لما كان في قوله)ولا يغرنكم بالله الغرور(إبهام ما في المراد بالغرور عقب ذلك بيانه بأن الغرور هو الشيطان ليتقرر المسند إليه بالبيات بعد الإبهام. فجملة)أن الشيطان لكم عدو(تتنزل من جملة)ولا يغرنكم بالله الغرور(منزلة البيان من المبين فلذلك فصلت ولم تعطف، وهذا من دلالة ترتيب الكلام على لإرادة المتكلم إذ يعلم السامع من وقوع وصف الشيطان عقب وصف الغرور أن الغرور هو الشيطان.

وأظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار للإفصاح عن المراد بالغرور أنه الشيطان وإثارة العداوة بين الناس الشيطان معنى من معاني القرآن تصريحا وتضمينا، وهو هنا مريح كما في قوله تعالى) وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو(.

وتلك عداوة مودعة في جبلته كعداوة الكلب للهر لأن جبلة الشيطان موكولة في بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسنة مزينة، وشواهد ذلك تظهر للإنسان في نفسه وفي الحوادث حيثما عثر عليها وقد قال تعالى)يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة(.

وتأكيد الخبر بحرف التأكسد لقصد تحقيقه لأنهم بفعلتهم عن عداوة الشيطان محال من ينكر أن الشيطان عدو.

وتقديم)لكم(على متعلقة للاهتمام بهذا المتعلق فرع عنه أن أمروا باتخاذه عدوا لأنهم إذا علموا أنه عدو لهم حق عليهم اتخاذه عدوا وإلا لكانوا في حماقة. وفيه تنبيه على وجوب عداوتهم الدعاة في الضلالة المستمدين من الشيطان.

والكلام على لفظ عدو تقدم عند قوله تعالى)فإن كان من قوم عدو لكم(في سورة النساء.

واللام في)لكم(لام الاختصاص وهي التي تتضمنها الإضافة فلما قدم ما حقه أن يكون مضافا إليه صرح باللام ليحصل معنى الإضافة.

وإنما أمر الله باتخاذ العدو عدوا ولم يندب إلى العفو عنه والإغضاء عن عداوته كما أم في قوله)فمن عفا وأصلح فأجره على الله(ونحو ذلك مما تكرر في القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن ما ندب إليه من العفو إنما هو فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض رجاء صلاح حال العدو لأن عداوة المسلم عارضة لأغراض يمكن زوالها ولها حدود لا يخشى معها المضار الفادحة كما قال تعالى)ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم(ولذلك لم يأمر الله تعالى بمثل ذلك مع أعداء الدين فقال)لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(الآية، بل لم يأمر الله تعالى بالعفو عن المحاربين من أهل الملة لأن مناواتهم غير عارضة بل هي لغرض ابتزاز الأموال ونحو ذلك فقال)إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم(فعداوة الشيطان لما كانت جبلية لا يرجى زوالها مع من يعفو عنه لم يأمر الله إلا باتخاذه عدوا لأن إذا لم يتخذ عدوا لم يراقب المسلم مكائده ومخادعته. ومن لوازم اتخاذه عدوا العمل بخلاف ما يدعوا إليه لتجنب مكائده ولمته بالعمل الصالح.

صفحة : 3466

فالإيقاع بالناس في الضر لا يسلم من أولياؤه ولا أعداؤه ولكن أولياءه يضمر لهم العداوة ويأنس بهم لأنه يقضي بهم وطره وأما أعداؤه فهو مع عداوته لهم يشمئز وينفر ويغتاظ من مقاومتهم وساوسه إلى أن يبلغ حد الفرار من عظماء الأمة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر إيه يا بن الخطاب ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك . وورد في الصحيح إذا أقيمت الصلاة أدبر الشيطان الحديث. وورد أنه مارئ الشيطان أخسأ وأحقر منه في يوم عرفة لما يرى من الرحمة .

وأعقب الأمر باتخاذ الشيطان عدوا بتحذير من قبول دعوته وحث على وجوب اليقظة لتغريره وتجنب توليه بأنه يسعى في ضر أوليائه وحزبه فيدعوهم إلى ما يوقفهم في السعير. وهذا يؤكد الأمر باتخاذه عدوا لأن أشد الناس تضررا به هم حزبه وأولياؤه.

وجملة)إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(تعليل لجملة) فاتخذوه عدوا(. وجيء بها في صيغة حصر لانحصار دعوته في الغاية المذكورة عقبها بلام العلة كيلا يتوهم أن دعوته تخلو من تلك الغاية ولو في وقت ما. وبهذا العموم الذي يقتضيه الحصر صارت الجملة أيضا في معنى التذييل لما قبله كله.

ومقتضى وقوع فعل)يدعو(في حيز القصر أن مفعوله وهو قوله) حزبه(هو المقصود من القصر، أي أنه يدعو حزبه ولا يدعو غير حزبه، والشيطان يدعو الناس كلهم سواء في ذلك حزبه ومن لم يكن إلى دعوته إلا أن أثر دعوته لا يظهر إلا في الذين يركنون له فيصيرون حزبه قال تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(. وحكى الله عن الشيطان بقوله)لأغوينهم أجمعين إلا عبادك المخلصين(فتعين أن في الكلام إيجاز حذف.والتقدير: إنما يدعوا حزبه دعوة بالغة مقصده. والقرينة هي ما تقدم من التحذير ولو كان لا يدعو إلا حزبه لما كان لتحذير غيرهم فائدة.

واللام في قوله)ليكونوا من أصحاب السعير(يجوز أن يكون لام العلة فإن الشيطان قد يكون ساعيا لغاية إيقاع الآدمين في العذاب نكاية بهم، وهي علة للدعوة فخفية في خاطره الشيطاني وإن كان لا يجهر بها لأن إخفائها من جملة كيده وتزيينه، ويجوز أن تكون اللام لام العاقبة والصيرورة مثل)فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(. فقال ابن عطية: لأن لم يدعهم إلى السعير إنما أتفق أن صار أمرهم من دعائه إلى ذلك.

والسعير النار الشديدة، وغلب في لسان الشرع على جهنم.

)الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير[7](استئناف ابتدائي يفيد مفاد الفذلكة والاستنتاج مما تقدم. وهذا الاستئناف يومي إلى أن الذين كفروا هم حزب الشيطان لأن لما ذكر أن حزبه من أصحاب السعير وحكم هنا بأن الذين كفروا لهم عذاب شديد علم أن الذين كفروا من أصحاب السعير إذ هو العذاب الشديد فعلم أنهم حزب الشيطان بطريقة قياس مطوي،فالذين كفروا هم حزب الشيطان لعكوفهم على متابعته وإن لم يعلنوا ذلك لاقتناعه منهم بملازمة ما يمليه عليهم.

وأما المؤمنون العصاة فليسوا من حزبه لأنهم يعلمون كيده ولكنهم يتبعون بعض وسوسته بدافع الشهوات وهم مع ذلك يلعنونه ويتبرأون

منه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم(.
وذكر)والذين آمنوا وعملوا الصالحات(تتميم بأن الذين لم يكونوا من حزبه قد فازوا بالخيرات.
وقد أشارت الآية إلى طرفين في الضلال والاهتداء وطويت ما بين ذينك من المراتب ليعلم أن ما بين ذلك ينالهم نصيبهم من أشبه أحوالهم بأحوال أحد الفريقين على عادة القرآن في وضع المسلم بين الخوف والرجاء. والأمل والرهبة.
)أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون[8](

صفحة : 3467

لما جرى تحذير الناس من غرور الشيطان وإيقاظهم إلى عداوته للنوع الإنساني، وتقسيم الناس إلى فريقين: فريق انطلت عليه مكائد الشيطان واغتروا بغروره ولم يناصبوه العداء، وفريق أخذوا حذرهم منه واحترسوا من كيده وتجنبوا السير في مسالكه، ثم تقسيمهم إلى كافر معذب ومؤمن صالح منعم عليه، أعقب ذلك بالإيماء إلى استحقاق حزب الشيطان عذاب السعير، وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على من لم يخلصوا من حبائل الشيطان من أمة دعته بأسلوب الملاطفة في التسلية ففرع على جميع ما تقدم قوله) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا(إلى قوله)بما يصنعون(فابتداؤه بفاء التفريع ربط له بما تقدم ليعود الذهن إلى ما حكي من أحوالهم، فالتفريع على قوله)إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(، ثم بإبراز الكلام المفرع في صورة الاستفهام الإنكاري، واجتلاب الموصل الذي تومئ صلته إلى علة الخبر المقصود، فأشير إلى أن وقوعه في هذه الحالة ناشئ من تزين الشيطان له سوء عمله، فلمزين للأعمال السيئة هو الشيطان قال تعالى)وزين لهم الشيطان أعمالهم(فرأوا أعمالهم السيئة حسنة فعكفوا عليها ولم يقبلوا فيه نصيحة ناصح، ولا رسالة مرسل.
و)من(موصولة صادقة على جمع من الناس كما دل عليه قوله في آخر الكلام)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(بل ودل عليه تفريع هذا على قوله)إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(و)من(في موضع رفع الابتداء والخبر عنه محذوف إيجازا لدلالة ما قبله عليه وهو قوله)الذين كفروا لهم عذاب شديد(عقب

قوله)إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(. فتقديره بالنسبة لما استحقه حزب الشيطان من العذاب: أفأنت تهدي من زين له عمله فرآه حينا فأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وتقديره بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم: لا يحزنك مصيره فأن الله مطلع عليه.

وفرع عليه)فأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء(. وفرع على هذا قوله)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(إي فلا تفعل ذلك، أي لا ينبغي لك ذلك فأنهم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة بتزيين الشيطان لهم ورؤيتهم ذلك حسنا وهو من فعل أنفسهم فلماذا تتحسر عليهم.

وهذا الخبر مما دلت عليه المقابلة في قوله)الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر كبير(فقد دل ذلك عل أن الكفر سوء وأن الإيمان حسن فيكون) من زين له سوء عمله(هو الكافر، ويكون ضده هو المؤمن،ونظير هذا التركيب قوله تعالى)أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار(وفي سورة الزمر، وتقدم عند قوله تعالى)أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت(في سورة الرعد.

والتزيين: تحسين ما ليس بحسن بعضه أو كله. وقد صرح هنا بضده في قوله)سوء عمله(، أي صورة لهم أعمالهم السيئة بصورة حسنة ليقدموا عليها بشره وتقدم في أوائل سورة النمل.

وجملة)فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء(مفرعة، وهي تقرير للتسلية وتأييس من اهتداء من لم يخلق الله فيه أسباب الاهتداء إلى الحق من صحيح النظر وإنصاف المجادلة.

وإسناد الإضلال والهداية إلى الله بواسطة أنه خالق أسباب الضلال والاهتداء، وذلك من تصرفه تعالى بالخلق وهو سر من الحكمة عظيم لا يدرك غوره وله أصول وضوابط سأبينها في رسالة القضاء والقدر إن شاء الله تعالى.

وجملة)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(مفرعة على المفرع على جملة)أفمن زين له سوء عمله(الخ فتؤول إلى التفريع على الجملتين فيؤول إلى أن يكون النظم هكذا: أفتتحسر من زين لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنات واختاروا لأنفسهم طريق الضلال فأن الله أضلهم باختيارهم وهو قد تصرف بمشيئته فهو أضلهم وهدى غيرهم بمشيئته وأرادته التي شاء بها إيجاد الموجودات لا بأمره ورضاه الذي دعا به الناس إلى الرشاد، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وإنما حسرتهم على أنفهم إذ رضوا لها باتباع الشيطان ونبذوا اتباع إرشاد الله كما دل عل ذلك قوله)إن الله عليم بما

يصنعون(تسجيلا عليهم أنهم ورطوا أنفسهم فيما أوقعوها فيه بصنعهم.

صفحة : 3468

فالله أرشدهم بإرسال رسوله ليهديهم إلى ما يرضيه، والله أضلهم بتكوين نفوسهم نافرة عن الهدى تكوينا متسلسلا من كائنات جمة لا يحيط بها إلا علمه وكلها من مظاهر حكمته ولو شاء لجعل سلاسل الكائنات على غير هذا النظام فلهدى الناس جميعا، وكلهم ميسر بتيسيره إلى ما يعلم منهم فعدل عن النظم المألوف إلى هذا النظم العجيب. وصيغ بالاستفهام الإنكاري والنهي التثبيتي، ونظير هذه الآية في هذا الأسلوب قوله تعالى)أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار(في سورة الزمر، فإن أصل نظمها: أفمن حق عليه كلمة العذاب أنت تنقذه من النار، أفأنت تنقذ الذين في النار. إلا أن هذه الآية زادت بالاعتراض وكان المفرع الأخير فيها نهيا والأخرى عريت عن الاعتراض وكان المفرع الأخير فيها استفهاما إنكاريا.

والنهي موجه إلى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم أن تذهب حسرات على الضالين ولم يوجه إليه بأن يقال: فلا تذهب عليهم حسرات، الرسول صلى الله عليه وسلم ونفسه متحدان فتوجيه النهي إلى نفسه دون أن يقال فلا تذهب عليهم حسرات للإشارة إلى أن الذهاب مستعار إلى التلف والانعدام كما يقال:طارت نفسها شعاعا،ومثله في كلامهم كثير كقول الأعرابي من شعراء الحماسة:

أقول للنفس تأساء وتعـزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد

لتحصل فائدة توزيع النهي والخطاب على شيئين في ظاهر الأمر فهو تكرير الخطاب والنهي لكليهما. وهي طريقة التجريد المعدود في المحسنات، وفائدة التكرير الموجب تقرير الجملة في النفس. وقد تقدم قريب من هذا عند قوله تعالى)وما يخادعون إلا أنفسهم(في سورة البقرة.

والحسرة تقدمت في قوله تعالى)وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر(من سورة مريم.

وانتصب)حسرات(على المفعول لأجله، أي لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم، وهو كقوله)لعلك باخع نفسك، لا يكونوا مؤمنين(، وقوله)وابيضت عيناه من الحزن(أي من حزن نفسه لا من حزن العينين.

وجمعت الحسرات مع أن اسم الجنس صالح للدلالة على تكرر الأفراد قصدا للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة لأن تلف النفس يكون عند تعاقب الحسرات الواحدة تلوى الأخرى لدوام المتحسر منه فكل تحسر يترك حزازة وكمدا في النفس حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس فينفطر له القلب فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم كالضرب المبرح وقطع الأعضاء سببه اختلال حكة القلب من توارم الآلام عليه.

وقرأ الجمهور)فلا تذهب نفسك(بفتح الفوقية والهاء ورفع) نفسك(على أنه نهي لنفسه وهو كناية ظاهرة عن نهيه. وقرأه أبو جعفر بضم الفوقية وكسر الهاء ونصب)نفسك(على أنه نهي الرسول أن يذهب نفسه.

وقد اشتملت هذه الآية على فاآت أربع كلها للسببية والتفريع وهي التي بلغ بها نظم الآية إلى هذا الإيجاز البالغ حد الإعجاز وفي اجتماعها محسن جمع النظائر.

وجملة)إن الله عليم بما يسمعون(تصلح لإفادة التصبر والتحلم، أي أن الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره فكما أنه لحلمه في المخالفة عن أمره فكما أنه لحلمه لم يعجل بمؤاخذتهم فكن أنت مؤتسيا بالله ومتخلقا بما تستطيعه من صفاته وفي ضمن هذا كناية عن عدم إفلاتهم من العذاب على سوء عملهم، وليس في هذه الجملة معنى التعليل لجملة)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(لآن كمد نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل تأخير عقابهم ولكن لأجل عدم اهتدائهم.

وتأكيد الخبر ب)إن(أما تمثيل لحال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال من أغفله التحسر عليهم عن التأمل في إمهال الله إياهم فأكد له الخبر ب)إن الله عليم بما يصنعون(، وإما لجعل التأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر لتكون)إن(مغنية غناء فاء التفريغ فتتمخض الجملة لتقرير التسلية والتعريض بالجزاء عن ذلك.

وعب ب)يصنعون(دون: يعلمون، للإشارة إلى أنهم يدبرون مكائد للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين فيكون هذا الكلام إيذانا بوجود باعث آخر على النزع عن الحسرة عليهم. وعن ابن عباس: أن المراد به أبو جهل وحزبه.

)والله الذي أرسل الريح فتثير سحبا فسقنه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور[9](

لما قدم في أول السورة الاستدلال بأن الله فطر السماوات والأرض وما في السماوات من أهلها وذلك أعظم دليل على تفرجه بالإلهية ثني هنا بالاستدلال بتصريف الأحوال بين السماء والأرض وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر، فهذا عطف على قوله)فاطر السماوات والأرض(.

وإظهار اسم الجلالة في مقام إضمار دون أن يقول وهو الذي أرسل الرياح فيعود الضمير إلى اسم الله من قوله)إن الله عليم بما يصنعون(.

واختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمع أسباب المطر ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب وأن الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل لإحياء الذين ضمنتهم الأرض على سبيل الإدماج.

وإذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرر وقوعه جيء بفعل المضي في قوله)أرسل(. وأما تغييره إلى المضارع في قوله)فتثير سحابا(فلحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي في خصوصيته بحال تستغرب وتهم السامع. وهو نظير قول تأبط شراً.

بأني قد لقيت الغول تـهـوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخـرت صريعا لليدين ولـلـجـران فابتدأ ب)لقيت(للإفادة وقوع ذلك ثم ثني ب)أضربها(لاستحضار تلك الصورة العجيبة من إقدامه وثباته حتى كأنهم يبصرونه في تلك الحالة. ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله في سورة الروم)الله الذي يرسل الرياح(الآية لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهارا لإمكان نظيره وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه.

والقول في الرياح والسحاب تقدم غير مرة أولها في سورة البقرة.

وفي قوله)فسقناه(بعد قوله)والله الذي أرسل الرياح(التفات من الغيبة إلى التكلم.

وقوله)كذلك النشور(سبيله سبيل قوله)يا أيها الناس أن وعد الله حق(الآيات من إثبات البعث مع تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عنه، إلا أن ما قبله كان مأخوذا من فحوى الدلالة لما ظهرت في برهان صدق الرسول صلى الله عليه

وسلم وبارقة الإمكان ما يسوق أذهانهم إلى استقامة التصديق بوقوع البعث.
والإشارة في قوله)كذلك النشور(إلى المذكور من قوله)فأحيينا به الأرض(. والأظهر أن تكون الإشارة إلى مجموع الحالة المصورة أي مثل ذلك الصنع المحكم المتقن نصنع صنعا يكون به النشور بأن يهيئ الله حوادث سماوية أو أرضية أو مجموعة منها حتى إذا استقامت آثارها وتهيأت أجسام لقبول أرواحها أمر الله بالنفخة الأولى والثانية فإذا الأجساد قائمة ماثلة أمر الله بنفخ الأرواح بالأجنة عند استكمال تهيئتها لقبول الأرواح.
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم تقريب ذلك بمثل هذا مما رواه أحمد وأبن أبي شيبه وقريب منه صحيح مسلم عن عروة بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قيل لرسول الله: كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررت في واد أهلك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا؟ قيل نعم: فكذلك يحي الله الموتى وتلك آيته في خلقه . وفي بعض الروايات عن ابن رزين العقيلي أن السائل رزين.
وقرأ الجمهور)الرياح (بصيغة الجمع. وقرأ حمزة والكسائي) الريح(بالإفراد، والمعروف بلام الجنس يستوي فيه المفرد والجمع.
)من كان يريد العزة فلله العزة جميعا(مضى ذكر غرورين إجمالا في قوله تعالى)فلا تغرنكم الحياة الدنيا(،)ولا يغرنكم بالله الغرور(فأخذ في تفصيل الغرور الثاني من قوله تعالى)إن الشيطان لكم عدو(وما استتبعه من التنبيه على أحجار كيده وانبعاث سموم مكره والحذر من مصارع متابعته وإبداء الفرق بين الواقعين في حبائله والمعافين من أدوائه، بدارا بتفصيل الأهم والأصل،وأبقى تفصيل الغرور الأول إلى هنا.

صفحة : 3470

وإذ قد كان أعظم غرور المشركين في شركهم ناشئا عن قبول تعاليم كبرائهم وسادتهم وكان أعظم دواعي القادة إلى تضليل دهمائهم وصنائعهم، هو ما يجدونه من العزة والافتنان بحب الرئاسة فالقادة يجلبون العزة لأنفسهم والأتباع يعتزون بقوة قادتهم، لا جرم كانت إرادة العزة ملاك تكاتف المشركين بعضهم مع بعض، وتألبهم على مناوأة الإسلام، فوجه الخطاب إليهم لكشف اغترارهم بطلبهم العزة في الدنيا، فكل مستمسك بحبل الشرك معرض عن التأمل في دعوة الإسلام، لا يمسكه بذلك إلا لإرادة العزة،فلذلك نادى

عليهم القرآن بأن من كان ذلك صارفه عن الدين الحق فليعلم بأن العزة الحق في اتباع الإسلام وأن ما هم فيه من العزة كالعدم و)من(شرطيه، وجعل جوابها)فلله العزة جميعا(، وليس ثبوت العزة لله بمرتب في الوجود على حصول هذا الشرط فتعين أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب أقيمت مقامه واستغني بها عن ذكره إيجازا، وليصل من استخراجه من مطاوي الكلام تقرره في ذهن السامع،والتقدير: من كان يريد العذاب فليستجب إلى دعوة الإسلام ففيها العزة لأن العزة كلها لله تعالى، فأما العزة التي يتشبثون بها فهي كخيط العنكبوت لأنها واهية بالية. وهذا أسلوب متبع في المقام الذي يراد فيه تنبيه المخاطب على خطأ في زعمه كما في قول الربيع بن زياد العبسي في مقتل مالك بن زهير العبسي:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نـهـار

يجد النساء حواسرا يندبـنـه بالليل

قبل تبلج الإسـفـار أراد أن من سره مقتل مالك فلا يتمتع بسروره ولا يحسب أنه نال مبتغاه لأنه إن أتى ساحة نسوتنا انقلب سروره غما وحزنا إذ يجد دلائل أخذ الثأر من قاتله بادية له، لأن العادة أن القتيل لا يندبه النساء إلا إذا أخذ ثأره. هذا ما فسره المرزوقي وهو الذي تلقيته عن شيخنا الوزير وفي البيتين تفسير آخر.

وقد يكون بالعكس وهو تثبيت المخاطب على علمه كقوله تعالى) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله آت(.

وقريب من هذا الاستعمال ما يقصد به إظهار الفرق بين من اتصف بمضمون الشرط ومن اتصف بمضمون الجزاء كقول النابغة:

فمن يكن قد قضى من خلة وطرا فإنني منك ما قضيت أوطـاري وقول ضابي بن الحارث:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بهـا لـغـريب وقول الكلابي:

فمن يكلم يعرض فإني وناقتـي بحجر إلى أهل الحمى غرضان فتقديم المجرور يفيد قصرا وهو قصر ادعائي، لعدم الاعتداد بما للمشركين من عزة ضئيلة، أي فالعزة لله لا لهم.

ومنه ما يكون فيه ترتيب الجواب على الشرط في الوقوع، وهو الأصل كقوله تعالى)من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء (الآية، وقوله)من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها(.

و)جميعا(أفادت الإحاطة فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي فحصلت ثلاثة مؤكدات، فالقصر بمنزلة تأكيدين و)جميعا(بمنزلة تأكيد. وهذا قريب من قوله)أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله

جميعا(فإن فيه تأكيدين: تأكيدا ب)إن(وتأكيدا ب)جميعا(لأن تلك الآية نزلت في وقت قوة الإسلام فلم يحتج فيها إلى تقوية التأكيد. وتقدم الكلام على)جميعا(عند قوله تعالى)ويوم نحشرهم جميعا(في سورة سبأ.

وانتصب)جميعا(على الحال من)العزة(وكأنه فعيل بمعنى مفعول، أي العزة كلها لله لا يشذ شيء منها فيثبت لغيره، لأن العزة المتعارفة بين الناس كالعدم إذ لا يخلو صاحبها من احتياج ووهن والعزة الحق لله.

وتعريف)العزة(تعريف الجنس. والعزة: الشرف والحصانة من أن ينال سوء. فالمعنى: من كان يريد العزة فانصرف عن دعوة الله إبقاء على ما يخاله لنفسه من عزة فهو مخطئ إذ لا عزة له فهو كمن أراق ماء للمع سراب. والعزة الحق لله الذي دعاهم على لسان رسوله. وعزة المولى ينال حزبه وأولياءه حظ منها فلو اتبعوا أمر الله فالتحقوا بحزبه صارت لهم عزة الله وهي العزة الدائمة،فإن عزة المشركين يعقبها ذل الانهزام والقتل والأسر في الدنيا وذل الخزي والعذاب في الآخرة، وعزة المؤمنين في تزايد الدنيا ولها درجات كمال في الآخرة.

)إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه(

صفحة : 3471

كما أتبع تفصيل غرور الشيطان بعواقبه في الآخرة بقوله)إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(الآية، وبذكر مقابل عواقبه من حال المؤمنين، كذلك أتبع تفصيل غرور الأنفس أهلها بعواقبه وبذكر مقابله أيضا ليلتقي مال الغرورين ومقابلهما في ملتقى واحد،ولكن قدم في الأول عاقبة أهل الغرور بالشيطان ثم ذكرت عاقبة أضدادهم، وعكس في ما هنا لجريان ذكر عزة الله فقدم ما هو المناسب لآثار عزة الله في حزبه وجنده.

وجملة)إليه يصعد الكلم الطيب(مستأنفة استئنافا ابتدائيا بمناسبة تفصيل الغرور الذي يوقع فيه.

والمقصود أن أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أن أعمال المشركين سعي باطل. والقربات كلها ترجع إلى أقوال وأعمال، فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة. وتقدم ذكرها عند قوله تعالى) وقولوا قولا سديدا(في سورة الأحزاب.والأعمال فيها قربات كثيرة. وكان المشركون يتقربون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد كما قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل، وكانوا يتحنثون بأعمال من طواف وحج

وإغاثة ملهوف وكان ذلك كله مشوبا بالإشراك لأنهم ينوون بها التقرب إلى الآلهة فلذلك نصبوا أصناما في الكعبة وجعلوا هبل وهو كبيرهم على سطح الكعبة، وجعلوا إسافا ونائلة فوق الصفا والمروة، لتكون مناسكهم لله مخلوطة بعبادة الآلة تحقيقا لمعنى الإشراك في جميع أعمالهم.

فلما قدم المجرور من قوله)إليه يصعد الكلم الطيب(أفيد أن كل ما يقدم من الكلم الطيب إلى غير الله لا طائل تحته.

وأما قوله)والعمل الصالح يرفعه(، ف)العمل(مقابل)الكلم(، أي الأفعال التي ليست من الكلام، وضمير الرفع عائد إلى معاد الضمير المجرور في قوله)إليه(وهو اسم الجلالة من قوله)فلله العزة جميعا(. والضمير المنصوب من)يرفعه(عائد إلى)العمل الصالح(أي الله يرفع العمل الصالح.

والصعود: الإذهاب في مكان عال. والرفع: نقل الشيء من مكان إلى مكان أعلى منه،فالصعود مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر وهو كناية عن القبول لديه.

والرفع: حقيقته نقل الجسم من مقره إلى أعلى منه وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، لأن العظيم تتخيله التصورات رفيع المكان. فيكون كل من)يصعد(و)يرفع(تبعتين قرينتي مكنية بأن شبه جانب القبول عند الله تعالى بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه.

فقوله)العمل(مبتدأ وخبره)يرفعه(، وفي بناء المسند الفعلي على المسند إليه ما يفيد تخصيص المسند إليه بالمسند، فإذا انضم إليه سياق جملته عقب سياق جملة القصر المشعر بسريان حكم القصر إليه بالقرينة لاتحاد المقام إذ لا يتوهم أن يقصر صعود الكلم الطيب على الجانب الإلهي ثم يجعل لغيره شركة معه في رفع العمل الصالح، تعين معنى التخصيص، فصار المعنى: الله الذي يقبل من المؤمنين أقوالهم وأعمالهم الصالحة.

وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة) يرفعه(ولم يعطف على)الكلم الطيب(في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين: أولهما: الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب)عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة(فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي صلى الله عليه وسلم من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمن بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الحبل .

وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقا لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع.

)والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور[10](هذا فريق من الذين يريدون العزة من المشركين وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله)وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك(الآية قاله أبو العالية فعطفهم على)من كان يريد العزة(تخصيص لهم بالذكر لما اختصوا به من تدبير المكر. وهو من عطف الخاص على العام للاهتمام بذكره.

صفحة : 3472

والمكر: تدبير إلحاق الضر بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره، وفعله قاصر.

وهو يتعلق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة، يقال: مكر بفلان. ويتعلق بوسيلة المكر بباء السببية يقال: مكر بفلان بقتله، فانتصاب)السيئات(هنا على أنه وصف لمصدر المكر نائبا مناب المفعول المطلق المبين لنوع الفعل فكأنه قيل: والذين يمكرون المكر السيئ. وكان حق وصف المصدر أن يكون مفردا كقوله تعالى)ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله(فلما أريد هنا التنبيه على أن أولياء الشيطان لهم أنواع من المكر عدل عن الإفراد إلى الجمع وأوتي به جمع مؤنث للدلالة على معنى الفعلات من المكر، فكل واحدة من مكرهم هي سيئة، كما جاء ذلك في لفظ)صالحة(كقول جرير:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل

لأم بظهر الغيب تأتيني أي صالحات كثيرة، وأنواع مكراتهم هي ما جاء في قوله تعالى)وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك(.

والتعريف في)السيئات(تعريف الجنس. وجيء باسم الموصول للإيماء إلى أن مضمون الصلة علة فيما يرد بعدها من الحكم، أي لهم عذاب شديد جزاء مكرهم. وعبر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدد مكرهم واستمراره وأنه دأبهم وهجراهم.

ولما توعدهم الله بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفق وأن الله سيبطله فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويضون بسببه في الآخرة فقال)ومكر أولئك هو يبور(.

وعبر عنهم باسم الإشارة دون الضمير الذي هو مقتضى الظاهر لتمييزهم أكمل تمييز،فيكنى بذلك عن تمييز المكر المضاف إليهم ووضوحه في علم الله وعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بما أعلمه الله به منه، فكأنما أشير إليهم وإلى مكرهم باسم إشارة واحد على سبيل الإيجاز.

والضمير التوسط بين)مكر أولئك(وبين)يبور(ضمير فصل إذ لا يحتمل غيره. ومثله قوله تعالى)ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده(.

والراجح من أقوال النحاة قول المازني: إن ضمير الفصل يليه الفعل المضارع،وحجته قوله)ومكر أولئك هو يبور(دون غير المضارع،ووافقه عبد القاهر الجرجاني في شريح الإيضاح لأبي علي الفارسي، وخالفهما أبو حيان وقال: لم يذهب أحد إلى ذلك فيما علمنا. وأقول: إن وجه وقوع الفعل المضارع بعد ضمير الفصل أن المضارع يدل على التجدد فإذا اقتضى المقام إرادة إفادة التجدد في حصول الفعل من إرادة الثبات والدوام في حصول النسبة الحكمية لم يكن إلى البليغ سبيل للجمع بين القصدين إلا أن يأتي بضمير الفصل ليفيد الثبات والتقوية تعذر إفادة ذلك بالجملة الإسلامية. وقد تقدم القول في ذلك عند قوله)وأولئك هم المفلحون(، فالفصل هنا يفيد القصر، أي مكرهم يبور دون غيره، ومعلوم أن غيره هنا تعريض بأن الله يمكر بهم مكرا يصيب المحز منهم على حد قوله تعالى)ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(والبوار حقيقته: كساد التجارة وعدم نفاق السلعة، واستعير هنا لخيبة العمل بوجه الشبه بين ما دبروه من المكر مع حرصهم على إصابة النبي صلى الله عليه وسلم بضر وبين ما ينمقه التاجر وما يخرجه من عيابه ويرصفه على مبناته وسط اللطيمة مع السلع لاجتلاب شره المشترين. ثم لا يقبل عليه أحد من أهل السوق فيرجع من لطيمته لطيم كف الخيبة، فارغ الكف والعيبة.

)والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا(هذا عود إلى سوق دلائل الوحدانية بدلالة عليها من أنفس الناس بعد أن قدم لهم ما هو من دلالة الآفاق بقوله)والله الذي أرسل الرياح(. فهذا كقوله)سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(وقوله)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(فابتدئهم في بتذكيرهم بأصل التكوين الأول من تراب وهو ما تقرر علمه لدى جميع البشر من أن أصلهم وهو البشر الأول، خلق من طين فصار ذلك حقيقة مقررة في علم البشر وهي مما يعبر عنه في المنطق بالأصول الموضوعة القائمة مقام المحسوسات.

ثم استدرجهم إلى التموين الثاني بدلالة خلق النسل من نطفة وذلك علم مستقر في النفوس وذلك بمشاهدة الحاضر وقياس الغائب على المشاهد، فكما يجزم المرء بأن نسله خلق من نطفته يجزم بأنه خلق من نطفة أبوية، وهكذا يصعد إلى تخلق أبناء آدم وحواء.

صفحة : 3473

والنطفة تقدمت عند قوله تعالى)أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة(في سورة الكهف.
وقوله)ثم جعلكم أزواجا(يشير إلى حالة في التكوين الثاني وهو شرطه من الازدواج. ف)ثم(عاطفة الجملة فهي دالة على الترتيب الرتبي الذي هو أهم في الغرض أعني دلالة التكوين على بديع صنع الخالق سبحانه فذلك موزع على مضمون قوله)ثم من نطفة(.
والمعنى: ثم من نطفة وقد جعلكم أزواجا لتركيب تلك النطفة، فالاستدلال بدقة صنع النوع الإنساني من أعظم الدلائل على وحدانية الصانع. وفيها غنية عن النظر في تأمل صنع بقية الحيوان.
والأزواج: جمع زوج وهو الذي يصير بانضمام الفرد إليه زوجا، أي شافعا، وقد شاع إطلاقه على صنف الذكور مع صنف الإناث لاحتياج الفرد الذكر من كل صنف إلى أنثاه من صنفه والعكس.
)وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه(بعد الاستدلال بما في بدء التكوين الثاني من التلاقح بين النطفتين استدلال بما ينشأ عن ذلك من الأطوار العارضة للنطفة في الرحم وهو أطوار الحمل من أوله إلى الوضع.
وأدمج في ذلك دليل التنبيه على إحاطة فلم الله بالكائنات الخفية والظاهرة، ولكون العلم بالخفيات أعلى قدم ذكر الحمل على ذكر الوضع، والمقصود من عطف الوضع أن يدفع توهم وقوف العلم عند الخفيات التي هي من الغيب دون الظواهر بأن يستغل عنها بتدبير خفياتها كما هو شأن كبراء العلماء من الخلق، ولظهور استحالة توجه لإرادة الخلق نحو مجهول عند مريده.
والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال. والباء للملابسة. والمجرور في موضع الحال.
)وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتب إن ذلك على الله يسير[11](لا جرم أن الحديث عن التكوين يستتبع ذكر الموت المكتوب على كل بشر فجاء بذكر علمه الآجال والأعمار للتنبيه على سعة العلم الإلهي.

والتعمير: جعل الإنسان عامر، أي باقيا في الحياة، فأن العمر هو مدة الحياة يقال: عمر فلان كفرح ونصر وضرب، إذا بقي زمانا، فمعنى عمره بالتضعيف: جعله باقيا مدة زائدة على المدة المتعارفة في أعمال الأجيال، ولذلك قوبل بالنقص من العمر، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبني للمجهول فيقال: عمر فلان فهو معمر. وقد غلب في هذه الأجيال أن يكون الموت بين الستين والسبعين فما بينهما، فهو عمر متعارف، والمعمر الذي يزيد عمره على السبعين، والمنقوص عمره الذي يموت دون الستين ولذلك كان أرجح الأقوال في تعمير المفقود عند فقهاء المالكية هو الإبلاغ به سبعين سنة من تاريخ ولادته ووقع القضاء في تونس بأنه ما تجاوز ثمانين سنة غير قليل فلا ينبغي الحكم باعتبار المفقود ميتا إلا بعد ذلك لأنه يترتب عليه الميراث ولا ميراث بشك،ولأنه بعد الحكم باعتباره ميتا تزوج امرأته، وشرط صحة التزوج أن تكون المرأة خلية من عصمة، ولا يصح إعمال الشرط مع الشك فيه. وهو تخريج فيه نظر.

وضمير)من عمره(عائد إلى)معمر(على تأويل) معمر(ب)أحد(كأنه قيل: وما يعمر من أحد ولا ينقص عمره، أي عمر أحد وآخر. وهذا كلام جار على التسامح في مثله في الاستعمال واعتماد على أن السامعين يفهمون المراد كقوله تعالى) وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحدة منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين(لظهور أنه لا ينقلب الميت وارثا لمن قد ورثه ولا وارث ميتا موروثا لوارثه.

والكتاب كناية عن علم الله تعالى الذي لا يغيب عنه معلوم كما أن الشيء المكتوب لا يزاد فيه ولا ينقص، ويجوز أن يجعل الله موجودات هي كالكتب تسطر فيها الآجال مفصلة وذلك يسير في مخلوقات الله تعالى. ولذلك قال:)أن ذلك على الله يسير(أي لا يلحقه من هذا الضبط عسر ولا كد.

وقد ورد هنا الإشكال العام الناشئ عن التعارض بين أدلة جريان كل شيء على ما هو سابق في علم الله في الأزل، وبين إضافة الأشياء إلى أسباب وطلب اكتساب المرغوب من تلك الأسباب واجتناب المكروه منها فكيف يثبن في هذه الآية للأعمار زيادة ونقص مع كونها في كتاب وعلم لا يقبل التغيير. وكيف يرغب بالصدقة مثلا أنها تزيد في العمر، أن صلة الرحم تطيل في العمر.

والمخلص من هذا ونحوه هو القاعدة الأصلية الفارقة بين كون الشيء معلوم لله تعالى وبين كونه مرادا،فإن العلم يتعلق بالأشياء الموجودة والمعدومة، والإرادة تتعلق بإيجاد الأشياء على وفق العلم بأنها توجد، فالناس مخاطبون بالسعي لما تتعلق به الإرادة بالشيء علمنا أن الله علم وقوعه، وما تصرفات الناس ومساعيهم إلا أمارات على ما علمه الله لهم، فصدقة المتصدق أمارة على أن الله علم تعميره،والله تعالى يظهر معلوماته في مظاهر تكريم أو تحقير ليتم النظام الذي أسس الله عليه هذا العالم ويلتئم جميع ما أراده الله من هذا التكوين على وجوه لا يخل بعضها ببعض وكل ذلك الحكمة العالية. ولا مخلص من هذا الإشكال إلا هذا الجواب وجميع ما سواه وإن أقنع ابتدأ الإشكال.

)وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[12](انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرد الله تعالى بالإلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها، على عظم مخلوقات الله تعالى، فصيغ هذا الاستدلال على أسلوب بديع إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقات وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالا على دقيق صنع الله تعالى كقوله)تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض بالأكل(ويتضمن ذلك الاستدلال بخلق البحرين أنفسها لأن ذكر اختلاف مذاقهما يستلزم تذكر تكوينهما.

فالتقدير: وخلق البحرين العذب والأجاج على صورة واحدة وخالف بين أعراضها، ففي الكلام إيجاز حذف، وإنما قدم من هذا الكلام تفاوت البحرين في المذاق وأقتصر عليه لأنه المقصود من الاستدلال بأفانين الدلائل على دقيق صنع الله تعالى.

وفي الكشاف: ضرب البحرين العذب والمالح مثلا للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه)ومن كل تأكلون لحما طريا(.

والبحر في كلام العرب: اسم للماء الكثير القار في سعة، فالفرات والدجلة بحران عذبان وبحر خليج العجم ملح. وتقدم ذكر البحرين عند قوله تعالى)وهو الذي مرج البحرين(في سورة الفرقان وقد اتحدا في إخراج الحيتان والحلية، أي اللؤلؤ والمرجان، وهما يوجد أجودهما في بحر العجم حيث مصب النهرين ولماء النهرين العذب واختلاطه بماء البحر المالح أثر في جودة اللؤلؤ كما بيناه فيما تقدم

في سورة النحل، فقوله)ومن كل تأكلون لحما طريا(كلية، وقوله) وتستخرجون حلية(كل لا كلية لأن من مجموعها تستخرجون حلية. وكلمة كل صالحة للمعنيين، فعطف)وتستخرجون(من استعمال المشترك في معنييه.

فالاختلاف بين البحرين بالعذوبة والملوحة دليل على دقيق صنع الله. والتخالف في بعض مستخرجاتهما والتماثل في بعضها دليل آخر على دقيق الصنع وهذا من أفانين الاستدلال.

والعذب: الحول حلاوة مقبولة في الذوق.

والملح بكسر الميم: الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه، فأما الشيء الذي يلقى فيه الملح حتى يكتسب ملوحة فإنما يقال له: مالح، ولا يقال: ملح.

ومعنى)سائغ شرابه(أن شربه لا يكلف النفس كراهة، وهو مشتق من الإساغة وهي استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة ولا كره. قال عبد الله بن يعرب:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد

أغص بالماء الحمـيم والأجاج: الشديد الملوحة، وتقدم ذكر البحر في قوله تعالى)ويعلم ما في البر والبحر(في سورة الأنعام، وبقية الآية تقدم نظيره في أول سورة النحل.

صفحة : 3475

وتقديم الظرف في قوله)فيه مواخر(على عكس آية سورة النحل، لأن هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله)يأكلون...وتستخرجون حلية(وقوله)لتبتغوا من فضله(فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر. والمخر في البحر أية صنع الله أيضا بخلق وسائل ذلك والإلهام له،إلا أن خطور السفر من ذلك الوصف أو ما يتبادر إلى الفهم فأخر هنا لأنه من مستتبعات الغرض لا من مقصده فهو يستتبع نعمة تيسير الأسفار لقطع المسافات التي لو قطعت بسير القوافل لطالب مدة الأسفار.

ومن هنا يلمع بارق الفرق بين هذه الآية وآية سورة النحل في كون فعل)لتبتغوا(غير معطوف بالواو هنا ومعطوفا نظيره في أية النحل لأن الابتغاء علق هنا ب)مواخر(إيقافا على الغرض من تقديم

الظرف، وفي أية النحل ذكر المخرفي عداد الامتنان لأن به تيسير الأسفار، ثم فصل بين)مواخر(وعلته بظرف)فيه(، فصارما يومئ إليه الظرف فصلا بغرض أدمج إدماجا وهو الاستدلال على عظيم الصنع بطفو الفلك على الماء، فلما أريد الانتقال منه إلى غرض أخر وهو العود إلى الامتنان بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض.

)يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى(استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإله الواحد.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان، سوى أن هذه الآية جاء فيها)كل يجري لأجل(فعدي فعل)يجري(باللام وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل)يجري(بحرف)إلى(، فقيل اللام تكون بمعنى)إلى(في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم. وهذا أباه الزمخشري في سورة لقمان وردة أغلظ رد فقال: ليس ذلك من تعاقب الحرفين ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ولكن المعنيين أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك:يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه، وقوله)يجري لأجل(تريد لإدراك أجل اه. وجعل اللام للاختصاص أي ويجري لأجل أجل، أي لبلوغه واستيفائه، والانتهاء والاختصاص كل منهما ملائم للغرض، أي فمآل المعنيين واحد وإن كان طريقه مختلفا، يعني فلا يعد الانتهاء معنى للام كما فعل ابن مالك وابن هشام، وهو وإن كان يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف وهو ما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساويه للحقيقة، اللهم إلا أن يكون الزمخشري يريد أن الأجل هنا هو أجل كل إنسان، أي عمره وأن الأجل في سورة لقمان هو أجل بقاء هذا العالم.

وهو على الاعتبارين إدماج للتذكير في خلال الاستدلال ففي هذه الآية ذكرهم بأن لأعمارهم نهاية تذكيرا مرادا به الإنذار والوعيد على نحو قوله تعالى في سورة الأنعام)ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى(. واقتلاع الطغيان والكبرياء من نفوسهم.

ويريد ذلك أن معظم الخطاب في هذه الآية موجه إلى المشركين، ألا ترى إلى قوله بعدها)والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير(وفي سورة لقمان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو عام لكل مخاطب من مؤمن وكافر فكان إدماج التذكير فيه بأن لهذا العالم انتهاء أنسب بالجميع ليستعد له الذين

آمنوا وليرغم الذين كفروا على العلم بوجود البعث لأن نهاية هذا العالم ابتداء لعالم آخر.
)ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير[13] إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير[14](استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة بعد تفصيلها.

صفحة : 3476

واسم الإشارة موجه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله)والله الذي أرسل الرياح(الآيات فكان اسمه حريا بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات إذ بذكرها يتميز عند السامعين أكمل تمييز حتى كأنه مشاهد لأبصارهم مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه، ومع ما يقتضيه إيراد اسم الإشارة عقب أوصاف كثيرة من التنبيه على أنه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات فأخبر عنه بأنه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه، وأخبر عنه بأنه رب الخلائق بعد أن سجل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنه الذي خلقهم خلقا من بعد خلق، وأن خلقهم من تراب، وقدر آجالهم وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية مما يدل على أنه لا يعجزه شيء فهو الرب دون غيره وهو الذي الملك والسلطان له لا لغيره أفاد ذلك كله قوله تعالى)ذلكم الله ربكم له الملك(، فانتهض الدليل.
وعطف عليه التصريح بأن أصنامهم لا يملكون من الملك شيئا ولو حقيرا وهو الممثل بالقطمير.
والقطمير: القشرة التي في شق النواة كالخيط الدقيق. فالمعنى: لا يملكون شيئا ولو حقيرا، فكونهم لا يملكون أعظم من القطمير معلوم بفحوى الخطاب، وذلك حاصل بالمشاهدة فإن أصنامهم حجارة جاثمة لا تملك شيئا بتكسب ولا تحوزه بهبهة، فإذا انتفى أنها تملك شيئا انتفى عنها وصف الإلهية بطريق الأولى، فنفى ما كانوا يزعمونه من أنها تشفع لهم.
وجملة)إن تدعوهم(خبر ثان عن)الذين تدعون من دونه(.
والمقصد منها تنبيه المشركين إلى عجز أصنامهم بأنها لا تسمع، وليس ذلك استدلالا فإنهم كانوا يزعمون أن الأصنام تسمع منهم فلذلك كانوا يكلمونها ويوجهون إليها محامدهم ومدائحهم، ولكنه تمهيد للجملة المعطوفة على الخبر وهي جملة)ولو سمعوا ما استجابوا

لكم(فإنها معطوفة على جملة)إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم(، وليست الواو اعتراضية، أي ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم حين تدعونها فإنها لا تستجيب لدعوتكم، أي لا ترد عليكم بقبول، وهذا استدلال سنده المشاهدة، فطالما دعوا الأصنام فلم يسمعوا منها جوابا وطالما دعوها فلم يحصل ما دعوها لتحصيله مع أنها حاضرة بمرأى منهم غير محجوبة،فعدم إجابتها دليل على أنها لا تسمع، لأن شأن العظيم أن يستجيب لأوليائه الذين يسعون في مرضاته، فقد لزمهم إما عجزها وإما أنها لا تفقه إذ ليس في أوليائها مغمز بأنهم غير مرضين لهذا. وهذا من أبدع الاستدلال الموطأ بمقدمة متفق عليها.

وقوله)ما استجابوا(يجوز أن يكون بمعنى إجابة المنادي بكلمات الجواب. ويجوز أن يكون بمعنى إجابة السائل بتنويله ما سأله. وهذا من استعمال المشترك في معنييه.

ولما كشف حال الأصنام في الدنيا بما فيه تأييس من انتفاعهم بها فيها كمل كشف أمرها في الآخرة بأن تلك الأصنام ينطقها الله فتتبرأ من شركهم، أي تتبرأ من أن تكون دعت له أو رضيت به.

والكفر: جحد في كراهة.

والشرك أضيف إلى فعله، أي بشرككم إياهم في الإلهية مع الله تعالى.

وأجرى على الأصنام موصول العاقل وضمائر العقلاء)والذين تدعون(إلى قوله)يكفرون بشرككم(على تنزيل الأصنام منزلة العقلاء مجاراة للمردود عليم على طريقة التهكم.

وقوله)ولا ينبئك مثل خبير(تذييل لتحقيق هذه الأخبار بأن المخبر بها هو الخبير بها وبغيرها ولا يخبرك أحد مثل ما يخبرك هو.

وعبر بفعل الإنباء لأن النبأ هو الخبر عن حدث خطير مهم.

والخطاب في قوله)ينبئك(لكل من يصح منه سماع هذا الكلام لأن هذه الجملة أرسلت مرسل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونه بمخاطب معين.

صفحة : 3477

وخبير: صفة مشبهة مشتقة من خبر،بضم الباء،فلان الأمر، إذا علمه علما لاشك فيه. والمراد ب)خبير(جنس الخبير،فلما أرسل هذا القول مثلا وكان شأن الأمثال أن تكون موجزة صيغ على أسلوب الإيجاز فحذف منه متعلق فعل)ينبئ(ومتعلق وصف)خبير(، ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام. وجعل)خبير(نكرة مع أن

المراد خبير معين وهو المتكلم فكان حقه التعريف، فعدل إلى تنكيره لقصد التعميم في سياق النفي لأن إضافة كلمة)مثل(إلى خبير لا تفيد تعريفا.وجعل نفي فعل الإنباء كناية عن نفي المنبئ. ولعل التركيب: ولا يوجد أحد ينبئك بهذا الخبر يماثل هذا الخبير الذي أنبأك به، فإذا أردف مخبر خبره بهذا المثل كان ذلك كناية عن كون المخبر بالخبر المخصوص يريد ب)خبير(نفسه للتلازم بين معنى هذا المثل وبين تمثل المتكلم منه. فالمعنى: ولا ينبئك بهذا الخبر مثلي لأني خبرته، فهذا تأويل هذا التركيب.

وامثل بكسر الميم وسكون المثلثية المساوي، إما في قدر فيكون بمعنى ضعف، وإما المساوي في صفة فيكون بمعنى شبيه وهو بوزن فعل وهو قليل.

ومنه قولهم:شبه، وند، وخدن.

)يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد(لما أشبع أدلة، ومواعظ، وتذكيرات، مما فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع، ولم يظهر مع ذلك كله من أحوال القوم ما يتوسم منه نزعهم عن ضلالهم وربما أحدث ذلك في نفوس أهل العزة منهم إعجابا بأنفسهم واغترارا بأنهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين فيزيدهم ذلك الغرور قبولا لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم، ناسب أن ينبئهم الله بأنه غني عنه وأن دينه لا يعتز بأمثالهم وأنه مصيرهم إلى الفناء وآت بناس يعتز بهم الإسلام.

فالمراد ب)أيها الناس(هم المشركون كما هو غالب اصطلاح القرآن، وهم المخاطبون بقوله آنفا)ذلكم الله ربكم له الملك(الآيات.

وقبل أن يوجه إليهم الإعلام بأن الله غني عنهم وجه إليهم لإعلام بأنهم الفقراء إلى الله لأن ذلك أدخل للذلة على عظمتهم من الشعور بأن الله غني عنهم فإنهم يوقنون بأنهم الفقراء إلى الله ولكنهم لا يوقنون بالمقصد الذي يقضي إليه علمهم بذلك، فأريد إبلاغ ذلك إليهم لا على وجه الاستدلال ولكن على وجه قرع أسماعهم بما لم تكن تقرع من قبل عسى أن يستفيقوا من غفلتهم ويتكعكعوا عن غرور أنفسهم، على انهم لا يخلو جمعهم من أصحاب عقول صالحة للوصول إلى حقائق الحق فأولئك إذا قرعت أسماعهم بما لم يكونوا يسمعونه من قبل ازدادوا يقينا بمشاهدة ما كان محجوبا عن بصائرهم بأستار الاشتغال بفتنة ضلالهم عسى أن يؤمن من هيأة الله بفطرته للإيمان، فمن بقي على كفره كان بقاؤه مشوبا بحيرة ومر طعم الحياة عنده، فأين ما كانت تتلقاه مسامعهم من قبل تمجيدهم وتمجيد آبائهم وتمجيد آلهتهم، ألا ترى أنهم لما

عاتبوا النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مراجعتهم عدوا عليه شتم آبائهم، فحصل بهذه الآية فائدتان.
وجملة)أنتم الفقراء(تفيد القصر لتعريف جزأيها، أي قصر صفة الفقر على الناس المخاطبين قصرا إضافيا بالنسبة إلى الله، أي أنتم المفتقرون إليه وليس هو بمفتقر إليكم وهذا في معنى قوله تعالى)إن تكفروا فإن الله غني عنكم(المشعر بأنهم يحسبون أنهم يغيضون النبي صلى الله عليه وسلم بعدم قبول دعوته. فالوجه حمل القصر المستفاد من جملة)أنتم الفقراء(إلى القصر الإضافي، وهو قصر قلب، وأما حمل القصر الحقيقي ثم تكلف أنه ادعائي فلا داعي إليه.
وإتباع صفة)الغنى(ب)الحميد(تكميل،فهو احتراس لدفع توهمهم أنه لما كان غنيا عن استجابتهم وعبادتهم فهم معذورون في أن لا يعبدوه، فنبه على أنه موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته كما أتبع الآية الأخرى)إن تكفروا فإن الله غني عنكم(بقوله)وإن تشكروا يرضه لكم(. ومن المحسنات وقوع)الحميد(في مقابلة قوله)إلى الله(كما وقع)الغني(في مقابلة قوله)الغني(في مقابلة قوله)الفقراء(لأن لما قيد فقرهم بالكون إلى الله قيد غنى الله تعالى بوصف)الحميد(لإفادة أن غناه تعالى مقترن بجوده فهو يحمد من يتوجه إليه.
)إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد[16] وما ذلك على الله بعزيز[17](

صفحة : 3478

واقع وقع البيان لما تضمنته جملة)هو الغني الحميد(من معنى قلة الاكتراث بإعراضهم عن الإسلام، ومن معنى رضاه على من يعبده فهو تعالى لغناه عنهم وغضبه عليهم لو شاء لأبادهم وأتى بخلق آخرين يعبدونه فخلص العالم من عصاه أمر الله وذلك في قدرته ولكنه أمهلهم إعمالا لصفة الحلم.
فالمشيئة هنا المشيئة الناشئة عن الاستحقاق، أي أنهم استحقوا أن يشاء الله إهلاكهم ولكنه أمهلهم، لا أصل المشيئة التي هي كونه مختارا في فعله لا مكره له لأنها لا يحتاج إلى الإعلام بها.
والإذهاب مستعمل في الإهلاك، أي الإعدام من هذا العالم، أي أن يشأ يسلط عليهم موتا يعمهم فكأنه أذهبهم من مكان إلى مكان لأن يأتي بهم إلى دار الآخرة.
والإتيان بخلق جديد مستعمل في إحداث ناس لم يمونوا موجودين ولا مترقبا وجودهم، أي يوجد خلقا من الناس يؤمنون بالله.

فالخلق هنا بمعنى المخلوق مثل قوله تعالى)هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه(. وهذا في معنى قوله)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم(.

وليس المعنى: أنه إن يشأ يعجل بموتهم فيأتي جيل أبنائهم مؤمنين لأن قوله)وما ذلك على الله بعزيز(ينبو عنه.

وعطف عليه الإعلام بأن ذلك لو شاء لكان هينا عليه وما هو عليه بعزيز.

والعزيز: المتمنع الغالب، وهذا زيادة في الإرهاب والتهديد ليكونوا متوقعين حلول هذا بهم.

ومفعول فعل المشيئة محذوف استغناء بما دل عليه جواب الشرط وهو)يذهبكم(إي أن يشأ إذهابكم، ومثل هذا الحذف لمفعول المشيئة كثير في الكلام.

والإشارة في قوله)وما ذلك(عائدة إلى الإذهاب المدلول عليه ب)يذهبكم(أو إلى ما تقدم بتأويل المذكور.

)ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى(لما ما قبل هذه الآية مسوقا في غرض التهديد وكان الخطاب للناس أريدت طمأنة المسلمين من عواقب التهديد، فعقب بأن من لم يأت وزرا لا يناله جزاء الوازر في الآخرة قال تعالى) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا(. وقد يكون وعدا بالإنجاء من عذاب الدنيا إذ نزل بالمهددين الإذهاب والإهلاك مثلما اهلك فريق الكفار يوم بدر وأنجى فريق المؤمنين، فيكون هذا وعدا خاصا لا يعارضه قوله تعالى)واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة(وما ورد في حديث أم سلمة قالت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث .

فموقع قوله)ولا تزر وازرة وزر أخرى(كموقع قوله تعالى)حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمون(. ولهذا فالظاهر أن هذا تأمين للمسلمين من الاستئصال كقوله تعالى)وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون(بقرينة قول عقبه)إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب(وهم تأمين من تعميم العقاب في الآخرة بطريق الأولى ويجوز أن يكون المراد: ولا تزر وازرة وزر أخرى يوم القيامة، أي أن يشأ يذهبكم جميعا ولا يعذب المؤمنين في الآخرة، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم ثم يحشرون على نياتهم .

والوجه الأول أعم وأحسن. وأيا ما كان فأن قضية)ولا تزر وازرة وزر أخرى(كلية عامة فكيف وقد قال الله تعالى)وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم(في سورة العنكبوت، فالجمع بين الآيتين أن هذه الآية نفت أن يحمل أحد وزر آخر لا مشاركة له للحامل على

اقتراف الوزر، وإما آية سورة العنكبوت فموردها في زعماء المشركين الذين موهوا الضلالة وثبتوا عليها، فإن أول تلك الآية) وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم(، وكانوا يقولون ذلك لكل من يستروحون منه الإقبال على الإيمان بالأخرى.

وأصل الوزر بكسر الواو: هو الوقر بوزنه ومعناه. وهو الحمل بكسر الحاء، أي ما يحمل، ويقال وزر إذا حمل. فالمعنى: ولا تحمل حاملة حمل أخرى،أي لا يحمل الله نفسا حملا جعله لنفس أخرى عدلا منه تعالى لأن الله يحب العدل وقد نفى عن شأنه الظلم وأن كان تصرفه إنما هو في مخلوقاته.

وجرى وصف الوازرة على التأنيث لأن أريد به النفس.

صفحة : 3479

ووجه اختيار الإسناد إلى المؤنث بتأويل النفس دون أن يجري الإضمار على التذكير بتأويل الشخص، لأن متى النفس هو المتبادر للأذهان عند ذكر الاكتساب كما في قوله تعالى)ولا تكسب كل نفس إلا عليها(في سورة الأنعام وقوله)كل نفس بما كسبت رهينة(في سورة المدثر، وغير ذلك من الآيات ثم نبه على أن هذا الحكم العادل مطرد مستمر حتى لو استغاثت نفس مثقلة في الأوزار من ينتدب لحمل أوزارها أو بعضها لم تجد من يحمل عنها شيئا، لئلا يقيس الناس الذين في الدنيا أحوال الآخرة على ما تعارفوه، فإن العرب تعارفوا النجدة إذا استنجدوا ولو كان لأمر يضر بالمنجد. ومن أمثالهم)لو دعي الكريم إلى حتفه لأجاب(وقال وداك ابن ثميل المازني:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بـأي مـكـان ولذلك سمي طلب الحمل هنا دعاء لأن في الدعاء معنى الاستغاثة.

وحذف مفعول)تدع(لقصد العموم. والتقدير: وإن تدع مثقلة أي مدعو.

وقوله)إلى حملها(متعلق ب)تدع(، وجعل الدعاء إلى الحمل لأن الحمل سبب الدعاء وعلته. فالتقدير: وإن تدع مثقلة أحدا إليها لأجل أن يحمل عنها حملها، فحذف أحد متعلقي الفعل المجرور باللام لدلالة الفعل ومتعلقة المذكور على المحذوف.

وهذا إشارة إلى ما سيكون في الآخرة، أي لو استصرخت نفس من يحملها عنها شيئا من أوزارها، كما كانوا يزعمون أن أصنامهم تشفع لهم أو غيرهم، لا تجد من يجيبها لذلك.

وقوله)ولو كان ذا قربى(في موضع الحال من)مثقلة(.

و)لو(وصلية كالتي في قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران.

والضمير المستتر في)كان(عائد إلى مفعول)تدع(المحذوف، إذ تقديره: وإن تدع مثقلة أحدا إلى حملها كما ذكرنا، فيصير التقدير: ولو كان المدعو ذا قربى، فإن العموم الشمولي الذي اقتضته النكرة في سياق الشرط يصير في سياق الإثبات عموما بدليا.

ووجه ما اقتضته المبالغة من)لو(الوصلية أن ذا القربى أرق وأشفق على قريبه، فقد يظن انه يغني عنه في الآخرة بأن يقاسمه الثقل الذي يؤدي به إلى العذاب فيخف عنه العذاب بالاقتسام.

والإطلاق في لا القربى يشمل قريب القرابة كالأبوين والزوجين كما قال تعالى)يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه(.

وهذا إبطال لاعتقاد الغناء الذاتي بالتضامن والتحامل فقد كان المشركون يقيسون أمور الآخرة على أمر الدنيا فيعللون أنفسهم إذا هددوا بالبعث بأنه إن صح فإن لهم يومئذ شفعاء وأنصار، فهذا سياق توجيه هذا إلى المشركين ثم هو بعمومه ينسحب حكمه على جميع أهل المحشر، فلا يحمل أحد عن أحد أثمه. وهذا لا ينافي الشفاعة الواردة في الحديث، كما تقدم في سورة سبأ، فأنها إنما تكون بأذن الله تعالى إظهارا لكرامة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ينافي ما جعله الله للمؤمنين من مكفرات الذنوب كما ورد أن إفراط المؤمنين يشفعون لأمهاتهم، فتلك شفاعة جعلية جعلها الله كرامة للأمهات المصابة من المؤمنات.

)إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير[18](استئناف كلامي بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يخطر في نفسه التعجب من عدم تأثر أكثر المشركين بإنذاره فأجيب بأن إنذاره ينتفع به المؤمنون ومن تهيأوا للإيمان.

وإيراد هذه الآية عقب التي قبلها يؤكد أن المقصد الأول من التي قبلها موعظة المشركين وتخويفهم،وإبلاغ الحقيقة إليهم لاقتلاع مزاعمهم وأوهامهم في أمر البعث والحساب والجزاء. فأقبل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب ليشعر بأن تلك المواعظ فيه وأنها إنما ينتفع بها المسلمون، وهو أيضا يؤكد ما في الآية الأولى من التعريض بتأمين المسلمين بما اقتضاه عموم الإنذار والوعيد.

وأطلق الإنذار هنا على حصول أثره، وهو الانكفاف أو التصديق به، وليس المراد حقيقة الإنذار، وهو الإخبار عن توقع مكروه لأن القرينة صادقة عن المعنى الحقيقي وهي قرينة تكرر الإنذار للمشركين الفينة بعد الفينة وما هو ببعيد عن هذه الآية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أنذر المشركين طول مدة دعوته، فتعين أن تعلق الفعل المقصور عليه ب)الذين يخشون ربهم بالغيب(تعلق على معنى حصول أثر الفعل. فالمقصود من القصر أنه قصر قلب لأن المقصود التنبيه على أن لا يظن النبي صلى الله عليه وسلم انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته، وأن كانت صيغة القصر صالحة لمعنى القصر الحقيقي لكن اعتبار المقام يعين اعتبار القصر الإضافي.
ونظير هذه الآية قوله في سورة يس)إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب(وقوله)فذكر القرآن من يخاف وعيد(في سورة ق، مع أن التذكير بالقرآن يعم الناس كلهم.
والغيب: ما غاب عنك، أي الذين يخشون ربهم في خلواتهم وعند غيبتهم عن العيان، أي الذين آمنوا حقا غير مرائين أحدا.
و)أقاموا الصلاة(أي لم يفرطوا في صلاة كما يؤذن به فعل الإقامة كما تقدم في أول سورة البقرة.
ولما كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنما تنذر المؤمنين، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب، تذرعا بذكر هاتين الصلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل.
وجملة)ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه(تذييل جار مجرى المثل. وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يخص العام به، فالمعنى: أن الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.
والمقصود من القصر في قوله)فإنما يتزكى لنفسه(أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها فكان تركهم ضرا على أنفسهم.

وجملة)وإلى الله المصير(تكميل للتذييل، والتعريف في) المصير(للجنس، أي المصير كله إلى الله سواء فيه مصير المتزكى، أي وكل يجازى بما يناسبه.
وتقديم المجرور في قوله)وإلى الله المصير(للاهتمام للتنبيه على أنه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل مع الرعاية على الفاصلة.
)وما يستوي الأعمى والبصير[19] ولا الظلمات ولا النور[20] ولا الظل ولا الحرور[21] وما يستوي الأحياء ولا الأموات(أربعة أمثال للمؤمنين والكافرين، وللإيمان والكفر، شبه الكافر بالأعمى، والكفر بالظلمات، والحرور والكافر بالميت، وشبه المؤمن بالبصير وشبه الإيمان بالنور والذل، وشبه المؤمن بالحي تشبيه المعقول بالمحسوس. فبعد أن بين قلة نفع النذارة للكافرين وأنها لا ينتفع بها غير المؤمنين ضرب للفريقين أمثالا كاشفة عن اختلاف حاليهما، وروعي في هذه الأشباه توزيعها على صفة الكافر والمؤمن، وعلى حالة الكفر والإيمان، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر.
وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله)إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب(كما تقدم آنفا من أنه قصر إضافي قصر قلب، فالكافر شبيه بالأعمى في اختلاط أمره بين عقل وجهالة، كاختلاط أمر الأعمى بين إدراك وعدمه.
والمقصود: أن الكافر وإن كان ذا عقل يدرك به الأمور فإن عقله تمحض لإدراك أحوال الحياة الدنيا وكان كالعدم في أحوال الآخرة كقوله تعالى)يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون(، فحاله المقسم بين انتفاع بالعقل وعدمه يشبه حال الأعمى في إدراكه أشياء وعدم إدراكه.
والعمى يعبر به عن الضلال، قال ابن رواحة:
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

ثم شبه الكفر بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متبين للأشياء، فإن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء، والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتيادية، وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى أجلى، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام.

وجيء في)الظلمات(بلفظ الجمع لأنه الغالب في الاستعمال فهم لا يذكرون الظلمة إلا بصيغة الجمع. وقد تقدم في قوله)وجعل الظلمات والنور(في الأنعام.

وضرب الظل مثلا لأثر الإيمان، وضده وهو الحرور مثلا لأثر الكفر، فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأولين، وهم العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظل للنعيم غالبا إلا في بعض فصل الشتاء، وقوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذب في عرفهم كما علمت، وفي مقابلته بالحرور إيذان تشبيه بالظل في حالة استطابته.

والحرور: حر الشمس، ويطلق أيضا على الريح الحارة وهي السموم، أو الحرور: الريح الحارة التي تهب بليل والسموم تهب بالنهار.

وقدم في هذه الفقرة ما هو من حال المؤمنين على عكس الفقرات الثلاث التي قبلها لأجل الرعاية على الفاصلة بكلمة) الحرور(. وفواصل القرآن من متممات فصاحته، فلها حظ من الإعجاز.

فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر، وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريث وإتقان. وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه القول من التأمل والتبصر وتصدر فيها الآراء والمساعي معجلة متفككة.

واعلم أن تركيب الآية عجيب فقد احتوت على واوات عطف وأدوات نفي، فكل من الواوين الذين في قوله)ولا الظلمات(الخ، وقوله)ولا الظل(الخ عاطف جملة على جملة وعاطف تشبهات ثلاثة بل تشبيه منها يجمع الفريقين. والتقدير: ولا تستوي الظلمات والنور ولا يستوي الظل والحرور، وقد صرح بالمقدر أخيرا في قوله)وما يستوي الأحياء ولا الأموات(.

وأما الواوات الثلاثة في قوله)والبصير( )ولا النور( )ولا الحرور(فكل واو عاطف مفردا على مفرد، فهي ستة تشبيهات موزعة على كل فريق، ف)البصير(عطف على)الأعمى(، و)النور(عطف على) الظلمات(، و)الحرور(عطف على)الظل(، ولذلك أعيد حرف النفي.

وأما أدوات النفي فاثنان منها مؤكدان للتغلب الموجه إلى الجملتين المعطوفتين المحذوف فعلاهما)ولا الظلمات(،)ولا الظل(، واثنان مؤكدان لتوجه النفي إلى المفردين المعطوفين على مفردين في سياق نفي التسوية بينهما وبين ما عطفا عليهما وهما واو)ولا النور(، وواو)ولا الحرور(، والتوكيد بعضه بالمثل وهو حرف)لا(وبعضه بالمرادف وهو حرف)ما(ولم يؤت بأداة نفي في نفي الاستواء الأول لأنه الذي ابتدئ به نفي الاستواء المؤكد من بعد فهو كله تأييس. وهو استعمال قرآني بديع في عطف المنفيات من المفردات

والجمل، ومنه قوله تعالى)تستوي الحسنة ولا السيئة(في سورة فصلت.
وجملة)وما يستوي الأحياء ولا الأموات(أظهر في هذه الجملة الفعل الذي قدر في الجملتين اللتين قبلها وهو فعل)يستوي(لأن التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين إذ شبه حال المسلم بحال الأحياء وحال الكافرين بحال الأموات، فهذا ارتقاء في تشبيه الحالين من تشبيه المؤمن بالبصير والكافر بالأعمى إلى تشبيه المؤمن بالحي والكافر بالميت، ونظيره في إعادة فعل الاستواء قوله تعالى في سورة الرعد)قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور(.
فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلها وكان الموت قاطعا للمدارك والمساعي، شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه، وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها وفي عدم تلقي ما يلقى إلى صاحبه فصار المؤمن شبيها بالحي مشابهة كاملة لما خرج من الكفر إلى الإيمان، فكأنه بالإيمان نفخت فيه الحياة بعد الموت كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأنعام)أو من كان ميتا فأحييناه(، وكان الكافر شبيها بالميت ما دام على كفره. واكتفى بتشبيه الكافر والمؤمن في موضعين عن تشبيه الكفر والإيمان وبالعكس لتلازمهما، وأوتي تشبيه الكافر والمؤمن في موضعين لكون وجه الشبه في الكافر والمؤمن أوضح، وعكس ذلك في موضعين لأن وجه الشبه أوضح في الموضعين الآخرين.

صفحة : 3482

)إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور[22]إن أنت إلا نذير[23](لما كان أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه وهو القرآن كان حال الكافر الشبيه بالموت أوضح شبها به في عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(، وكان حال المؤمنين بعكس ذلك إذ تلقوا القرآن ودرسوه وتفقهوا فيه)الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله(، وأعقب تمثيل حال المؤمنين والكافرين بحال الأحياء والأموات بتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معذرة له في التبليغ للفريقين، وفي عدم قبول تبليغه لدى أحد الفريقين، وتسلية له عن ضياع وابل نصحه في سباخ قلوب الكافرين فقيل

له: إن قبول الذين قبلوا الهدى واستمعوا إليه كان بتهيئة الله تعالى نفوسهم لقبول الذكر والعلم، وإن عدم انتفاع المعرضين بذلك هو بسبب موت قلوبهم فكأنهم الأموات في القبور وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات، فجاء قوله)إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور(على مقابلة قوله)وما يستوي الأحياء ولا الأموات(مقابلة اللف بالنشر المرتب.

فجملة)إن الله يسمع من يشاء(تعليل لجملة)إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب(، لأن معنى القصر ينحل إلى إثبات ونفي فكان مفيدا فريقين: فريقا انتفع بالإنذار، وفريقا لم ينتفع، فعلل ذلك ب)إن الله يسمع من يشاء(.

وقوله)وما أنت بمسمع من في القبور(إشارة إلى الذين لم يشأ الله أن يسمعهم إنذارك.

واستعير)من في القبور(للذين لم تنفع فيهم النذر، وعبر عن الأموات ب)من في القبور(لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات لأن بينهم وبين المنادى حاجز الأرض. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى.

وجيء بصيغة الجمع)الأحياء(و)الأموات(تفننا في الكلام بعد أن أورد الأعمى والبصير بالإفراد لأن المفرد والجمع في المعرف بلام الجنس سواء إذا كان اسما له أفراد بخلاف النور والظل والحرور، وأما جمع)الظلمات(فقد علمت وجهه آنفا.

وجملة)إن أنت إلا نذير(أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحق، أي أنت نذير للمشابهين من في القبور ولست بمدخل الإيمان إلى قلوبهم، وهذا مسوق مساق المعذرة للنبي صلى الله عليه وسلم وتسليته إذا كان مهتما من عدم إيمانهم.

والنذير: المنبئ عن توقع حدوث مكروه أو مؤلم.

والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصممين على الكفر.

)إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[24](استئناف ثناء على النبي صلى الله عليه وسلم وتنويه به بالإسلام. وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصرا حقيقا لتبين أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور،أي أن رسالتك تجمع بشارة ونذارة، فالبشارة لمن قبل الهدى، والنذارة لمن أعرض عنه، وكل ذلك حق لأن الجزاء على حسب القبول، فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها.

فقوله)بالحق(إما حال من ضمير المتكلم في)أرسلناك(أي محقين غير لاعبين، أو من كاف الخطاب، أي محقا أنت غير كاذب،

أو صفة لمصدر محذوف، أي إرسالا ملابسا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل. وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة.
وقوله)وإن من أمة إلا خلا فيها نذير(إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرا منهم،فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدهم عن التصديق به، فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى)قل ما كنت بدعا من الرسل(.
وأيضا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شرفت بالرسالة.

صفحة : 3483

ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله)وإن من أمة إلا خلا فيها نذير(، فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة لأنها لم يؤمن منها أحد، ففي الحديث عرضت علي الأمم فجعل النبي يمر معه الرهط، والنبي يمر معه الرجل الواحد، والنبي يمر وحده الحديث، فإن الأنبياء الذين مروا وحدهم هم الأنبياء الذين لم يستجب لهم أحد من قومهم، وقد يكون عدم ذكر وصف البشارة للاكتفاء بذكر قرينة اكتفاء بدلالة ما قبله عليه، وأوثر وصف النذير بالذكر لأنه أشد مناسبة لمقام خطاب المكذبين.
ومعنى الأمة هنا: الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جد واحد جامع لقبائل كثيرة لها مواطن متجاورة مثل أمة الفرس وأمة الروم وأمة الصين وأمة الهند وأمة يونان وأمة إسرائيل وأمة العرب وأمة البربر، فما من أمة من هؤلاء إلا وقد سبق فيها نذير، أي رسول أو نبي ينذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة. فمن المنذرين من علمناهم، ومنهم من أنذروا وانقرضوا ولم يبق خبرهم قال تعالى) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك(.
والحكمة في الإنذار أن لا يبقى الضلال رائجا وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق سواء عملوا بها أم لم يعملوا فإنها لا تخلوا من أثر صالح فيهم. وإنما لم يسم القرآن إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم السامية القاطنة في بلاد العرب وما جاورها لأن القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علم بهؤلاء الأقوام فقد علموا أخبارهم وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو

ذكرت لهم رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكاية ولم يكن فيه استدلال واعتبار.
)وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات و بالزبر وبالكتاب المنير[25] ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير[26](أعقب الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأن تلك سنة الرسل مع أممهم.
وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في أية آل عمران)فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير(لأن سياق آية أل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأن قبلها)الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار(.
وقد خولف أيضا في هذه الآية أسلوب آية آل عمران إذ قرن كل من)الزبر والكتاب المنير(هنا بالباء، وجردا منها في آية آل عمران وذلك لأن آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار،فقيل في التفرد ببهتانهم: قد كذبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النارفكذبتموهم، فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة.
ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين آتوا بآيات، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط، ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها، أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى،فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.
فزبور إبراهيم صحفه المذكورة في قوله تعالى)صحف إبراهيم وموسى(.
وزبور موسى كلامه في المواعظ الذي ليس فيه تبليغ عن الله مثل دعائه الذي دعا به في قادش المذكور في الإصحاح التاسع من سفر التثنية، ووصيته في عبر الأردن التي في الإصحاح السابع والعشرين من السفر المذكور، ومثل نشيده الوعظي الذي نطق به وأمر بني إسرائيل بحفظه والترنم به في الإصحاح الثاني والثلاثين منه، ومثل الدعاء الذي بارك به أسباط إسرائيل في عربات مؤاب في آخر حياته في الإصحاح الثالث والثلاثين منه.

وزبور عيسى أقواله المأثورة في الأناجيل مما لم يكن منسوبا إلى الوحي.

صفحة : 3484

فالضمير في)جاءوا(للرسل وهو على التوزيع، أي جاء مجموعهم بهذه الأصناف من الآيات، ولا يلزم أن يجيء كل فرد منهم بجميعها كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا.
وجواب)إن يكذبوك(محذوف دلت عليه علته وهي قوله)فقد كذبت رسل من قبلك(. والتقدير: إن يكذبوك فلا تحزن، ولا تحسبهم مفلتين من العقاب على ذلك إذ قد كذب الأقوام الذين جاءتهم رسل من قبل هؤلاء وقد عاقبناهم على تكذيبهم.
فالفاء في قوله)فقد كذب الذين من قبلهم(فاء فصيحة أو تفريع على المحذوف.
وجملة)جاءتهم(صلة)الذين(و)من قبلهم(في موضع الحال من اسم الموصول مقدم عليه أو متعلق ب)جاءتهم(.
و)ثم(عاطفة جملة)أخذت(على جملة)جاءتهم(أي ثم أخذتهم،وأظهر)الذين كفروا(في موضع ضمير الغيبة للإيماء إلى أن أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنهم كفروا.
والأخذ مستعار للاستئصال والإفناء، شبه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم فتبقى ديارهم بلقعا كأنهم أخذوا منها.
و)كيف(استفهام مستعمل في التعجيب من حالهم وهو مفرع بالفاء على)أخذت الذين كفروا (، والمعنى: أخذتهم أخذا عجيبا كيف ترون أعجوبته.
وأصل)كيف(أن يستفهم به عن الحال فلما استعمل في التعجيب من حال أخذهم لزم أن يكون حالهم معروفا، أي يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم وكل من بلغته أخبارهم فعلى تلك المعرفة المشهورة بني التعجيب.
والنكير: اسم لشدة الإنكار، وهو هنا كناية عن شدة العقاب لأن الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر بالعقاب.
وحذفت ياء المتكلم تخفيفا ولرعاية الفواصل في الوقف لأن الفواصل يعتبر فيها الوقف،وتقدم في سبأ.
)ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها(استئناف فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسبب ما تهيأت خلقة النفوس إليه ليظهر به

أن الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموس جبلي فطر الله عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن.

وضرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلا لاختلاف البواطن تقريبا للأفهام، فكان هذا الاستئناف من الاستئناف البياني لأن مثل هذا التقريب مما تشرئب إليه الأفهام عند سماع قوله)إن الله يسمع من يشاء(.

والرؤية بصرية، والاستفهام تقريري، وجاء التقرير على النفي على ما هو المستعمل كما بيناه عند قوله تعالى)ألم يروا أنه لا يكلمهم(في سورة الأعراف وفي آيات أخرى.

وضمير)فأخرجنا(التفات من الغيبة إلى التكلم.

والألوان: جمع لون وهو عرض، أي كيفية تعرض لسطوح الأجسام يكيفه النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل منها عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة وهو لون السواد وشبه الصبح هو لون البياض، فهما الأصلان للألوان، وتنشق منها ألوان كثيرة وضعت لها أسماء اصطلاحية وتشبيهة. وتقدم عند قوله تعالى)قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها(في سورة البقرة، وتقدم في سورة النحل.

والمقصود من الاعتبار هو اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرجل، وألوان العنب مع ألوان التين، واختلاف ألوان الأفراد من الصنف الواحد تارات كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان.

وذكر إنزال الماء من السماء إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله مع ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع كقوله تعالى) تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل(وذلك أرعى للاعتبار.

وجيء بالجملتين الفعليتين في)أنزل(و)أخرجنا(لأن إنزال الماء وإخراج الثمرات متجدد آنا فآنا.

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله)أنزل(وقوله)أخرجنا(لأن الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة لأنه الاسم الجامع لمعاني الصفات.

وضمير التكلم أنسب بما فيه امتنان.

وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد.وفي الحديث مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها .

وجرد)مختلفا(من علامة التأنيث مع أن فاعله جمع وشأن النعت السببي أن يوافق مرفوعه في التذكر وضده والإفراد وضده، ولا يوافق في ذلك منعوته، لأنه لما كان الفاعل جمعا لما لا يعقل وهو الألوان كان حذف التاء في مثله جائزا في الاستعمال، وآثره القرآن إيثارا للإيجاز.

والمراد بالثمرات: ثمرات النخيل والأعناب وغيرها، فثمرات النخيل أكثر الثمرات ألوانا، فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها، فمنها الأخضر والأصفر والأحمر والأسود.

)ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود[27] (عطف على جملة)ألم تر أن الله(فهي مثلها مستأنفة،وعطفها عليها للمناسبة الظاهرة.

و)جدد(مبتدأ)ومن الجبال(خبره. وتقديم الخبر للاهتمام وللتشويق لذكر المبتدأ حثا على التأمل والنظر.

و)من(تبعيضية على معنى: وبعض تراب الجبال جدد، ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة، وقد يكون بعض الجدد بعضها في بعض الجبال وبعض آخر في بعض آخر.

وجدد: جمع جدة بضم الجيم، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه. يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جدة، وللظبي جدتان مسكيتا اللون تفصلان بين لوني ظهره وبطنه، والجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخورا بيضاء مثل المروة، أو كانت تقرب من البياض فإن من التراب ما يصبر في لون الأهصب فيقال: تراب أبيض، ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص بل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب، والجدد الحمر هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال.

وغرابيب: جمع غربيب، والغربيب: اسم الشيء الأسود الحالك سواده، ولا تعرف له مادة مشتق هو منها، وأحسب أنه مأخوذ من الجامد، وهو الغراب لشهرة الغراب بالسواد.

وسود: جمع أسود وهو الذي لونه السواد.

فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود، فكان مقتضى الظاهر أن يكون)غرابيب(متأخرا عن)سود(لأن الغالب أنهم يقولون: أسود

غربيب، كما يقولون: أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقولون: غربيب أسود وإنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداء من قوله)والله الغني الحميد(، على أن في دعوى أن يكون غريبا تابعا لأسود نظرا والآية تؤيد هذا النظر، ودعوى كون)غرابيب(صفة لمحذوف يدل عليه)سود(تكلف واضح، وكذلك دعوى الفراء: أن الكلام على التقديم والتأخير، وغرض التوكيد حاصل على كل حال.

)ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه(موقعه كموقع قوله) ومن الجبال جدد(، ولا يلزم أن يكون مسوغ الابتداء بالنكرة غير مفيد معنى آخر فان تقديم الخبر هنا سوغ الابتداء بالنكرة.

واختلاف ألوان الناس منه اختلاف عام وهو ألوان أصناف البشر وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر حسب الاصطلاح الجغرافي. وللعرب في كلامهم تقسيم آخر لألوان أصناف البشر، وقد تقدم عند قوله)واختلاف ألسنتكم وألوانكم (في سورة الروم.

و)من(تعبيضية. والمعنى: أن المختلف ألوانه بعض من الناس، ومجموع المختلفات كله هو الناس كلهم وكذلك الدواب والأنعام، وهو نظم دقيق دعا إليه الإيجاز.

وجيء في جملة)ومن الجبال جدد(و)ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه(بالاسمية دون الفعلية كما في الجملة السابقة لأن اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافا دائما لا يتغير وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل.

)كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور[28](

صفحة : 3486

الأظهر عندي أن)كذلك(ابتداء كلام يتنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل. والمعنى: كذلك أمر الاختلاف في ظواهر الأشياء المشاهد في اختلاف ألوانها وهو توطئة لما يرد بعده من تفصيل الاستنتاج بقوله)إنما يخشى الله من عباده (أي إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم، فجملة)إنما يخشى الله من عباده العلماء(مستأنفة عن جملة)كذلك(. وإذا علم ذلك دل بالالتزام على أن غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله فدل على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون. وهذا مثل قوله) إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب(.

وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلصا للتنويه بأهل العلم والإيمان لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله)إن الذين يتلون كتاب الله(الآية ...

فقوله)كذلك(خبر لمبتدأ محذوف دل عليه المقام. والتقدير: كذلك الاختلاف، أو كذلك الأمر على نحو قوله تعالى في سورة الكهف) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا(وهو من فصل الخطاب كما علمت هنالك ولذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما بعده.

وأما جعل)كذلك(من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه.

والقصر المستفاد من)إنما(قصر إضافي، أي لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل الجاهلية، أي عدم العلم، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشيت الله. ثم أن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتا كثيرا. وتقديم فعول)يخشى(على فاعله لأن المحصور فيهم خشية الله هم العلماء فوجب تأخيره على سنة تأخير المحصور فيه.

والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم ويرعاها في مواقعها ويعلم عواقبها من خير أو شر، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقنا أنه مورط فيما لا تحمد عقباه، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة عن خشية العلماء. قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة .

وجملة)إن الله عزيز غفور(تكميل للدلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين ولكنه يريد لهم الخير. ولما كان في هذا الوصف ضرب من الإعراض عنهم مما قد يحدث يأسا في نفوس المقاربين منهم، ألفت قلوبهم بإتباع وصف)عزيز(، بوصف) غفور(أي فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه على أن في صفة)غفور(حظا عظيما لأحد طرفي القصر وهو العلماء، أي غفور لهم.

)إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور[29] ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من

فضله إنه غفور شكور[30](استئناف لبيان جملة)إنما يخشى الله من عباده العلماء(الآية، فالذين يتلون كتاب الله هم المراد بالعلماء، وقد تخلص إلى بيان فوز المؤمنين الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمان بالغيب فإن حالهم مضاد لحال الذين لم يسمعوا القرآن وكانوا عند تذكيرهم به كحال أهل القبور لا يسمعون شيئا. فبعد أن أثنى عليهم ثناء إجماليا بقوله تعالى)إنما يخشى الله من عباده العلماء (، وأجمل حسن جزائهم بذكر صفة)غفور(ولذلك ختمت هذه الآية بقوله)إنه غفور شكور(فصل ذلك الثناء وذكرت آثاره ومنافعه.

صفحة : 3487

فالمراد ب)الذين يتلون كتاب الله(المؤمنون به لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به وهم المراد بالعلماء. قال تعالى)بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم(. وهو أيضا كناية عن إيمانهم لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدق به وتلقاه باعتناء. وتضمن هذا أنهم يكتسبون من العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف، فقد أشعر الفعل المضارع بتجدد تلاوتهم فإن نزول القرآن متجدد فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه.

وكتاب الله القرآن وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته من تعظيم شأنه.

واتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة)الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة (فإنها أعظم الأعمال البدنية،ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال وهي الإنفاق، والمراد بالإنفاق حيثما أطاق في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ، على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حددت بالنصب والمقادير.

وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا يقتضي أنهم مداومون عليه.

وقوله)مما رزقناهم(إدماج للامتنان وإيماء إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق فهم يعطون منه أهل الحاجة.

ووقع الالتفات من الغيبة من قوله)كتاب الله(إلى التكلم في قوله)مما رزقناهم(لأنه المناسب للامتنان.

وانتصب)سرا وعلانية(على الصفة لمصدر)أنفقوا(محذوف، أي إنفاق سر وإنفاق علانية والمصدر مبين للنوع.
والمعنى: أنهم لا يريدون من الإنفاق إلا مرضاة الله تعالى لا يراءون به، فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وينفقون بمرأى من الناس فلا يصدهم مشاهدة الناس عن الإنفاق.
وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب أو كره من كره.
و)يرجون تجارة(هو خبر)إن(.
والخبر مستعمل في إنشاء التبشير كأنه قيل: ليرجوا تجارة، وزاده التعليل بقوله)ليوفيهم أجورهم(قرينة على إرادة التبشير.
والتجارة مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق.
ووجه الشبه مشابهة ترتب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.
والمعنى: ليرجوا أن تكون أعمالهم كتجارة رابحة.
والبوار: الهلاك. وهلاك التجارة: خسارة التاجر. فمعنى)لن تبور(أنها رابحة. و)لن تبور(صفة)تجارة(. والمعنى: أنهم يرجون عدم بوار التجارة.
فالصفة مناط التبشير والرجاء لا أصل التجارة لأن مشابهة العمل الفظيع لعمل التاجر شيء معلوم.
و)ليوفيهم(متعلق ب)يرجون(، أي بشرناهم بذلك وقدرناه لهم لنوفيهم أجورهم ووقع الالتفات من التكلم في قوله)مما رزقناهم(إلى الغيبة رجوعا إلى سياق الغيبة من قوله)يتلون كتاب الله(أي ليوفي الله الذين يتلون كتابه.
والتوفية: جعل الشيء وافيا، أي تاما لا نقيصة فيه ولا غبن.
وأسجل عليهم الفضل بأنه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثوابا من فضله، أي كرمه، وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى)كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة(الآية.
وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإن من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.
فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله. وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة، والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو يشكر

بالعمل لأن الذي يجازى على عمل عمله المجزي بجزاء وافر يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله.
وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها.

صفحة : 3488

وفي الآية ما يشمل ثواب قراء القرآن، فإنهم يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب والتنور بأنوار كلام الله.
)والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه(لما كان المبدأ به من أسباب ثواب المؤمنين هو تلاوتهم كتاب الله أعقب التنويه بهم بالتنويه بالقرآن للتذكير بذلك، ولأن في التذكير بجلال القرآن وشرفه إيماء إلى علة استحقاق الذين يتلونه ما استحقوا. وابتدئ التنويه به بأنه وحي من الله إلى رسوله، وناهيك بهذه الصلة تنويها بالكتاب، وهو يتضمن تنويها بشأن الذي أنزل عليه من قوله)والذي أوحينا إليك(، ففي هذه مسرة للنبي صلى الله عليه وسلم وبشارة له بأنه أفضل الرسل وأن كتابه أفضل الكتب.
وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه كونه الحق الكامل، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأنألألألأن يقال: وهو الكتاب الحق.
فالتعريف في)الكتاب(تعريف العهد.
و)من(بيانية لما في الموصول من الإبهام، والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحق. فقدم الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب تقديما للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضل تمكن.
فجملة)والذي أوحينا إليك من الكتاب (معطوفة على جملة)إن الذين يتلون كتاب الله(فهي مثلها في حكم الاستئناف.
وضمير)هو(ضمير فصل، وهو تأكيد لما أفاده تعريف المسند من القصر.
والتعريف في)الحق(تعريف الجنس. وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه، أي قصر جنس الحق على)الذي أوحينا إليك(، وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقية ما عداه من الكتب.
فأما الكتب غير الإلهية مثل الزند فستا كتاب زراد شت ومثل كتب الصابئة فلأن ما فيها من قليل الحق قد غمر بالباطل والأوهام.

وأما الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وما تضمنته كتب الأنبياء كالزبور وكتاب أرميا من الوحي الإلهي، فما شهد القرآن بحقيته فقد دخل في شهادة قوله)مصدقا لما بين يديه(، وما جاء نسخه بالقرآن فقد بين النسخ تحديد صلاحيته في القرآن. وذلك أيضا تصديق لها لأنه يدفع موهم بطلانها عند من يجد خلافها في القرآن وما عسى أن يكون قد نقل على تحريف أو تأويل فقد دخل فيما أخرجه القصر. وقد بين القرآن معظمه وكشف عن مواقعه كقوله) وهو محرم عليكم إخراجهم(.

ومعنى)ما بين يديه(ما سبقه لأن السابق يجيء متقدما على المسبوق فكأنه يمشي بين يديه كقوله تعالى)إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد(.

والمراد بما بين يديه ما قبله من الشرائع، وأهمها شريعة موسى وشريعة عيسى عليهما السلام.

وانتصب)مصدقا(على الحال من)الكتاب(والعامل في الحال فعل)أوحينا(ليفيد أنه مع كونه حقا بالغا في الحقية فهو مصدق للكتب الحقة، ومقرر لما اشتملت عليه من الحق.

)إن الله بعباده لخبير بصير[31](تذييل جامع لما تضمنته الآيات قبله من تفضيل بعض عباد الله على بعض ومن انطواء ضمائرهم على الخشية وعدمها، وإقبال بعضهم على الطاعات وإعراض بعض، ومن تفضيل بعض كتب الله على بعض المقتضى أيضا تفضيل بعض المرسلين بها على بعض، فموقع قوله)إن الله بعباده لخبير بصير(موقع إقناع السامعين بأن الله عليم بعباده وهو يعاملهم بحسب ما يعلم منهم، ويصطفي منهم من علم أنه خلقه كفئا لاصطفائه، فألقهم بهذا الذين قالوا)أأنزل عليه الذكر من بيننا(حجرا، وكأولئك أيضا الذين ينكرون القرآن من أهل الكتاب بعلة أنه جاء مبطلا لكتابهم.

والخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية.

والبصير: العالم بالأمور المبصرة. وتقديم الخبير على البصير لأنه أشمل. وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإسلام، وقد تكرر إرداف الخبير بالبصير في مواضع كثيرة من القرآن.

والتأكيد ب)أن(واللام للاهتمام بالمقصود من هذا الخبر.

)ثم أورثتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير[32]( )ثم(للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل فهي هنا لعطف الجمل عطفا ذكريا، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات، فهذه الجملة كالمستأنفة، و)ثم(للترقي في الاستئناف. وهذا ارتقاء في التنويه بالقرآن المتضمن التنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم وعروج في مسرته وتبشيره، فبعد أن ذكر بفضيلة كتابه وهو أمر قد تقرر لديه زيد تبشيرا بدوام كتابه وإيتائه أمة هم المصطفون من عباد الله تعالى، وتبشيره بأنهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أمم من قبله كتبهم ورسلهم، لقوله)فمنهم ظالم لنفسه(الآية، فهذه البشارة أهم عند النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار بأن القرآن حق مصدق لما بين يديه، لأن هذه البشارة لم تكن معلومة عنده فوقعها أهم.

وحمل الزمخشري)ثم(هنا على التراخي الزمني فاحتاج إلى تكلف في إقامة المعنى.

والمراد ب)الكتاب(الكتاب المعهود وهو الذي سبق ذكره في قوله)والذي أوحينا إليك من الكتاب(أي القرآن.

و)أورثنا(جعلنا وارثين. يقال: ورث،إذا صار إليه مال ميت قريب. ويستعمل بمعنى الكسب عن غير اكتساب ولا عوض، فيكون معناه: جعلناهم آخذين الكتاب منا، أو نجعل الإيراث مستعملا في الأمر بالتلقي، أي أمرنا المسلمين بأن يرثوا القرآن، أي يتلقوه من الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى الاحتمالين ففي الإيراث معنى الإعطاء فيكون فعل)أورثنا(حقيقا بأن ينصب مفعولين. وكان مقتضى الظاهر أن يكون أحد المفعولين الذي هو الأخذ في المعنى هو المفعول الأول والأخر ثانيا، وإنما خولف هنا فقدم المفعول الثاني لأمن اللبس قصدا للاهتمام بالكتاب المعطى. وأما التنويه بآخذي الكتاب فقد حصل من الصلة.

والمراد بالذين اصطفاهم الله: المؤمنون كما قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا (إلى قوله)هو اجتباكم(. وقد اختار الله للإيمان والإسلام أفضل أمة من الناس، وقد رويت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى في مسند أحمد بن حنبل وغيره ذكرها ابن كثير في تفسيره.

ولما أريد تعميم البشارة مع بيان أنهم مراتب فيما بشروا به جيء بالتفريع في قوله)فمنهم ظالم لنفسه(إلى آخره، فهو تفصيل لمراتب المصطفين لتشمل البشارة جميع أصنافهم ولا يظن أن الظالم لنفسه محروم منها،فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام وهو الانقياد بالقول والاستسلام.

وقدم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلا لمسرته.
والفاء في قوله)فمنهم ظالم نفسه(الخ تفصيل لأحوال الذين أورثوا الكتاب أي أعطوا القرآن. وضمير منهم الأظهر أنه عائد إلى) الذين اصطفينا(، وذلك قول الحسن وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين. وقيل هو عائد إلى)عبادنا(أي ومن عبادنا علمه والإطلاق. وهو قول ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك، وعليه فالظالم لنفسه هو الكافر. ويسري أثر هذا الخلاف في محمل ضمير)جنات عدن يدخلونها(ولذلك يكون قول الحسن جاريا على وفاق ما روي عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعقبة بن عمرو وما هو مروي عن عائشة وهو الراجح.
والظالمون لأنفسهم هم الذين يجرون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية فإن معصية المرء ربه ظلم لنفسه لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها وذلك ظلم للنفس لأنه اعتداء عليها إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورطها فيما تجد جزاء ذميمها عليه. قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نهيا عنه من أكل الشجرة)قالا ربنا ظلمنا أنفسنا(وقال)ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما(وقال) إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فأني غفور رحيم(في سورة النمل، وقال)قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا(في سورة الزمر.
واللام في)لنفسه(لام التقوية لأن العامل فرع في العمل إذ هو اسم فاعل.

صفحة : 3490

والمقتصد: هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبار ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها وقد يلمون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات، فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام، فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق علم أنه مرتكب حالة بين تينك الحالتين فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق.
والسابق أصله: الواصل إلى غاية معينة قبل غيره من الماشين إليها. وهو هنا مجاز لإحراز الفضل لأن السابق يحرز السبق)بفتح الباء(، أو مجاز في بذل العناية لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين

في المجاز فهو مكنى عن الإكثار من الخير لأن السبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار. وفي هذا السبق تفاوت أيضا كخيل الحلبة.

والخيرات: جمع خير على غير قياس،والخير: النافع. والمراد بها هنا الطاعات لأنها أعمال صالحة نافعة لعاملها وللناس بآثارها.

والباء للظرفية، أي في الخيرات كقوله)يسارعون في الإثم والعدوان(.

وفي ذكر الخيرات في القسم الآخر دلالة على أنها مرادة في القسمين الأولين فيؤول إلى معنى ظالم لنفسه في الخيرات ومقتصد في الخيرات أيضا،ولك أن تجعل معنى)ظالم لنفسه(أنه ناقصها من الخيرات كقوله تعالى)كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئا(أي لم تنقص عن معتادها في الإثمار في سورة الكهف.

والإذن مستعمل في التيسير على سبيل المجاز، والباء للسببية متعلقة ب)سابق(، وليس المراد به الأمر لأن الله أمر الناس كلهم بفعل الخير سواء منهم من أتى به ومن قصر فيه.

ولك أن تجعل الباء للملابسة وتجعلها ظرفا مستقرا في موضع الحال من)سابق(أي متلبسا بإذن الله ويكون الإذن مصدرا بمعنى المفعول، أي سابق ملابس لما أذن الله به، أي لم يخالفه.

وعلى الوجه الأول هو تنويه بالسابقين بأن سبقهم كان بعون من الله وتيسير منه.

وفيما رأيت من تفسير هذه المراتب الثلاث في الآية المأخوذ من كلام الأئمة، مع ضميمة لا بد منها. تستغني عن التيه في مهامه أقوال كثيرة في تفسيرها تجاوزت الأربعين قولا.

والإشارة في قوله)ذلك هو الفضل الكبير(إلى الاصطفاء المفهوم من)اصطفينا(أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب.

والفضل: الزيادة في الخير، والكبير مراد به ذو العظم المعنوي وهو الشرف وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإيمان والإسلام. وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى: ظالم، ومقتصد، وسابق. وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل.

ووجه هذا الانحصار أن هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة قال تعالى)من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(، وقال)وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا(.

)جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير[33](الأظهر أنه بدل اشتمال من قوله)ذلك هو الفضل الكبير(فإن ما يشتمل عليه الفضل دخولهم الجنة كما علمت وتخصيص هذا الفضل من بين أصنافه لأنه أعظم الفضل ولأنه أمارة على رضوان الله عنهم حين إدخالهم الجنة،)ورضوان من الله أكبر(.

ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا لبيان الفضل الكبير وقد بين بأعظم أصنافه. والمعنى واحد.

صفحة : 3491

وضمير الجماعة في)يدخلونها(راجع إلى)الذين اصطفينا(المقسم إلى ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، أي هؤلاء كلهم يدخلون الجنة لأن المؤمنين كلهم مآلهم الجنة كما دلت عليه الأخبار التي تكاثرت. وقد روى الترمذي بسند فيه مجهولان عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية)ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات(قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة . قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال أبو بكر بن العربي في العارضة: من الناس من قال: إن هذه الأصناف الثلاثة هم الذين في سورة الواقعة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون. وهذا فاسد لأن أصحاب المشأمة في النار الحامية، وأصحاب سورة فاطر في جنة عالية لأن الله ذكرهم بين فاتحة وخاتمة فأما الفاتحة فهي قوله)ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا(فجعلهم مصطفين. ثم قال في آخرهم)جنات عدن يدخلونها(ولا يصطفى إلا من يدخل الجنة، ولكن أهل الجنة ظالم لنفسه فقال)فمنهم ظالم لنفسه(وهو العاصي والظالم المطلق هو الكافر، وقيل عنه: الظالم لنفسه رفقا به، وقيل للآخر السابق بإذن الله إنباء أن ذلك بنعمة الله وفضله لا من حال العبد اه.

وفي الإخبار بالمسند الفعلي عن المسند إليه إفادة تقوي الحكم وصوغ الفعل بصيغة المضارع لأنه مستقبل، وكذلك صوغ) يحلون(وهو خبر ثان عن)جنات عدن(. وتقدم نظيرها في سورة الحج فانظره.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر)ولؤلؤا(بالنصب عطفا على محل) أساور(لأنه لما جر بحرف الجر الزائد كان في موضع نصب على

المفعول الثاني لفعل)يحلون(فجاز في المعطوف أن ينصب على مراعاة محل المعطوف عليه. وقرأه الباقون بالجر على مراعاة اللفظ، وهما وجهان.

)وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور[34] الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[35](الأظهر أن جملة)وقالوا(في موضع الحال من ضمير)يحلون(لئلا يلزم تأويل الماضي بتحقيق الوقوع مع أنه لم يقصد في قوله)يدخلونها(. وتلك المقالة مقارنة للتحلية واللباس، وهو كلام يجري بينهم ساعتئذ لإنشاء الثناء على الله على ما خولهم من دخول الجنة، ولما فيه من الكرامة.

وإذهاب الحزن مجاز في الإنجاء منه فتصدق بإزالته بعد حصوله ويصدق بعدم حصوله.

والحزن: الأسف. والمراد: أنهم لما أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبل من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين ومما كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم.

وجملة)إن ربنا لغفور شكور(استئناف ثناء على الله شكروا به نعمة السلامة أثنوا عليه بالمغفرة لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين، ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم وأثنوا على الله بأنه شكور لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم. وهذا على نحو ما تقدم في قوله)ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور(.

والمقامة: مصدر ميمي من أقام بالمكان إذا قطنه. والمراد: دار الخلود. وانتصب)دار المقامة(على المفعول الثاني ل)أحلنا(أي أسكننا.

و)من(في قوله)من فضله(ابتدائية في موضع الحال من)دار المقامة(.

والفضل: العطاء،وهو أخو التفضل في أنه عطاء منه وكرم.

ومن فضل الله أن جعل لهم الجنة جزاء على الأعمال الصالحة لأنه لو شاء لما جعل للصالحات عطاء ولكان جزاؤها مجرد السلامة من العقاب،وكان أمر من لم يستحق الخلود في النار كفافا، أي لا عقاب ولا ثواب فيبقى كالسوائم، وإنما أرادوا من هذا تمام الشكر والمبالغة في التأدب.

وجملة)لا يمسنا فيها نصب(حال ثانية.

والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو شدة حر وشدة برد. واللغوب: الإعياء من جراء عمل أو جري.
وإعادة الفعل المنفي في قوله)ولا يمسنا فيها لغوب(لتأكيد انتفاء المس.

صفحة : 3492

)والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور[36](مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقينا بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان.
وفي قوله تعالى في الكفار)ولا يخفف عنهم من عذابها(إيماء إلى أن نار عقاب المؤمنين خفية عن نار المشركين.
فجملة)والذين كفروا(معطوفة على جملة)جنات عدن يدخلونها(.
ووقع الإخبار عن نار جهنم بأنها)لهم(بلام الاستحقاق للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم كقوله تعالى)فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(في سورة البقرة وقوله)واتقوا النار التي أعدت للكافرين(في سورة آل عمران، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة أو أنها أعدت للكافرين.
وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم لاقترافهم الأعمال السيئة التي شأنها أن تكون للكافرين.
وقدم المجرور في)لهم نار جهنم(على المستند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن.
وجملة)لا يقضي عليهم(بدل اشتمال من جملة)لهم نار جهنم(، والقضاء: حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى)فوكزه موسى فقضى عليه(. وهو هنا محتمل للحقيقة، أي لا يقدر الله موتهم،فقوله)فيموتوا(مسبب على القضاء.والمعنى: لا يقضي عليهم بالموت فيموتوا، ومحتمل للمجاز وهو الموت.وتفريع)فيمونوا(على هذا الوجه أنهم لا يموتون إلا الإماتة التي يتسبب عليها الموت الحقيقي الذي يزول عنده الإحساس، فيفيد أنهم يماتون موتا ليس فيه من الموت إلا آلامه دون راحته، قال تعالى)ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون(وقال تعالى)كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب(.

وضمير)عذابها(عائد إلى جهنم ليشمل ما ورد من أن المعذبين يعذبوهن بالنار ويعذبون بالزمهرير وهو شدة البرد وكل ذلك من عذاب جهنم.

ووقع)كذلك(موقع المفعول المطلق لقوله)نجزي(أي نجزيهم جزاء كذلك الجزاء، وتقدم عند قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمتا وسطا(في سورة البقرة. وجملة)كذلك نجزي كل كفور(تذييل. والكفور: الشديد الكفر، وهو المشرك.

وقرأ الجمهور)نجزي(بنون العظمة ونصب)كل(. وقرأه أبو عمرو وحده)يجزى(بياء الغائب والبناء للنائب ورفع)كل(.

)وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صلحا غير الذي كنا نعمل(الضمير)إلى الذين كفروا(والجملة عطف على جملة)لهم نار جهنم(ولا تجعل حالا لأن التذييل آذن بانتهاء الكلام وباستقبال كلام جديد.

و)يصطرخون(مبالغة في)يصرخون(لأن افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد،فالصطراخ مبالغة فيه، أي يصيحون من شدة ما نابهم.

وجملة)ربنا أخرجنا(بيان لجملة)يصطرخون(، يحسبون أن رفع الأصوات أقرب إلى علم الله بندائهم وإظهار عدم إطاقة ما هم فيه.

وقولهم)نعمل صالحا(وعد بالتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة ولكنها إنابة بعد أبانها.

ولإرادة الوعد جزم)نعمل صالحا(في جواب الدعاء. والتقدير: إن تخرجنا نعمل صالحا.

و)غير الذي كنا نعمل(نعت ل)صالحا(، أي عملا مغايرا لما كنا نعمله في الدنيا وهذا ندامة على ما كانوا يعملونه لأنهم أيقنوا بفساد عملهم وضره فإن ذلك العالم عالم الحقائق.

)أولم نعمركم ما يتذكر فيه من وجاءكم النذير فذوقوا فما للظلمين من نصير[37](الواو عاطفة فعل قول محذوفا لعلمه من السياق بحسب الضمير في)نعمركم(معطوفا على جملة)وهم يصطرخون فيها(فإن صراخهم كلام منهم، والتقدير: يقولون ربنا أخرجنا ونقول ألم نعمركم.

والاستفهام تفريع للتوبيخ، وجعل التقرير على النفي توطئة لينكره المقرر حتى إذا قال: بلى علم أنه لم يسعه الإنكار إليه.

والتعمير: تطويل العمر. وقد تقدم غير مرة،منه عند قوله تعالى) يود أحدهم لو يعمر ألف سنة(في سورة البقرة، وقوله)وما يعمر من معمر(في هذه السورة.
و)ما(ظرفية مصدرية، أي زمان تعمير معمر.
وجملة)يتذكر فيه من تذكر(صفة ل)ما(، أي زمانا كافيا بامتداده للتذكر والتبصير.
والنذير: الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وجملة)وجاءكم النذير(عطف على جملة)ألم نعمركم(لأن معناها الخبر فعطف عليها الخبر، على أن عطف الخبر على الإنشاء جائز على التحقيق وهو هنا حسن.
ووصف الرسول بالنذير لأن الأهم من شأنه بالنسبة إليهم هو النذارة.
والفاء في)فذوقوا(للتفريع، وحذف مفعول)ذوقوا(لدلالة المقام عليه، أي ذوقوا العذاب.
والأمر في قوله)فذوقوا(مستعمل في معنى الدوام وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب.
وقوله)فما للظالمين من نصير(تفريع على ما سبق من الحكاية. فيجوز أن يكون من جملة الكلام الذي وبخهم الله به فهو تذييل له وتفريع عليه لتأييسهم من الخلاص يعني: فأين الذين زعمتم أنهم أولياؤكم ونصراؤكم فما لكم من نصير.
وعدل عن ضمير الخطاب أن يقال: فما لكم من نصير، إلى الاسم الظاهر بوصف)الظالمين(لإفادة سبب انتفاء النصير عنهم، ففي الكلام إيجاز، أي لأنكم ظالمون وما للظالمين من نصير،فالمقصود ابتداء نفي النصير عنهم ويتبعه التعميم بنفي النصير عن كل من كان مثلهم من المشركين.
ويجوز أن يكون كلاما مستقلا مفرعا على القصة ذيلت بها للسامعين من قوله)والذين كفروا لهم نار جهنم(، فليس فيه عدول عن الإضمار إلى الإظهار لأن المقصود إفادة شمول هذا الحكم لكل ظالم فيدخل الذين كفروا المتحدث عنهم في العموم.
والظلم: هو الاعتداء على حق صاحب حق، وأعظمه الشرك لأنه اعتداء على الله بإنكار صفته النفسية وهو الوحدانية، واعتداء المشرك على نفسه إذ أقحمها في العذاب قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(.
وتعميم)الظالمين(وتعميم)النصير(يقتضي أن نصر الظالم تجاوز للحق، لأن الحق أن لا يكون للظالم نصير، إذ واجب الحكمة والحق أن يأخذ المقتدر على يد كل ظالم لأن الأمة مكلفة بدفع الفساد عن جماعتها.

وفي هذا إبطال لخلق أهل الجاهلية القائلين في أمثالهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما . وقد ألقى النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه إبطال ذلك فساق لهم هذا المثل حتى سألوا عنه ثم أصلح معناه مع بقاء لفظه)إذ كان ظالما تنصره على نفسه فتكفه عن ظلمه(.

)إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات لصدور[38] هو الذي جعلكم خلف في الأرض فمن كفر فعليه كفر ولا يزيد الكفرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكفرين كفرهم إلا خسارا[39](جملة)إن الله عالم غيب السماوات والأرض(استئناف واصل بين جملة)إن الله بعباده لخبير بصير(وبين جملة)قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا في الأرض(الآية، فتسلسلت معانيه فعاد إلى فذلكة الغرض السالف المنتقل عنه من قوله)وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم(إلى قوله)إن الله بعباده لخبير بصير(، فكانت جملة)إن الله عالم غيب السماوات والأرض(كالتذييل لجملة)إن الله بعباده لخبير بصير(.

وفي هذا إيماء إلى أن الله يجازي كل ذي نية على حسب ما أضمره ليزداد النبي صلى الله عليه وسلم يقينا بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون.

وجملة)إنه عليم بذات الصدور(مستأنفة هي كالنتيجة لجملة)إن الله عالم غيب السماوات والأرض(لأن ما في الصدور من الأمور المغيبة فيلزم من علم الله بغيب السماوات والأرض علمه بما في صدور الناس.

و)ذات الصدور(ضمائر الناس ونياتهم، وتقدم عند قوله تعالى)إنه عليم بذات الصدور (في سورة الأنفال.

وجيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء. وذلك كناية عن الجزاء عليه فهي كناية رمزية.

وجملة)هو الذي جعلكم خلائف في الأرض(معترضة بين جملة) إن الله عالم غيب السماوات والأرض(الآية وبين جملة)فمن كفر فعليه كفره(.

والخلائف: جمع خليفة، وهو الذي يخاف غيره في أمر كان لذلك الغير، كما تقدم عند قوله تعالى)إني جاعل في الأرض خليفة(في

سورة البقرة، فيجوز أن يكون بعد أمم مضت كما في قوله)ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم(في سورة يونس فيكون هذا بيانا لقوله)إن الله عالم غيب السماوات والأرض(أي هو الذي أوجدكم في الأرض فكيف لا يعلم ما غاب في قلوبكم كما قال تعالى)ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير(ويكون ما صدق ضمير جماعة للمخاطبين شاملا للمؤمنين وغيرهم من الناس.

ويجوز أن يكون المعنى: هو الذي جعلكم متصرفين في الأرض، كقوله تعالى)ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون(، فيكون الكلام بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله قدر أن يكون المسلمون أهل سلطان في الأرض بعد أمم تداولت سيادة العالم ويظهر بذلك دين الإسلام على الدين كله.

والجملة الاسمية مفيدة تقوي الحكم الذي هو جعل الله المخاطبين خلائف في الأرض.

وقد تفرع على قوله)عليم بذات الصدور(قوله)فمن كفر فعليه كفره(وهو شرط مستعمل كناية عن عدم الاهتمام بأمر دوامهم على الكفر.

وجملة)ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا(بيان لجملة) فمن كفر فعليه كفره(وكان مقتضى ظاهر هذا المعنى أن لا تعطف عليها لأن البيان لا يعطف على المبين، وإنما خولف ذلك للدلالة على الاهتمام بهذا البيان فجعل مستقلا بالقصد إلى الإخبار به فعطفت على الجملة المبينة بمضمونها تنبيها على ذلك الاستقلال، وهذا مقصد يفوت لو ترك العطف، أما ما تفيده من البيان فهو أمر لا يفوت لأنه تقتضيه نسبة معنى الجملة الثانية من معنى الجملة الأولى.

والمقت: البغض مع خزي وصغار، وتقدم عند قوله تعالى)إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا(في سورة النساء، أي يزيدهم مقت الله إياهم، ومقت الله مجاز عن لازمه وهو إمساك لطفه عنهم وجزاؤهم بأشد العقاب.

وتركيب جملة)ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا(تركيب عجيب لأن ظاهره يقتضي أن الكافرين كانوا قبل الكفر ممقوتين عند الله فلما كفروا زادهم كفرهم مقتا عنده، في حال أن الكفر هو سبب مقت الله إياهم، ولو لم يكفروا لما مقتهم الله. فتأويل الآية: أنهم لما وصفوا بالكفر ابتداء ثم أخبر بأن كفرهم يزيدهم مقتا علم أن المراد بكفرهم الثاني الدوام على الكفر يوما بعد يوم، وقد كان المشركون يتكبرون على المسلمين ويشاقونهم ويؤيسونهم من الطماعية في أن يقبلوا الإسلام بأنهم أعظم من أن يتبعوهم وأنهم لا يفارقون دين آبائهم، ويحسبون ذلك مقتا منهم

للمسلمين فجازاهم الله بزيادة المقت على استمرار الكفر، قال تعالى)إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون(، يعني: ينادون في المحشر، وكذلك القول في معنى قوله)ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا(.

والخسار: مصدر خسر مثل الخسارة، وهو: نقصان التجارة. واستعير لخيبة العمل، شبه عملهم في الكفر بعمل التاجر والخاسر، أي الذي بارت سلعته فباع بأقل مما اشتراها به فأصابه الخسار فكلما زاد بيعا زادت خسارته حتى تفضي به إلى الإفلاس، وقد تقدم ذلك في آيات كثيرة منها ما في سورة البقرة.

)قل أريتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتبا فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا[40](لم يزل الكلام موجها لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم

ولما جرى ذكر المشركين وتعنتهم وحسبان أنهم مقتوا المسلمين عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجة أنها لا يوجد في الأرض شيء يدعى أنها خلقته، ولا في السماوات شيء لها فيه شرك مع الله فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجهم ويوجه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنها لا ترزقهم كما في أول السورة، وبعد أن أثبت الله التصرف في مظاهر الأحداث الجوية والأرضية واختلاف أحوالها من قوله)والله الذي أرسل الرياح(، وذكرهم بخلقهم وخلق أصلهم وقال عقب ذلك)ذلكم الله ربكم له الملك(الآية عاد إلى بطلان إلهية الأصنام.

وبنيت الحجة على مقدمة مشاهدة انتفاء خصائص الإلهية عن الأصنام، وهي خصوصية خلق الموجودات وانتفاء الحجة النقلية بطريقة الاستفهام التقريري في قوله)أرأيتم شركاءكم(يعني: إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإقرار بأنهم لم يخلقوا شيئا.

والمستفهم عن رؤيته في مثل هذا التركيب في الاستعمال هو أحوال المرئي وإناطة البصر بها،أي أن أمر المستفهم عنه واضح باد لكل من يراه كقوله)أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم(وقوله)أرأيت هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته(الخ.. والأكثر أن يكون ذلك توطئة لكلام يأتي بعده يكون هو كالدليل عليه أو الإيضاح له أو نحو ذلك،فيؤول معناه بما يتصل به من كلام بعده، ففي قوله هنا)أرأيتم شركاءكم(تمهيد

لأن يطلب منهم الإخبار عن شيء خلقه شركاؤهم فصار المراد من)أرأيتم شركاءكم(انظروا ما تخبروننني به من أحوال خلقهم شيئا من الأرض، فحصل في قوله)أرأيتم شركاءكم(إجمال فصله قوله) أروني ماذا خلقوا في الأرض(فتكون جملة)أروني ماذا خلقوا(بدلا من جملة)أرأيتم شركاءكم(بدل اشتمال أو بدل مفصل من مجمل.
والمراد بالشركاء من زعموهم شركاء الله في الإلهية فلذلك أضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين، أي الشركاء عندكم، لظهور أن ليس المراد أن الأصنام شركاء مع المخاطبين بشيء فتمحضت الإضافة لمعنى مدعيكم شركاء لله.
والموصول والصلة في قوله)الذين تدعون من دون الله(للتنبيه على الخطأ في تلك الدعوة كقول عبدة بن الطيب:
إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي
غليل صدورهم أن تصرعوا وقرينة التخطئة تعيقبه بقوله)أروني ماذا خلقوا من الأرض(فإنه أمر للتعجيز إذ لا يستطيعون أن يروه شيئا خلقته الأصنام، فيكون الأمر التعجيزي في قوة نفي أن خلقوا شيئا ما، كما كان الخبر في بيت عبدة الوارد بعد الصلة قرينة على كون الصلة للتنبيه على خطأ المخاطبين.
وفعل الرؤية قلبي بمعنى الأعلام والإنباء، أي أنبئوني شيئا مخلوقا للذين تدعون من دون الله في الأرض.
و)ماذا(كلمة مركبة من)ما(الاستفهامية و)ذا(التي بمعنى الذي حين تقع بعد اسم استفهام،وفعل الإرادة معلق عن العمل في المفعول الثاني والثالث بالاستفهام. والتقدير: أروني شيئا خلقوه مما في الأرض.
و)من(ابتدائية، أي شيئا ناشئا من الأرض، أو تبعيضية على أن المراد بالأرض ما عليها كإطلاق القرية على سكانها في قوله) واسأل القرية(.
و)أم(منقطعة للإضراب الانتقالي، وهي تؤذن باستفهام بعدها.
والمعنى: بل ألهم شرك في السماوات.
والشرك بكسر الشين: اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء.
والمعنى: ألهم شرك مع الله في ملك السماوات وتصريف أحوالهما كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

صفحة : 3496

ولما كان مقر الأصنام في الأرض كان من الراجح أن تتخيل للهم الأوهام تصرفا كاملا في الأرض فكأنهم آلهة أرضية، وقد كان مزاعم

العرب واعتقاداتهم أفانين شي مختلطة من اعتقاد الصابئة ومن اعتقاد الفرس واعتقاد الروم فكانوا أشباها لهم فلذلك قيل لأشباههم في الإشراك أروني ماذا خلقوا من الأرض، أي فكان تصرفهم في ذلك تصرف الخالقية، فأما السماوات فقلما يخطر ببال المشركين أن للأصنام تصرفا في شؤونها، ولعلهم لم يدعوا ذلك ولكن جاء قوله)أم لهم شرك في السماوات(مجيء تكملة الدليل على الفرض والاحتمال، كما يقال في آداب ابحث)فإن قلت(. وقد كانوا ينسبون للأصنام بنوة لله تعالى قال تعالى)أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان(.

فمن أجل ذلك جيء في جانب الاستدلال على انتفاء تأثير الأصنام في العوالم السماوية بإبطال أن يكون لها شرك في السماوات لأنهم لا يدعون لها في مزاعمهم أكثر من ذلك.

ولما قضي حق البرهان العقلي على انتفاء إلهية الذين يدعون من دون الله تعالى المثبتة آلة دونه لأن الله اعلم بشركائه وأنداده لو كانوا، فقال تعالى)أم آتيناهم كتابا فهم على بينات منه(المعنى: بل آتيناهم كتابا فهم يتمكنون من حجة فيه تصرخ بإلهية هذه الآلهة المزعومة.

وقرأ نافع وأبن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم)على بينات(بصيغة الجمع. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب)على بينة(بصيغة الإفراد. فأما قراءة الجمع فوجهها أن شأن الكتاب أن يشتمل على أحكام عديدة ومواعظ مكررة ليتقرر المراد من إيتاء الكتب من الآلة القاطعة بحيث لا تحتمل تأويلا ولا مبالغة ولا نحوها على حد قول علماء الأصول في دلالة الأخبار المتواترة دلالة قطعية، وإما قراءة الإفراد فالمراد منها جنس البينة الصادق بأفراد كثيرة.

ووصف البينات أو البينة ب)منه(لآلة على أن المراد وكون الكتاب المفروض إيتاؤه مشتملا على حجة لهم تثبت إلهية الأصنام. وليس مطلق كتاب يؤتونه أمارة من الله على أنه بأنه راض منهم بما هم عليه كدلالة المعجزات على صدق الرسول، وليست الخوارق ناطقة بأنه صادق فأريد: أآتيانهم كتابا ناطقا مثل مال آتينا المسلمين القرآن.

ثم كر على كله الإبطال بواسطة)بل(، بأن ذلك كله منتصف وأنهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلا وعد بعضهم بعضا مواعيد كاذبة يغر بعضهم بها بعضا.

والمراد بالذين يعدونهم رؤساء المشركين وقادتهم بالموعودين عامتهم ودهماؤهم، أو أريد أن كلا الفريقين واعد وموعود في الرؤساء وأئمة الكفر يعدون العامة نفع الأصنام وشفاعتها وتقريبها إلى الله ونصرها غرورا بالعامة تعد رؤساءها التصميم على الشرك قال تعالى حكاية عنهم)إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها(.

و)إن(نافية، والاستثناء مفرع عن جنس الوعد محذوفا.

وانتصب)غرورا(على أنه صفة للمثنى المحذوف. والتقدير: إن يعد الظالمون بعضهم بعضا وعدا إلا وعدا غرورا.

والغرور تقدم معناه عند قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد(في آل عمران.

)إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا[41](انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنه تعالى هو القيوم على السماوات والأرض لتبقيا موجودتين فهو الحافظ بقدرته نظام بقائها. وهذا الإمساك هو الذي يعبر عنه علم الهيئة بنظام الجاذبية بحيث لا يعتريه خلل.

وعبر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التمثيل.

صفحة : 3497

وحقيقة الإمساك: القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق، فمثل حال حفظ نظام السماوات والأرض بحال استقرار الشيء الذي يمسكه الممسك بيده، ولما كان في الإمساك معنى المنع عدي إلى الزوال ب)من(، وحذفت كما هو شأن حروف الجر مع)أن(و)أن(في الغالب لا، وأكد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيق معناه وأنه لا تسامح فيه ولا مبالغة، وتقدم عند قوله تعالى) ويمسك السماء(في سورة الحج. ثم أشير إلى أن شأن الممكنات المصير إلى الزوال والتحول ولو بعد أدهار فعطف عليه قوله)ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده(، فالزوال المفروض أيضا مراد به اختلال نظامهما الذي يؤدي إلى تطاحنهما.

فالزوال يطلق على العدم، ويطلق على التحول من مكان إلى مكان، ومنه زوال الشمس عن كبد السماء، وتقدم آخر سورة إبراهيم.

وقد اختير هذا الفعل دون غيره لأن المقصود معناه المشترك فإن الله يمسكهما من أن يعدما، ويمسكهما من أن يتحول نظام حركتهما، كما قال تعالى)لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار(. فالله مريد استمرار انتظام حركة الكواكب والأرض على هذا النظام المشاهد المسمى بالنظام الشمسي وكذلك نظام الكواكب الأخرى الخارجة عنه إلى فلك الثوابت، أي إذا أراد الله انقراض تلك العوالم أو بعضها قيض فيها لا طوارئ الخلل والفساد والخرق بعد الالتئام والفتق بعد الرتق، فتفككت وانتشرت إلى ما لا يعلم مصيره إلا الله تعالى وحينئذ لا يستطيع غيره مدافعة ذلك ولا إرجاعها إلى نظامها السابق فربما اضمحلت أو اضمحل بعضها، وربما أخذت مسالك جديدة من البقاء.

وفي هذا إيقاظ للبصائر لتعلم ذلك علما إجماليا وتتدبر في انتساق هذا النظام البديع.

فاللام موطئة للقسم. والشرط وجوابه مقسم عليه، أي محقق تعليق الجواب بالشرط ووقوعه عنده، وجواب الشرط هو الجملة المنفية ب)إن(النافية وهي أيضا سادة مسد جواب القسم.

وإذ قد تحقق بالجملة السابقة أن الله ممسكهما عن الزوال علم أن زوالهما المفروض لا يكون إلا بإرادة الله تعالى زوالهما وإلا لبطل انه ممسكهما من الزوال.

وأسند فعل)زالتا(إلى)السماوات والأرض(على تأويل السماوات سماء واحدة. وأسند الزوال أليهما للعلم بأن الله هو الذي يزيلهما لقوله)إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا(.

وجيء في نفس إمساك أحد بحرف)من(المؤكدة للنفي تنصيصا على عموم النكرة في سياق النفي، أي لا يستطيع أحد كائنا من كان إمساكهما وإرجاعهما.

و)من بعد(صفة)أحد(و)من(ابتدائية،أي أحد ناشئ أو كائن من زمان بعده، لأن حقيقة)بعد(تأخر زمان أحد عن زمن غيره المضاف إليه)بعد(وهو هنا مجاز عن المغايرة بطريق المجاز المرسل لأن بعدية الزمان المضاف تقتضي مغايرة صاحب تلك البعدية، كقوله تعالى)فمن يهديه من عبد الله(، أي غير الله فالضمير المضاف إليه)بعد(عائد إلى الله.

وهذا نظير استعمال)وراء(بمعنى)دون(أو بمعنى)غير(أيضا في قول النابغة:

وليس وراء الله للمرء مذهب وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإطناب في محاجة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بأن ما يدعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفا لولا أن الله أراد بقاءهما لحكمة، كما في

قوله تعالى)لقد جئتم شيئا إدا يكاد السماوات ينفطرن منه وتنشق الجبال هد(. وهذه دلالة من مستتبعات التراكيب باعتبار مثار مقامات التكلم بها، وهو أيضا تعريض بالتهديد.
ولذلك أتبع بالتذييل بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة بما يشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإن التأخير من أثر الحلم، وما تقتضيه صفة الغفور من أن في الإمهال إعذارا للظالمين لعلهم يرجعون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لما رأى ملك الجبال فقال له)إن شئت أن أطبق عليهم الأخشعين(.
وفعل)كان(المخبر به عن ضمير الجلالة مفيد لتقرر الاتصاف بالصفتين الحسنتين.

صفحة : 3498

)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا[42] استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله(هذا شيء حكاه القرآن عن المشركين فهو حكاية قول صدر عنهم لا محالة،ولم يرو خبر عن السلف يعين صدور مقالتهم هذه، ولا قائلها سوى كلام أثر عن الضحاك هو أشبه بتفسير الضمير من)أقسموا(، وتفسير المراد)من إحدى الأمم(ولم يقل إنه سبب نزول.
وقال كثير من المفسرين إن هذه المقالة صدرت عنهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغهم أن اليهود والنصارى كذبوا الرسل.والذي يلوح لي: أن هذه المقالة صدرت عنهم في مجاري المحاورة أو المفاخرة بينهم وبين بعض أهل الكتاب ممن يقدم عليهم بمكة، أو يقدمون هم عليهم في لا أسفارهم إلى يثرب أو إلى بلاد الشام، فربما كان أهل تلك البلدان يدعون المشركين إلى أتباع اليهودية أو النصرانية ويصغون الشرك في نفوسهم، فكان المشركون لا يجرأون على تكذيبهم لأنهم كانوا مرموقين عندهم بعين الوقار إذ كانوا يفضلونهم بمعرفة الديانة وبأنهم ليسوا أميين وهم يأبون أن يتركوا دين الشرك فكانوا يعتذرون بأن رسول القوم الذين يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلا إلى العرب ولو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم، كما قال تعالى)أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم(. والأظهر أن يكون الداعون لهم هم النصارى لأن الدعاء إلى النصرانية من شعار أصحاب عيسى عليه

السلام فإنهم يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يرشدوا بني الإنسان إلى الحق وكانت الدعوة إلى النصرانية فأشبه في بلاد العرب أيام الجاهلية وتنصرت قبائل كثيرة مثل تغلب، ولخم، وكلب، ونجران، فكانت هذه الدعوة إن صح إيصاء عيسى عليه السلام بها دعوة إرشاد إلى التوحيد لا دعوة تشريع، فإذا ثبتت هذه الوصية فما آراها إلا توطئة لدين يجيء تعم دعوته سائر البشر، فكانت وصيته وسطا بين أحوال الرسل الماضين إذ كانت دعوتهم خاصة وبين حالة الرسالة المحمدية العامة لكافة الناس عزما.

أما اليهود فلم يكونوا يدعون الناس إلى اليهودية ولكنهم يقبلون من يتهود كما تهود عرب اليمن.

وأحسب أن الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام، أو تشهير أنها لا تستحق العبادة، لا يخلو عنها علماء موحدون، وبهذا الاعتبار يصح أن يكون بعض النصاح من أحبار يهود يثرب يعرض لقريش إذا مروا على يثرب بأنهم على ضلال من الشرك فيعتذرون بما في هذه الآية. وهي تساوق قوله تعالى)وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لولا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة(.

فيتضح بهذا أن هذه الآية معطوفة على ما قبلها من أخبار ضلال المشركين في شأن الربوبية وفي شأن الرسالة والتدين، وأن ما حكى فيها هو من ضلالاتهم ومجازفتهم.

والقسم بين أهل الجاهلية أكثره بالله، وقد يقسمون بالأصنام وبآبائهم وعمرهم.

والغالب في ذلك أن يقولوا: واللات والعزى، ولذلك جاء في الحديث من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ، أي من جرى على لسانه ذلك جري الكلام الغالب وذلك في صدر انتشار الإسلام.

وجهد اليمين:أبلغها وأقواها. وأصله من الجهد وهو التعب، يقال: بلغ كذا مني الجهد، أي عملته حتى بلغ عمله مني تعبي، كناية عن شدة عزمه في العمل. فجهد الأيمان هنا كناية عن تأكيدها، وتقدم نظيره في قوله تعالى)أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم(في سورة العقود، وتقدم في سورة الأنعام وسورة النحل وسورة النور.

وانتصب)جهد(على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع لأنه صفة لما كان حقه أن يكون مفعولا مطلقا وهو)أيمانهم(إذ هو جميع يمين وهو الحلف فهو مرادف ل)أقسموا(، فتقديره: وأقسموا بالله قسما جهدا، وهو صفة بالمصدر أضيفت إلى موصوفها.

وجملة)لئن جاءهم نذير(الخ بيان لجملة)أقسموا(كقوله تعالى) فوسوس إليه الشيطان قال يا آدام(الآية.

صفحة : 3499

وعبر عن الرسول بالنذير لأن مجادلة أهل الكتاب إياهم كانت مشتملة على تخويف وإنذار، ولذلك لم يقتصر على وصف النذير في قوله تعالى)أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير(. وهذا يرجح أن تكون المجادلة جرت بينهم وبين بعض النصارى لأن الإنجيل معظمه نذارة.

و)إحدى الأمم(أمة من الأمم ذات الدين، فإن عنوا بها أمة معروفة: إما الأمة النصرانية، وإما الأمة اليهودية، أو الصابئة كان التعبير عنها ب)إحدى الأمم(إبهاما لها يحتمل أن يكون إبهاما من كلام المقسمين تجنبا لمجابهة تلك الأمة بصريح التفضيل عليها، ويحتمل أن يكون إبهاما من كلام القرآن على عادة القرآن في الترفع عما لا فائدة في تعيينه إذ المقصود أنهم أشهدوا الله على أنهم إن جاءهم رسول يكونوا أسبق من غيرهم اهتداء فإذا هم لم يشمموا رائحة الاهتداء. ويحتمل أن يكون فريق من المشركين نظروا في قسمهم بهدي اليهود، وفريق نظروا بهدي النصارى، وفريق بهدي الصائبة، فجمعت عبارة القرآن ذلك بقوله)من إحدى الأمم(ليأتي على مقالة كل فريق مع الإيجاز.

وذكر في الكشاف وجها آخر أن يكون)إحدى الأمم(بمعنى أفضل الأمم، فيكون من تعبير المقسمين، أي أهدى من أفضل الأمم، ولكنه بناه على التنظير بما ليس له نظير، وهو قولهم إحدى الإحد بكسر الهمزة وفتح الحاء في الإحد ولا يتم التنظير لأن قولهم: إحدى الإحد، جرى مجرى المثل في استعظام الأمر في الشر أو الخير. وقرينة إرادة الاستعظام إضافة)إحدى(إلى اسم من لفظها فلا يقتضي أنه معنى يراد في حالة تجرد إحدى عن الإضافة.

وبين:)أهدى(و)إحدى(الجناس المحرف.

وهذه الآية وغيرها وما يؤثر من تنصر بعض العرب ومن اتساع بعضهم في التحنف يدل على أنهم كانوا يعلمون رسالة الرسل، وأما ما حكي عنهم في قوله تعالى)وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء(، فذلك صدر منهم في الملاجة والمحاجة لما لزمتهم الحجة بأن الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من البشر وكانت أحوالهم أحوال البشر مثل قوله تعالى)وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام

ويمشون في الأسواق(فلجأوا إلى إنكار أن يوحي الله إلى بشر شيئا.
وأما ما حكي عنهم هنا فهو شأنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.
والنذير: المنذر بكلامه. فالمعنى: فلما جاءهم رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن جاءهم رسول قبله كما قال تعالى)لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك(وهذا غير القسم المحكي في قوله تعالى)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها(.
والزيادة: أصلها نماء وتوفر في ذوات. وقد يراد بها القوة في الصفات على وجه الاستعارة كقوله تعالى)فزادتهم رجس إلى رجسهم(. ومن ثمة تطلق الزيادة أيضا على طرو حال على حال، أو تغيير حال إلى غيره كقوله تعالى)فلن نزيدكم إلا عذابا(.
وتطلق على ما يطرأ من الخير على الإنسان وإن لم يكن نوعه عنده من قبل كقوله تعالى)للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(، أي وعطاء يزيد في خيرهم.
ولما كان مجيء الرسول يقتضي تغيير أحوال المرسل إليهم إلى ما هو أحسن كان الظن بهم لما أقسموا قسمهم ذلك أنهم إذا جاءهم النذير اهتدوا وازدادوا من الخير أن كانوا على شأن من الخير فإن البشر لا يخلو من جانب من الخير قوي أو ضعيف فإذا بهم صاروا نافرين من الدين الذي جاءهم.
والاستثناء مفرغ من مفعول)زادهم(المحذوف، أي ما أفادهم صلاحا وحالا أو نحو ذلك إلا نفورا فيكون الاستثناء في قوله)إلا نفورا(من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لأنهم لم يكونوا نافرين من قبل.
ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما أقسموا: لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى كان حالهم حال النفور من قبل دعوة النصارى إياهم إلى دينهم أو من الاتعاظ بمواعظ اليهود في تقبيح الشرك فأقسموا ذلك القسم تفصيا من المجادلة، وباعثهم عليه النفور من مفارقة الشرك، فلما جاءهم الرسول ما زادهم شيئا وإنما زادهم نفورا،فالزيادة بمعنى التغيير والاستثناء تأكيد للشيء بما يشبه ضده. والنفور هو نفورهم السابق، فالمعنى لم يزدهم شيئا وحالهم هي هي.

صفحة : 3500

وضمير)زادهم(عائد إلى رسول أول إلى المجيء المأخوذ من) جاءهم(. وإسناد الزيادة إليه على كلا الاعتبارين مجاز عقلي لأن

الرسول أو مجيئه ليس هو يزيدهم ولكنه سبب تقوية نفورهم أو استمرار نفورهم.
و)استكبارا(بدل اشتمال من)نفورا(أو مفعول لأجله، لأن النفور في معنى الفعل فصح إعماله في المفعول له. والتقدير:نفروا لأجل الاستكبار في الأرض.
والاستكبار: شدة التكبر، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب.
والأرض: موطن القوم كما في قوله تعالى)لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا(أي بلدنا، فالتعريف في)الأرض(للعهد.
والمعنى: أنهم استكبروا في قومهم أن يتبعوا واحدا منهم.
و)مكر السيء(عطف على)استكبارا(بالوجوه الثلاثة، وإضافة)مكر(إلى)السيء(من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل: عشاء الآخرة.
وأصله: أن يمكروا المكر السيء بقرينة قوله)ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(.
والمكر: إخفاء الأذى وهو سيء لأنه من الغدر وهو مناف للخلق الكريم، فوصفه بالسيء وصف كاشف، ولعل التنبيه إلى أنه وصف كاشف هو مقتضى إضافة الموصوف إلى الوصف لإظهار ملازمة الوصف للموصوف فلم يقل: ومكروا سيئا)ولم يرخص في المكر إلا في الحرب لأنها مدخول فيها على مثله(أي مكرا بالنذير وأتباعه وهو مكر ذميم لأنه مقابلة المتسبب في صلاحهم بإضمار ضره.
وقد تبين كذبهم في قسمهم إذ قالوا)لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى منهم(وأنهم ما أرادوا به إلا التفصي من اللوم.
وجملة)ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(تذييل أو موعظة. ويحيق: ينزل بشيء مكروه حاق به، أي نزل وأحاط إحاطة سوء، أي لا يقع أثره إلا على أهله. وفيه حذف مضاف تقديره: ضر المكر السيء أو سوء المكر السيء كما دل عليه فعل)يحيق(، فإن كان التعريف في)المكر(للجنس كان المراد ب)أهله(كل ماكر. وهذا هو الأنسب بموقع الجملة ومحملها على التذييل ليعم كل مكر وكل ماكر، فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين، فيكون القصر الذي في الجملة قصرا ادعائيا مبنيا على عدم الاعتداد بالضر القليل الذي يحيق بالممكور به بالنسبة لما أعده الله للماكر في قدره من ملاقاة جزائه على مكره فيكون ذلك من النواميس التي قدرها القدر لنظام هذا العالم لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضا تنكر بعضهم لبعض وتبادروا الإضرار والإهلاك ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا

حيث تأذن شرائعه بشيء، ولهذا قيل في المثل وما ظالم إلا سيبلى بظالم . قال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنـسـه حتى الحديد سطا عليه المبرد وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله تعالى)والله لا يحب الفساد(. وفي كتاب ابن المبارك في الزهد بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تمكر ولا تعن ماكرا فإن الله يقول)ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(، ومن كلام العرب من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا، ومن كلام عامة أهل تونس يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك .

وإذا كان تعريف)المكر(تعريف العهد كان المعنى: ولا يحيق هذا المكر إلا بأهله، أي الذين جاءهم النذير فازدادوا نفورا، فيكون موقع قوله)ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله(موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله صلى الله عليه وسلم مكرهم ويحيق ضر مكرهم بهم بأن يسلط عليهم رسوله على غفلة منهم كما كان يوم بدر ويوم الفتح،فيكون على نحو قوله تعالى)ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(فالقصر حقيقي.

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية ومعجزات قرآنية ومعجزات نبوية خفية.